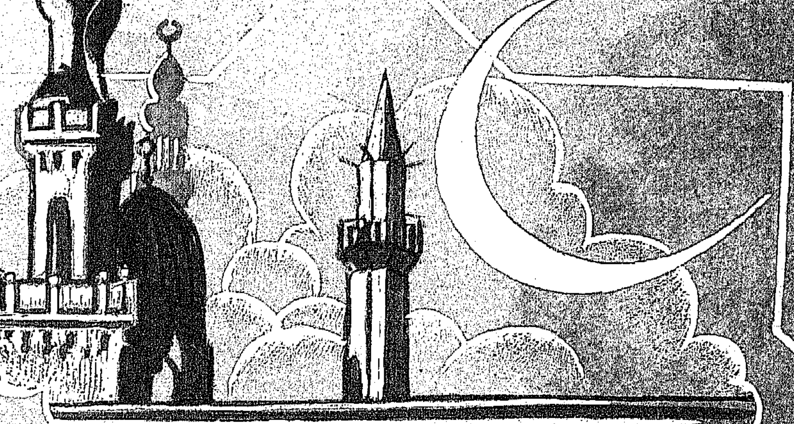
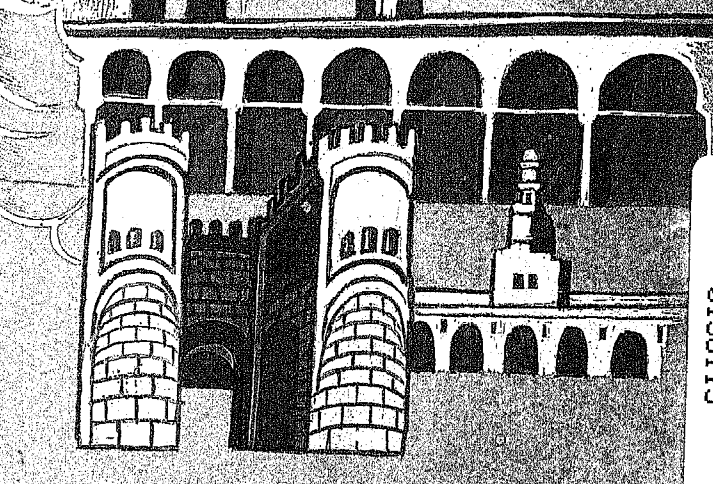
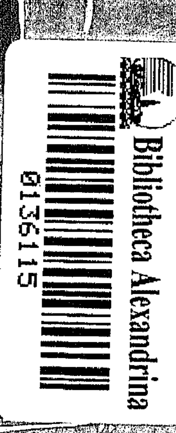
تاريخ وآثار مصر الإسلامية

الدكتور أحمد عبد الرازق أحمد







دار الفكر العربي



تاريخ وآثار مصر الإسلامية

من الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي

الدكتور أحمد عبد الرازق أحمد
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة عين شمس
الحائز لجائزة الدولة فى التاريخ عام ١٩٨١

١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٩٦٢ أحمد عبد الرارق أحمد

أ ح ت ا تاريخ وآثار مصر الإسلامية: منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى/ أحمد عبد الرازق أحمد. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٩٩.

٣٠٤ ص: إيض؛ ٢٤ سم

بليوجرافية: ص ٢٧١ ـ ٢٨٦

يشتمل على ثبت باللوحات

تدمك: ٣ ـ ٠٥٨٦ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.

١ ـ مصر ـ الآثار الإسلامية ٢ ـ مصر ـ تاريخ.

رقم الإيداع	٤٢٨٥ / ١٩٩٣
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 - 0586 - 3

« ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى
أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع الصنائع»

مقدمة

ابن خلدون

محتويات الكتاب

الفصل الخامس
منشآت عصر الولاة المعمارية

الفصل السادس
الدولة الطولونية

الفصل السابع
آثار الدولة الطولونية

الفصل الثامن
الدولة الإخشيدية

الفصل التاسع
الدولة الفاطمية

الفصل العاشر
آثار الدولة الفاطمية

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

منذ أن خرجت علينا سلسلة الألف كتاب التى كانت تصدر بمعاونة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، بمجموعة الكتب القيمة التى تتناول تاريخ مصر الإسلامية مثل: كتابى مصر فى فجر الإسلام، ومصر فى عصر الولاة للأستاذة الدكتورة سيدة كاشف، وكتاب مصر فى عصر الطولونيين، للأستاذ الدكتور حسن محمود، وكتاب مصر فى عصر الإخشيديين للأستاذة الدكتورة سيدة كاشف، وكتاب مصر فى عصر الفاطميين للمرحوم جمال الدين سرور، وكتاب مصر فى عصر الأيوبيين للمرحوم الباز العرينى، وكتاب مصر فى عصر المماليك البحرية، للأستاذ الدكتور سعيد عاشور، وكتاب مصر فى عصر المماليك الجراكسة، للأستاذ الدكتور إبراهيم طرخان، وكذا موسوعة تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثانى، الذى وضعه نخبة من المؤرخين العظام نذكر من بينهم المرحوم محمد مصطفى زيادة، والمرحوم جمال الدين الشيال، والمرحوم محمد عبد العزيز مرزوق، والأستاذ الدكتور حسين مؤنس، والتى نفدت طبعاتها منذ زمن طويل.

منذ ذلك الوقت لم تحظ المكتبة العربية بكتاب جامع يتناول فى أسلوب مبسط تاريخ وآثار مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر المملوكى سوى الموسوعة المصرية التى أصدرتها مؤخرا الهيئة العامة للاستعلامات وخصصت الجزء الثانى منها لتاريخ وآثار مصر الإسلامية وهو سفر ضخم يستحق التقدير إلا أنه بكل أسف ليس فى متناول أيدى أبناء هذا الجيل بسبب ارتفاع ثمنه، وياليت هيئة الاستعلامات قد عمدت إلى إصدار طبعة شعبية رخيصة التكلفة لتخدم الهدف الذى من أجله وضعت هذه الموسوعة الثقافية الضخمة.

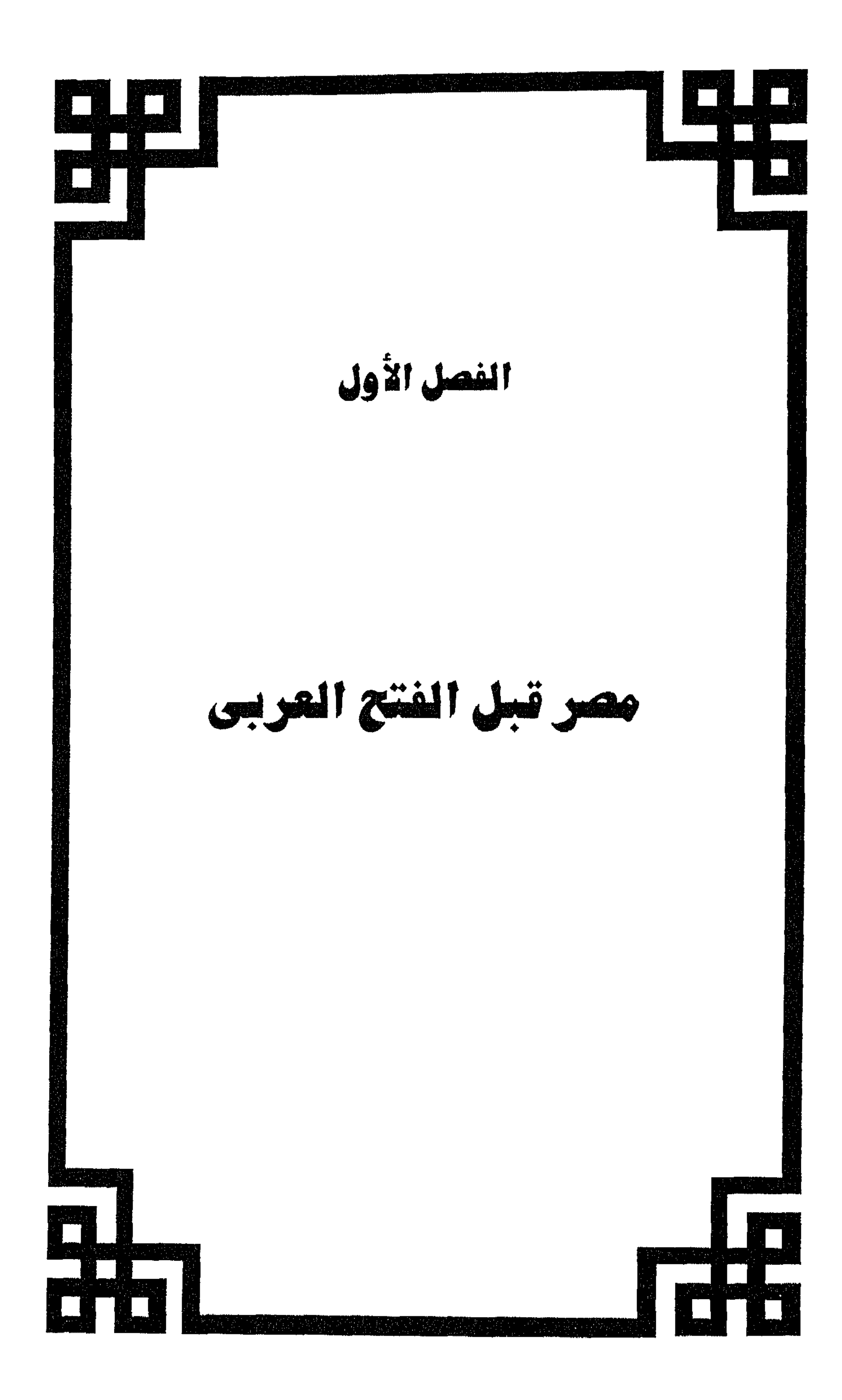
على أى حال كان من الضرورى التفكير فى أبناء هذا الجيل خاصة بعد أن لمسنا مدى حاجتهم إلى مؤلف شامل ومبسط عن تاريخ وآثار مصر الإسلامية. بيد أن طول هذه الفترة الزمنية وكثرة الآثار التى وصلتنا منها حتمت علينا أن نقدم هذا العمل فى جزأين خصص الأول منهما للفترة منذ الفتح حتى نهاية العصر الفاطمى والثانى للفترتين الأيوبية والمملوكية.

ويقع الجزء الأول فى عشرة فصول، خصص الأول منها للحديث عن أوضاع مصر قبل الفتح العربى لها والأسباب التى مهدت لهذا الفتح. والفصل الثانى لمراحل الفتح العربى لمصر وما صاحبه من أحداث انتهت بدخول مصر تحت لواء الإسلام. والفصل الثالث لنظم الحكم فى عصر الولاة، والفصل الرابع لكيفية انتشار الإسلام واللغة العربية. والفصل الخامس لمنشآت عصر الولاة المعمارية. أما الفصل السادس فقد خصص لاستعراض أهم أحداث الدولة الطولونية، والفصل السابع لآثار هذه الدولة، والفصل الثامن لتاريخ الدولة الإخشيدية، والفصل التاسع لتاريخ الدولة الفاطمية والعاشر لأهم الآثار التى وصلتنا من عصر هذه الدولة التى حكمت مصر زهاء قرنين وبضع سنوات.

وقد حرصنا على تذييل هذه الدراسة بالعديد من الرسوم التوضيحية والصور الفتوغرافية لأهم الآثار الإسلامية التى تعرضنا لها فى هذا الجزء الذى ذيلناه أيضا بثبت لأهم المصادر والمراجع العربية والأجنبية التى استعنا بها فى هذه الدراسة فعسى أن نكون قد وفقنا فيما قد أخذنا على عاتقنا القيام به والله الموفق.

أحمد عبد الرازق أحمد

المعادى فى مارس ١٩٩٣



الفصل الأول

مصر قبل الفتح العربى

من المعروف أن مصر كانت فى بادئ الأمر إحدى الولايات التابعة للدولة الرومانية وذلك منذ انتصار أغسطس قيصر على كليوباترا فى موقعة أكتيوم الشهيرة فى سبتمبر سنة ٣١ ق. م[١] حيث تم له بعد ذلك الاستيلاء عليها نهائيا فى العام التالى. ومن المعروف أيضا أنها صارت منذ القرن السابع الميلادى جزءا من الدولة البيزنطية التى رغم الإصلاحات التى قامت بها داخل مصر إلا أن البلاد ظلت فريسة للتدهور والانحلال لأن الإصلاحات البيزنطية كانت بهدف تنظيم استغلال مصر حتى يعم النفع على الدولة نفسها لا على المصريين أصحاب البلاد الأصليين. لذلك لا عجب أن صارت مصر أكثر الولايات البيزنطية استعدادا لقبول الإسلام والدخول فى حوزة العرب لأسباب عديدة يمكننا أن نجملها فى النقاط الرئيسية التالية:

الأسباب الدينية:

كانت المشاكل الدينية قبل الفتح العربى غاية فى التعقيد وخاصة بعد أن تسربت المسيحية إلى داخل البلاد فى القرن الأول الميلادى، وأخذت فى الانتشار تدريجيا فى جميع أنحاء مصر اعتبارا من القرن الثانى الميلادى، وكان طبيعيا أن تلقى هذه الديانة الجديدة العداء من أباطرة الدولة البيزنطية الوثنيين الذين عمدوا إلى اضطهاد مسيحيى مصر اعتبارا من حكم الإمبراطور سفيروس (١٩٣ - ٢١١م) الذى قام بحملة اضطهاد واسعة النطاق فى غضون سنة ٢٠٢م ضد كل من يعتنق الدين المسيحى[٢]، بل وعهد بعض الأباطرة مثل الإمبراطور ديكيوس (٢٤٩ - ٢٥١م) إلى إلزام المصريين فى سنة ٢٥٠م بضرورة الحصول على شهادة تثبت قيامهم بتقديم القرابين إلى الآلهة الوثنية[٣]. وهكذا ظلت المسيحية منذ تسربها إلى مصر تلقى اضطهادا كثيرا وتسامحا قليلا حتى ولى عرش الإمبراطورية دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م) الذى بلغ اضطهاد المسيحيين على عهده أقصاه بدليل أن الكنيسة القبطية بدأت تقويمها المعروف بتقويم الشهداء بالسنة الأولى من حكم دقلديانوس أى بسنة ٢٨٤م وذلك نتيجة لقسوة هذا الاضطهاد[٤]. وبمرور الوقت استطاعت

١- إبراهيم نصحى، مصر فى عصر الرومان، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثانى، القاهرة (بدون تاريخ)، ص ١١٠.

٢- رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، قسطنطين، القاهرة ١٩٨٢، جـ٢، ص ٣٤.

٣- هـ. ا يدرس بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، ترجمة عبد اللطيف أحمد على، محمد عواد حسين القاهرة ١٩٤٥، ص ١٧٣.

٤- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الولاة من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية، القاهرة (بدون تاريخ)، ص ٨ - ٩.

المسيحية أن تحرز بعض النصر ولاسيما بعد أن اعترف بها الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣ - ٣٣٧م) كأحد الأديان المسموح بممارستها داخل الإمبراطورية البيزنطية(٥) ثم اعقبت هذا النصر بنصر آخر بعد أن اتخذها الإمبراطور تيودوسيوس الأول (٣٧٩ - ٣٩٥م) دينا رسميا للدولة وأصدر مرسوما إمبراطوريا بذلك فى فبراير سنة ٣٨٠م، ويناير ٣٨١م وأعقبهما بآخرين فى سنتى ٣٩١ ، ٣٩٢م حرم فيهما ممارسة العبادات الوثنية على الإطلاق(٦).

بيد أن مصر لم تكن لتنعم طويلا بمسيحيتها إذ سرعان ماثار الجدل والنزاع بين المسيحيين أنفسهم حول صفات المسيح وطبيعته، وكان طبيعيا أن يتدخل الأباطرة لفض هذه المشاحنات الدينية عن طريق عقد المجامع الدينية التى بلغت أقصاها حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى بعد أن احتدم النزاع بين كنيستى الإسكندرية والقسطنطينية، إذ ذهبت الكنيسة المصرية إلى المناداة بأن للمسيح طبيعة واحدة (المونوفيزت)، على حين أشارت كنيسة القسطنطينية بأن للمسيح طبيعتين(٧). لذلك دعا الإمبراطور مركيان (٤٥٠ - ٤٥٧م) إلى عقد مجمع دينى فى خلقدونية بآسيا الصغرى فى سنة ٤٥١م انتهى إلى إقرار مذهب الطبيعتين واعتبر مذهب الطبيعة الواحدة كفراً وخروجا على الدين الصحيح(٨)، كما قرر أيضا حرمان ديسقورس بطرك الإسكندرية من الكنيسة مما أفضى إلى اتخاذ الخلاف الدينى فى مصر شكلا قوميا إذ رفض ديسقورس ومسيحيو مصر ما أقره مجمع خلقدونية وأطلقوا على أنفسهم اسم الارثوذكس أى أتباع الديانة الصحيحة، وعرفوا أيضا باسم اليعاقبة نسبة إلى يعقوب البرادعى أسقف مدينة الرها فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى الذى زار مصر ضمن بلاد الشرق لتنظيم كنائسها المونوفيزتية، أما أتباع الكنيسة البيزنطية فقد عرفوا بعد الفتح العربى باسم الملكانيين من كلمة ملك العربية وذلك لاعتناقهم المذهب الملكى أو الإمبراطورى الذى ينادى بالطبيعتين. وعاد المصريون إلى التعرض من جديد لحركة اضطهاد واسعة النطاق من قبل الحكومة البيزنطية التى سعت

٥- C. N . Cochrance, Christianity and Classical Culture, Oxford,1940, p.178.

٦- رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، ثيودوسيوس وأمبرون، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١١٣، ١٢٠، ١٣٩، ١٤٠.

٧- وهيب عطا الله جرجس، تعليم كنيسة الإسكندرية فيما يختص بطبيعة السيد المسيح، القاهرة ١٩٦١، ص ١٥ - ١٦ ؛ إسحق عبيد، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، مع دراسة فى مدينة الله، القاهرة ١٩٧٢، ص ٨٨.

٨- A.A. Vasiliev, History of Byzantine Empire, Madison, 1961, I, pp104-106-

على إجبار المصريين على اعتناق المذهب الإمبراطورى، وجرت أحداث كبيرة واضطهادات كثيرة تحملها المصريون بالمقاومة الإيجابية أحيانا، وبالهرب إلى المعابد والأديرة وبهجر المزارع والقرى أحيانا أخرى(٩) إلى أن تمكن هرقل من الثورة ضد الإمبراطور فوكاس (٦٠٢ - ٦١٠م) وساعد المصريين قائدة نيكيتاس الذى وكل إليه هرقل الاستيلاء على مصر لقطع الغلة عن القسطنطينية وتم تتويج هرقل إمبراطورا فى سنة ٦١٠م ورحب المصريون بمقدم جنده على أمل أن يكون حكم هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) أخف وطأة من حكم من سبقه من الأباطرة، ولعلهم كانوا يعتقدون أيضا أن عهده سيكون نهاية للاضطهادات وسفك الدماء التى طالما عانوا منها، بيد أن الفرس سرعان ما نجحوا فى غزو مصر فى سنة ٦١٦م(١٠) وذلك فى عهد ملكهم كسرى الثانى حيث نعم المصريون طوال مدة حكمهم الذى امتد إلى سنة ٦٢٩م بالحرية الدينية عين أثناءها البطرك بنيامين على كنيسة الإسكندرية ودان لسلطانه الروحى أهل البلاد بعد أن أعاد للكنيسة المصرية مركزها وعاش فى الإسكندرية هادئا مطمئنا إلى أن تمكن هرقل من طرد الفرس فى سنة ٦٢٩م واستعاد من جديد أملاك الدولة البيزنطية(١١). وكما عمل هرقل على إنقاذ الدولة البيزنطية من الفرس، عمل أيضا على إنقاذها من الخلافات الدينية حول طبيعة المسيح، ولذلك أصدر صورة توفيق Mono Thelma تقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام فى طبيعة المسيح وصفته وأن يعترفوا جميعا بأن له إرادة واحدة(١٢). وغاب على هرقل أن أهل مصر لن يقبلوا المذهب الجديد، ومن ثم فقد عاد الاضطهاد الدينى بكل قسوته وعنفه حيث قضى المصريون ما يقرب من عشر سنوات وهى المدة التى مرت بين طرد الفرس ودخول العرب، تحت الإرهاب والبطش الذى سلطه الحاكم البيزنطى قيرس، المعروف عند مؤرخى العرب باسم المقوقس، والذى أرسله هرقل سنة ٦٣١م إلى مصر ليكون على رأس السلطتين الدينية والسياسية بها مما اضطر البطرك بنيامين إلى الهرب فى الصحراء والاختفاء تماما توقعا لما سيحل به وبطائفته من الشدائد حتى دخل العرب مصر(١٣). وقد عمل قيرس بكل وسائل الترغيب والترهيب لضم المصريين إلى مذهب الدولة إلا أن أغلب المصريين

٩- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الولاة، ص ٩ - ١٠.

١٠- بل، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، ص ٢٥٣.

١١- الباز العرينى، الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٦٠، ص ١١٣؛ أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى بدر، القاهرة ١٩٥٣، ص ١٠٥ - ١٠٦ ؛ حسنين محمد ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٨٣، ص ٦٣.

١٢- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الولاة، ص ١٠.

١٣- إبراهيم نصحى، مصر فى عصر الرومان، ص ٢٢٥.

ثبتوا على مذهبهم ولم يزدهم الإرهاب إلا تمسكا بعقيدتهم فيما عدا فئة قليلة ممن لم يستطيعوا الهرب، اعتنقت مذهب الدولة، وعبثا حاول هرقل من جديد رتق الصدع ولم شمل رعاياه فى وحدة دينية، إلا أن الأمر بدا واضحا أن مصر قد انفصمت تماما من الناحية الروحية عن الدولة البيزنطية، وتطورت المسألة الدينية إلى مسألة قومية بعد أن قطع سيف قيرس آخر ما كان يربط المصريين بالدولة البيزنطية من مظاهر الولاء(١٤).

الأسباب الاقتصادية:

كذلك كانت النواحى الاقتصادية أكثر سوءا، فمن الواضح أن مصر كانت بالنسبة للدولة البيزنطية بمثابة سلة الخبز التى تمد الدولة بالمؤن اللازمة، ولذلك حرص البيزنطيون على أن يكون النظام الإدارى والاقتصادى فى مصر فى خدمة هذا الغرض، فقد كانت العلاقة بين مصر والقسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية مادية بحتة، إذ لم يكن يعنى الدولة البيزنطية إلا ما ترسله مصر من غلال وأموال حيث ابتكروا الوسائل لاستغلال موارد البلاد إلى أبعد الحدود. وأثقلت الضرائب كواهل المصريين من فلاحين فى الوقت الذى أعفى منها كبار الملاك مما أثار شكوى الفلاحين وتذمرهم، بل ودفعتهم المظالم الكثيرة التى تعرضوا لها أثناء جباية الأموال إلى السعى لوضع أنفسهم تحت حماية أمير من الأمراء، وهو ما يعرف بنظام الحماية، ولكن ذلك كان أشبه بمن يلقى بنفسه فى النهر هربا من الأسد فيتلقفه التمساح(١٥)، إذ بمضى الزمن أصبحت الأرض ملكا للأمير الذى وضع الفلاح نفسه تحت حمايته، وتحول الفلاح من مالك إلى قن أو أجير لهذا الأمير، وتكونت بذلك الإقطاعات الكبيرة الموزعة بين عدد من الأسر الغنية القوية، وأصبحت البلاد فى القرن السابع الميلادى تحت نظام أشبه بالنظام الإقطاعى. كذلك عمل التقسيم الإدارى لمصر إبان هذه الفترة على إضعاف سلطة الدولة بها، فقد كانت مصر مقسمة إلى خمسة أقسام إدارية كبرى هى:

- الإسكندرية، وهى أهم هذه الاقسام وترتبط بالدولة البيزنطية ارتباطا وثيقا، وكان يقيم فيها الحاكم البيزنطى.
- شرق الدلتا.
- غرب الدلتا وكان يسمى بليبيا.

١٤- G.Wiet, L' Egypte musulmane, Le Caire, 1932, p.116.

١٥- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٧٠، جـ١ ص٢.

- مصر الوسطى ويدخل فيها إقليم الفيوم.

- مصر العليا وكانت تمتد حتى آخر حدود مصر الجنوبية[١٦].

وكان يحكم كل إقليم أمير يعرف فى المصطلح البيزنطى باسم الدوق[١٧] . وكان يكاد أن يكون مستقلا بإقليمه ويجمع بين يديه السلطتين المدنية والعسكرية، بل ويعتبر الرئيس الأعلى للإدارة والقضاء والشرطة، ومن الواضح أن الهدف الأساسى من وراء هذا التقسيم هو إضعاف مقاومة أهل البلاد من المصريين والمحافظة على الأمن والنظام فى البلاد، مما أفضى فى النهاية إلى فصم الوحدة الإدارية فى البلاد وعمل على إضعافها.

الأسباب العسكرية:

وقد ترتب على هذا التقسيم الإدارى لمصر تحت حكم الدولة البيزنطية أن أصبح لكل إقليم جيشه الخاص الذى يخضع لسلطة الدوق، وهذا يعنى أن جيش مصر كان جيشا إقليميا مهمته الدفاع عن الجهات التى يرابط فيها، وكان جنوده بالتالى مرتبطين بالإقليم المقيمين به، وكان معظمهم من المصريين المجندين بعد أن قامت الدولة البيزنطية بتغيير سياستها التى اتبعتها فى أول الأمر وهى عدم تجنيد المصريين فى الجيش، إذ تشير أوراق البردى على أن معظم الجنود فى هذا الجيش قبيل الفتح العربى كانوا من المصريين وأنهم كانوا يجندون إما بالاقتراع أو بالتطوع أو بالوراثة. كذلك لم يكن لهذا الجيش من الصفات العسكرية إلا حظ ضئيل بعد أن أغفل التدريب العسكرى ونشر روح النظام بين الجنود بدليل اتخاذ أفراد الجيش لأنفسهم مهنا وحرفا إلى جانب مهنة الحرب. إذ يفهم من الوثائق البردية أنه كان يسمح لهم بالاشتغال بالزراعة أو التجارة، كما كانوا يعملون بالقرب من بلادهم. كذلك كانت مهمة أفراد الجيش الرئيسية هى مساعدة الموظفين فى أعمالهم، والقضاء على قطاع الطرق، وإخماد الثورات الدينية، والاشتراك فى جباية الضرائب[١٨]. لذلك كان من الطبيعى أن يشارك أفراد هذا الجيش أهل البلاد من المصريين فيما يحسون من آلام وفى كراهيتهم للبيزنطيين. ولذا فقد كانت تعوزه الوحدة والانسجام رغم أنه كان تحت رئاسة «سيد جند الشرق» ومقره القسطنطينية، مع هذا فلم يكن قائد أعلى فى مصر بل كان يخضع لخمسة قواد كلهم على قدم المساواة كما سبق أن أشرنا

١٦- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الولاة، ص ١٣.

١٧- بل، مصر من الإسكندر، ص ٢٣٩.

١٨- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الولاة، ص ١٩.

من قبل، لذلك عندما جاء العرب فاتحين لمصر لم يقاتلوا جيشا موحدا، بل كان جيش كل إقليم ينتظر ظهور العرب فى إقليمهم ليدافعوه[١٩].

الأسباب الاجتماعية:

ومن العوامل التى عجلت أيضا بالقضاء على الحكم البيزنطى فى مصر ومهدت السبيل للفتح العربى الظروف الاجتماعية التى كان يمر بها أهل البلاد من المصريين، فقد كانت الإسكندرية وبقية أجزاء البلاد على طرفى نقيض. فالإسكندرية كانت بمثابة مدينة يونانية أجنبية عن مصر، لدرجة أن سكان البلاد من المصريين كانوا يعدون التوجه إليها رحيلا عن مصر وخروجا منها، إذ اشتهرت هذه المدينة بالبذخ والثراء[٢٠] على العكس من بقية أجزاء البلاد التى كانت بمثابة أقاليم زراعية تتقاسم فيها أسر قوية، على حين أصبح الفلاح قنًّا، كما سبق أن نوهنا من قبل، تحت حماية الملاك الأقوياء الذين ابتزوا أموال البلاد دون أى محاولة من جانبهم لتوفير الرفاهية للرعية أو إصلاح الأمور بالبلاد لذلك كان الحكم حكم غرباء لا يعتمد إلا على القوة، ولا يحس بالعطف على الشعب المحكوم[٢١]. وكانت السلطات البيزنطية تفرض قبضتها القوية على الإسكندرية عاصمة البلاد ومنف وحصن بابليون وبعض المدن الحصينة الأخرى، وكان رجال الجيش ينتشرون فى كل مكان إلى جانب جباة الضرائب لجمع الأموال بالقوة ولإظهار هيبة السلطة الحاكمة، فى الوقت الذى كان ينعم فيه تجار الروم واليهود حيثما يحلون بحماية هؤلاء الجند، منافسين بذلك التجار المصريين منافسة شديدة.

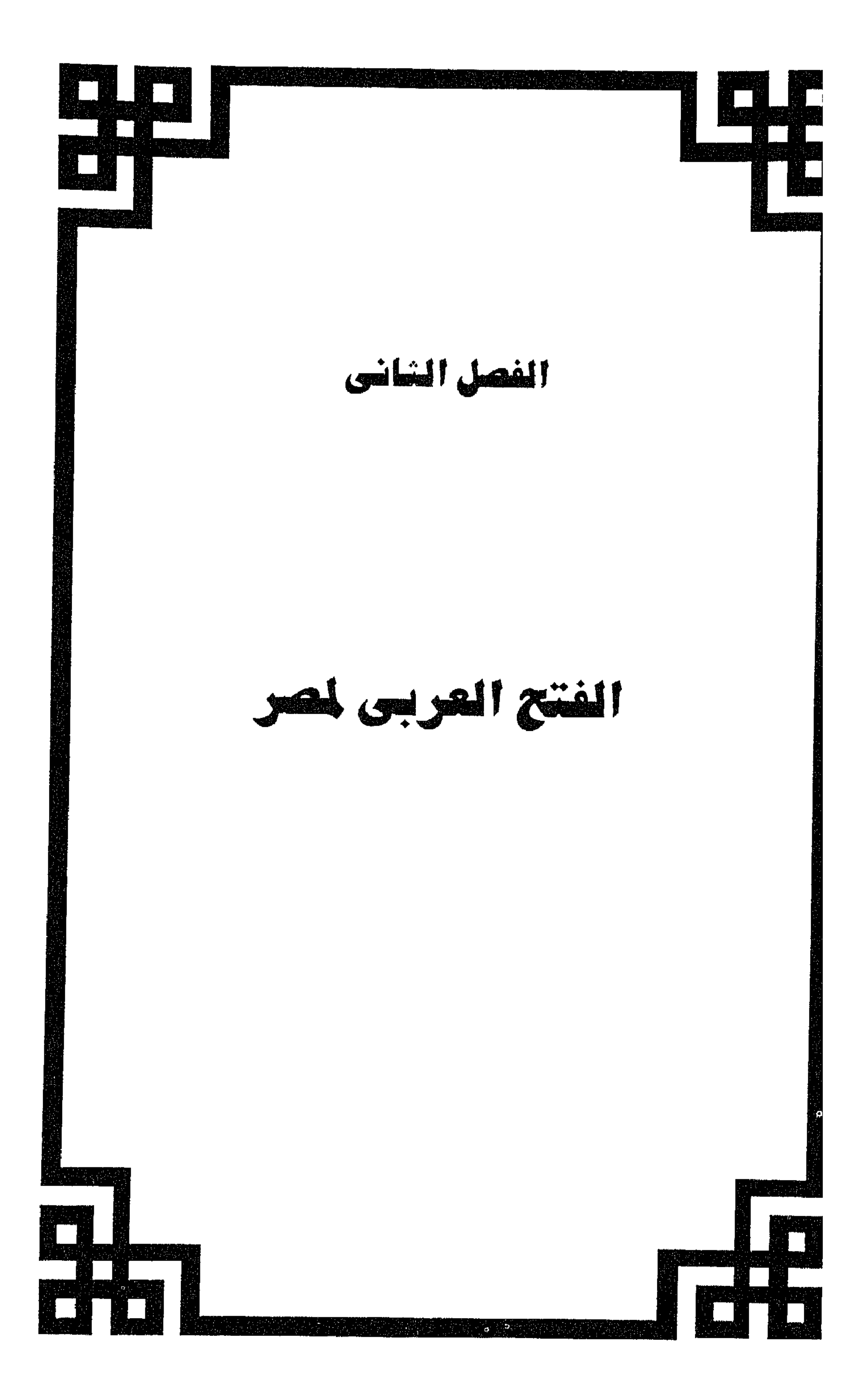
وهكذا تعاونت كل هذه الأسباب جميعا على إضعاف مصر فأهملت الأرض وبارت التجارة وانتشر القحط فى أنحاء البلاد، ومع هذا فقد صحب هذا التدهور والانحلال يقظة الروح القومية بين المصريين، وقد تجلت آثار هذه اليقظة فى ازدهار اللغة القبطية بل ومزاحمتها للغة اليونانية[٢٢]، كما هيأت هذه الأسباب البلاد فى أوائل القرن السابع الميلادى لهذا الحدث العظيم ولطفرة جديدة بالبلاد، ونعنى بها الفتح العربى الإسلامى لمصر، وانتقال السلطة من أيدى البيزنطيين إلى أيدى العرب. فكيف كان ذلك، وما هى الأسباب الرئيسية لفتح مصر؟.

١٩- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٤.

٢٠- R.L. Devonshire, L' Egypte musulmane et les fondateurs de ses monuments, Le Caire, 1982, p.18.

٢١- بل، مصر من الإسكندر، ص ٢٤٤ - ٢٤٦.

٢٢- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٥.



الفصل الثانى

الفتح العربى لمصر

اختلفت الآراء وتعددت الأسباب فى فتح مصر، فقد روى بعض المؤرخين أن عمرو ابن العاص أشار على الخليفة عمر بن الخطاب بعد الاستيلاء على بيت المقدس فى سنة ١٧هـ / ٦٣٨م بضرورة فتح مصر(١)، بيد أن الوقت لم يكن ملائما لذلك مما دفع عمرو بن العاص إلى معاودة عرض الفكرة من جديد على الخليفة فى خريف العام التالى سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م عند حضوره إلى الشام لتسلم بيت المقدس من بطركها صفرونيوس وذلك فى الجابية إحدى القرى القريبة من دمشق(٢)، وخوفه من أن الأرطبون أو الأريطيون الحاكم البيزنطى لبيت المقدس قد لجأ إلى مصر وأخذ فى حشد الجنود بها لاستعادة بيت المقدس من أيدى العرب، لذا ينبغى الإسراع بالقضاء عليه عن طريق الاستيلاء على مصر الذى سوف يزيد من قوة المسلمين ببلاد الشام فى نفس الوقت، فأذن له الخليفة عمر بعد تردد وندب معه ثلاثة آلاف وخمسمائة أو أربعة آلاف رجل، وأمره بالمسير على أنه إذا لحقه كتاب من الخليفة يأمره بالعودة، فعليه أن يعود إذا لم يكن قد دخل حدود مصر، وإلا فليسر فى طريقه إن جاءه الكتاب بعد اجتياز الحدود(٣).

كما روى البعض الآخر أن فكرة فتح مصر ترجع إلى الخليفة عمر بن الخطاب نفسه إذ يذكر المؤرخ ابن عبد الحكم نقلا عن الليث بن سعد أن عمر كتب إلى عمرو بن العاص بعد فتح الشام ما نصه «أن اندب الناس إلى المسير معك إلى مصر، فمن خف معك فسر به، وبعث مع شريك بن عبيدة، فندبهم عمرو فأسرعوا إلى الخروج معه»(٤).

وذهب فريق ثالث إلى القول بأن عمرو بن العاص سار سرا إلى مصر دون استئذان الخليفة، فأرسل إليه عمر بن الخطاب يؤنبه ويطلب منه إذا جاءه كتابه قبل أن يجتاز حدود مصر فليرجع، وأن عمرا حبس الكتاب ولم يفتحه إلا بعد أن دخل حدود مصر، لأنه كان يعلم مسبقا بما فيه(٥).

١- ابن عبد الحكم، كتاب فتوح مصر وأخبارها، عنى بنشره وتصحيحه هنرى ماسيه، القاهرة ١٩١٤، ص٥١.

٢- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٩.

٣- المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ، جـ١، ص ٢٨٨.

٤- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٥٢؛ البلاذرى، كتاب فتوح البلدان، ليدن ١٨٦٦، ص ٢١٢؛ سعيد بن بطريق المعروف باوتيخا، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ١٩٠٥ ، ١٩٠٩، جـ٢، ص١٩.

٥- البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٢١٢؛ الكندى، كتاب الولاة وكتاب القضاة، بيروت ١٩٠٨، ص ٧ - ٨؛ المقريزى، الخطط، جـ١ ص ٢٨٨.

بيد أننا لا نستطيع أن نسلم بمثل هذه المزاعم لأن عملا مثل فتح مصر لا يمكن أن يتم بدون اقتناع تام من قبل الخليفة، وخاصة أن العرب فى ذلك الحين كانوا قد أزالوا تقريبا ملك الأكاسرة فى فارس عقب انتصارهم فى موقعة القادسية فى أواخر سنة ١٦هـ/ ٦٣٧م واستيلائهم على عاصمتهم المدائن، ونجحوا فى الاستيلاء أيضا على بلاد الشام وفلسطين، وكانت الضرورة الحربية تحتم عليهم فتح مصر لتأمين فتوحاتهم فى الشام، وكذا حماية المدينة نفسها مركز الخلافة لأنها قريبة من القلزم ولا يبعد أن يرسل الروم حملة من تلك الناحية تنتقم لما حل بممتلكاتها فى الشام. يضاف إلى هذا أن مصر والشام غالبا ما خضعت فى العصور المختلفة لقيادة موحدة لأن كليهما يتمم الآخر ومن الصعب فى الواقع اعتبار الحدود بين البلدين حدا منيعا فاصلا، هذا عدا أن كلا من البلدين كان يقع على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب وكانت تربطهما مصالح تجارية وحربية واحدة(٦).

ويجب علينا أيضا ألا نغفل أن العرب كانوا على علم تام بثراء مصر وخصبها، خصوصا وقد جاء إليها كثير منهم للاتجار فى أيام الجاهلية مثل عمرو بن العاص(٧) وعثمان بن عفان(٨) والمغيرة بن شعبة(٩)، ولا يبعد أن كثيرا من الأعراب والتجار العرب كانوا يفدون إلى الصعيد عن طريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية بدليل أن المؤرخ والجغرافى إسترابون ذكر أن مدينة قفط من صعيد مصر تعتبر نصف عربية(١٠).

وكان العرب أيضا على يقين تام من معاناة أهل مصر من الاحتلال البيزنطى والعداء الدينى بين المصريين والروم، بل كانوا يعرفون أن الأقباط من أهل مصر سيقفون على الأقل موقف الحياد بينهم وبين البيزنطيين إن لم يكونوا عونا للعرب المسلمين، ولابد أن كل ذلك كان معروفا للخليفة ولقواده قبل خوض غمار فتح مصر.

كذلك ليس من المستبعد أن يكون عمرو بن العاص هو الذى سبق إلى إبداء وجهة النظر فى ضرورة الإسراع بفتح مصر وحسنها للخليفة، ولعله سعى أيضا ليكون قائدا للحملة؛ وذلك لعلمه التام بمصر وأحوالها من جهة، وفى محاولة للحصول على ميدان جديد يظهر فيه نشاطه من جهة أخرى. ومن المرجح أيضا أن الخليفة عمر قد أرسل بالفعل إلى عمرو بن العاص كتابا يأمره فيه بضرورة العودة فى حالة عدم اجتيازه للحدود المصرية

٦- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٠.

٧- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٥٣؛ الكندى، كتاب الولاة، ص ٦ - ٧.

٨- السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، القاهرة ١٣٢٧هـ، جـ١ ، ص ٩٢.

٩- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص١٠.

١٠- Encyclopédie de Islam, art. Kibt, II, p.991.

خوفا من عدم قدرة الجيش على مواصلة السير إليها فى المدة التى اعتبرها الخليفة كافية لاجتياز الحدود حرصا منه على عدم التضحية بجيش عمرو.

خلاصة القول أن عمرو بن العاص خرج من قيسارية بفلسطين على رأس جيش صغير يتراوح ما بين أربعة آلاف مقاتل أو ثلاثة آلاف وخمسمائة[١١] فى أواخر سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م، متخذا الطريق الذى سلكه أغلب غزاة مصر، وهو طريق الصحراء الشرقية مساحلا للبحر الأبيض المتوسط، ومبتعدا فى الوقت نفسه عن فروع النيل حتى حط الرحال فى العريش التى استولى عليها فى ذى الحجة سنة ١٨هـ/ ديسمبر ٦٣٩م، واحتفل هناك بعيد الأضحى[١٢] ليواصل بعدها المسير إلى الفرما أو مدينة بلوز القديمة، شرقى بورسعيد الحالية، ومفتاح مصر من الشرق، حيث لقى هناك أول مقاومة من الجنود الروم استوقفته شهرا كاملا، ولكنه استطاع التغلب عليها فى أوائل سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م، ثم واصل السير بعد أن تم له تأمين طريق العودة فى حالة الهزيمة، حتى بلغ بلبيس فى النصف الأول من شهر المحرم سنة ١٩هـ/ يناير ٦٤٠م فحاصرها أيضا شهرا حتى تمكن من الاستيلاء عليها بعد قتال شديد مع قوات الروم خسر فيه العرب عددا ليس بالقليل، كما خسر البيزنطيون ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير[١٣]، وبذلك انفتح الطريق على مصراعيه أمام العرب إلى رأس الدلتا وحصن بابليون الذى بناه الإمبراطور تراجان[١٤] (٩٨ - ١١٧م) والمعروف فى المصادر العربية باسم قصر أو حصن الشمع[١٥]، فواصل عمرو وجيشه السير متغلبا على ما يصادفه من مقاومات حتى بلغ أم دنين، وهى قرية كانت تقع على النيل شمال حصن بابليون[١٦]. ويبدو أن الروم تنبهوا حينذاك لخطورة الموقف حيث سارع قيرس إلى حفر خندق حول حصن بابليون وعمل على تعبئة الجيوش البيزنطية به لمواجهة العرب، حيث نشب قتال شديد بين المسلمين والروم الذين تحصنوا داخل الحصن مما اضطر عمرو بن العاص إلى طلب النجدة من الخليفة عمر بن الخطاب، والتوجه إلى الفيوم انتظارا لوصول المدد[١٧]، حيث قضى فى غزوه بضعة أسابيع قدم خلالها المدد الذى بلغ

١١- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٥١؛ البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٢١٢.

١٢- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ١٠.

١٣- الفرد بتلر، فتح العرب لمصر، تعريب محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٤٦، ص ١٥٩.

١٤- Devonshire, L'Egypte musulmane, p.15.

١٥- Wict, L'Egypte musulmane, p.109.

١٦- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٨٩؛ حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٣٣٤.

١٧- الفرد بتلر، فتح العرب لمصر، ص ١٦٢ وما بعدها.

عدته أربعة آلاف رجل[١٨]، وفى قول آخر اثنا عشر ألفا[١٩] على رأسهم الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت. وبعد وصول المدد إلى عمرو تقابل مع الروم فى معركة رائعة تجلت فيها عبقرية عمرو الحربية هى معركة عين شمس التى ذكرها بتلر باسم هليوبوليس وذلك فى رجب سنة ١٩هـ/ أغسطس ٦٤٠م، وكانت خطة عمرو أن يغرى الروم بالخروج من حصن بابليون ليقاتلوه على أرض مفتوحة بعيدا عن جدران الحصن. فلما خرجت القوات البيزنطية من الحصن، سار عمرو مع معظم جيشه للقاء الروم بعد أن أرسل تحت جنح الظلام كتيبتين من جنده إحداهما إلى أم دنين، والأخرى إلى جبل المقطم قرب موضع قلعة الجبل اليوم، وأمرهما بمهاجمة مؤخرة الروم فى الوقت المناسب[٢٠]، وبعد قتال عنيف بين الفريقين دارت خلاله الدائرة على القوات البيزنطية مما اضطرهم إلى الفرار إلى داخل الحصن والتحصن بداخله من جديد[٢١] الأمر الذى دفع العرب إلى ضرب الحصار حوله بضعة أشهر ضعفت خلالها الروح المعنوية لقوات الروم، ولم يعد أمامهم سوى التفكير فى مفاوضة العرب على فك الحصار فى مقابل أن يبذلوا لهم مبلغا من المال، وقد أرسل قيرس إلى عمرو من جزيرة الروضة وفدا من بينهم أسقف بابليون الملكانى وطلبوا من عمرو أن يرسل إليهم رجلا لمفاوضتهم بيد أن عمرو رفض هذا العرض وخيرهم بين أشياء ثلاثة: الدخول فى الدين الإسلامى، أو دفع الجزية، أو القتال، ومع هذا فقد عاد قيرس إلى المفاوضة من جديد مما اضطر عمرا إلى أن يبعث إليه بوفد على رأسه عبادة ابن الصامت، الذى عرض عليه قيرس ان يبذل لكل فرد منهم دينارين، وأن يبعث إلى خليفتهم بألف دينار فى مقابل انسحاب العرب وعودتهم إلى بلادهم[٢٢]. وكان من الطبيعى أن يرفض عمرو هذا العرض، واستؤنف القتال من جديد بين الفريقين حتى سلم الروم فى النهاية صاغرين[٢٣]، ويقال أيضا أن العرب فتحوا الحصن عنوة دون أن تحدث مفاوضات

١٨- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٥٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١ ص ٢٨٩؛ Chronique de Jean eveque de Nikiou, Paris 1882, p.554.

١٩- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٥٦؛ البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٢١٣؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٨٩.

٢٠- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ١٢ - ١٣.

٢١- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٨٩.

٢٢- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٦١.

٢٣- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

وذلك بفضل بسالة الزبير بن العوام[٢٤] الذى تسور الحصن على سلم وتمكن من فتح بابه أمام العرب. ثم عقد العرب مع المصريين معاهدة عرفت باسم معاهدة بابليون الأولى فى سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م، أجازها الخليفة عمر بن الخطاب. وهذه المعاهدة كانت على درجة بالغة من الأهمية، بسبب أن بابليون كانت من أهم المراكز المصرية إن لم تكن أهمها جميعا نظرا لموقعها على رأس الدلتا، ولكونها على الطريق الموصل إلى الإسكندرية عاصمة البلاد منذ العصر الإغريقى[٢٥]، بمعنى أن بابليون كانت فى الواقع بمثابة قلب مصر وعاصمتها الحقيقية وإن كانت الإسكندرية هى العاصمة الرسمية. وبمقتضى هذه المعاهدة أصبح المصريون أهل ذمة يؤدون الجزية[٢٦]، كما نصت المعاهدة على أن قيمة الجزية تتوقف على مقدار ارتفاع أو انخفاض ماء النيل فى كل عام، وأن تدفع الجزية على ثلاثة أقساط فى السنة[٢٧]. وبالرغم من هذا الصلح فقد اشترط قيرس ضرورة موافقة الإمبراطور هرقل عليها وإلا عادت الحالة بين الروم والعرب إلى ما كانت عليه[٢٨]. وبالفعل أسرع قيرس بالسفر إلى الإسكندرية حيث بعث إلى الإمبراطور شارحا الموقف، لكن هرقل ثار على قيرس ونائبه وأرسل إليهما موبخا على تخاذلهما فى الدفاع عن البلاد، ودعا قيرس للقدوم عليه[٢٩]، وهناك فى القسطنطينية حاول قيرس أن يوضح للإمبراطور أن المقاومة ضد العرب باتت مستحيلة وأن الجزية يمكن تدبيرها عن طريق فرض ضرائب جديدة على متاجر الإسكندرية وسلعها، كما لوح للإمبراطور بأنه عرض على عمرو بن العاص أن يتزوج ابنة هرقل إيدوسيا أملا فى اعتناق عمرو للمسيحية، بيد أن هرقل أصر على موقفه واتهم قيرس بالخيانة والإهمال والجبن والكفر وعزله من منصبه وعهد به إلى عدوه اللدود حاكم القسطنطينية الذى أنزل به المهانة ونفاه من البلاد. وصدرت الأوامر إلى القوات البيزنطية بالتجمع لمحاربة العرب تلك الفئة القليلة، وألا يرضوا كالقبط أو المصريين بالذلة ودفع الجزية للعرب[٣٠]، وبالفعل تجمعت حاميات الروم بالإسكندرية لمحاربة العرب

٢٤– البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٢١٣ – ٢١٥؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٩٠؛ إبراهيم أحمد العدوى، مصر الإسلامية درع العروبة رباط الإسلام، القاهرة ١٩٩٢، ص ٤٣.

٢٥– سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ١٢.

٢٦– سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الولاة، ص١٥.

٢٧– إبراهيم أحمد العدوى، مصر الإسلامية، ص ٤٣.

٢٨– المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٩٣.

٢٩– ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٦٤ – ٦٥؛ المقريزى، الخطط جـ١، ص ٢٩٣.

٣٠– ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٦٤ – ٦٥.

المسلمين. وكان على عمرو بن العاص أن يتجه شطر الإسكندرية واستولى فى طريقه إليها على بعض المدن والمواقع الحصينة[٣١] حتى بلغها فى النهاية، وكان كل من العرب والروم يدركون مدى أهمية الإسكندرية، فالروم يعلمون علم اليقين أنه إذا ضاعت الإسكندرية، ضاعت مصر معها إلى الأبد، والعرب يعرفون بدورهم أنه إذ لم يتم الاستيلاء عليها، فلا فائدة من استيلائهم على مصر، لأن الإسكندرية ستظل شوكة فى جانبهم ينفذ منها البيزنطيون إلى البلاد فى أى وقت لما تمتاز به من موقع حصين، وخاصة أن الروم كانوا يسيطرون على البحر بأساطيلهم وكان المدد يأتى إلى الإسكندرية فى أى وقت دون مدافع، كما كانت أسوار الاسكندرية ضخمة حصينة يحيط بها من ناحية البحر البحيرات وترعة الإسكندرية. لذلك رأى عمرو بثاقب بصره أنه من العبث مهاجمة المدينة عنوة وخاصة أن حاميتها كانت تربو على الخمسين ألف مقاتل، كما أيقن أن حصارها قد يطول، فعمد إلى ترك جزء من جيشه ليقوم بمهمة الحصار، وتوجه بالجزء الباقى لإخضاع ما بقى من مدن مصر السفلى والوسطى[٣٢]، وشاءت الأقدار أن يموت هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية فى ربيع الأول سنة ٢٠هـ/ فبراير ٦٤١م بعد أن عزم على الخروج لمباشرة حرب الإسكندرية بنفسه، مما كان له أكبر الأثر فى إضعاف شوكة الروم، كما أن الأمور فى الإسكندرية نفسها كانت أسوأ بسبب تنازع القواد ولانقسام الرأى السكندرى أثناء حصار العرب للمدينة، بل كان حرصهم على القتال فيما بينهم أعظم من حرصهم على قتال العرب[٣٣]. لذلك كله اضطرت الإمبراطورة مارتين الوصية على العرش بصفتها أم هرقلوناس إلى العمل على إنهاء الحرب وأمرت بإطلاق سراح قيرس وكلفته بالعودة إلى مصر وعقد الصلح مع العرب المسلمين[٣٤]، فعاد قيرس إلى الإسكندرية وتلقاه أهلها بالحفاوة والسرور، فى الوقت الذى عاد فيه إلى سياسة اضطهاد الأقباط الأرثوذكس كمحاولة منه لإخفاء الهدف الرئيسى من عودته وهو مفاوضة العرب على الصلح حيث ذهب بالفعل إلى بابليون والتقى

٣١- اشتبك عمرو مع الروم فى نقيوس الواقعة على الشاطئ الشرقى لفرع النيل الغربى بالقرب من منوف الحالية، ثم فى سلطيس وصحتها سنطيس جنوبى دمنهور، وفى حصن الكريون أمام الإسكندرية، انظر السيد عبد العزيز سالم، دراسات فى تاريخ العرب، تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية (بدون تاريخ)،ص٢١٩.

٣٢- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ١٣ - ١٤.

٣٣- الفرد بتلر، فتح العرب لمصر، ص ٢٢٨.

٣٤- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ١٣.

بعمرو بن العاص عارضا عليه الصلح، ولم يكن أمام عمرو سوى الترحيب بهذا العرض السخي، وعقدت معاهدة بابليون الثانية تمييزا لها عن معاهدة بابليون الأولى، التى اصطلح أيضا على تسميتها بمعاهدة الإسكندرية لأنها كانت خاصة بأهل الإسكندرية وذلك فى سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م وقد أمدنا حنا النقيوسى[٣٥] بشروط هذا الصلح الثمانية:-

١- أن تعقد هدنة بين الطرفين مدتها أحد عشر شهرا تنتهى فى ٢٧ شوال سنة ٢١هـ/ ٢٨ سبتمبر ٦٤٢م.

٢- أن يدفع الجزية كل من دخل فى هذا العقد.

٣- أن يبقى العرب فى مواضعهم ولا يسعوا لقتال الإسكندرية وأن يكف الروم عن القتال.

٤- أن يتم جلاء حامية الروم عن الإسكندرية بأموالهم ومتاعهم عن طريق البحر، أما الذى يرحل عن طريق البر فعليه أن يدفع كل شهر جزءا معلوما ما بقى فى أرض مصر.

٥- ألا يسعى الروم إلى العودة إلى مصر أو محاولة استردادها.

٦- ألا يستولى المسلمون على كنائس المسيحيين أو يتدخلوا فى أمورهم الدينية.

٧- أن يباح لليهود الإقامة فى الإسكندرية.

٨- أن يقدم الروم للعرب ١٥٠ جنديا و ٥٠ مدنيا كرهائن لتنفيذ شروط هذا الصلح.

وعقب سقوط الإسكندرية امتد نفوذ العرب تدريجيا إلى سائر الأقاليم فى مصر، إذ سار عمرو بن العاص إلى برقة لتأمين مركز العرب فى مصر وتم له فتحها وفرض عليها الجزية[٣٦]، كما غزا فى سنة ٢٢هـ/ ٦٤٣م أو السنة التالية لها طرابلس[٣٧] وفكر بعد استيلائه عليها أن يسير إلى بلاد المغرب ليستولى عليها إلا أن الخليفة عمر بن الخطاب

٣٥- Chronique de Jean eveque, p. 575; L. Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London,1936, p.11.

٣٦- ابن عذارى، *البيان المغرب فى أخبار المغرب*، تحقيق ليفى بروفنسال وكولان، جـ١، ص ٨؛ البلاذرى، *فتوح البلدان*، جـ١، ص ٢٦٤.

٣٧- البكرى، *المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب*، الجزائر ١٩١١، ص ٢٣١، ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، طبعة تورى، نيوهافن ١٩٢٢، ص١٧١.

نهاه عن ذلك[٣٨] لتخوفه من تفرق المسلمين فى بلاد كثيرة لم تثبت أقدامهم فيها بعد. لذلك يمكن القول بأن فتح عمرو لبرقة كان بمثابة خاتمة المطاف للعمليات الحربية التى قام بها عمرو بن العاص فى مصر باستثناء تأمين الحدود الجنوبية لوادى النيل، إذ يقال أنه بعث عبد الله بن سعد بن أبى السرح على رأس حملة إلى بلاد النوبة فى غضون سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م وقيل أيضا فى السنة التالية لها، بيد أن هذه الحملة منيت بالفشل ولم تستطع شيئا إزاء مملكة النوبة لذلك اضطر عمرو إلى استدعاء عبد الله بن سعد، ليعود إلى غزو النوبة من جديد فى سنة ٣١هـ/ ٦٥١م، أثناء ولايته على مصر[٣٩] من قبل الخليفة الثالث عثمان ابن عفان، وقد وصلت حملته إلى دنقلة حيث قاتل هناك قتالا عنيفا انتهى بعقد هدنة بين مصر ومملكة النوبة عرفت فى المصطلح التاريخى بالبقط وهى فى الواقع لفظة لاتينية من كلمة Pactum [٤٠] بمعنى العقد أو الاتفاق[٤١]، وقيل أيضا أنها مصرية قديمة بمعنى العهد[٤٢]، ولا يبعد كذلك أن تكون عربية بمعنى نبذة أو قطعة أو فرقة[٤٣]. مجمل القول أن معاهدة البقط هذه كانت فى الواقع أشبه بمعاهدة تجارية سياسية بين مصر ومملكة النوبة المسيحية، إذ كان من أهم شروطها ألا يعتدى أحد على الآخر وأن يسمح النوبيون للمسلمين بالمرور داخل أراضيهم، وأن تؤدى النوبة إلى مصر عددا معينا من الرقيق فى كل سنة فى مقابل أن ترسل مصر إلى النوبة قدار معينا من القمح والعدس والشعير والملابس والخيل والخمور وغيرها من منتجات مصر سنويا[٤٣]. وجدير بالذكر أنه تم تجديد هذه المعاهدة فى سنة ٢١٦هـ/ ٨٣١م فى أيام الخليفة المأمون العباسى بعد أن استبعد منها نص إرسال الخمور إلى النوبة لتنافيه مع الشريعة الإسلامية كما جاء فى بعض المصادر القديمة[٤٤] التى يفهم منها أيضا أن فريقا من الأقباط ساعدوا الجيش العربى فى أغلب العمليات الحربية ضد البيزنطيين[٤٥]، على حين وقف فريق آخر موقف الحياد لأنهم كانوا يعلمون أن مساعدتهم للعرب معناها انتقالهم من تبعية إلى تبعية أخرى، ولم يكن

٣٨- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، طبعة تورى، ص ١٧٢- ١٧٣؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ١٤.

٣٩- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٠٠.

٤٠- G.Wiet, L'Egypte musulmane, p.113.

٤١- C.H. Becker, Islamstudien, Leipzig, 1924, I, p.150.

٤٢- Encyclopédie de L'Islam, art. Bakt, p.621.

٤٣- مصطفى محمد سعد، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠، ص ١١٣.

٤٤- G.Wiet, L'Egypte musulmane, p.113.

٤٥- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٥٨؛ Chronique de Jean, p.650

هذا الفريق فى موقف يستطيع معه طرد الروم والعرب فى آن واحد(٤٦). وهناك كذلك أقلية من الشعب المصرى حاربت فى صفوف البيزنطيين ظنا منها بأن النصر سيكون حتما للروم وليس للعرب(٤٧).

والحق أن فتح مصر النهائى واستخلاصها من أيدى البيزنطيين لم يتم إلا فى سنة ٢٥هـ/ ٦٤٥م، إذ حاول الروم استردادها على عهد الإمبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١ - ٦٦٨م) حفيد هرقل(٤٨)، الذى أرسل إلى الإسكندرية أسطولا كبيرا يتألف من ٣٠٠ سفينة تحمل العدة والعتاد(٤٩) بقيادة مانويل(٥٠) الذى سبق له أن دافع عن الإسكندرية أثناء حصارها الأول، واستطاع الاستيلاء على الإسكندرية بل وتوغلت جيوشه حتى كادت أن تقترب من حصن بابليون، وكان الوالى إذ ذاك عبد الله بن سعد بن أبى السرح، لذلك بعث أهل مصر إلى الخليفة عثمان بن عفان يسألونه أن يرسل عمرا لمحاربة الروم لما له من خبرة ومعرفة بحروبهم(٥١)، عندئذ اضطر الخليفة عثمان تحت إلحاح أهل مصر، الذين قاد بعضهم مظاهرة شعبية جابت أنحاء الإسكندرية معلنة الإذعان والخضوع لحكم المسلمين، إلى إرسال عمرو بن العاص مرة أخرى لمحاربة الروم حيث تمكن من قتل مانويل قائد الحملة وإجلائهم عن مصر واستولى مرة ثانية على الإسكندرية عنوة وهدم أسوارها(٥٢) وبذا انتهى فتح العرب لمصر حيث دخلت بعدها تحت لواء الإسلام بعد حرب دامت زمنا طويلا لتصبح درة الدولة البيزنطية أثمن جوهرة فى الدولة العربية الإسلامية الناشئة.

٤٦- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص٢٠.

٤٧- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٦٦.

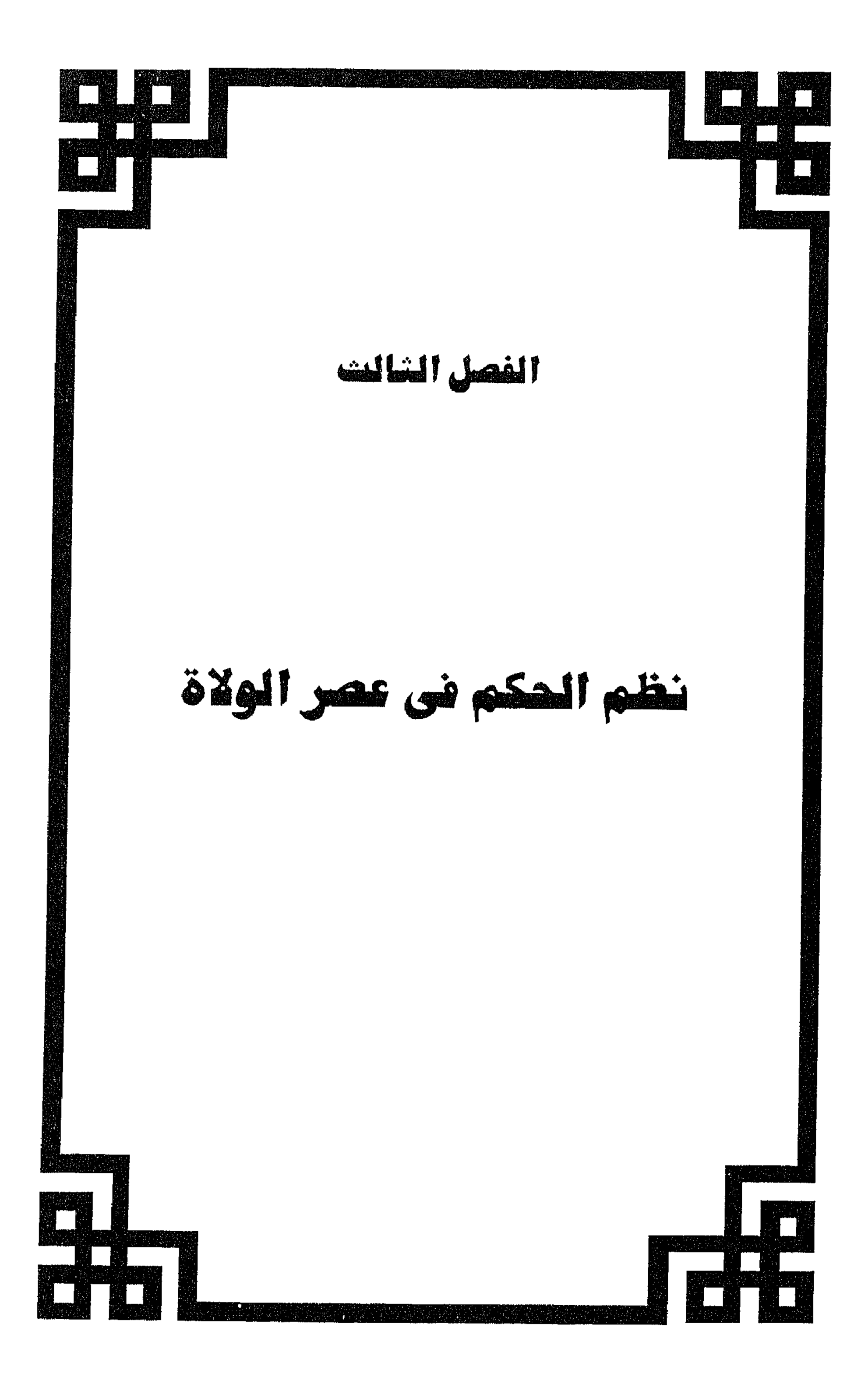
٤٨- إبراهيم أحمد العدوى، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، القاهرة ١٩٥٨، ص٦١.

٤٩- البلاذرى، فتوح البلدان، جـ١، ص ٢٦٠.

٥٠- السيوطى، حسن المحاضرة، جـ١، ص٧٨؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الإسكندرية ١٩٨٢، ص٦٨.

٥١- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ١٦٧؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ١، ص٧٨.

٥٢- البلاذرى، فتوح البلدان، جـ١، ص٢٦٠؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ١٦٨؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ١ ص ٧٨؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ليدن، ١٨٦٦ - ١٨٧٤، جـ٣، ص ٦٢.



الفصل الثالث

نظم الحكم فى عصر الولاة

اقتضت حكمة العرب الإدارية الإبقاء على نظم الحكم فى البلاد التى فتحوها وخاصة أنه لم يكن لديهم ما يمكن إحلاله محل هذه النظم السائدة[1]، لذلك اضطروا إلى اتباع النظم الإدارية والمالية التى كانت متبعة سابقا إلا فيما يتعارض مع الإسلام، بل ظلت لغة الدواوين هى لغة البلاد المفتوحة إلى أن عربت على يد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان وابنه الوليد. بيد أنهم حرصوا على الإبقاء على الزعامة الدينية والسياسية والمالية فى أيديهم وذلك بهدف تنفيذ متطلبات الفتح العربى الجديد.

لذلك كان الخليفة يعين فى مصر واليا يقال له الوالى أو الأمير، كما عرف أيضا فى أوراق البردى اليونانية باسم سيمبولس[2] وكان مقره فى مصر هو دار الإمارة التى شيدها عمرو بن العاص إلى الشمال الشرقى من جامعه باعتباره الرئيس السياسى لمصر، ولم يكن مسئولا عن عمله إلا أمام الخليفة. وكانت إمامة الصلاة تعد من أهم اختصاصات هذا الوالى إذ كان عليه أن يؤم المسلمين فى الجامع فى صلاة الجمع والأعياد، ولذا كان يطلق عليه أمير الصلاة[3]، ويقال عن ولايته كذلك ولاية الصلاة. وكان بيد الوالى أيضا قيادة الجند أى رئاسة الجيش فى الولاية؛ ولذلك كان يقال أحيانا ولى فلان الحرب كناية عن ولايته لمصر[4] باعتبار أنه كان يشرف أيضا على شئون الحامية بمصر، كما كان يقود بنفسه الحملات، التأمينية لمصر أو لصد الأعداء عنها، كما كان ينيب عنه أحد الأعوان لقيادة هذه الحملات كما حدث عندما أرسل عمرو بن العاص عقبة بن نافع لفتح بلاد النوبة[5]، أطلق المؤرخون على أفرادها اسم رماة الحدق[6].

وكان الوالى يشرف أحيانا على إدارة المالية المعبر عنها فى المصطلح التاريخى باسم الخراج مما يجعله مطلق التصرف فى الولاية. بيد أن الخليفة كان كثيرا ما يسند عمل الخراج إلى شخص آخر يكون مسئولا عن عمله أمامه مباشرة[7] وليس أمام الوالى،

١- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص١٩؛ محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص٤١.

٢- Wiet, L'Egypte musulmane, p.123; A.Grohmann, Arabie Papyri in the Egyptian Library, Cairo, 1934, 1937, III, p.62

٣- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص٣٤٨؛ محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص٤١.

٤- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٧٨.

٥- مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة، ص ١١١.

٦- البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٢٣٦.

٧- G.Wiet, L'Egypte musulmane, p.124.

وكان هذا يحد دائما من سلطة الوالى ويجعله عاجزا عن التصرف فى الأمور المالية كما يشاء. لذلك صار لعامل الخراج دائما أهمية كبيرة، بل كثيرا ما كان منافسا للوالى نفسه، مع أن الوالى هو الرئيس الأعلى للولاية نائبا عن الخليفة، وحسبنا دليلا على ذلك أنه عندما هزم عمرو بن العاص الروم وطردهم من الإسكندرية للمرة الثانية فى عام ٢٥هـ/ ٦٤٥م عرض عليه الخليفة عثمان بن عفان أن يكون على حربها أو كما قيل على صلاتها، وعبد الله بن سعد على خراجها، فأبى عمرو قائلا «أنا إذا كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها[٩]» ورفض تنفيذ رغبة عثمان وترك ولاية مصر وعاد[١٠].

والمتأمل لعدد الولاة العرب منذ الفتح حتى قيام الدولة الطولونية سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م سوف يلاحظ بوضوح أن عدد هؤلاء قد وصل منذ الفتح حتى نهاية عصر الدولة الأموية إلى ما يقرب من اثنين وثلاثين واليا فى مقابل ثمانية وسبعين واليا للفترة الممتدة من العصر العباسى حتى استقلال أحمد بن طولون بحكم مصر[١١] وهى تكاد توازى الفترة الأولى تقريبا أى فى حدود المائة عام. الأمر الذى يشير بوضوح إلى أن الولاة فى عهد الراشدين والأمويين كانوا أكثر استقرارا، إذ منحهم الخلفاء قسطا كبيرا من الحرية مما أفضى إلى ظهور شخصيات بارزة مثل عمرو بن العاص، وزياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفى، وخالد بن عبد الله القسرى، وعبد العزيز بن مروان، وموسى بن نصير وغيرهم[١٢]، وذلك باستثناء بعض الفترات القصيرة مثل فترة الصراع بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان، وأيضا خلافة هشام بن عبد الملك إذ استطاع عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج أن يتحكم فى تعيين الولاة حتى قيل أنه عزل خمسة منهم[١٣] خلال ولايته الطويلة على خراج مصر التى امتدت من سنة ١٠٥ - ١١٦هـ/ ٧٢٣ - ٧٣٤م.

أما تحت الحكم العباسى فقد تبدلت الأحوال تماما بسبب قيام الدولة العباسية على أكتاف الفرس مما جعلها تستعين ببعض الولاة من عناصر فارسية، ولعل أصدق دليل على

٨- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، طبعة تورى، ص١٧٨.

٩- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، طبعة تورى، ص ١٧٨.

١٠- أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٩٠، ص ٧٧.

١١- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٤٣ مع مراعاة الخطأ الذى وقعت فيه كل من ديفونشير وفيت فقد رصدت الأولى (٩٨) واليا منذ الفتح العربى حتى وصول أحمد بن طولون على حين سجل جاستون فيت (٢١) واليا للفترة الأموية، (٦٤) للفترة العباسية التى تسبق قدوم أحمد بن طولون أنظر Devonshire, L'Egypte musulmane p.22, Wiet, L'Egypte musulmane, pp.141-142.

١٢- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ٣٠ - ٣١.

١٣- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٧٢ - ٧٦.

ذلك أن آخر وال عربى حصل على ولاية مصر إبان هذه الفترة هو عنبسة بن إسحق فى الفترة الممتدة بين سنتى ٢٣٨ - ٢٤٣هـ/ ٨٥٢ - ٨٥٦م[١٤]. كذلك ترتب على استعانة الخليفة العباسى المعتصم بعنصر الأتراك[١٥] وتغلغلهم فى جميع شئون الدولة الحربية والمدنية أن تأثرت مصر بهذه السياسة وأصبح يليها ولاة من العنصر التركى وكان أولهم يزيد بن عبد الله التركى الذى وليها فى الفترة الممتدة بين سنتى ٢٤٢ - ٢٥٣هـ/ ٨٥٦ - ٨٦٧م[١٦]. وقد تميزت فترة العصر العباسى بكثرة تغيير الولاة وخصوصا فى فترة الاضطرابات التى صاحبت الفتنة التى جرت بين الأمين والمأمون حيث كثر تغيير الولاة، بل كثيرا ما تولى الواحد منهم أكثر من مرة. كذلك لم يكن الخلفاء يتركون ولاة مصر فى الحكم طويلا لئلا يطمعوا فى الاستقلال بالبلاد، وذلك مرجعه من غير شك إلى ضعف هؤلاء الخلفاء وبعد مقر الخلافة العباسية بغداد أو سامراء عن مصر. على أن ما كانت تخشاه الدولة العباسية من استقلال الولاة قد تحقق كما سوف نرى على يد أحمد بن طولون نتيجة لسياسة الإقطاع التى اتبعتها هذه الدولة منذ أيام الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٨م)[١٧]. ويجب علينا هنا أن نلفت الأنظار إلى الاختلاف البين بين نظام الإقطاع فى الشرق الإسلامى ونظيره فى الغرب الأوربى إذ كان الأخير يتوارث فى أسرة صاحب الإقطاع وفق تقاليد وراثية معروفة وذلك على العكس من نظام الإقطاع فى الشرق الإسلامى الذى لم يكن من حق صاحب الإقطاع أن يورث إقطاعه فى معظم الأحيان[١٨].

وكان لوالى مصر الإشراف أيضا على شئون الشرطة[١٩] إذ كان ينفرد فى أغلب الاحيان بتعيين صاحبها الذى اتفق على أنه كان بمثابة نائب الوالى، وخاصة أنه كان ينوب عنه أثناء غيابه فى حج أو حرب أو غير ذلك، كما كان ينوب عنه أيضا فى إمامة

١٤- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٠٢؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٩٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٣٠ - ١٩٧٢، جـ٢، ص ٣٠٠.

١٥- عبد المنعم ماجد، العصر العباسى الأول، القاهرة ١٩٧٣، جـ١، ص ٣٨٩.

١٦-الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٠٢، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٢، ص ٣٠٨.

١٧- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ٣٢.

١٨- عن نظام الإقطاع فى العصور الوسطى انظر إبراهيم على طرخان، النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨.

١٩- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ٢٣؛ مصر فى عصر الولاة، ص ٢٢؛ Wiet L'Egypte musulmane, p124.

الصلاة[٢٠]. لذلك لا عجب إذا تدخل الخليفة فى بعض الأحيان فى تعيين صاحب الشرطة كما حدث فى سنة ٢١٧هـ/ ٨٣٢م عندما قام الخليفة المأمون بتعيين صاحب الشرطة بمصر عقب قضائه على ثورة البشمور أو البشرود[٢١]. بل كثيرا ما لجأ بعض الخلفاء إلى تعيين ولاة الشرطة فى ولاية مصر فى حالة عزل الوالى أو تنحيته أو فى حالة موته ولعل ذلك مرجعه إلى تمرسهم فى شئون الولاية. ومع هذا فمن الثابت تاريخيا أن والى مصر كان ينفرد غالبا بتعيين صاحب الشرطة من دون الخليفة وأنه كان يختاره عادة من بين أقاربه[٢٢]. وفى هذا ما يفسر لنا ذلك العدد الضخم من أصحاب الشرطة الذين تعاقبوا على هذا المنصب فى الفترة الممتدة من الفتح العربى إلى مجئ أحمد بن طولون إلى مصر، والذى بلغ حسب إحصاء الكندى مائة وخمسين شخصا[٢٣] مما يعنى أن الوالى الجديد على مصر كان حريصا على عدم الاحتفاظ بصاحب الشرطة الذى خلع عليه الوالى السابق إلا فى بعض الحالات القليلة النادرة[٢٤] لأنه كان دائما فى حاجة إلى من يوليه ثقته ويطمئن إليه فى تصريف أمور الولاية أثناء غيابه[٢٥]. ولذا اعتبرت الشرطة فى أول الأمر من الوظائف السياسية. وكان على صاحب الشرطة أيضا أن يقوم بالمحافظة على الأمن الداخلى بمنع وقوع الجرائم والقبض على الجناة وعمل التحريات اللازمة وتنفيذ العقوبات

٢٠- حسبنا دليلا على ذلك مقتل خارجة بن حذافة صاحب شرطة عمرو على يد عمرو بن بكر الخارجى الذى أخذه بدلا من عمرو بن العاص. انظر الكندى، الولاة والقضاة، ص٣٢؛ ابن طباطبا، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية بيروت ١٩٦٠، ص ١٤٢؛ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٠٥ - ١٠٧، ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القاهرة ١٨٩٣، جـ٤، ص٦.

٢١- الكندى، الولاة والقضاة، ص ١٩٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٢، ص ٢١٦.

٢٢- الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٦٦ ، ٧٠ ، ٩٣ ، ١٢٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٧ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ ؛ حسن الباشا، الفنون والوظائف على الآثار العربية، القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٦٧، جـ٢، ص٦٧٧؛ G.Wiet, Corpus inscriptionum arabicarum, Egypte, Le Caire, 1930, I, p.56.

٢٣- أخطأ لينبول فى ذكر الرقم فقد أشار إلى أنهم بلغوا (٨٨) فقط انظر Lane- Poole, A History of Egypt, pp. 45-58.

٢٤- ومع هذا فإن بالإمكان إحصاء ما يقرب من عشرين حالة استمر فيها صاحب الشرطة شاغلا منصبه فى ظل الوالى الجديد، انظر أحمد عبد الرازق أحمد، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٣٣، هامش رقم (٧).

٢٥- الكندى، الولاة والقضاة، ص ١٠ ، ٣١ ، ٧٤ ، ٨٣ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ؛ جـ٢، ص ٣٣٧.

التى يحكم بها القضاة وإقامة الحدود. وعلى هذا يمكننا القول بأن الشرطة كانت تعد أيضا من الوظائف الدينية[٢٦]، وحسبنا دليلا على ذلك ما يذكره ابن عبد الحكم من أن عابس بن سعيد المرادى ولى الشرطة ثم جمع له القضاء معها فى غضون سنة ٦٢هـ/ ٦٨٢م[٢٧]. كذلك كان من واجب صاحب الشرطة نشر الفضيلة والمحافظة على الأخلاق الفاضلة وقمع أهل الفساد[٢٨]. وربما أسند إليه أيضا القيام ببعض الأعمال الأخرى مثل المساهمة فى إطفاء الحرائق والمعاونة فى تحصيل الجزية وإصدار الدنانير وغيرها من الأعمال التى صارت تدخل فيما بعد ضمن نطاق وظيفة الحسبة، التى كانت موزعة فى عصر الولاة بين القاضى وصاحب الخراج وصاحب الشرطة[٢٩].

وفى هذا العصر كان صاحب الشرطة يقيم فى الفسطاط مع الوالى[٣٠] ولكن بعد تأسيس مدينة العسكر فى سنة ١٣٣هـ/ ٧٥٠م على يد صالح بن على أنشئت شرطة جديدة إلى الجنوب من الموقع الذى يشغله حاليا جامع أحمد بن طولون[٣١] عرفت بالشرطة العليا، وهذا لا يعنى أنها صارت أعظم شأنا من شرطة الفسطاط التى اشتهرت بالشرطة السفلى كما قد يتبادر إلى الذهن وإنما يرجع إلى تقسيم الفسطاط إداريا إلى عمل فوق، وعمل أسفل، خاصة وقد احتفظ صاحب شرطة الفسطاط السفلى باليد الطولى على زميله صاحب شرطة العسكر بوصفه حاكم القسم الرئيسى الأصيل فى الحاضرة[٣٢].

٢٦- ابن خلدون، المقدمة، بيروت، ص٢٢٢؛ الكندى، الولاة والقضاة، ص ١١٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٢، ص ٢٦؛ Tayan, Histoire de l 'organisation judiciaire en pays de l'Islam, paris, 1943, II, p. 368; Wiet, Corpus, Egypte, I, p.58.

٢٧- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، طبعة ليدن ١٩٢٠، ص ٢٣٣؛ الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣٩، ٥٨.

٢٨- أحمد عبد الرازق، شرطة القاهرة، ص١٣.

٢٩- الباز العرينى، الحسبة والمحتسب، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الثالث، العدد الثانى، ١٩٥٠، ص ١٥٩ - ١٦٠؛ عبد الرحمن فهمى، صنج السكة فى فجر الإسلام، القاهرة ١٩٥٧، ص١٩.

٣٠- الكندى، الولاة والقضاة، ص٤٩؛ المقريزى، الخطط، طبعة المعهد الفرنسى، جـ٤، ص١٨؛ G.Wiet, Corpus, Egypte I, p.54.

٣١- ابن الداية، المكافأة، القاهرة ١٩١٤؛ ص١٧؛ سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٦٣؛ حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ٢؛ ص ٦٨٠.

٣٢- Wiet, Corpus, Egypte, I, p.53 ؛ أحمد عبد الرازق، شرطة القاهرة، ص ١٤.

ومن النظم التى استحدثها العرب أيضا بمصر بعد الفتح، نظام القضاء الذى يقوم على أساس الشريعة الإسلامية، أما أهل الذمة فكان لهم قضاؤهم[٣٣]، إلا إذا احتكموا إلى القاضى المسلم. ومن المعروف أن القضاء أصلا كان من الأمور الخاصة بالخلافة، وكان الخلفاء فى صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم حتى اضطر عمر بن الخطاب إلى استنابة من يقوم عنه بالقضاء فى الولايات المفتوحة، ومن ذلك تعيينه عثمان بن قيس بن أبى العاص السهمى كأول قاضٍ على مصر فى سنة ٢٣هـ/ ٦٤٤م[٣٤]. وقد استمر هذا الحق لجميع من جاء بعده من الخلفاء الأمويين والعباسيين، وذلك على النقيض مما يذكره الكندى من أن مرجع تعيين القضاة بمصر كان دائما لولاتها حتى جاء الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور فولى قضاء مصر لعبد الله بن لهيعة فى سنة ١٥٥هـ/ ٧٧٢م، ومن بعدها صار تقليدا أن ينفرد الخلفاء بتعيين القضاة فى مصر[٣٥]، ولعله يقصد هنا أن بعض القضاة كان يتم تعيينهم من قبل الولاة ولكن بتفويض من الخليفة، إذ تروى المصادر أن والى مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ/ ٦٨٤ - ٧٠٥م) ولى القاضى عبد الرحمن بن حجيرة الأكبر فى سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨م من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان[٣٦]. وذلك باستثناء بعض الفترات التى انفرد فيها الولاة بالفعل بهذا الحق كما حدث أثناء فترة الاضطرابات التى حدثت أثناء النزاع بين الأمين والمأمون، حتى تمكن المأمون من القضاء على أسباب الفتنة فى سنة ٢١٧هـ/ ٨٣٢م وعاد الخلفاء بعدها إلى تعيين القضاة على مصر[٣٧]، ولذلك لم يكن القاضى ليرضى أن يتدخل فى أحكامه أحد، إذ كانت وظيفة القضاء من الوظائف السامية التى تحاط بالهيبة والإجلال، كما كان لصاحبها نفوذ كبير[٣٨]. ولا نعلم من خلال المصادر التى تحت أيدينا الآن أن واليا من ولاة مصر جمع إلى سلطته ولاية القضاء، كذلك لم نسمع عن حدوث تصادم بين أحد الولاة وأحد القضاة اللهم إلا فى بعض الحالات القليلة النادرة[٣٩]. ومن المعروف أن مجالس القضاء كانت تعقد عادة فى جامع عمرو بن العاص

٣٣- القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، القاهرة ١٩١٤ - ١٩٢٨، جـ١١، ص ٤٠٢، جـ١٢، ص٤٢٤.

٣٤- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣٠٠ - ٣٠١ ؛ أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية، ص ١٠٠.

٣٥- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣٦٨.

٣٦- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣١٤ - ٣٢٠.

٣٧- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٤٥.

٣٨- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ٩٢.

٣٩- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣٦٧ ، ٤٢٧.

بمدينة الفسطاط[٤٠]، وان بعض القضاة كانوا يجعلون للقضاء بين النصارى يوما فى منازلهم إلى أن جاء القاضى محمد بن مسروق فى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى فأذن لهم بالدخول فى المسجد[٤١].

وجدير بالذكر أن نظام القضاء فى مصر فى عهد الولاة نشأ بسيطا ثم أخذ يتطور بمرور الزمن، إذ لم تكن أحكام القضاة تدون فى أول الأمر حتى أصدر القاضى سليم بن عنز التجيبى أول سجل قضائى فى مصر وذلك فى خلافة معاوية بن أبى سفيان، ومن وقتها صار تقليدا لمن جاء بعده من القضاة[٤٢]. وكان القاضى يستمد أحكامه القضائية من مصادر الشريعة الإسلامية ونعنى بها القرآن والسنة والإجماع والاجتهاد أو القياس[٤٣].

بقى أن نشير إلى أن أعمال القضاة كانت تمتد أيضا فى هذا الوقت إلى الإشراف على ديوان الأحباس والمقصود بها الأوقاف الذى عرف منذ سنة ١١٨هـ/ ٧٣٦م، ويعد القاضى توبة بن نمر الحضرمى أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس بعد أن كانت تظل بأيدى أهلها وبأيدى أوصيائهم[٤٤]، كذلك اعتاد القضاة إبان هذه الفترة المبكرة من تاريخ مصر الإسلامية إلى الخروج فى نفر من أهل التقوى والصلاح لرؤية هلال رمضان حيث استن هذا التقليد للمرة الأولى عبد الله بن لهيعة الحضرمى، وكانوا يذهبون عادة لرؤيته فى الجيزة[٤٥].

ولقد عرف هذا العصر أيضا وظيفة أخرى هى صاحب البريد. حقيقة أنها لم تكن قائمة فى عهد الخلفاء الراشدين، وإنما نشأت فى زمن الدولة الأموية، إذ تجمع المصادر على أن معاوية بن أبى سفيان هو الذى أوجد هذا النظام لضمان وصول الأخبار بسرعة[٤٦] وتبعه فى ذلك الأمويون إذ وصلتنا كتابات أثرية معاصرة للخليفة عبد الملك بن

٤٠- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٨٧.

٤١- الكندى؛ الولاة والقضاة، ص ٣٩٠ ؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ٩٣.

٤٢- الكندى، الولاة والقضاة، ص٣١٠، أنور الرفاعى، النظم الإسلامية، دمشق ١٩٧٣، ص ١١٢.

٤٣- أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية، ص ١٠٣.

٤٤- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣٤٦.

٤٥- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٣٧٠؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ٩٧.

٤٦- ابن طباطبا، الفخرى، ص ١٠٦؛ القلقشندى، صبح الاعشى، جـ١٤، ص ٣٦٨؛ J.Sauvaget, La poste aux chevaux dans l'empire des Mamlouks, Paris, 1951, p. 13, Eny. de l'Islam, art. Barid, I, p.675.

مروان (٦٥ - ٨٦هـ/ ٦٨٤ - ٧٠٥م) كشف عنها بالقرب من بيت المقدس تسجل لنا قيامه بصنعة الأميال أى مسح الأراضى ووضع حدود على كل مسافة قدرها ميل، وكذا عمارته لأربعة طرق تخرج من إيلياء أى بيت المقدس، ومن دمشق[٤٧]. كذلك اهتمت الدولة العباسية اهتماما كبيرا بالطرق وتعبيدها، وإقامة المنازل فى مراحل الطرق لراحة ناقلى البريد وتغيير خيولهم، حتى صارت جميع الطرق تؤدى إلى بغداد عاصمة الخلافة تماما كما كانت جميع الطرق تؤدى إلى روما[٤٨]. وجدير بالذكر أن نظام البريد إبان عصر الولاة ومن بعدهم لم يكن نظاما يستعمله الشعب، بل كان نظاماً رسميا حكوميا[٤٩]، حيث عمد بعض الخلفاء إلى استغلال صاحب البريد فى نقل أخبار الولاة وكبار الموظفين إليهم والتجسس على أعمالهم وخصوصا فى العصر العباسى[٥٠]. فقد أثر عن الخليفة العباسى أنه قال: «ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر، لا يكون على بابى أعف منهم، فقيل له: ياأمير المؤمنين من هم، قال: هم أركان الملك، ولا يصلح الملك إلا بهم، كما أن البريد لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة تداعى، أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإنى عن ظلمها غنى، والرابع، ثم عض على أصبعه السبابة ثلاثا يقول فى كل مرة: آه.. آه.. قيل له: ومن هو ياأمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة»[٥١]. لذلك كان طبيعيا أن يتدخل أصحاب البريد فى شئون غيرهم من كبار رجال الحكم، وحسبنا دليلا على ذلك ما ذكره الكندى من أن صاحب البريد فى مصر كتب إلى الخليفة المتوكل العباسى بأمر يتعلق بأحد الجنود[٥٢]، كما أشار أيضا إلى أن صاحب البريد فى مصر زمن ولاية داود بن يزيد بن حاتم (١٧٤ - ١٧٥هـ/ ٧٩٠ - ٧٩١م) أراد أن يتدخل فى عمل قاضى مصر أبى الطاهر عبد الملك بن محمد الخدمى فلم يكن من الأخير إلا أن استعفى عن القضاء[٥٣].

٤٧- سهيلة الجبورى، أصل الخط العربى وتطوره حتى نهاية العصر الأموى، بغداد ١٩٧٧، ص ١٢٢؛ صفوان التل، تطور الحروف العربية على آثار القرن الهجرى الأول، الأردن ١٩٨٠، ص ٤٢.

٤٨- حسن الباشا، دراسات فى الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٧٥، ص٦٥؛ أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية، ص ٨٦.

٤٩- عبد المنعم ماجد، العصر العباسى الأول، جـ١، ص ١١٦.

٥٠- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٤.

٥١- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص ٦٧.

٥٢- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٠٣.

٥٣- الكندى، الولاة والقضاه، ص ٣٨٤؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ٢٦.

خلاصة القول أنه كما كان للخليفة صاحب بريد ينقل إليه أخبار ولاة الأقاليم، كان للوالى أيضا عامل بريد ينقل له أخبار عمال الأقاليم بمصر كما يفهم من الوثائق البردية التى كشف عنها فى سنة ١٩٠١م بكوم إشقا وإحدى قرى صعيد مصر، وهى تختص بولاية قرة بن شريك (٩٠- ٩٦هـ/ ٧٠٩ - ٧١٤م). كذلك كان للوالى بمصر كتبة كثيرون يستعين بهم فى تدوين رسائله إلى الخليفة وإلى عمال أقاليمه، كانوا يسجلون أسماءهم فى نهاية هذه الرسائل[٥٤] مما يدفع إلى القول أنه كان بمصر فى ذلك العهد ديوان رسائل أو بمعنى آخر ديوان للانشاء وخاصة أن القلقشندى يدلل على وجوده منذ الفتح وحتى بداية الدولة الطولونية وإن أشار فى الوقت نفسه إلى قلة أهميته[٥٥].

هذه هى أهم الوظائف الرئيسية التى استحدثها العرب بعد فتح مصر، أما فيما عدا ذلك فقد بقى على ما هو عليه لاسيما ونحن نعلم أن العرب تركوا الوظائف والأعمال الأخرى فى يد أهل البلاد[٥٦]. ومن المعروف أيضا أن مصر بعد الفتح مباشرة كانت مقسمة إداريا إلى قسمين رئيسيين: هما مصر العليا، ومصر السفلى، كما كان هذان القسمان مقسمين بدورهما إلى أقسام أو كور بلغ عددها ثمانين كورة[٥٧]. ويلاحظ أن الاسم كورة مشتق من اللفظ اليونانى الذى كان يعنى الإقليم فى العصر البيزنطى المعروف باسم بجارشى، وهذا يدل دلالة واضحة على أن العرب احتفظوا بالنظم الإدارية البيزنطية، بل إنهم أبقوا على الأسماء والألفاظ اليونانية التى كانت سائدة قبلهم مثل بجاركوس أى صاحب الكورة، وجسطال التى تقابل الكلمة البيزنطية جستاليوس وهى تعنى حينذاك الموظف المشرف على مالية الكورة، أى مندوب ديوان الخراج والأموال، وهناك أيضا الموازيت جمع مازوت التى تقابل الكلمة البيزنطية ميزوتروس وهى تعنى رئيس أو شيخ القرية[٥٨].

ورغم أن مصر كانت مقسمة إلى هذه الأقسام، إلا أنها كانت جميعا تحت سلطة الوالى العليا مباشرة، بمعنى أن ولاة مصر لم يعطوا الفرصة لعمال الأقاليم للتمكين لأنفسهم أو للاستقلال محليا بأمور أقاليمهم، فقد كان الحكم فى مصر مركزيا إلى أبعد الحدود. وهو بذلك يعكس لنا سياسة الخلافة نفسها، فكما كان الوالى يخضع لسلطة

٥٤- A.Grohmann, Arabic Papyri, pp.5,8,13,20.

٥٥- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١١، ص ٢٨.

٥٦- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٣٥٠.

٥٧- ابن دقماق، الأنتصار، جـ٤، ص ٢ ؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص٢٦.

٥٨- Wiet, L'Egypte musulmane, p.124.

الخليفة مباشرة، لذلك نراه يضع رؤساء الأقاليم المختلفة تحت نفوذه مباشرة أى أن اللامركزية لم يكن لها وجود إبان عصر الولاة بمصر(٥٩).

بقى أن نشير فى نهاية هذا الفصل إلى أن والى مصر بعد الفتح العربى مباشرة كان يشرف أحيانا على بلاد برقة وما يليها من شمال أفريقية، على أن هذا الإشراف لم يمنع من أن يكون لبرقة والمغرب عمالها وولاتها فى كثير من الأحيان، ففى سنة ٨٦هـ/٧٠٥م أرسل الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى أفريقية موسى بن نصير واليا على البلاد يحكمها من القيروان ويتبع الخليفة مباشرة، ومنذ ذلك الحين أصبحت أفريقية ولاية مستقلة فى حكمها عن مصر(٦٠) بعد أن كانت تتبعها فى الإدارة وتتلقى منها الجيوش الفاتحة.

ويفهم أيضا من الوثائق البردية المعاصرة أنه كان يدعى للخليفة وللوالى معا فى خطبة الجمعة(٦١).

٥٩- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ٢٨.

٦٠- ابن عذارى، البيان المغرب فى أخبار المغرب، بيروت ١٩٥٠، جـ١، ص ٣٥؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، الإسكندرية (بدون تاريخ)، ص ١٧٧.

٦١- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ٣٤.

الفصل الرابع

انتشار الإسلام واللغة العربية

من المعروف أن الإسلام دخل مصر لأول مرة بدخول العرب فاتحين، إذ يروى حنا النقيوسى أنه منذ دخول العرب مصر وقبل ان يتم فتحها نهائيا أسلم عدد كبير من المصريين، وكانوا نعم العون للعرب مثل يوحنا أحد رهبان دير سيناء[١]. ومن المعروف أيضا أن العرب كانوا يخيرون أهالى البلاد المفتوحة بين أمور ثلاثة هى: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب[٢]. والذى يمكن قبوله منطقيا هو أن الذين أسلموا من أهل مصر زمن الفتح فعلوا ذلك عن إيمان واعتقاد، ولعل الذى دفعهم إلى ذلك رغبتهم فى الانتماء إلى دين الطبقة الحاكمة، ثم أخذ الدين الإسلامى بعدها ينتشر تدريجيا فى مصر كلها كلما تقادم العهد بالعرب فيها. ومع هذا فإن الشواهد التاريخية تشير إلى وجود فترات ذات ظروف خاصة كان التحول فيها إلى الدين الإسلامى كبيرا، وهذا يمكن تفسيره من خلال الموقف الذى وقفه العرب من أقباط مصر، ومن موقف المصريين من العرب، إذ المؤكد أن العرب فى فتحهم لهذا البلد كانوا يحاربون البيزنطيين لا المصريين الذين كانوا يئنون كما سبق أن نوهنا من قبل تحت وطأة الأعباء المالية والاضطهادات الدينية حتى وجد من بين المؤرخين المصريين المسيحيين فى العصور الأولى مثل ساويرس بن المقفع، من يقول: «إن انتصار العرب هو غضب من الله على الروم بسبب عقيدتهم الخلقدونية الفاسدة[٣]»، كما ذكر حنا النقيوسى أن ذلك كان بسبب الاضطهادات التى أنزلها هرقل بالأرثوذكس على يد قيرس[٤]. لهذا لم يكن غريبا أن نرى الأقباط يساعدون العرب فى أثناء فتحهم لمصر، وخصوصا أن وجود عناصر مصرية فى الجيش البيزنطى المدافع عن مصر كان من أحد أسباب فشله فى حمايتها من العرب لأنهم لم يخلصوا فى الدفاع عنها.

وتدلنا الشواهد التاريخية على أن العرب قد أخذوا بعد فتحهم لمصر يتحببون إلى الأقباط أملا فى ضمان ولائهم وإخلاصهم ريثما يتسنى لهم تثبيت أقدامهم فى مصر[٥]، ولم يكن هذا هو السبب الوحيد فقد أثر عن الرسول ﷺ أنه أوصى بقبط مصر فى عدة أحاديث نذكر منها قوله: «إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فإن لهم منكم صهرا وذمة» مشيرا بذلك إلى هاجر زوج إبراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده إسماعيل التى كانت منهم، كما كانت مارية القبطية زوج الرسول عليه الصلاة

١- Chronique de jean évêque, p.585.

٢- Devonshire, L'Egypte musulmane, p.14.

٣- ساويرس بن المقفع، سير الآباء البطاركة، باريس ١٩٠٧، جـ١، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

٤- Chronique de jean, P.584.

٥- H De Castries, L'Islam, Paris, 1896, p.35.

والسلام منهم أيضا[٦]. ورغم عدم تأكدنا من صحة هذا الحديث، إلا أن فيه ما يفسر لنا بعض الشئ الموقف المتسامح الذى وقفه العرب إزاء المصريين فى فجر الإسلام وقت أن جمعت الأحاديث النبوية[٧].

كذلك نرى عمرو بن العاص بعد استيلائه على الإسكندرية يعيد إليها البطرك اليعقوبى بنيامين الذى سبق أن أشرنا إلى اضطراره إلى الاختفاء هربا من اضطهادات قيرس، بعد غيبة دامت ثلاثة عشر عاما أمضى منها عشر سنين أثناء حكم هرقل وثلاث سنوات أثناء الفتح العربى[٨]. ولا يخفى علينا مدى ما أثاره عودة بنيامين من موجة سرور وفرح بين أهل مصر جميعا، لذلك لا يستبعد أن يكون بنيامين قد نصح الأقباط بتأييد العرب ضد قيرس الذى قدم إليهم وهو يلبس فى إحدى قدميه الحذاء الإمبراطورى الاحمر وفى الأخرى صندل رجل الدين إشارة إلى أنه كان يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية.

ويتضح تعاطف العرب مع أقباط مصر حينما أيدوهم على أعدائهم فى المذهب الدينى فاسترد بفضلهم الأرثوذكس عددا من الكنائس والأديرة التى كانت فى يد أعدائهم الملكانيين، كما حاولوا استمالة كثيرين من الملكانيين إلى مذهبهم اليعقوبى، مستعينين فى ذلك بحسن علاقتهم مع العرب المسلمين، بل فرض فى أثناء ولاية قرة بن شريك على مصر (٩٠ - ٩٦هـ/ ٧٠٩ - ٧١٤م) جزية مضاعفة على الملكانيين بهدف إخراجهم عن مذهبهم[٩]. ومن الملاحظ أن الملكانيين لم يتمتعوا ببعض الحرية إلا فى فترات معينة كما حدث فى أثناء خلافة يزيد بن معاوية إذ استطاع تاوضوروس أحد أتباع المذهب الملكانى فى مصر أن يتسلط على الإسكندرية ومريوط وكل ما يليها بفضل ما قدمه من أموال طائلة إلى الخليفة[١٠]. كذلك أرسل الخليفة هشام بن عبد الملك إلى عبيد الله بن الحبحاب عامل خراجه على مصر يأمره بأن يسلم للملكانيين كنائسهم التى كانت فى يد اليعاقبة على أثر الاتفاق الذى تم بينه وبين الإمبراطورية البيزنطية[١١]، كما نصب بطركا للملكانيين بعد أن ظلوا بغير بطرك منذ الفتح العربى لمصر[١٢].

٦- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٤ - ٢٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١، ص ٣٣.

٧- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ١٦٨؛ مصر فى عصر الولاة، ص ١٠٩.

٨- الفرد بتلر، فتح العرب لمصر، ص ٣٢٣ - ٣٢٤؛ ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ١، ص ٢٣٢.

٩- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الولاة، ص ١١٠.

١٠- ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، باريس ١٩١٠، ص ٥ - ٦.

١١- G.Wiet, L'Egypte arabe, Histoire de la nation egyptienne, Le Caire, 1948, IV, p.58.

١٢- سعيد بن بطريق، التاريخ المجموع، ص ٤٥ - ٤٦؛ ابن العميد، تاريخ المسلمين، ليدن ١٨٢٥، ص٨٣ - ٨٤.

ويعتبر بناء الكنائس وتجديدها مظهرا آخر من مظاهر الحريات التى تمتع بها أقباط مصر فى ظل الحكم العربى، فقد أشارت المصادر التاريخية إلى بناء البطرك أغاتون لكنيسة القديس مرقص بالإسكندرية فى أثناء ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر(١٣)، كما شيدت أول كنيسة فى فسطاط مصر فى أيام ولاية مسلمة بن مخلد(١٤)، وهناك أيضا كنيستا مارجرجس وأبو قير اللتان تم تشييدهما داخل قصر الشمع أثناء ولاية عبد العزيز ابن مروان(١٥). ونعلم أيضا أن البطرك إسحق بنى كنيسة بحلوان(١٦)، كما جدد كنيسة القديس مرقص فى أيام الوالى نفسه(١٧). وأشارت المصادر كذلك إلى بناء كنيسة أخرى تعرف بأبى مينا فى منطقة الحمراء بالفسطاط فى زمن الوالى الوليد بن رفاعة(١٨). وشهد العصر الأموى بناء كنائس أخرى عديدة فى خلافة هشام بن عبد الملك بوجه خاص، كما تم تجديد كنيسة الروم بالقرب من قبة الهواء فى زمن الخليفة المأمون العباسى(١٩)، كذلك اذن موسى بن عيسى للنصارى أثناء ولايته الأولى على مصر (١٧١ - ١٧٢هـ/ ٧٨٧ - ٧٨٨م) بإعادة بناء الكنائس التى هدمها على بن سليمان الوالى السابق، وذلك استنادا إلى فتوى من الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة بأن عامة الكنائس التى بمصر لم تشيد إلا فى الإسلام وفى زمن الصحابة والتابعين بوجه خاص(٢٠).

وجدير بالذكر أيضا أن أقباط مصر ظلوا يحتفلون بأعيادهم الدينية فى ظل الحكم العربى، حقيقة أن ولاة مصر فى تلك الفترة لم يشتركوا فى هذه الاحتفالات الدينية كما سوف يحدث فى زمن الإخشيديين والفاطميين(٢١) الذين حاولوا أن يتقربوا إلى الشعب ضد الخلافة العباسية فى بغداد، بيد أن المصريين المسلمين لم يجدوا غضاضة فى مشاركة

١٣- ابن العميد، تاريخ المسلمين، ص ٥٠؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٤٩٢.

١٤- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٣٢؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ١، ص ٦٨؛ جـ٢، ص ٢٧؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ١٢٤؛ جـ٢، ص ٤٩٢.

١٥- سعيد بن بطريق، التاريخ المجموع، جـ٢، ص ٤١.

١٦- ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ٢٤.

١٧ ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ٤٢؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص١٧٢.

١٨- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٧٧.

١٩- G.Wiet, Histoire de la nation, IV, p.65.

٢٠- الكندى، الولاة والقضاة، ص ١٣٢.

٢١- المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ، القاهرة ١٣٤٦هـ، جـ١، ص ٢١٢ - ٢١٣؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٦٤ - ٢٦٩؛ G.Wiet, L'Egypte musulmane, p.143

إخوانهم المسيحيين فى جميع أعيادهم ولا عجب فى هذا فقد كان أغلبهم من أصل قبطى، فى الوقت الذى اكتفى فيه ولاة مصر بمشاركة الأقباط فى الاحتفال بوفاء النيل فقط. وهذا يذكرنا بالأسطورة التى رواها المؤرخ ابن عبد الحكم فى هذا الصدد إذ يقول: «أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه فى شهر بؤونة وقالوا له: أيها الأمير أن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها وهى أنه إذا كان لاثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون فى الإسلام. فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى والنيل لا يجرى قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء عن مصر، فلما رأى ذلك عمرو أسرع بالكتابة إلى الخليفة عمر بن الخطاب، فكتب إليه ببطاقة وأوصاه إلى يلقى بها فى النيل مدون فيها «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وأن كان الله الواحد القهار الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك». فألقى عمرو بالبطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم، فلما أصبحوا يوم الصليب كان النيل قد زاد إلى ستة عشر ذراعا فى ليلة، وقطع فى تلك السنة السوء عن أهل مصر[٢٢].

والحق أن مثل هذه الأسطورة التى انفرد المؤرخ ابن عبد الحكم بذكرها وأخذها عنه بقية المؤرخين، بعيدة كل البعد عن عادات الديانة المسيحية، بل لم تتبع أيضا فى أيام الفراعنة الذين ينسب اليهم خطأ فكرة أو عادة إلقاء فتاة مزينة على قيد الحياة فى النيل تعرف بعروس النيل. بل إن المسألة لا تعدو أن تكون مجرد أشياء رمزية اعتبرها بعض مؤرخى الإسلام حقيقة لا مجازا بسبب إقبال الفراعنة على تزويج تماثيل النيل بتماثيل عروسة رمزية كنوع من التكريم لهذا النهر الذى يجلب لبلاده الخير الوفير[٢٣].

ومن المعروف أيضا أن أقباط مصر كانوا يحتلفون فى اليوم الثامن من شهر بشنس بعيد يعرف بعيد الشهيد ويزعمون أن النيل لا يزيد فى كل سنة حتى يلقوا فيه تابوتا من خشب به أصبع من أصابع أسلافهم الموتى، وقد ظل هذا العيد قائما حتى أبطله السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى العصر المملوكى، كما تم إلغاؤه نهائيا فى سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م فى زمن السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون[٢٤].

٢٢- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٥٠ - ١٥١؛ وقد نقل عنه كل من المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥٨؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٢٩٥؛ وابن تغرى بردى، النجوم، جـ١، ص ٣٥ - ٣٦.

٢٣- G.Wiet, L'Egypte musulmane, p.144

٢٤- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٦٨ - ٧٠.

ومن الاحتفالات التى ساهم فيها ولاة مصر واشترك فيها كل من المسلمين والأقباط على حد سواء صلاة الاستسقاء[٢٥] وذلك عندما يكون النيل ناقصا فى موعد فيضانه، إذ تشير المصادر التاريخية إلى أن حفص بن الوليد استسقى بالناس أثناء ولايته الثانية على مصر من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك عندما أصابها القحط[٢٦] كذلك فعل أبو العون عبد الملك أثناء ولايته على مصر عندما صلى بالمسلمين والأقباط من أجل النيل[٢٧].

وهناك مظهر آخر من مظاهر الحريات العديدة التى تمتع بها الأقباط فى ظل الحكم العربى وهى أن الفتح العربى نفسه ساعد فى بداية الأمر على إحياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التى كانت تعد بمثابة اللغة الرسمية للبلاد منذ عهد البطالمة. فالدروس الدينية التى كانت تقرأ فى الكنيسة باليونانية ثم تشرح بعد ذلك باللغة القبطية، صارت لا تقرأ إلا باللغة القبطية[٢٨]. كذلك نجد أن البلاد والأقاليم التى سميت بأسماء يونانية فى أيام اليونان والرومان، عادت إلى أسمائها القبطية المستمدة من الأسماء المصرية القديمة. وبذلك أصبحنا نجد اسم أخميم بدلا من بانوبوليس Panopolis، وأهناسيا بدلا من هراقليوبوليس Hèracléopolis، والأشمونين بدلا من هرموبوليس Hérmopolis[٢٩].

ومن الملاحظ أيضا أن العرب تركوا مقاليد الأمور فى يد أهل مصر من الأقباط محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين، فمثلا كان فى الحكومة المركزية بالفسطاط أو حلوان، التى اتخذها الوالى عبد العزيز بن مروان حاضرة له فى عام ٧٠هـ/ ٦٨٩م، كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا والسفلى هما أثناسيوس، وإسحق وهما من الأقباط الارثوذكس حسب رواية ساويرس بن المقفع أسقف المنيا والأشمونيين[٣٠]. ومن الواضح أيضا أن رؤساء المالية كانوا يختارون طوال العصر الأموى من بين الأقباط، بدليل أن المؤرخ نفسه يشير إلى ظهور رئيسين للمالية لأول مرة من المسلمين فى أوائل العصر العباسى[٣١]. وحسبنا دليلا على هذا التسامح الذى سلكه العرب إزاء أقباط مصر أن والى

٢٥- انظر ماكتبه ڤيت عن هذا الموضوع Hautecoeur et G.Wiet, Les mosquées du Caire, Paris 1932, p.192.

٢٦- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١، ص ٢٩١.

٢٧- ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ١٩٤- ١٩٦.

٢٨- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ١٧٠.

٢٩- G.Wiet, L'Egypte musulmane, p.138.

٣٠- ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ١٢.

٣١- ساويرس المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ١٨٨.

الصعيد كان قبطيا يدعى بطرس، وذلك فى نهاية ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر، كما كان حاكم مريوط قبطيا يدعى تاوفانس[٣٢]. بل وصل الأمر بالخليفة المأمون العباسى حين قدم إلى مصر فى سنة ٢١٧هـ/ ٨٣٢م اثر ثورة البشمور أن ولى مدينة بورة وما حولها لأحد أهلها من الأقباط فبنى بها كنائس كثيرة على حد رواية سعيد بن بطريق[٣٣].

ويفهم أيضا من تاريخ ساويرس بن المقفع أن والى مصر كان له حق الإشراف على انتخاب البطاركة بوصفه رئيس الدولة وممثل الخليفة فيها، كما أن الأساقفة كانوا يستشيرون الوالى قبل انتخاب البطرك. كما أن البطرك والأساقفة كانوا يذهبون من الإسكندرية مقر البطاركة إلى العاصمة لمقابلة والى مصر بعد الانتخاب[٣٤]. حقيقة أنها كانت مسألة شكلية لأننا لم نعرف أن أحدا من الولاة عارض فى انتخاب أحد البطاركة مادام الأساقفة كانوا يتبعون القوانين الكنسية بدليل أن الوالى عبد العزيز بن مروان أبطل انتخاب أحد البطاركة بعد أن نمى إلى علمه أن البطرك المتوفى كان قد أوصى بشخص غير الذى انتخب[٣٥].

بيد أن سياسة العرب نحو الأقباط بدأت تتغير عما كانت عليه فى السنين الأولى وبدأ يظهر فى الأفق بعض المضايقات التى حملت بعض الأقباط على ترك دينهم هربا منها وحتى يصبحوا على قدم المساواة مع المسلمين. خاصة بعد أن شعر العرب باستقرار أقدامهم فى البلاد التى فتحوها وبتفوقهم وتفوق لغتهم ودينهم على سائر اللغات والأديان. وحسبنا دليلا على ذلك ما ذكره المقريزى عن معاوية بن أبى سفيان أنه قال: «وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف. فثلث ناس، وثلث يشبه الناس، وثلث لا ناس. فأما الثلث الذين هم الناس فالعرب، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالى، والثلث الذين لاناس المسالمة يعنى القبط»[٣٦].

والحق أن المضايقات التى تعرض لها الأقباط داخل مصر لم تكن دائمة، ولم تكن ذات بال إذا ما قورنت باضطهاد المسيحيين فى أيام الإمبراطور الوثنى دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥م) أو باضطهادهم أيام الإمبراطور المسيحى هرقل. كذلك لم تكن تلك المضايقات

٣٢- ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ٥٢.

٣٣- سعيد بن بطريق، التاريخ المجموع، جـ٢، ص ٥٨ – ٥٩؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة ١٩٤٠، جـ١، ص ٨٧.

٣٤- ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ٢٢ – ٢٣؛ جـ١٠، ص ٤٨١ – ٤٨٢.

٣٥- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ١٧١.

٣٦- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥٠؛ أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية، ص ٢٤٢.

أيام العرب لتقارن باضطهاد المسيحيين لإخوانهم المسيحيين المخالفين لهم فى المذهب، فقد قام الباب يوحنا العاشر فى سنة ٢٩٤هـ/ ٩٠٥م بحملة ضد مسيحيى جنوب إيطاليا، كذلك ما حدث أثناء انقسام الكنيستين الشرقية والغربية فى سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م، ويجب ألا نغفل أيضا الحملة الصليبية التى شنها الباب أنوسنت الثالث فى سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م ضد سكان جبال الألب، بل مازال اضطهاد كاثوليك أسبانيا للبروتستنت والمسلمين واليهود، وذكرى محاكم التفتيش فى أسبانيا باقيا ما بقى التاريخ لتصور قمة ما تعرض له المسيحيون وغيرهم على يد إخوانهم فى الدين[٣٧].

أما فيما يختص بالمضايقات التى تعرض لها أقباط مصر فتروى المصادر التاريخية أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص بألا يتشبه أهل الذمة فى الدولة الإسلامية بالمسلمين فى مظهرهم وفى لباسهم ولا يبقى من الكنائس الا ما كان قبل الإسلام وهى الشروط التى شاعت فى الكتب التاريخية باسم الشروط العمرية[٣٨]. وكانت تنقسم إلى مستحق ومستحب حسبما جاء فى الكتب الفقهية. أما المستحق فستة شروط أحدها عدم ذكر الإسلام بذم أو قدح فيه. والثانى عدم ذكر كتاب الله بطعن له أو تحريف فيه، والثالث عدم ذكر رسول الله ﷺ بتكذيب أو ازدراء، والرابع ألا يصيبوا مسلمة بزنا أو باسم نكاح، والخامس ألا يفتنوا مسلما عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دينه، والسادس ألا يعينوا أهل الحرب ولا يودوا أغنياءهم.

وأما المستحب فهو أيضا ستة شروط أحدها لبس الغيار وهى الملابس ذات اللون المخالف للون ملابس المسلمين، والثانى ألا تعلو أبنيتهم فوق أبنية المسلمين، والثالث ألا تعلو أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم، والرابع ألا يتجاهروا بشرب الخمر وإظهار صلبانهم، والخامس أن يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة، والسادس أن يمنعوا من ركوب الخيل ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير[٣٩].

ولكن هل اتبعت هذه الشروط مع أهل الذمة فى مصر؟ الواقع أن مؤرخى مصر الإسلامية لم يوضحوا لنا المدى الذى بلغته هذه الشروط والتعليمات من ناحية التطبيق الفعلى، بمعنى كيف نفذت وما هو مدى مواصلة تنفيذها على مدى العصور، إلا أنه من

٣٧- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الولاة، ص ١١٥.

٣٨- قاسم عبده قاسم، أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٧، ص ٢٧.

٣٩- الماوردى، الأحكام السلطانية، القاهرة ١٢٩٨هـ، ص ١٣٨ - ١٣٩؛ النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ١، ص ٢٣٨ - ٢٣٩؛ ابن الإخوة، معالم القربة فى أحكام الحسبة، نشره روبن ليفى، كمبردج، ١٩٣٧، ص ٤١ - ٤٢.

الثابت تاريخيا أن مثل هذه التعليمات كانت تحترم فقط حين صدورها ثم سرعان ما تتبدد تلك الحمية التى يظهرها الولاة عند تنفيذ أية تعليمات جديدة، وحسبنا دليلا على ذلك كثرة المراسيم والفتاوى التى كان يصدرها الخلفاء وولاة مصر الإسلامية. ففى ولاية أيوب بن شراحبيل (٩٩ - ١٠١هـ/ ٧١٧ - ٧١٩م) عطلت حانات الخمر وكسرت بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى أمر أيضا بعزل الأقباط عن مناصبهم وتمييزهم عن المسلمين فى ملبسهم وركوبهم مما جعل ساويرس بن المقفع يصفه بأنه كان يصنع خيرا عظيما أمام الناس ويفعل السوء أمام الله[٤٠].

ونعلم أيضا أن الخليفة يزيد بن عبد الملك أصدر فى سنة ١٠٤هـ/ ٧٢٢م قرارا بكسر الصلبان فى كل مكان ومحو الصور والتماثيل التى هى رمز الكنائس[٤١]، الأمر الذى أغضب المصريين كثيرا لأن هذا القرار لا يتفق ومذهبهم الدينى بدليل أن ساويرس وصفه أيضا بأنه سلك طريق الشيطان[٤٢]. والحق أن قرار الخليفة يزيد يذكرنا بما قام به مسيحيو أوربا من حركة تسمى بالحركة اللا أيقونية فى القرن الثامن الميلادى، كذلك ما قام به الإمبراطور البيزنطى ليوالايسورى فى سنة ١٠٨هـ/ ٧٢٦م من أتخاذ قرار مماثل بحظر الصور والتماثيل[٤٣]، ولعله كان متأثرا بما حدث فى الدولة الإسلامية المجاورة له[٤٤].

وتتحدث المصادر التاريخية أيضا عن منع الملاهى والخمور وهدم الكنائس المحدثة فى مصر أثناء ولاية على بن سليمان العباسى (١٦٩ - ١٧٩هـ/ ٧٨٥ - ٧٨٦م) من قبل الخليفة الهادى ثم الرشيد[٤٥].

وفى سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م أمر الخليفة المتوكل العباسى بأن يتميز أهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية والزنانير وركوب السروج بركوب الخشب، ويكون السرج كهيئة الأكف

٤٠- ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ٢٤ - ٢٥، ٧١ - ٧٢.

٤١- الكندى، الولاة والقضاة، ص٦١؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٤٩٣.

٤٢- ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ٧٢.

٤٣- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٢، جـ١، ص ١٢٩؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ٣٤.

٤٤- أحمد تيمور، التصوير عند العرب، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات زكى محمد حسن، القاهرة ١٩٤٢، ص ١٣٠.

٤٥- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ١٨٧.

(البرادع)، وعلى رؤوسهم القلانس المختلفة الألوان، وأن تخيط الرقاع على ظهورهم وصدورهم، وأن تكون أزر نسائهم عسلية اللون أيضا وملبس مماليكهم مثلهم، ويمنعوا من لبس المناطق وهدم كنائسهم المحدثة، وأخذ العشر من منازلهم فإن كان الموضع واسعا صير مسجدا وإن كان لا يصلح، صير فضاء، وأمر أن يجعل على باب دورهم أساطين من خشب مسمورة وذلك تمييز بين منازلهم ومنازل المسلمين. ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال الدولة التى تخالف أحكامهم فيها أحكام المسلمين، كما نهى أن يتعلم أولادهم فى كتاتيب المسلمين، وأن يعلمهم مسلم. ونهى كذلك أن يظهروا فى أعيادهم وشعانينهم صليبا، وأمر أيضا أن تسوى قبورهم بالأرض لئلا تشبه قبور المسلمين، وأن يقتصروا فى ركوبهم على البغال والحمير من دون الخيل. كما أمر بعزل النصارى عن قياس زيادة نهر النيل وكانوا يقومون بهذا العمل دون غيرهم، وأمر ألا يليه إلا مسلم فتولاه أبو الرداد عبد الله بن عبد السلام المؤدب وقد ظل فى يد أولاده من بعده حتى عصر سلاطين المماليك[٤٦].

خلاصة القول أن هذه الأوامر كانت تنفذ حين صدورها بمنتهى الدقة، بيد أن التمسك بها كان يقل تدريجيا بمرور الوقت، ليعود المسلمون بعدها إلى التسامح إزاء أهل الذمة من الأقباط واليهود وحسبنا دليلا على ذلك ما رواه أحد بطاركة بيت المقدس فى عام ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م من «أن المسلمين يظهرون كثيرا من العطف نحونا بالسماح لنا ببناء كنائسنا»[٤٧].

وإلى جانب المضايقات الاجتماعية والمعنوية التى تعرض لها أقباط مصر فى ظل الحكم العربى، والتى كانت أحد العوامل التى دفعت ببعض الأقباط إلى اعتناق الدين الإسلامى، وجدت أيضا بعض المضايقات المادية إذ لا يخفى على الدارس لهذه الحقبة من تاريخ مصر الإسلامية مدى اهتمام العرب بجمع الجزية حتى قيل أن الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩هـ/ ٧١٤ - ٧١٧م) كتب إلى أسامة بن زيد التنوخى متولى خراج مصر بما نصه «أحلب الدر حتى ينقطع وأحلب الدم حتى ينصرم[٤٨]»، وقيل أيضا أن

٤٦- ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص ٧٥ - ٧٧؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٢٩٩.

٤٧- G.Wiet, Histoire de la nation, IV, p.25.

٤٨- الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق السقا والأبيارى، القاهرة ١٩٣٨، ص ٥٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١، ص ٢٣١.

الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر حيان بن سريج عامل خراج مصر بأن يجعل جزية موتى الأقباط على أحيائهم[٤٩] مما كان سببا فى إسلام كثير من أقباط مصر الذين أرادوا التخلص من الجزية وأفضى فى النهاية إلى نقص موارد الدولة. كذلك لجأ بعض الأقباط إلى اتخاذ الرهبنة سبيلا لكى يتهربوا من دفع الجزية[٥٠]، وخاصة أن العرب قاموا فى أول الأمر بإعفاء الرهبان من دفع جزية الرؤوس فوجد فيها بعض الاقباط سبيلا لعدم أداء الجزية وعدم اعتناق الإسلام، بيد أن الحكومة قد فطنت إلى ذلك وبادرت بإحصاء الرهبان وعمل سجلات للاهالى، إذ تروى المصادر التاريخية أن عبد العزيز بن مروان يعتبر أول من قام بإحصاء الرهبان فى كل الكور وفى وادى النطرون وفى سائر الأماكن كما فرض دينارا جزية على كل راهب، وأمر بألا يترهب أحد بعد من أحصاه[٥١]. ونقرأ أيضا أنه فى أثناء ولاية قرة بن شريك اشتدت حركة الهروب من إقليم إلى إقليم بل كانت أسرات بأسرها تنتقل من مكان إلى مكان فرارا من دفع الضرائب الأمر الذى اضطره إلى عمل سجلات بأسماء القرى والأقاليم المختلفة وإحصاء الرجال والجزية الواجبة عليهم ، كما تشهد بذلك أوراق البردى التى عثر عليها فى كوم إشقاو[٥٢]. وتتحدث المصادر عن سجلات أخرى تمت على يد أسامة بن زيد التنوخى أشبه بالبطاقات الشخصية حيث ألزم كل شخص يريد الانتقال من جهة إلى أخرى أن يحمل سجله معه وإلا تعرض للقبض عليه ونهب ماله، كذلك قام أسامة بإحصاء الرهبان للمرة الثانية وأمر الرهبان فى الأديرة ألا يقبلوا من يأتى إليهم. وضمانا لذلك لجأ إلى وشمهم عن طريق حلقة من الحديد توضع حول يد الراهب اليسرى، كما وشم كل واحد منهم باسم بيعته وديره والتاريخ الهجرى[٥٣].

ترتب على كل هذه الإجراءات اعتناق فئات أخرى من أقباط مصر للدين الإسلامى، يبدو أن عددهم قد تزايد بصورة كبيرة على زمن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز بدليل تلك الرسالة التى بعث بها إليه حيان بن سريج عامل خراج مصر يقول فيها «أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار وتممت عطاء

٤٩- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٧٧.

٥٠- G.Wiet, L'Egypte musulmane, p.132.

٥١- ابن الراهب، تاريخ ابن الراهب، نشره لويس شيخو، بيروت ١٩٠٣، ص ١٢٣، ١٢٤؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٩٢.

٥٢- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ٢٠٣.

٥٣- ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ٦٨، ٧٠؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٤٩٢ - ٤٩٣.

أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل»، فرد عليه الخليفة قائلا: «تمنع الجزية عمن أسلم، قبح الله رأيك فإن الله إنما بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يبعثه جابيا[٥٤]».

ومع هذا فيبدو أن سياسة إعفاء الذين يعتنقون الإسلام من الجزية لم تستمر بصفة دائمة بعد عهد عمر بن عبد العزيز بدليل أننا نرى بعد ذلك أن قرار أى خليفة برفع الجزية عمن أسلم كان يشجع الكثيرين على اعتناق الدين الإسلامى[٥٥]. حقيقة أنه لا يمكننا التأكيد بأن إسلام هؤلاء الذين يريدون التخلص من تلك المضايقات كان صحيحا، ولكن ذريتهم كانت تنشأ من غير شك فى وسط الإسلام وتندمج فى الجماعة الإسلامية تماما.

ولكن هل وقف أقباط مصر دائما هذا الموقف السلبى من الإجراءات المالية والإدارية للخلفاء والولاة، الذى تمثل فى الهرب من إقليم إلى إقليم، أو عن طريق الانخراط فى سلك الرهبنة أو حتى عن طريق اعتناقهم الإسلام. بالطبع لا إذ تحدثنا الوثائق التاريخية عن قيامهم بالثورة المعلنة فى بعض الأحيان، ومن ذلك ما حدث فى ولاية الحر بن يوسف (١٠٥ - ١٠٨هـ/ ٧٢٣ - ٧٢٦م) إذ اضطر الأقباط تحت ضغط الأعباء المالية الثقيلة إلى الثورة فى عام ١٠٧هـ/ ٧٢٥م فى الوجه البحرى فبعث إليهم الحر جيشا لمحاربتهم فقتل منهم نفرا كثيرا[٥٦]، كما حصل على إذن من الخليفة هشام بن عبد الملك باستقدام أناس من العرب الشماليين وبالذات من قبيلة قيس كى يستقروا فى أرض مصر وبالذات فى ريفها مما كان له أكبر الأثر فيما بعد بالنسبة لموضوع انتشار الإسلام واللغة العربية فى ريف مصر[٥٧].

ولم تتوقف ثورات الأقباط بل نجد منها سلسلة طويلة إذ حدث أن ثار أقباط الصعيد فى عام ١٢١هـ/ ٧٣٩م وحاربوا عمال حنظلة بن صفوان والى مصر الذى بعث إليهم بجيش انتصر عليهم وقتل منهم عددا كبيرا[٥٨].

كذلك ثار القبط بسمنود عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م وخرج من بينهم شخص يدعى يحنس مما اضطر عبد الملك بن مروان أن يبعث إليه بموسى بن نصير والى مصر إذ ذاك على رأس جيش لمحاربته، فنجح فى قتله مع العديد من أصحابه[٥٩].

٥٤- أبو يوسف، كتاب الخراج، بولاق ١٣٠٢هـ، ص ١٣١؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٧٨؛ أحمد عبدالرازق، الحضارة الإسلامية، ص ١٤٧.

٥٥- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الولاة، ص ١٢٩.

٥٦- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٧٣- ٧٤؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٧٩.

٥٧- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٦١.

٥٨- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٧٩.

٥٩- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٩٤، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٧٩.

وفى نفس السنة ثار أيضا القبط برشيد فبعث إليهم الخليفة الأموى مروان بن محمد بجيش لمحاربتهم وذلك عند دخوله مصر فارا من بنى العباس فهزمهم وقضى على ثورتهم[٦٠].

وفى سنة ١٣٥هـ/ ٧٥٢م عاد أقباط سمنود إلى الثورة من جديد فى ولاية أبى العون الأولى على مصر فبعث إليهم بجيش لمحاربتهم ونجح فى القضاء عليهم وقتل زعيمهم أبو مينا[٦١].

ونقرأ أيضا عن ثورة أقباط سخا فى سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م فى ولاية يزيد بن حاتم ابن قبيصة حيث انضم إليهم أهل البشرود وبعض جهات الوجه البحرى ونجحوا فى إنزال الهزيمة بالعرب[٦٢].

كذلك ثار أقباط مصر فى سنة ١٥٦هـ/ ٧٧٣م فى ولاية موسى بن على بن رباح مما اضطره إلى أن يبعث إليهم بجيش نجح فى إيقاع الهزيمة بهم[٦٣].

وتعد ثورة البشمور أو البشرود وهى المنطقة الرملية بين فرعى رشيد ودمياط[٦٤] عند بحيرة المنزلة آخر هذه الثورات فقد حدث أن ثار أهلها فى أثناء ولاية عيسى بن منصور سنة ٢١٦هـ/ ٨٣١م، الذى لم يستطع إخماد الثورة فبعث إليه الخليفة المأمون بقائده الأفشين فامتنعوا عليه كذلك مما اضطر الخليفة إلى القدوم بنفسه إلى مصر وذلك فى المحرم من سنة ٢١٧هـ/ فبراير ٨٣٢م وقد أعلن سخطه على واليه عيسى بن منصور وقال له «لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من فعلك وفعل عمالك، حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتونى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد[٦٥]». وقد حاول المأمون معالجة الأمر باللين حيث أرسل إليهم بعض البطاركة ووعدهم ألا يعاقبهم إن هم رجعوا عن ثورتهم ولكن أهل البشمور رفضوا الاستجابة مما اضطر الخليفة إلى أن يعمل فيهم السيف وأحرق مساكنهم وهدم كنائسهم، وبالفعل لم تقم بعد ذلك للقبط قائمة، وأصبح المسلمون أغلبية فى مصر وفى الوجه البحرى بصفة خاصة. وتتميز ثورة البشرود هذه باشتراك العرب

٦٠- ساويرس بن المقفع، سير الآباء، جـ٥، ص ١٨٨.

٦١- الكندى، الولاة والقضاة، ص ١٠٦، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١، ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

٦٢- الكندى، الولاة والقضاة، ص ١١٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٧٩.

٦٣- الكندى، الولاة والقضاة، ص ١١٩، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٧٩.

٦٤- G.Wict, Histoire de la nation, IV, p.43.

٦٥- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٨١؛ الكندى، الولاة والقضاة، ص ١٩٢.

المسلمين مع الأقباط المسيحيين فى الثورة ضد الحكومة ذلك أن زيادة عدد العرب بمصر وامتلاكهم الأراضى جعلهم أيضا يتعرضون لتعسف الحكومة فى جباية الخراج والأموال، وعلى هذا فإن اشتراكهم فى ثورات الأقباط لم يكن تعبيرا دينيا ولكنه كان فى الواقع تعبيرا وطنيا أى موقف شعب ولو أنه مختلف فى العقيدة إلا أنهم وقفوا موقفا موحدا ضد سلطة تتعسف فى جباية الأموال. ولا غرابة فى ذلك فقد ساعد وجود العرب فى القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالأهالى، وكان بالطبع لهذا الاختلاط أثره فى انتشار الإسلام واللغة العربية كنتيجة طبيعية للتزاوج المختلط بينهم وبين أهالى البلاد مما أفضى فى النهاية إلى ميلاد شعب جديد هو الشعب المصرى الإسلامى[٦٦]، إذ تكشف لنا شواهد القبور التى وصلتنا من عصر الولاة أن العرب كانوا ينتسبون فى القرنين الأولين للهجرة إلى القبيلة، على حين أصبحنا نجدهم ابتداء من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ينتسبون تدريجيا إلى الجهة التى ينتمى إليها المتوفى فيقال مثلا المصرى، الإدفوى، الكوفى وهكذا[٦٧].

أما فيما يتعلق بانتشار اللغة العربية فنحن نعلم أن العرب كانوا قد بدأوا بعد فتح مصر بأقل من نصف قرن يتجهون إلى تعريب البلاد وإلى جعل اللغة العربية لغة رسمية وذلك لسبب بسيط هو عدم معرفتهم باللغة القبطية[٦٨] فنجد أن الأصبغ بن عبد العزيز يأمر بترجمة الإنجيل وعدة كتب دينية بغرض الإحاطة بدين هؤلاء القوم، غير أن الأهم من ذلك كله هو ما يعرف فى التاريخ الإسلامى بحركة التعريب التى بدأها الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان، إذ عمد إلى تعريب دواوين الشام والعراق[٦٩]. أما فيما يتعلق بمصر فنحن نعلم أنه بدئ فى تعريب دواوينها فى خلافة الوليد بن عبد الملك عام ٨٧هـ/ ٧٠٦م[٧٠]. والواقع أن تعريب الدواوين يعد عملية ترجمة جبارة ومنظمة أدت إلى نقل كثير من المصطلحات الفارسية واليونانية والقبطية إلى العربية. وقد ساعد التعريب على شيوع اللغة العربية وانتشارها بين الأقباط بعد أن أصبحت لغة الإدارة فضلا عن كونها لغة الدين

٦٦- قاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ٤٤.

٦٧- G.Wiet, L'Egypte musulmane, pp.136-137.

٦٨- G.Wiet, l'Egypte musulmane, p.125; Histoire de la nation, IV, p.43.

٦٩- الماوردى، الأحكام السلطانية، ص ١٧٨ - ١٧٩؛ الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص ٣٨ - ٤٠؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٤٤.

٧٠- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٨٠؛ الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص ٦٧؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص١٧٥.

والسياسة والثقافة، وذلك حتى يمكنهم الاحتفاظ بالوظائف التى اضطروا إلى التخلى عنها بعد تعريب الدواوين ثم سرعان ما عادوا إليها بعد تعلم اللغة العربية(٧١).

ومع هذا فيمكن القول أن انتشار اللغة العربية بمصر كان أبطأ من انتشار الدين الإسلامى إذ تشير الوثائق البردية إلى أن الحكومة كانت تستخدم اللغتين العربية واليونانية حتى القرن الثانى من الهجرة/ الثامن الميلادى، فى الوقت الذى كانت فيه السلطات المحلية فى الريف تكتب كثيرا باللغة القبطية(٧٢)، بل وصلنا وثيقة من البردى عبارة عن إيصال لدفع الضرائب من سنة ٢٤٦هـ/ ٨٦١م، عليها كتابة قبطية(٧٣).

ويبدو أيضا أن اللغة العربية لم تكن قد ذاعت وانتشرت بين شعب مصر فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، وحسبنا دليلا على ذلك ما رواه المقريزى بصدد زيارة الخليفة المأمون لمصر سنة ٢١٧هـ/ ٨٣٢م، إذ يقول «وكان لا يمشى أبدا إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس(٧٤)». وعلى هذا يمكن القول أن أقباط مصر لم يتركوا لغتهم تماما إلا ابتداء من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، إذ نرى أن البطرك الملكانى سعيد بن بطريق يدون كتابه فى التاريخ باللغة العربية إبان هذه الفترة. كذلك ساويرس بن المقفع أسقف المنيا والأشمونين يكتب عن تاريخ بطاركة الإسكندرية باللغة العربية فى أواخر القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، وذلك عن طريق جمع الوثائق اليونانية والقبطية(٧٥) وترجمتها مما يشير إلى أن اللغة العربية أصبحت لغة التخاطب بين المصريين عامة وأن اللغة القبطية لم تعد سائدة بين عامة الشعب، والحق أن انتشار اللغة العربية بمصر يميز العرب على غيرهم من الفاتحين، ذلك أن الشعوب التى توالت على فتح مصر والاستيلاء عليها قبل العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين، وهذه ظاهرة تستحق إعمال الذهن، لأن تنازل شعب عريق فى المدنية كشعبنا المصرى عن

٧١- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ١٧٩.

٧٢- ومع هذا فقد أشار Renaudot إلى أنه بعد فتح العرب لمصر بنحو قرن تلاشت اللغة القبطية نهائيا فى معظم القطر المصرى ولم تعد تعرف إلا بين العلماء الذين كانوا يدرسون تلك اللغة دراسة خاصة. أنظر Quatremère, Recherches citiques et historiques sur la langue et la littérature de l'Egypte, Paris, 1808, p.39.

٧٣- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الولاة، ص ١٣٩.

٧٤- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٨١.

٧٥- G.Wiet, L'Egypte musulmane, p.199.

لغته واتخاذه لغة أخرى يتحدث بها شعب لا يوازيه من ناحية الحضارة، يعتبر تاريخيا أمرا غير عادى[٧٦].

مجمل القول أنه كان على الذين يعتنقون الإسلام أن يتعلموا لغة القرآن الكريم كى يتفهموا تعاليم الدين الذى اعتنقوه، وعلاوة على ذلك نجد أن أقباط مصر الذين كانوا يعملون فى الدواوين رأوا أنه كى يحتفظوا بمناصبهم بعد حركة التعريب لابد لهم من تعلم اللغة العربية، تلك اللغة التى أصبحت لغة رسمية للإدارة فى الدواوين وذلك اعتبارا من سنة ٨٧هـ/ ٧٠٦م، كما أنه كان لاتصال العرب بالاهلين وامتزاجهم بأهل الريف بعد أن استقروا فيه كان لكل ذلك أثر لا ينكر فى انتشار لغة العرب الفاتحين، وكان أهم عامل من هذه العوامل جميعا هو نزول القبائل العربية فى الريف المصرى بعد أن استقدمهم عامل الخراج عبيد الله بن الحبحاب فى سنة ١٠٩هـ/ ٧٢٧م وكانت غالبيتهم من عرب الشمال وبالذات من قبيلة قيس، وقد جاءوا واستقروا بوادى النيل وفى الدلتا واختلطوا بالأقباط اختلاطا كبيرا مما ساعد على انتشار اللغة العربية انتشارا كبيرا، إذ بدون هذا التفاعل والاختلاط لا يمكن أبدا تفسير كيفية ترك الفلاح المصرى لغته رغم تمسكه بالقديم وحرصه الكامل عليه.

على أن العامل الأساسى لانتشار الإسلام واللغة العربية بين قبط مصر، يرجع إلى الدين الإسلامى نفسه، وذلك إلى جانب العوامل الأخرى من مالية واجتماعية كما أوضحنا من قبل، وذلك بسبب أن الدين الإسلامى يعد فى الواقع مجموعة من القوانين تنظم المجتمع وقطاعاته فهو يحدد العلاقة بين الفرد وربه، وبين الفرد وأسرته، وبين الأسرة والمجتمع، وبين المجتمعات بعضها ببعض، بل إنه ينظم علاقة دولة بدولة أخرى، وينظم علاقة الغالب بالمغلوب، أى أنه يعد نظاما دينيا، اجتماعيا، اقتصاديا، عسكريا، سياسيا[٧٨].

ووجد القبطى أن إله الدين الجديد إله واحد، ليس فيه مشاكل المناقشة حول طبيعة السيد المسيح، كما أنه وجد هذا الدين ينظر إلى جميع الناس نظرة واحدة «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير[٧٩]». إذن كان الإسلام ينظر إلى الناس على أساس من العدل والمساواة

٧٦- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ٢٣٢.

٧٧- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٧٦؛ المقريزى، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، القاهرة ١٣٥٦هـ، ص ٥٠.

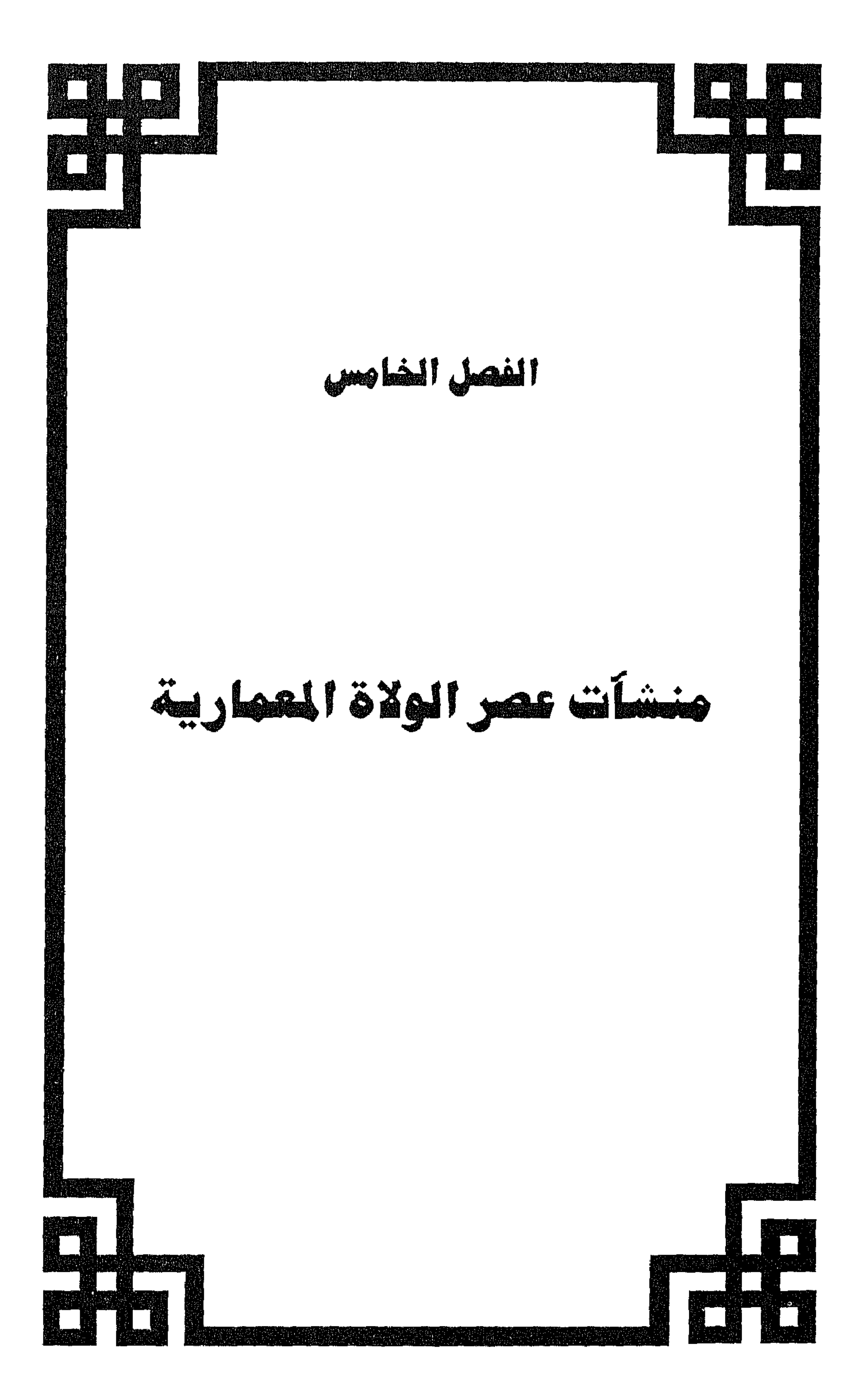
٧٨- أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية، ص ٢٢.

٧٩- قرآن كريم، سورة الحجرات، آية ١٣.

فهم جميعا على اختلاف دينهم وجنسياتهم من خلق الرحمن والفرق الوحيد بينهم حدده القرآن بالتقوى، كما حدده الحديث الشريف «اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد حبشى كأن رأسه زبيبة».

وأخيرا نجد أن العامل المالى والاجتماعى كان من العوامل الهامة فى انتشار الإسلام واللغة العربية، فإن كانت هناك بعض المضايقات التى أدت فى بعض الأحيان إلى زيادة انتشار الإسلام واللغة العربية فقد كانت هذه المضايقات قليلة كما يشهد بذلك ساويرس بن المقفع نفسه، رجل الدين القبطى، والذى كان يشغل منصب أسقف المنيا والأشمونين، وهو الذى لا يشك فى كتابته فى هذا الصدد، والذى لم يكن ليغفل تفصيل الكلام عن أية اضطهادات أصابت المسيحيين.

وهكذا يمكن القول فى النهاية أن دعائم وأسس التعريب ونشر الدين الإسلامى بمصر قد غرست فى القرنين الأولين من الهجرة، ثم عممت وانتشرت فى غضون القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، حيث ذابت الشخصية المصرية فى الشخصية العربية، كما ذابت الشخصية العربية فى الشخصية المصرية مفضية بذلك إلى شخصية جديدة هى الشخصية العربية الإسلامية العالمية.



الفصل الخامس

منشآت عصر الولاة المعمارية

الفسطاط

استطاع العرب بعد فتحهم مصر الامتزاج فى الشعب المصرى مما كان له أكبر الأثر فى تغلب الثقافة الإسلامية والدين الإسلامى كما سبق أن ذكرنا من قبل، كما شجع الخلفاء وفود القبائل العربية إلى مصر مما أفضى بدوره إلى زيادة عدد المسلمين بها، إذ يمكننا أن نقدر جيش الفتح الذى استقر بمصر بنحو ستة عشر ألفا من الرجال[١]، ولاندرى فى الواقع كم كان عدد سكان مصر حينذاك وإن كان ابن عبد الحكم قد أشار أنه كان بها أكثر من ستة ملايين رجل ممن تجب عليهم الجزية[٢] وهذا طبعا باستثناء الشيوخ والنساء والأطفال، وبفرض أن الذين وجبت عليهم الجزية كانوا يمثلون فقط ثلث سكان مصر، فإن هذا يعنى بمنتهى البساطة أى عدد سكان مصر وقت الفتح العربى لها كان يقدر بثمانية عشر مليون نسمة وهذا عدد مبالغ فيه خاصة ونحن نعلم أن عدد سكانها تحت الحكم البيزنطى أى قبل الفتح كان لايتجاوز السبعة ملايين نسمة باستثناء الإسكندرية التى بلغ عدد سكانها حوالى ثلثمائة ألف نسمة[٣].

خلاصة القول أن الفاتحين كانوا يمثلون أقلية ضئيلة بالنسبة لأهل البلاد وفضلا عن ذلك فإنهم لم يختلطوا بهم وإنما اختطوا لهم مدينة عربية إسلامية فى وسط المحيط المصرى المسيحى. والحق أن ظاهرة تخطيط المدن كانت تعد من أهم الظواهر التى سار عليها العرب جنبا إلى جنب مع الفتوحات الإسلامية، وذلك رغبة منهم فى إنشاء مراكز إدارية وحربية ودينية فى البلاد المفتوحة[٤].

ولقد دخل عمرو بن العاص فى بادئ الأمر مدينة الإسكندرية عاصمة مصر قبل الفتح فرآها مدينة عامرة وقصورها فخمة فهمَّ أن يسكنها وقال"مساكن قد كفيناها"[٥] وأسرع بالكتابة إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك. فسأل الخليفة رسول عمرو: هل يحول بينى وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل. فكتب عمر إلى عمرو : إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولاصيف. كما روى المؤرخ ابن عبد الحكم أيضا أن عمر كتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو نازل بمدائن كسرى والى عامله بالبصرة والى عمرو بن العاص وهو نازل بالإسكندرية "أن لاتجعلوا بينى

١- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، ص ١٢٤.

٢- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص٥٦.

٣- H.Munier, L'Egypte byzantine, Le Caire,1932,p.84.

٤- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الولاة، ص٢١٥.

٥- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ليدن، ص٢١٥.

وبينكم ماء، متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت. ولهذا السبب تحول سعد بن أبى وقاص من مدائن كسرى إلى الكوفة، وتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط[٦]".

فالخليفة عمر رأى بثاقب بصره أن يكون الطريق بين عواصم الولايات الجديدة وبين مركز الخلافة فى المدينة المنورة آمنا سهلا ميسورا لاتقطعه موانع طبيعية حتى يسهل عليه إذا لزم الأمر إرسال المدد لها فى أى وقت[٧]. والإسكندرية كانت بالنسبة له متطرفة وبعيدة عن أن تكون قاعدة متوسطة صالحة لمركز الحكم العربى بمصر، وليس الغرض كما يفهم من عبارته هو خوفه من ركوب البحر أو تأمين طريقه شخصيا عند قدومه إليها. وعلى ذلك تحول عمرو بن العاص عن الإسكندرية إلى الفسطاط[٨] وكان هذا الموقع فضاء ومزارع يحده شرقا جبل المقطم، وغربا نهر النيل، وجنوبا بركة الحبش، وشمالا جبل شكر[٩].

وكما جرت العادة لدى العرب اختط عمرو أول ما اختلط المسجد الجامع الذى عرف بتاج الجوامع، وبالجامع العتيق[١٠]، وبجامع عمرو بن العاص. وكان المسلمون يقيمون فيه الصلوات الخمس ويجمعون الجمع، كما كانت بمثابة مدرسة دينية يتعلم فيه الناس الدين الإسلامى، ومركزا للقضاء. وقد ظل مسجد عمرو المسجد الجامع الوحيد بمصر فى عهد الولاة إلى أن شيد الفضل بن صالح بن على العباسى فى أثناء ولايته على مصر من قبل الخليفة المهدى جامع العسكر فى سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م. وبعد ذلك اختط عمرو داره بجوار المسجد حيث عرفت أيضا بالدار الكبرى[١١] وجعل بينهما طريقا، كما اختط حول داره والمسجد أحياء العرب وقبائلهم من قريش والأنصار وأسلم وغفار وجهينة وأهل الراية وغيرهم من أقوام الفرس والروم الذين سبق لهم الدخول فى الإسلام وشهدوا مع عمرو بن العاص فتح مصر[١٢].

٦- المقريزى، الخطط، جـ١ ٢ص ٢٩٦؛ السيوطى، حسن المحاضره، جـ١، ص ٥٧.

٧- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٨١.

٨- جمال الدين الشيال، الفسطاط، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، المجلد ١٢، سنة ١٩٥٨، ص١٣٤.

٩- فريد شافعى العمارة العربية فى مصر الاسلامية، عصر الولاة، القاهرة ١٩٧٠، ص ٣٤٧.

١٠- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤ ص ٥٩؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية التى صلى فيها فريضة الجمعة حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول، القاهرة ١٩٤٦، جـ٢١ ص ٢٣.

١١- عبد الرحمن زكى، الفسطاط وضاحتياها العسكر والقطائع، القاهرة ١٩٦٦، ص١٢؛ فريد شافعى، العمارة العربية، ص ٣٥٣.

١٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص٢٩٦.

ولقد بدئ فى بناء مدينة الفسطاط سنة ٢١هـ/٦٤٢م. أما عن سبب تسميتها بالفسطاط فقد اختلفت الآراء وتنوعت القصص والروايات ومن أشهرها أنها سميت كذلك نسبة إلى فسطاط عمرو أى خيمته، الذى تركه فى ذلك المكان عندما أراد التوجه إلى الإسكندرية بعد فتح حصن بابليون، إذ وجد يماما قد فرخ فقال عمرو: «لقد تحرم منا بحرم» وأقر فسطاطه كما هو وأوصى به صاحب القصر، ولما عاد المسلمون من الإسكندرية، قالوا أين ننزل؟ قال: الفسطاط، أى لفسطاطه الذى كان خلفه[١٣].

على حين ذهب بعض الباحثين إلى أن كلمة فسطاط هذه مأخوذة من اللفظ اليونانى فساطن ذلك اللفظ الذى اشتق من اللفظ اللاتينى Fossatum أى العسكر أو الحصن أو الخندق الذى كان عند بابليون ثم حرفه العرب إلى فسطاط بعد ذلك[١٤]. بيد أن هذا الزعم لايستند على أى دليل تاريخى، ولا يتفق أيضا مع منطق الأحداث، ولاسيما أن لفظة فسطاط لفظة عربية كانت تطلق أيضا على المدينة ومجتمعها، فقد جاء فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: "عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط"[١٥]، أى مع المدينة التى بها مجتمع الناس. ولذا فمن المرجح أن العرب قد أطلقوا على المدينة التى شيدوها فى مصر اسم الفسطاط بمعنى المدينة أو الخيمة[١٦] كما أطلق على البصرة كذلك الاسم نفسه.

وكانت الفسطاط فى أول أمرها مدينة متواضعة مشيدة باللبن لايعلو بنيانها عن الطابق الواحد بدليل أن خارجة بن حذافة عندما بنى بها غرفة أى دارا مرتفعة وبلغ ذلك عمر بن الخطاب، كتب إلى عمرو بما نصه"أما بعد فإنه بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه فإن أتاك كتابى هذا فاهدمها إن شاء الله والسلام[١٧]". وكان هذا يتفق فى الواقع مع حياة البساطة التى كان عليها المسلمون حينذاك.

١٣- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص٣٢٦.

١٤- الفريد بتلر، فتح العرب لمصر، ص٢٥٠؛ L.Caetani, Annali dall'Islam, Milano,1911,1912, IV,pp.544-545.

١٥- حسن الباشا، القاهرة تاريخها، فنونها، آثارها، القاهرة ١٩٧٠، ص١٤.

١٦- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، طبعة تورى، ص٩١؛ ياقوت، معجم البلدان، القاهرة ١٩٠٦، جـ٦، ص ٣٧٩؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٢٩؛ جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٦٧، جـ١، ص٤١.

١٧- ابن عبد الحكم، طبعة تورى، ص١٠٤؛ فريد شافعى، العمارة العربية، جـ١، ص٣٥٢؛ وانظر أيضا ابن دقماق الذى أشار إلى هذا الحدث بعبارة أخرى، الانتصار، جـ٤، ص٩.

على أن العرب سرعان ماتخطوا البساطة وتوسعوا فى البناء، إذ شيد عبد الله بن سعد بن أبى السرح والى مصر من قبل عثمان بن عفان قصرا كبيرا عرف فى المصادر التاريخية باسم قصر الجن[١٨]، كما ابتنى مروان بن الحكم لنفسه بعد أن ولى الخلافة دارا عظيمة عند قدومه إلى مصر سنة ٦٥هـ/٦٨٤م. كذلك شيد بها عبد العزيز بن مروان دارا ضخمة أطلق عليها دار الذهب وجعل لها قبة ذهبية كانت إذا طلعت الشمس عليها لا يستطيع الناظر التأمل فيها خوفا على بصره، ويقال إن هذه الدار كانت من الضخامة لدرجة أنها سميت بالمدينة لعظم سعتها[١٩].

كذلك اشتملت الفسطاط على الميادين والأسواق كما أسس بها المصانع المختلفة والحمامات وغير ذلك مما يصعب علينا حصره فى هذا المجال[٢٠].

ورغم ماتعرضت له الفسطاط أولى عواصم مصر الإسلامية من تدمير خلال الاضطرابات التى تعرضت لها بعد ذلك، فإن المدينة اخذت تنمو حتى أصبحت تثير دهشة الرحالة القادمين من كل مكان فقد وصفها الإصطخرى المتوفى سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م بأنها مدينة كبيرة غاية من العمارة والخصب، كما أشار إلى أن مبانيها بالطوب طبقات، وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثمان طبقات[٢١]. على حين ذهب المقدسى المتوفى سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م إلى أن دورها تتألف من أربع طبقات وخمس كالمنائر، يدخل إليها الضياء من الوسط، وأنه يسكن الدار الواحدة نحو مائتى نفس[٢٢].

أما الرحالة الفارسى ناصر خسرو الذى زارها فى غضون القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، فقد روى أنها تبدو من بعيد كالجبل لارتفاع منازلها التى تتراوح بين سبع طبقات وأربع عشرة طبقة، كما أشار إلى أن شوارعها كانت تضاء نهارا بالقناديل لأن ضوء الشمس كان لايصل إلى أرضها[٢٣].

كذلك حدثنا القضاعى أنه كان بالفسطاط إبان القرن الخامس الهجرى/ الحادى

١٨- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١١٠؛ أحمد عبد الرازق أحمد، بيوت الفسطاط الأثرية، المتحف العربى، السنة الرابعة، العدد الأول يوليو- سبتمبر ١٩٨٨، ص٦.

١٩- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص١٠٨.

٢٠- أحمد عبد الرازق أحمد، بيوت الفسطاط، ص٦.

٢١- الاصطخرى، مسالك الممالك، ليدن ١٩٢٧، ص ٤٨-٤٩.

٢٢- المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦، ص ١٩٧- ١٩٩.

٢٣- ناصر خسرو، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥، ص ٨٥.

عشر الميلادى أيضا ستة وثلاثون ألف مسجد، وثمانية آلاف شارع مسلوك، وألف ومائة وسبعون حماما[٢٤].

ومن الملاحظ أنه رغم بناء عواصم أخرى لتصبح مقرا للحكم بمصر فقد ظل للفسطاط مكان الصدارة والأهمية، وظلت تزدحم بالسكان، وكان ساحلها عامرا بالمراكب الصاعدة والنازلة والراسية كما كان بها داران للصناعة، ونعنى بهما صناعة السفن، هما صناعة الروضة وصناعة الفسطاط، وقد دهش المقدسى أثناء وجوده بها من كثرة المراكب التى رآها راسية وسائرة بها[٢٥].

والحق أن المتتبع لتاريخ هذه المدينة سوف يلاحظ أنها تعرضت لكثير من التخريب والتدمير إذ منيت بأول محنة عندما فر مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية أمام جيوش العباسيين إلى مصر سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م وعندما اضطر إلى الانسحاب من الفسطاط أمر بإحراقها[٢٦].

كذلك تعرضت المدينة للنهب عندما قدم محمد بن سليمان على رأس الجيوش العباسية سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م بهدف القضاء على الدولة الطولونية، إذ نهب أصحابه الفسطاط[٢٧].

ويفهم أيضا من المصادر التاريخية أن المدينة تعرضت مرارا للنهب على يد جنود الفاطميين وخصوصا فى زمن الخليفة الحاكم بأمر الله، والخليفة الظاهر[٢٨] ومع هذا فإن أخطر ما تعرضت له الفسطاط من محن كان فى أيام الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر بسبب الأزمة الاقتصادية العنيفة التى استمرت سبع سنين من سنة ٤٥٧- ٤٦٤هـ/ ١٠٦٥- ١٠٧١م حيث تخربت الفسطاط كثيرا. كذلك فى أثناء الفتنة التى نشبت بين شاور وضرغام وزيرى العاضد آخر خلفاء الفاطميين عندما أمر شاور بإخلائها فى سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م وبعث إليها بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار، وفرق ذلك فيها لمنع الجيش الصليبى بقيادة عمورى ملك بيت المقدس من الاستيلاء على مصر، حيث استمرت النيران مشتعلة فيها لتمام أربعة وخمسين يوما[٢٩].

٢٤- المقريزى، الخطط، جـ١٢ص ٣٣١؛ أحمد عبد الرازق أحمد، بيوت الفسطاط، ص٦.

٢٥- المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ١٩٨.

٢٦- الكندى، الولاة والقضاة، ص٩٥.

٢٧- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص١١٢.

٢٨- أحمد عبد الرازق، بيوت الفسطاط، ص ٢٨.

٢٩- المقريزى، الخطط، جـ، ص ٣٣٥، ٣٣٩.

ومن وقتها أفل نجم المدينة رغم أن صلاح الدين الأيوبى حاول أن يجمع بين القاهرة ومابقى من الفسطاط بسور واحد[٣٠] إذ تحولت الفسطاط إلى الاطلال المعروفة الان بكيمان مصر وحسبنا دليلا على ما أصاب المدينة من تدهور ذلك الوصف الذى خلفه لنا الرحالة المغربى على بن سعيد الذى زار مصر فى سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م، إذ يقول"ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة وتأملت أسوارا مثلمة سوداء، وأفاقا مغبرة، ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضى إلى خراب مغمور بمبان مشتتة الوضع، غير مستقيمة الشوارع، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف، ويغض طرف الظريف...[٣١]"

وهكذا ساءت أحوال أولى عواصم مصر الإسلامية وتحولت إلى اكوام من التراب وتلال من الأنقاض حتى أتاح الله لها العالم الأثرى على بهجت والمهندس الفرنسى ألبير جبرييل فكشفا فيها بين عامى ١٩١٢، ١٩٢٠ عن أجزاء ليست بقليلة من مخلفات تلك المدينة البائدة[٣٢] التى لم يتخلف عن بقاياها سوى جامع عمرو.

جامع عمرو بن العاص

هو أول جامع أنشئ فى مصر الاسلامية، شيده عمرو بن العاص بعد فراغه من فتح الاسكندرية فى سنة ٢١ هـ/ ٦٤٢[٣٣] على شاطئ النيل فى منطقة بها أشجار وكروم[٣٤] وكان غاية فى البساطة يشغل مساحة طولها ٥٠×٣٠ ذراعا أى ما يقرب من ٢٩×١٧م[٣٥].

٣٠- عن بقايا هذا السور انظر أسامة طلعت عبد النعيم خليل، أسوار صلاح الدين وأثرها فى امتداد القاهرة حتى عصر المماليك، رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآثار- جامعة القاهرة عام ١٩٩٢، ص٦٧ وما بعدها.

٣١- ابن سعيد، المغرب، ورقة ٧٥ أ؛ المقريزى، الخطط، جـ، ص٣٤١؛ جيلان محمد عباس، آثار مصر الإسلامية فى كتابات الرحالة العرب والأجانب، رسالة ماجستير قدمت إلى كلية السياحة والفنادق- جامعة حلوان، عام ١٩٨٨، ص١٩١؛ أحمد عبد الرازق، بيوت الفسطاط، ص٧.

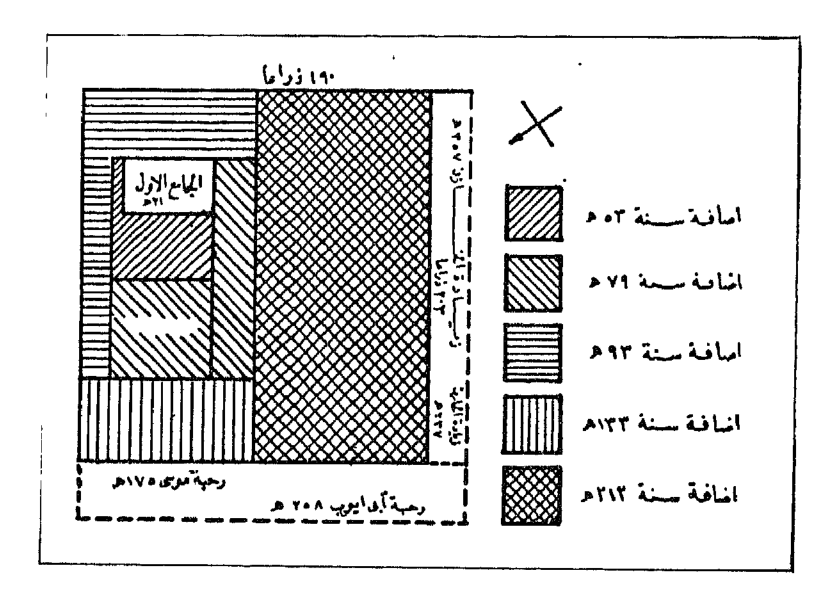
٣٢- عن هذه الحفائر انظر على بهجت وألبير جبرييل، كتاب حفريات الفسطاط، نقله الى العربية على بهجت ومحمود عكوش، القاهرة ١٩٢٧.

٣٣- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٤٦؛ K.A.C Creswell, A Brief chronology of the muhammadan monuments of Egypt to A.D.1517, Bulletin de IFAO, le Caire,1919, IV,p41.

٣٤- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٤٦.

٣٥- Doris B.Abouseif, Islamic Architecture in Cairo, An Inrtoduction, Cairo,1989, p.47.

ويطيف به الطريق من كل جهة وجعل له بابان يقابلان دار عمرو[٣٦] فى الجهة الشمالية التى كان يفصلها عنه طريق عرضه سبعة أذرع[٣٧] أى حوالى أربعة أمتار، وبابان فى غربه، وبابان فى جنوبه، وكان سقفه مطأطأ جدا ولاصحن له ولامئذنة. أما محرابه فلم يكن مجوفا وقد وقف على تحديده ثمانون صحابيا، ومع ذلك فقد جاء مائلا فى اتجاه الشرق[٣٨]. وقيل انه بعد أن فرغ عمرو من بنائه اتخذ له منبرا من عمل بقطر النجار من أهل دندره[٣٩] يخطب عليه فكتب إليه الخليفة عمر بن الخطاب يأمره بكسره قائلا: "أما يكفيك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك" فكسرة[٤٠] وقيل أيضا أنه أعاده بعد وفاة عمر[٤١].



شكل (١) جامع عمرو بن العاص، الإضافات المتعاقبة التى طرأت عليه. عن كمال الدين سامح.

٣٦- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١، ص٦٧.

٣٧- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٤٧، القلقشندى، صبح الأعشى، حـ٣، ص٣٣٧؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٦٢.

٣٨- المقريزى، الخطط، حـ٢، ص٢٤٧، القلقشندى، صبح الاعشى حـ٣، ص٣٣٧، ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٦٢.

٣٩- ابن دقماق، الانتصار. D.B. Abouseif, Ialamic Architecture, P.49

٤٠- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٤٧، ابن دقماق، الانتصار جـ٤، ص٦٣.

٤١- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص٣٣٧.

ومازال الولاة والحكام يتناولون مسجد عمرو على تعاقب السنين بالزيادة والتعمير والتجديد حتى بلغت سعته أضعاف الجامع العتيق الذى لم يبق منه سوى قطعة الأرض التى شيد عليها. وأول من زاد فيه هو مسلمة بن مخلد الأنصارى والى مصر من قبل معاوية بن ابى سفيان فى سنة ٥٣هـ/ ٦٧٣م وذلك عندما ضاق المسجد بأهله، فزاد فيه من الجهة الشمالية ممايلى دار عمرو بن العاص ومن الجهة الغربية(٤٢) وجعل له رحبة فى تلك الجهة كان الناس يصيفون فيها، ولاطه بالنورة وزخرف جدرانه وسقفه، وجعل له أربع صوامع فى أركانه الأربعة، نقش عليها اسمه،وأمر مؤذنى الجامع أن يؤذنوا الفجر إذا مضى نصف الليل وألا يضرب بناقوس عند أذان الفجر، كما فرشه بالحصر بعد أن كان مفروشا بالحصباء(٤٣).

وفى سنة ٧٩هـ/ ٦٩٨م أزال والى مصر عبد العزيز بن مروان جدرانه ووسعه من ناحية الجنوب وأدخل فيه الرحبة التى كانت فى غربه(٤٤)، كذلك أمر عبد الله بن مروان والى مصر من قبل أخيه الوليد برفع سقف الجامع وكان مطأطأ وذلك فى غضون سنة ٨٩هـ/ ٧٠٧م(٤٥).

وبعد ذلك بثلاث سنوات أمر قرة بن شريك العبسى بهدم الجامع وإعادة بنائه من جديد، استجابة لأوامر الخليفة الوليد بن عبد الملك وفرغ من ذلك فى سنة ٩٣هـ/ ٧١٢م، بعد أن زاد فيه من ناحية الشرق وناحية الشمال بعد أن أدخل فيه دار عمرو وبعضا من دار ابنه عبد الله وبقايا الطريق الذى بين المسجد وبينهما، ونصب فيه منبرا جديدا من الخشب فى العام التالى بدلا من منبر عبد الله بن سعد بن أبى السرح، كما أمر بعمل المحراب المجوف على غرار المحراب الذى عمره عمر بن عبد العزيز فى المسجد النبوى بالمدينة، وذهب تيجان الأعمدة الأربعة التى تتقدمه، وفتح فيه أحد عشر بابا، أربعة فى شماله ومثلها فى جنوبه وثلاثة فى غربه(٤٦)، وأضاف اليه مقصورة على غرار مقصورة معاوية لمسجد دمشق(٤٧).

٤٢- يلاحظ هنا اختلاف الجهات الأصلية عما ورد فى كتابات بعض المؤرخين فقد آثرناء ان نجعل القبلة فى جهة الشرق بدلا من الجنوب الشرقى منعا للوقوع فى الخطأ واللبس.

٤٣- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٤٧، ٢٤٨؛ ابن دقماق، الانتصار جـ٤، ص٦٢، M.Ahmad, La mosquée de,ʿAmr Ibn al-ʿAs, Le Caire,1939,p.4.

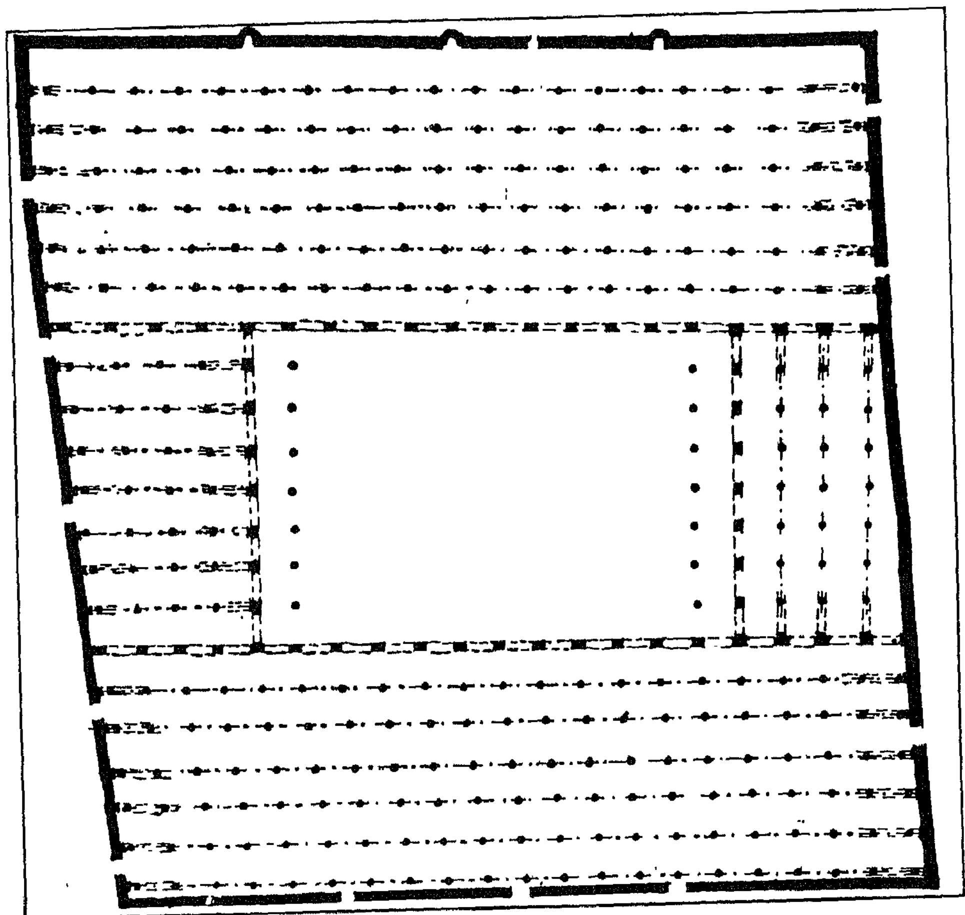
٤٤- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٦٣، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٤٨.

٤٥- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٤٨، ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٦٣.

٤٦- ابن دقماق الانتصار، جـ٤، ص٦٤، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٤٨- ٢٤٩.

٤٧- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص٣٣٨، M.Ahmed, La mosquée de,ʿAmr,p.6

وفى خلافة سليمان بن عبد الملك بنى أسامة بن زيد التنوخى، متولى الخراج بمصر، فى سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م بيت المال الذى يعلو الفوارة(٤٨) التى أضيفت إلى الجامع فى أيام العزيز بالله الفاطمى فى سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م(٤٩) ويعتقد أن هذا النوع من المبانى كان مخصصا لإيداع أموال اليتامى(٥٠).



شكل (٢) جامع عمرو بن العاص بعد إضافة عبد الله بن طاهر، مسقط أفقى عن فريد شافعى.

٤٨-المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٤٩؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٦٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١، ص٨٠؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٣٦؛ K.A.C Creswell Early Muslim Architecture, Oxford,1932-1940,p.100

٤٩- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٥٠.

٥٠- فريد شافعى، العمارة العربية، ص٦٥١-٦٥٢.

وفى سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م أدخل فيه صالح بن على دار الزبير بن العوام التى كانت تشغل الركن الشمالى الغربى من الجامع، وأضاف بابا خامسا فى الجدار الشمالى عرف بباب الكحل(٥١) لأنه كان يقع فى مواجهة زقاق الكحل(٥٢). وقد ظل الجامع على هذا النحو حتى أضاف إليه موسى بن عيسى الهاشمى والى مصر من قبل الرشيد فى سنة ١٧٥هـ/ ٧٩١م نصف الرحبة المعروفة بأبى أيوب التى كانت تقع فى مؤخرة المسجد بالجهة الغربية(٥٣).

وفى سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م قام عبد الله بن طاهر بإضافة مساحة جديدة إلى المسجد من ناحية الجنوب تعادل مساحته التى كان عليها(٥٤) وهى خاتمة الزيادات بالجامع الذى أصبحت مساحته الحالية ٥ , ١٢٠× ٥ , ١١٢م(٥٥).

وإلى جانب تلك الإضافات شهد جامع عمرو بن العاص العديد من أعمال التجديد والتعمير لعل أهمها تلك الأعمال التى قام بها خمارويه بن أحمد بن طولون فى سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م وأنفق عليه ستة آلاف وأربعمائة دينار(٥٦) كما أضاف إليه الوزير يعقوب بن كلس بأمر من الخليفة الفاطمى العزيز بالله الفوارة التى تحت قبة المال فى سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م كما سبق أن نوهنا من قبل ونصب فيها حباب للماء من الرخام(٥٧).

وفى سنة ٤٠٣هـ /١٠١٢م أهداه الخليفة الحاكم بأمر الله تنور من الفضة زنته مائة ألف درهم فضة(٥٨). وفى رواية أخرى خمسة وعشرون قنطارا، لم يتسع له باب من أبواب المسجد لكبره فخلعوا واحدا وأدخلوه فيه ثم ردوا الباب مكانه(٥٩).

وفى عام ٦٥٤هـ/١١٦٨م تصدعت جدران جامع عمرو نتيجة للحريق الذى أشعله

٥١- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٤٩؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٦٥.

٥٢- M. Ahmad, La mosquée de ʿAmr, p.8.

٥٣- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٤٩؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٦٥.

٥٤- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٤٩؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٦٥.

٥٥- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ٢١ ص ٢٥؛ سعاد ماهر محمد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة ١٩٧١، جـ١، ص٦٦.

٥٦- المقريزى، الخطط، جـ٢٢ ص٢٥٠؛ ابن دقماق، الانتصار جـ٤، ص٦٥.

٥٧- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٥٠، ابن دقماق، الانتصار جـ٤؛ ص٦٨.

٥٨- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٥٠.

٥٩- ناصر خسرو، سفر نامة، ص ٥٩؛ فريد شافعى، العمارة العربية، ص٢٧٧.

الوزير شاور فى مدينة الفسطاط فأصلحه صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م وجدد بياضة وجلاعمده وأصلح رخامه[٦٠].

وشهد الجامع أيضا العديد من الإصلاحات والإضافات فى أيام دولة سلاطين المماليك لعل أهمها ما قام به السلطان عز الدين أيبك والسلطان الظاهر بيبرس الذى أبطل جريان الماء إلى فوارة السلطان المنصور قلاوون من البئر التى بزقاق الأقفال فى سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م[٦١]، كما قام الامير سلار بعمارة الجامع عقب زلزال سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م وهى العمارة التى تخلف عنها الشبابيك الجصية الموجودة بالواجهة الغربية والمحراب الجصى الخارجى[٦٢] الذى عمل برسم المالكية وكان يشتمل على شريط من الكتابات العربية بخط النسخ المملوكى[٦٣]، وقد أزيل فى الإصطلاحات الأخيرة بالجامع.

ويمدنا بعض مؤرخى عصر سلاطين المماليك بوصف مفصل لجامع عمرو فى سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م يفهم من أنه كان يشتمل على أربع وعشرين بلاطة، سبع فى ناحية الشرق ومثلها فى الغرب وخمس فى شماله ومثلها فى جنوبه، وكان فيه ثلثمائة وثمانية وسبعون[٦٤] عمودا وبصدره أى فى رواق القبلة ثلاثة محاريب، وذكروا أيضا أنه كان يشتمل على ثلاثة عشر بابا لكل منها اسم يخصه، واحد فى جانبه الشرقى يعرف بباب الزنزلخته نسبة إلى شجرة ضخمة كانت بجواره، وثلاثة فى جداره الغربى، وخمسة فى جداره الشمالى وأربعة فى جداره الجنوبى، كما كان فيه خمس مآذن، اثنتان فى الشرق: عرفه فى الجنوب الشرقى والكبير فى الشمال الشرقى، وثلاث فى الغرب المستجدة فى الجنوب الغربى والسعيدية فى الوسط والجديدة فى الشمال الغربى[٦٥].

ويحدثنا الجبرتى بدوره عن بعض الاصطلاحات التى شهدها جامع عمرو فى أيام مراد بك الذى قام فى سنة ١٢١٢هـ ١٧٩٨[٦٦] بتعديل رواق القبلة فهدم بائكاته وأعاد بناءها مع تغيير اتجاهها الذى كان يوازى جدار القبلة فى الأصل وجعله يتعامد عليه دون مراعاة

٦٠- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٦٩؛ سعاد ماهر محمد، مساجد مصر، جـ١، ص ٦٨.

٦١- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٥٢؛ فريد شافعى، العمارة العربية، ص٦٥٢.

٦٢- المقريزى، الخطط، حـ٢، ص٢٥٢؛ ابن دقماق، الانتصار، حـ٤، ص٧١.

٦٣- M.Ahmad, La mosquée de ʿAmr, p.23 حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٢٦.

٦٤- ذكر القلقشندى ان عدد الأعمدة كان ثلثمائة وثمانية وستين عمودا فقط انظر، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٣٩.

٦٥- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ٦٠، ٦١؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٥٣؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ٣٣٨، ٣٣٩.

٦٦- الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، بولاق ١٢٩٨هـ، جـ٣، ص ١٧٠.

لوضع الشبابيك بهذا الجدار مما إفضى إلى تقابل عقود بعض البائكات الجديدة بفتحات النوافذ فى جدار القبلة، وتطلب الأمر سد جميع النوافذ وحرمان هذا القسم من الضوء(٦٧). كما شيد به مئذنتين هما الباقيتان إلى الآن، وأثبت تاريخ هذه العمارة فى ألواح تاريخية فوق الأبواب الغربية والمحرابين الكبير والصغير برواق القبلة(٦٨).

وهكذا توالت أعمال الإصلاح والتجديد فى جامع عمرو حتى وقتنا الحالى، إذ يشهد الجامع أكبر عملية تعمير تقوم بها هيئة الآثار المصرية، نرجو أن تنتهى فى القريب العاجل حتى يعود لهذا الجامع رونقه وعظمته ولاسيما أنه لم يتبق منه سوى بعض العناصر المعمارية التى ترجع إلى أصوله الاولى مثل العقود المدببة التى أصبحت من مميزات العمارة الإسلامية ونجدها فى الشبابيك الصغيرة برواق القبلة، كما استخدمت للطواقى الزخرفية الخاصة بالحنيات التى نقشت بين الشبابيك فى أعلى الجدار الجنوبى(٦٩)، كذلك الضريح المنسوب إلى عبد الله بن عمرو فى الركن الشمالى الشرقى من المسجد(٧٠) الذى قيل انه قبر فى داره بعد وفاته(٧١) بيد أننا لانستطيع أن نسلم بصحة هذا الرأى لعدة أسباب منها أن دار عبد الله بن عمرو لم تكن تشغل مكان الضريح بل كانت إلى الغرب منه، كما أن هذا الركن كان يشغله المنارة المعروفة بالكبيرة، هذا فضلا عن ان الرحالة عبد الغنى النابلسى الذى زار الجامع وتجول فيه إبان سنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣م لم يشر إلى هذا الضريح من قريب أو بعيد، ولانـنسى أيضا طراز القبة المتأخر(٧٢).

بقى أن نشير فى النهاية إلى أن جامع عمرو لم يقتصر على أداء الفرائض الدينية فحسب بل كانت تعقد فيه حلقات العلم التى بلغت فى منتصف القرن الرابع الهجرى/ العاشر للميلاد، مائة وعشر حلقات(٧٣)، خصص بعضها للسيدات التى تصدرتها فى سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م واعظة زمانها أم الخير الحجازية(٧٤)، كما كان يعقد فيه مجالس القضاء أو

٦٧- M. Ahmad, La mosquée de ʿAmr, p.26.

٦٨- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٢٦.

٦٩- فريد شافعى، العمارة العربية، جـ١، ص ٣٦٠، ٣٦٨ - ٣٦٩.

٧٠- على مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، بولاق ١٣٠٥هـ، جـ٤، ص٩.

٧١- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١، ص ١٥٦؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص ٧٥.

٧٢- M.Ahmad, La mosquée de ʿAmr, pp34-38.

٧٣- المقدسى، احسن التقاسيم، جـ١، ص ٢٠٥؛ أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، العلوم العقلية، القاهرة ١٩٩١، ص ٢١.

٧٤- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٣٠.

مجالس القصص[٧٥]، الأمر الذى جعل منه أقدم جامعة علمية فى مصر الإسلامية بمعنى أنه يسبق الأزهر فى هذا المجال بنحو ستمائة عام[٧٦].

العسكر

والحديث عن منشآت عصر الولاة يحتم علينا الإشارة إلى مدينة العسكر ثانى مدن مصر الإسلامية، إذ من المعروف أن مدينة الفسطاط ظلت عاصمة لمصر حتى دخلت جيوش العباسيين تطارد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية كما سبق أن أشرنا من قبل، حيث نزلت هذه الجيوش بقيادة صالح بن على فى شمال شرقى الفسطاط، أى فى المنطقة المعروفة بالحمراء القصوى التى كان يسكنها الروم الذين قدموا مع عمرو بن العاص والتى صارت صحراء جرداء[٧٧].

وبعد هزيمة مروان بن محمد وقتله فى بوصير أصبحت الخلافة خالصة لبنى العباس، عندئذ أمر صالح بن على بالبناء فى هذا المكان فبنوا وكان ذلك فى عام ١٣٣هـ/٧٥٠م. وكان حد هذه المدينة من الجنوب عند كوم الجارح حيث تمتد الآن قناطر مجرى العيون، ومن الشمال شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب حيث قناطر السباع أمام المشهد الزينبى، ومن الغرب شارعى السد والديورة، ومن الشرق خط تصورى يمتد من جوار خانقاة سلار وسنجر الجاولى بشارع مراسينا إلى باب السيدة نفيسة[٧٨].

وقد شيد فى العسكر دار للإمارة ظل ينزلها الولاة العباسيون، كما أذن السرى بن الحكم بعد ولايته سنة ٢٠٠هـ/٨١٦م، للناس فى البناء فابتنوا حيث اتصل بناء العسكر ببناء الفسطاط. كذلك شيد بها الفضل بن صالح بن على مسجدا جامعا فى سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م، لم يكتب له بكل أسف البقاء طويلا وأصبحنا نجهل موقعه من المدينة وكذا معالمه.

ومن المعروف أيضا أن العسكر ثانى عواصم مصر الإسلامية أصبحت مقرا لشرطة خاصة غير شرطة الفسطاط، عرفت بالشرطة العليا، وبذا صارت مدينة ذات محال وأسواق ودور عظيمة لم يبق[٧٩] من أطلالها الشئ الكثير.

٧٥- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٥٣.

٧٦- فريد شافعى، العمارة العربية، جـ١، ص ٣٨٣ - ٣٨٤.

٧٧- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٦٤.

٧٨- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١، ص ٣٢٦، هامش رقم(١).

٧٩- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٠٥.

والحق أن مدينة العسكر ظلت مقرا لولاة العباسيين حتى قدم أحمد بن طولون إلى مصر فسكنها مدة ثم تحول عنها إلى مدينة القطائع التى شيدها إلى الشمال الشرقى منها، فلما زالت الدولة الطولونية وخربت القطائع، عاد ولاة مصر للنزول بالعسكر من جديد حتى دخل جوهر الصقلى مصر وبنى مدينة القاهرة سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م فتحول مركز الحكم إليها[٨٠].

ويفهم من رواية أحد المؤرخين أن السبب فى بناء العسكر يرجع إما لكره العباسيين أن ينزلوا فى العاصمة القديمة الفسطاط وأنهم فضلوا إقامة عاصمة جديدة لهم. أو ربما لأن الحريق الذى أشعله مروان بن محمد خرب دار الإمارة بالفسطاط، وهو رأى له وجاهته فى الواقع، وإن كنا نميل إلى الترجيح بأن السبب الرئيسى فى بناء هذه العاصمة مرجعه إلى الرغبة فى إيواء جند العباسيين القادمين لفتح مصر، لأن الفسطاط وخططها كانت آهلة بمن فيها، فاختاروا موضعا خاليا لإقامة خططهم فيه خارج الفسطاط، مع ملاحظة أن منطقة العسكر كانت فى الواقع جزءا من الفسطاط[٨١] درس كما سبق أن أشرنا من قبل لسبب نجهله تماما. وعلى هذا فإن ضيق الفسطاط عن استيعاب هذا العدد الكبير من الجند كان هو الدافع إلى إقامة العسكر كثكنة للجند أولا كما هو واضح من اسمها، ثم شيد بها دار الإمارة فيما بعد[٨٢]، ولم يبن المسجد الجامع فيها إلا فى سنة ١٦٩هـ / ٧٨٥م أثناء ولاية الفضل بن صالح بن على[٨٣]، أى بعد بناء العسكر بست وثلاثين سنة، ومن هذا الوقت فقط يمكننا القول بأن العسكر صارت مدينة مستقلة عن الفسطاط لأنه حسب رواية المقدسى «لامدينة الا بمنبر»[٨٤] أى بمسجد جامع.

ويعد هذا الجامع ثانى مسجد جامع أقيم فى مصر الإسلامية بعد جامع عمرو بن العاص وقد بقى على حاله حتى ولى مصر عبد الله بن طاهر فى ربيع الأول سنة ٢١٢هـ / يونيو ٨٢٦م، فجدده وزاد فيه وصار الناس يصلون فيه الجمعة حتى قام أحمد بن طولون بتشييد مسجده فى مدينة القطائع فانصرفوا عنه ومع هذا فقد ظل باقيا حتى سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م ثم أصبح بعدها أثرا بعد عين وكان يعرف بجامع ساحل الغلة[٨٥].

٨٠- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٦٥.

٨١- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ١٦.

٨٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٠٤.

٨٣- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٦٤.

٨٤- المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ١٩٣.

٨٥- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٦٤.

مقياس النيل بالروضة

ومن منشآت عصر الولاة نشير أيضا إلى مقياس النيل بجزيرة الروضة فقد عرف المصريون منذ أقدم العصور تشييد المقاييس فى شتى أنحاء البلاد ليتعرفوا على ارتفاع النيل نظرا لعلاقته الوثيقة برى الأرض وتحصيل الخراج(٨٦). هذا وتفيض المصادر العربية بالعديد من الروايات عن إنشاء المقاييس فى مصر قبل الإسلام، لعل أطرفها ماروى بصدد خصيلم السابع أحدد ملوك مصر بعد الطوفان، الذى روى انه صنع بركة لطيفة وركب عليها صورتى عقاب من نحاس ذكر وأنثى يجتمع عندها كهنتهم وعلماؤهم فى يوم مخصوص من السنة ويتكلمون بكلام فيصفر أحد العقابين، فإن صفر الذكر استبشروا بزيادة النيل، وإن صفرت الأنثى استشعروا عدم زيادته وهيئوا ما يحتاجون إليه من الطعام لتلك السنة(٨٧)، على حين ذهب ابن عبد الحكم إلى أن يوسف عليه السلام هو أول من وضع مقياسا بمنف(٨٨) ثم أنشأت العجوز دلوكة مقياسين أحدهما فى (أنصنا) أسنا والآخر بأخميم(٨٩). وتشير المصادر العربية أيضا إلى العديد من المقاييس التى أنشئت بمصر بعد الفتح العربى لها بعضها من إنشاء عمرو بن العاص مثل مقياس أسوان ومقياس دندره(٩٠) وبعضها من إنشاء معاوية بن أبى سفيان مثل مقياس(أنصنا) أسنا الذى بقى مستخدما حتى شيد عبد العزيز بن مروان مقياسا غيره بحلوان فى سنة ٨٠هـ / ٦٩٩م(٩١). كما بنى أسامه بن زيد التنوخى عامل الخراج مقياسا كبيرا فى جزيرة الروضة فى خلافة الوليد عام ٩٢هـ / ٧١١م، أبطل الخليفة سليمان بن عبد الملك العمل به فأقام أسامة بن زيد مقياسا آخر فى سنة٩٧هـ/ ٧١٥(٩٢).

٨٦- محمد حمدى المناوى، نهر النيل فى المكتبة العربية، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٤٧.

٨٧- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٢٩٣؛ قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٨، ص ٤٠.

٨٨- أشار أمين سامى فى كتابه تقويم النيل، القاهرة ١٩١٦، ص ٩٢ - ٩٣ إلى أن مقياس منف ظل مستعملا حتى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر للميلاد رغم ما جاء على لسان ابن تغرى بردى فى النجوم، جـ٢، ص ٣١١ من أنه بعد بناء المقياس الهاشمى أبطل استعمال جميع المقاييس الموجودة فى مصر.

٨٩- ابن عبد الحكم، فتوح مصر، طبعة تورى، ص١٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥٧.

٩٠- المقريزى الخطط، جـ١، ص ٥٧.

٩١- ابن مماتى، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣، ص ٧٥ - ٧٦؛ ياقوت، معجم البلدان، جـ٢٤ ص ٦١١؛ القلقشندى، جـ٣، ص ٢٩٤؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥٧.

٩٢- ياقوت، معجم البلدان، جـ٢٤ ص ٦١١؛ القلقشندى، صبح، جـ٣، ص ٢٩٤؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٢؛ ص ٣١٠، ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص ٧٢.

وفى سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م[٩٣] أمر الخليفة المتوكل[٩٤] على الله بإنشاء المقياس الحالى الذى عرف بالهاشمى، أو بالمقياس الجديد، أو بالمقياس الكبير، أو بمقياس الروضة[٩٥] إذ يذكر المؤرخ ابن خلكان أن اسم الخليفة المتوكل كان منقوشا فى شريط من الحجر يحيط بأعلى فوهة البئر ويحمل تاريخ رجب سنة ٢٤٧هـ / سبتمبر ٨٦١م، وأنه شيد على يد أحمد ابن محمد الحاسب[٩٦]. ومع هذا فقد ذكر البعض أن الذى بنى المقياس هو مهندس عراقى استقدم خصيصا لهذا الغرض اسمه محمد بن كثير الفرغانى[٩٧] وذلك فى ولاية يزيد بن عبد الله التركى[٩٨]، وقيل أيضا ان اسمه ابن كاتب الفرغانى وأنه كان قبطيا[١٠٠]. بيد أن كريزويل عارض هذا الرأى على أساس أن الرجل ينتسب إلى فرغانة التى كانت جزءا من أعمال فارس، تركستان الروسية فى الوقت الحالى، ومن ثم فلا يمكن أن يكون قبطيا، كما زعم أن أحمد بن محمد الحاسب وأحمد بن كثير الفرغانى ماهما إلا شخص واحد[١٠١] فى الوقت الذى زعم فيه بوبر أن أحمد بن محمد الحاسب ماهو إلا أحمد بن المدبر[١٠٢] الذى ولى خراج مصر[١٠٣] مما جعل الشك والغموض يحيطان بشخصية هذا المهندس ولاسيما أن

٩٣- أخطأ المؤرخ ابن دقماق فى تاريخ إنشاء هذا المقياس فنسبه سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩ انظر الانتصار، جـ٤ ص ١١٥.

٩٤- نسب بعض المؤرخين بناء هذا المقياس إلى الخليفة المأمون، انظر ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٢، ص ٢١٦؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٩٧؛ كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمد مسعد، القاهرة (بدون تاريخ)، جـ١، ص ٢٠١.

٩٥- M.Ahamad, Guide des principaux monuments arabes du Caire, Le Caire,1939, p.25.

٩٦- ابن خلكان، وفيات الأعيان، بولاق ١٢٩٩هـ، جـ١، ص ٢٢٩ ، ٣٤١.

٩٧- ابن أيبك، درر التيجان وغرر تواريخ الزمان، مخطوط مصور، بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٠٥ تاريخ، ورقة ٩٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٢، ص٣١١؛ ابن الداية، كتاب المكافأة، صححه وضبطه وشرحه أحمد أمين، على الجارم، بولاق ١٩٤١، ص ١١٠؛ ابن أبى أصيبعة، كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، القاهرة ١٨٨٢، جـ١، ص ٢٠٧.

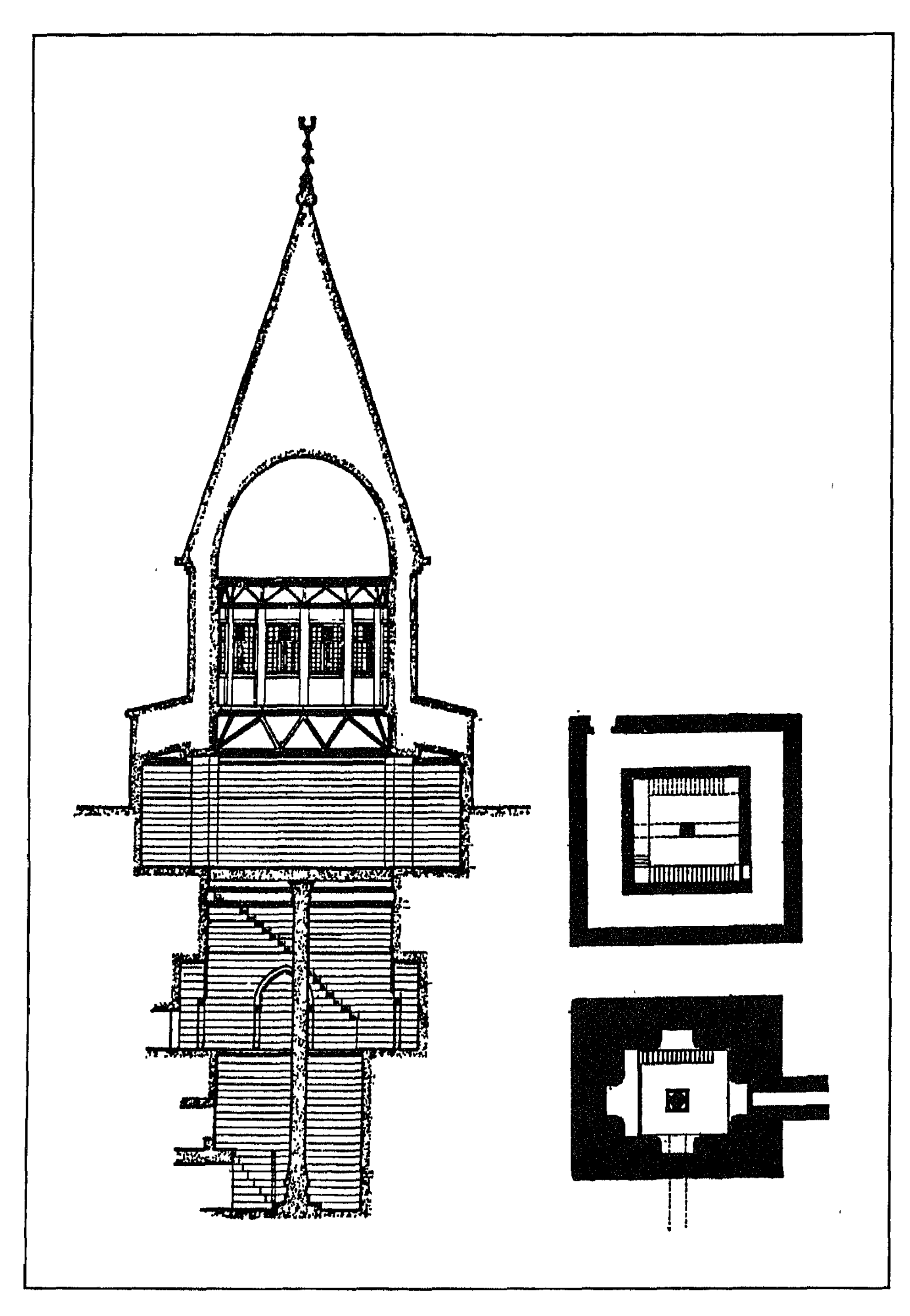
٩٩- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥٧.

١٠٠- فريد شافعى، العمارة العربية، جـ١، ص ٣٨٩.

١٠١- K.A.C. Creswell, Early Muslim, II, pp. 303-304

١٠٢- W.Popper, The Cairo Nilometer, Studies in Ibn Taghribirdi's Chronicles of Egypt, part I. Berkeley, 1951, pp.22.24.

١٠٣- يذكر بوبر أن أحمد بن المدبر بدأ عمله فى مصر سنة ٢٤٧هـ، على حين يذكر المقريزى أنه ولى خراج مصر بعد سنة ٢٥٠هـ انظر الخطط، جـ١، ص ١٠٣، فى الوقت الذى اشار فيه ابن إياس إلى ولايته فى سنة ٢٥٤هـ انظر بدائع الزهور، طبعة بولاق، جـ١، ص ٣٦.



شكل (٣) مقياس النيل بالروضة، مسقط أفقى وقطاع، عن برندنبرج

النص الذى أشار إليه المؤرخ ابن خلكان قد فقد أثناء إصلاحات أحمد بن طولون بالمقياس، كما أنه لم يذكر صراحة أن أحمد بن محمد الحاسب كان مهندسا الأمر الذى يدفع إلى الترجيح بأنه كان أيضا مشرفا إداريا أو ماليا[١٠٤] خاصة ونحن نعلم أن أحمد هذا كان أحد مشاهير علم الحساب وخلف لنا كتاب الجمع والتفريق[١٠٥].

خلاصة القول أن هذا المقياس الذى يشغل الطرف الجنوبى الشرقى من جزيرة الروضة، يعد من أهم آثار عصر الولاة التى احتفظت حتى الآن بكثير من معالمها الأثرية وهو عبارة عن عمود رخامى مدرج ومثمن القطاع، يتوسط بئرا مربعة مشيدة بأحجار مهذبة، روعى فى بنائها أن يزيد سمكها كلما زاد العمق فقد شيدت البئر من ثلاث طبقات السفلى على هيئة دائرة، يعلوها طبقة مربعة ضلعها أكبر من قطر الدائرة، والمربع العلوى والأخير ضلعه أكبر من ضلع المربع الأوسط. وهذا التدرج فى سمك الجدران يدل على معرفة المسلمين بالنظرية الهندسية الخاصة بازدياد الضغط الأفقى للاتربة كلما زاد العمق إلى أسفل[١٠٦].

ويجرى حول جدران البئر من الداخل درج يصل إلى القاع[١٠٧] ويتصل المقياس بالنيل بواسطة ثلاثه أنفاق يصب ماؤها فى البئر من خلال ثلاث فتحات فى الجانب الشرقى بعضها فوق بعض حتى يظل الماء ساكنا فى البئر، صممت واجهاتها على هيئة دخلات غائرة فى الجدران يعلوها عقود مدببة ترتكز على أعمدة مندمجة فى الجدران ذات تيجان وقواعد ناقوسية أو رومانية مقلوبة[١٠٨].

ويقوم فى وسط البئر عمود من الرخام يعلوه تاج رومانى مركب يبلغ طوله تسعة عشر ذراعا[١٠٩] حفر عليه علامات القياس بالأذرع والقراريط، يقوم فوق قاعدة من الخشب من جذوع النخيل[١١٠]. ومثبت من أعلى بواسطة كمرة أو رباط من الخشب المجوف المحشو

١٠٤- فريد شافعى، العمارة العربية، جـ١، ص ٣٨٩.

١٠٥- أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، العلوم العقلية، ص ٥٥.

١٠٦- فريد شافعى، العمارة العربية، جـ١، ص ٣٩١.

١٠٧- K.A.C. Creswell, A Short Account of Early Muslim Architecture. Revised and supplemented by James W.Allan, Cairo, 1944, p.383, D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.51.

١٠٨- كمال سامح، العمارة الإسلامية فى مصر، القاهرة ١٩٧٠ ، ص١٧

١٠٩- D.B. Abouseif, Islamic Architecture, P.51.

١١٠- K.A.C. Creswell, A Short Account, p.383.

بالرصاص[111]، عليه كتابات كوفية يرتكز على جدران البئر من الداخل المزينة فى أعلاها بكتابات كوفية أيضا تشتمل على آية قرانية[112]، تعد أقدم أمثلة الكتابات الأثرية فى عمائر مصر الإسلامية، خاصة فى الجانب الشمالى والجانب الشرقى، أما الكتابات المنقوشة فى الجانبين الجنوبى والغربى فهى ترجع إلى أيام أحمد بن طولون الذى قام باصلاح المقياس فى سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٣م، وأنفق عليه ألف دينار[113]. ومن وقتها تناولت مقياس الروضة يد الاصلاح والتجديد فقد عهد الخليفة المستنصر إلى وزيره بدر الجمالى بتجديد المقياس فأتم ذلك فى سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م وبنى مسجدا فى جانبه الغربى عرف بمسجد المقياس[114].

وتتحدث المصادر أيضا عن قيام السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى بإضافة قبة فوق بئر المقياس فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر للميلاد، كما تشير إلى بعض الإصلاحات التى تمت فى عهد السلطان الأشرف قايتباى. كذلك شهد المقياس العديد من الإصلاحات فى العصر العثمانى على يد كل من السلطان سليم الأول والسلطان سليمان الأول والسلطان سليم الثانى وإن كانت المصادر قد ضنت علينا بطبيعة تلك الأعمال وتاريخها، فى الوقت الذى أشارت فيه إلى قيام على بك الكبير ببعض الإصلاحات عام ١١٣٣هـ / ١٧٢١م وإلى قيام حمزة باشا والى مصر بتجديد الرباط الخشبى الذى يثبت عمود المقياس من أعلى فى سنة ١١٧٠هـ / ١٧٥٦م.

وحظى المقياس أيضا بنصيب وافر من جهود الحملة الفرنسية التى قامت فى سنة ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م بتنظيف بئر المقياس من الطمى المتراكم فى قاعه، كما قامت بإضافة قطعة من الرخام مقدارها ذراع إلى عمود المقياس وتاج جديد، ونقشت تاريخ سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م على واجهته الشرقية.

وفى سنة ١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م قامت وزارة الأشغال العمومية بتنظيف بئر المقياس مرة ثانية من الطمى المتراكم بداخله، حيث عثر بقاعه على أجزاء من أعمدة القبة التى كانت تعلو البئر وعلى قطعة الرخام التى أضافتها الحملة الفرنسية إلى بدن العمود. وقامت أيضا بإصلاح جوانب البئر واستبدلت تاج العمود بآخر يشبهه وسجلت تلك الأعمال على لوحة رخامية تحمل تاريخ سنة ١٣١١هـ / ١٨٩٣م، وضعت بأعلى الجانب الغربى للبئر. وبعد هذه

١١١- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١١٤.

١١٢- قرآن كريم، سورة إبراهيم، آية رقم ٣٧.

١١٣- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥٧؛ ياقوت، معجم البلدان، جـ٤، ص ٦١١.

١١٤- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١١٥.

الإصلاحات هبط عمود المقياس بمقدار ثلاثه سنتيمترات ثم ستة سنتيمترات فقامت مصلحة المبانى وتفتيش رى الجيزة بالاشتراك مع لجنة حفظ الآثار العربية باتخاذ الاحتياطات اللازمة لإيقاف الهبوط فى سنة ١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م(١١٥) كما أقيم فى السنوات الأخيرة فوق المقياس قبة خشبية مخروطية الشكل يزينها زخارف ملونه(١١٦).

وقد ظل النصارى يتولون قياس النيل حتى بناء الخليفة المتوكل لمقياس الروضة فأمر بعزلهم وتعيين مسلم للقيام بهذا العمل فاختير عبد السلام بن الرداد المؤذن وأجرى عليه صاحب الخراج سبعة دنانير(١١٧) وبقى هذا العمل فى ذريته من بعده(١١٨).

وكان بلوغ النيل ستة عشر ذراعا يعد بشيرا بوفاء النهر وإيذانا ببدء الاحتفالات التى اختلفت من عصر لآخر فقد جرت العادة أن ينادى على زيادة النيل كل يوم منذ أواخر شهر بؤنة(١١٩) حتى أمر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بإبطال النداء فى شوال سنة ٣٦٢هـ / يوليو ٩٧٣م، حتى يصل الزيادة إلى ستة عشر ذراعا منعا لاحتكار الأقوات وتخزينها فى حالة عدم الوفاء(١٢٠). بيد أن هذا المنع لم يستمر طويلا فقد روى الرحالة الفارسى ناصر خسرو الذى أقام فى مصر فى الفترة من ٤٣٩-٤٤٢هـ / ١٤٠٧-١٠٥٠م "أنه منذ أول يوم للفيضان يطوف منادون فى المدينة بأن الله تعالى قد زاد النيل إصبعا ويذكرون مقدار زيادته كل يوم، وحين تبلغ الزيادة ذراعا كاملا تضرب البشائر ويفرح الناس(١٢١)". كما ذكر أبن مماتى ان النيل "يقاس فى الخامس والعشرين من بؤنة وينادى به(١٢٢)".

١١٥- عن هذه الإصلاحات انظر على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ١٨، ص١٥ وما بعدها؛ M.Ahmad, Guide, pp.26-27; K.O. Ghalelb, Le Miqyās où Nilometre de l'ile de Rodah, Le Caire,1951.

١١٦- D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.51.

١١٧-أشار ناصر خسرو أن عامل المقياس كان يتقاضى ألف دينار، انظر سفر نامة، ص ٤٢.

١١٨- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٠٣؛ ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص٥٧٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص٥٧؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٣٧٥.

١١٩- ابن رستة، الأعلاق النفيسة، المجلد السابع، ليدن ١٨٩١، ص ١١٦.

١٢٠- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٦٠.

١٢١- ناصر خسرو، سفر نامة، ص ٤٢.

١٢٢- ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص ٧٥.

وبعد الزيادة يعلق على الشباك الكبير فى الجهة الشرقية من دار المقياس ستر أصفر فيعلم الناس بالوفاء. وفى ليلة الوفاء يجتمع قراء القرآن الكريم بدار المقياس ويتناوبون القراءة طوال الليل، كما يحضر المغنون الذين يغنون لمن يكون موجودا فى دار المقياس طوال الليل(١٢٣). وفى صباح اليوم التالى يبدأ الاحتفال بوفاء النيل بحضور الحاكم أو من يقوم مقامه، وفى خدمته كبار رجال الدولة وأعيان المملكة فى الحراريق المزينة بالأعلام والسناجق وسائر أنواع الزينات حتى يصل الموكب إلى دار المقياس وهناك يعمل سماط حافل بالشواء والحلوى والفاكهة يحضره الحاكم وكبار رجال الدولة، ويتخاطف العامة السماط ولايمنع أحد عن ذلك. وبعد الفراغ من الطعام يتم تخليق المقياس، ذلك التعديل الذى أدخل على احتفالات وفاء النيل فى العصر الفاطمى(١٢٤)، حيث يذاب الزعفران والمسك فى إناء من الفضة ويعطى لابن أبى الرداد الذى يلقى بنفسه فى فسقية المقياس وعليه غلالة وعمامة، فيتعلق بعامود المقياس برجله ويده اليسرى ويخلقه بيده اليمنى. والقراء من الجانب الآخر يقرءون القرآن نوبة نوبة(١٢٥). وكان يعقب تخليق المقياس إحتفال آخر هو كسر الخليج الذى كان يتم فى أول الأمر ثالث يوم التخليق أو أربعه(١٢٦)، ثم أصبح تخليق المقياس وكسر السد يتم فى يوم واحد(١٢٧) حيث يمسك الحاكم بمعول من الذهب الخالص ويضرب السد(١٢٨) ثلاث ضربات، ثم يأتى جمع غفير من الناس بفئوسهم فيحفرون هذا السد حتى يجرى الماء فى الخليج(١٢٩). وقد ظلت مظاهر الفخامة والأبهة تحيط باحتفالات وفاء النيل وكسر الخليج حتى أواخر عصر سلاطين المماليك(١٣٠).

١٢٣- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١١٤ ، ١١٥.

١٢٤- لا نعلم تاريخا محددا لبداية احتفالات التخليق قبل عام ٥١٦هـ/ ١١٢٢م. انظر المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٠.

١٢٥- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة بولاق، جـ١، ص ١٢١.

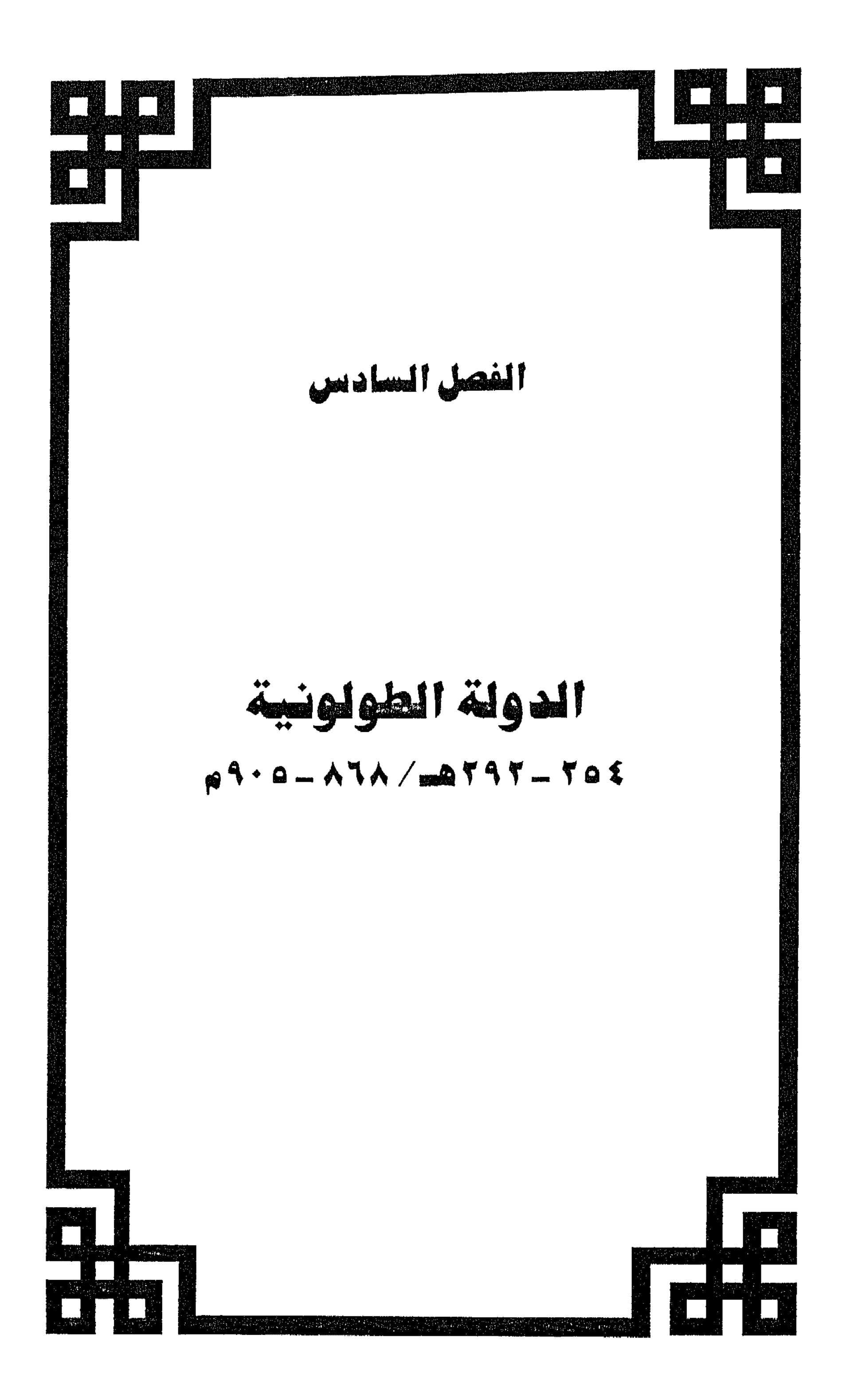
١٢٦- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٧؛ القلقشندى، صبح الأعشى جـ٣، ص ٥١٤.

١٢٧- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١١٥؛ محمد حمدى المناوى، نهر النيل، ص ١٦٤.

١٢٨- ذكر المقدسى أن مكان السد فى عين شمس، انظر أحسن التقاسيم، ص ٢٠٦ لكننا نرجح أن موقعه كان عند القنطرة التى شيدها عبد العزيز بن مروان على فم الخليج عند خروجه من النيل.

١٢٩- قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى، ص ٤٥.

١٣٠- ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة بولاق، جـ٢، ص ٣٧٤.



الفصل السادس

الدولة الطولونية

٢٥٤ - ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ - ٩٠٥م

تميزت الفترة التى سبقت قيام الدولة الطولونية بالتأخر فى جميع نواحى الحياة بسبب سياسة العباسيين التى قامت على كثرة تغيير الولاة لئلا يطمعوا فى الاستقلال بالبلاد، كما أصبح الولاة منذ سنة ٢٤٢هـ/ ٨٥٦م من الأتراك وذلك بعد صرف عنبسة بن إسحق، آخر والٍ عربى على مصر[١]. ولقد أساء هؤلاء الأتراك لأهل البلاد ولم يصبح لديهم من هدف سوى الإثراء السريع عن طريق استحداث الضرائب التى أثقلت كاهل المصريين، وأفضت إلى خراب البلاد.

ولما زاد نفوذ الاتراك فى دار الخلافة، أخذ الخلفاء يقطعون بعض الأقاليم لأمراء الجند، وكان هؤلاء الأمراء يفضلون البقاء فى بغداد حتى يأمنوا قيام الدسائس ضدهم إذا ابتعدوا عن بلاط الخليفة، الذى كان يفضل بدوره بقاءهم إلى جانبه حتى لا يفكروا بالانسلاخ عن الخلافة فى حركات استقلالية بأقاليمهم. لذلك كان هؤلاء الأمراء يرسلون عمالا من قبلهم لحكم تلك الأقاليم باسمهم ويدينون لهم بالولاء[٢].

فى هذه الظروف جاء أحمد بن طولون إلى مصر بعد عزل أرجوز بن أولوغ طرخان[٣]، وهو من أصل تركى، إذ كان أبوه طولون الذى يعنى اسمه البدر الكامل فى اللغة التركية[٤]، من الرقيق الذين أرسلهم نوح بن أسد السامانى عامل بخارى وخراسان إلى الخليفة المأمون العباسى فى سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٦م، فصار من مماليكه وارتقى حتى صار من جملة الأمراء، وولد له ابنه أحمد هذا من جارية تسمى هاشم أو قاسم فى سنة ٢٢٠هـ/ ٨٦٥م[٥] بمدينة بغداد على أرجح الآراء، وليس بمدينة سامراء كما يزعم المؤرخ ابن خلكان[٦]، لسبب بسيط هو أن هذه المدينة لم تشيد إلا فى العام التالى لمولده[٧].

وقبل بلوغ أحمد سن العشرين توفى والده طولون فى سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م، فتزوجت

١- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٢؛ محمود رزق محمود، المجتمع المصرى فى العصر الطولونى، رسالة دكتوراه قدمت إلى كلية الأداب - جامعة عين شمس ١٩٨٥، ص ٤.

٢- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، جـ١، ص ٥٢.

٣- Lane- Poole, History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925, p.57, Z.M.Hassan, Les Tulunides, Paris, 1933, p.35.

٤- سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، ص ١٧.

٥- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، حققها وعلق عليها محمد كرد على، دمشق ١٣٥٨هـ، ص ٣٣؛ المقريزى الخطط، جـ١، ص ٣١٣.

٦- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٦٩.

٧- حسن أحمد محمود، حضارة مصر الإسلامية فى العصر الطولونى، القاهرة (بدون تاريخ)، ص ٢٣.

أمه قاسم بن بغا الأصغر، أحد زعماء الجند الأتراك، كما تزوجت للمرة الثالثة من بكباك الذى خلف بغا فى وظيفة الأمين بالبلاط العباسى[8]. وفى هذه الأثناء لقى أحمد الكثير من عناية الجند الأتراك، كما حصل على التربية العسكرية التى تؤهله للعمل فى حرس الخليفة، وحظى كذلك بدراسة اللغة العربية وآدابها، وحفظ القرآن والحديث، وتفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة[9]، وفاق بذلك أقرانه من الأتراك وحل منهم محلا حسنا[10].

ثم تزوج أحمد بن طولون من خاتون ابنة يارجوخ، فولدت له ابنه البكر العباس[11] فى سنة ٢٤٢هـ/ ٨٥٦م، ويبدو أن حياة الجند الأتراك لم تلق من أحمد سوى الازدراء، لما كانوا يرتكبونه فى حق الخلفاء، وكان يقول دائما: «إن حرمة الدين عندهم مهتوكة». ولذلك طلب من الوزير عبيد الله بن خاقان أن يعين له رزقا فى طرسوس[12]، ليكون فى جهاد متواصل وثواب دائم عن طريق اتصاله بمن فيها من العلماء والفقهاء، وإن كنا لا ندرى كم من الوقت قضاه هناك، وكل الذى نعلمه أن مقتل الخليفة المتوكل وأخذ البيعة للمستعين من بعده قد عجلت بعودته فى سنة ٢٤٨هـ/ ٨٦٢م إلى سامراء ليكون على مقربة من الأحداث[13].

ويفهم من المصادر التاريخية أنه كان على علاقة طيبة بالخليفة المستعين[14] لإنقاذه قافلة راجعة من بلاد الروم محملة بالهدايا للخليفة، الذى بعث إلى أحمد بألف دينار سرا، تقديرا لشجاعته، وأخبره أنه لولا خوفه عليه من حسد أقرانه لقرّبه إلى جواره. ومع هذا فقد توالت على أحمد صلات المستعين وعطاياه التى كان من بينها جارية تدعى مياس رزق منها بابنه خمارويه[15].

ويبدو أن علاقة أحمد بن طولون بالخليفة المستعين العباسى قد استمرت على هذا النحو بدليل أن الأخير قد اختاره ليصحبه إلى واسط بعد عزله عن الخلافة فى سنة

٨- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.28.

٩- سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، ص ١٨؛ ابن تغرى بردى النجوم، جـ٣، ص ٤.

١٠- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٣٥.

١١- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.29.

١٢- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٣٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٣.

١٣- حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص٢٦؛ سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، ص ٢٠ – ٢١.

١٤- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥.

١٥- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص٥؛ البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٣٩.

٢٥٢هـ/ ٨٦٦م، حيث أحسن أحمد معاملته هناك، بل ورفض قتله استجابة للجند الأتراك، وكتب إليهم بأنه لا يقتل خليفة له فى رقبته بيعة على حد تعبير البلوى والمقريزى[١٦] فبعثوا إليه بسعيد الحاجب الذى تسلم المستعين وقتله، فقام أحمد بن طولون بدفن جثته وعاد بعدها إلى سامراء[١٧] ليجد أن النفوذ والسلطان قد صار إلى أيدى الجند من الأتراك، الذين نصبوا المعتز على عرش الخلافة[١٨]. وكان باكباك زوج أمه أقوى هؤلاء الجند وأعظمهم شأنا، قد حصل من الخليفة فى سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م على أقطاع مصر، بيد أن حرصه على عدم مغادرة سامراء عاصمة الخلافة، ليكون على مقربة من مجريات الأحداث، وفى مأمن دائم من دسائس خصومه، وقريبا من أنصاره وأشياعه مصدر قوته وعصبيته، دفعه إلى اختيار ابن زوجته أحمد بن طولون ليكون نائبا عنه فى مصر، فسار إليها فى رمضان سنة ٢٥٤هـ/ سبتمبر ٨٦٨م متقلدا للقصبة أى الفسطاط وأسيوط وأسوان دون غيرها من الأعمال الخارجة عنها مثل الإسكندرية وغيرها، واستقدم معه بعض الجند للدفاع عنه ضد أى ثورة يقوم بها الشعب، ولإحباط ما قد يقوم به بعض المواطنين من دسائس، كما حضر معه أحمد بن محمد الواسطى[١٩] الذى كان قد عهد إليه بخدمة الخليفة المستعين حين كانت حراسته موكولة إليه، والذى صار بمثابة ساعده الأيمن فى إدارة شئون البلاد.

وبدأت مصر منذ ذلك التاريخ عهدا جديدا هو عهد الاستقلال الذاتى، إذ عمل أحمد ابن طولون على تأسيس دولة يحكمها وأولاده من بعده واستقل بأمور البلاد[٢٠]. والحق أن ابن طولون كان سياسيا قديرا خبيرا باختيار الرجال، كما كان بارعا فى انتهاز الفرص والاستفادة منها، لذلك أمكنه أن يتغلب على المصاعب الداخلية والخارجية التى واجهته، وأولى هذه العقبات التى تغلب عليها هو التخلص من أحمد بن المدبر عامل الخراج الذى ولى هذه الوظيفة منذ سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م حسبما ورد فى بعض الوثائق البردية[٢١] وليس

١٦- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٠؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٤.

١٧- Ibn said,La Biographie d'Ibn Tulun d'après Ibn al- Dāya, éditée par vollers, weimar, 1895, p.7.

١٨- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.33.

١٩- البلوى، سيرة أحمد طولون، ص ٤٢؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢١٤.

٢٠- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٥٢.

٢١- Becker, Beiträge fur Geschichte Aegyptens unter dem Islam, Strasbourg, 1902-1903, II, p. 145; Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.37.؛ اليعقوبى، كتاب البلدان، ليدن ١٨٩١، جـ٢، ص٦٠٣.

فى سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م كما يزعم المقريزى[٢٢]. وكان ابن المدبر هذا قد لجأ إلى إدخال ضرائب جديدة فى مصر وإلى اغتصاب ثروات الأغنياء ومن ذلك أنه أحاط بالنطرون أى كربونات الصوديوم وحجر عليه بعد أن كان مباحا لجميع الناس، وفرض ضريبة على الكلأ عرفت باسم المراعى، وأخرى على ما يستخرج من البحر عرفت باسم المصائد[٢٣] مما زاد فى بؤس الشعب فى مصر الذى أصبح منذ تولى ابن المدبر ينوء تحت عبء ثقيل من الضرائب. ليس هذا فحسب بل عمد ابن المدبر أيضا إلى العيش فى أبهة وفخامة ومظهر جليل يفوق ما كان للولاة أنفسهم الأمر الذى لفت نظر ابن طولون، لاستخدامه حرسا خاصا مكونا من مائة غلام امتازوا بجمالهم وقوة أبدانهم وحسن هندامهم، كانوا يصحبونه فى غدواته وروحاته[٢٤].

وقد هرع ابن المدبر إلى استقبال أحمد بن طولون حاملا معه هدية تتألف من عشرة آلاف دينار، ردها ابن طولون[٢٥] على نحو لم يعهده ابن المدبر من الولاة الذين سبقوه، ومن ثم فقد سارع بالكتابة إلى بلاط الخليفة محذرا من أحمد بن طولون لاعتقاده بأن من يرفض هدية كمثل التى قدمها إليه ليس من الحكمة أن يوكل إليه أمر إقليم ناءٍ عن الحكومة المركزية[٢٦] مثل مصر. غير أنه فوجئ بأن ابن طولون لا يمانع فى قبول الحرس المحيط به، لأنهم ألزم إليه من المال الذى عرضه عليه، فلم يسع ابن المدبر سوى التنازل عن هذا الحرس، وبذا نقصت هيبته بمفارقتهم مجلسه، وزال جمالهم لهم بين يديه[٢٧]. مجمل القول أنه منذ تلك الساعة بدأ النضال بين ابن طولون وابن المدبر، يشتد ويقوى عن طريق عمالهما وجواسيسهما فى سامراء حتى انتهى بفوز أحمد بن طولون عندما كتب إليه الخليفة المعتمد يستحثه فى جمع الأموال فكتب إليه ابن طولون: «لست أطيق ذلك والخراج فى يد غيرى»، فأرسل إليه نفيسا[٢٨] الخادم بتقليده إياه[٢٩]، وبذلك خلص له خراج مصر.

٢٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ١٠٣؛ سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، ص ٤٧ .

٢٣- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ١٠٣، ١٠٦.

٢٤- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٤؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٤.

٢٥- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٣، ٤٤؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٤.

٢٦- سيدة إسماعيل كاشف، ص٥٠؛ Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.39

٢٧- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٥؛ Ibn said, La Biographie d'Ibn Tulun, p.9

٢٨- ذكرته سيدة كاشف تحت اسم نسيم، انظر أحمد بن طولون، ص ٦٩ وذلك نقلا عن زكى محمد حسن Les Tulunides, P.51

٢٩- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢١٧؛ البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ٧٣؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣١٩.

كما نجح أيضا فى أن يمد نفوذه على مصر كلها بما فى ذلك الإسكندرية وبرقة عندما واتته الفرصة بعد مقتل باكباك، إذ منحت مصر إلى يارجوخ، الذى تطلق عليه بعض المصادر خطأ اسم ماجور، وكان قد أعطى أحمد بن طولون احدى بناته زوجة له كما سبق ان أشرنا من قبل. وعمل يارجوخ هذا على تثبيت صهره ابن طولون فى مصر نيابة عنه، بل وأطلق يده فيها، وخاصة مما لم يكن واقعا تحت سلطانه إذ أرسل إليه قائلا: «تسلم من نفسك لنفسك»[٣٠].

كذلك حانت لابن طولون فرصة إنشاء جيش خاص عندما ثار عيسى بن الشيخ، والى فلسطين والأردن وشق عصا الطاعة على الخليفة المعتمد ورفض الاعتراف بسلطانه، وأراد الاستقلال بولاية فلسطين والأردن بالإضافة إلى أطماعة فى ضم مصر أيضا، واستولى على سبعمائة وخمسين ألف دينار كانت مرسلة من مال مصر إلى العراق. ورغم أن الخليفة المعتمد قد عرض عليه أن يوليه أرمينية مقابل خضوعه وانسحابه من الشام، إلا أنه رفض لأنه كان يصبو فى الواقع إلى الجمع بين الولايتين وأن يضيف إليهما مصر إذا استطاع إلى ذلك سبيلا. فأرسل المعتمد إلى ابن طولون طالبا منه التأهب لحرب ابن الشيخ، فسارع إلى تكوين جيش قوى من الأتراك والروم والسودان بلغ مائة ألف وقيل أيضا مائتى ألف، وسارع بالخروج لاخضاعه بعد أن استخلف على مصر أخاه موسى[٣١]، إلا أنه تلقى أمرا من الخليفة بالعودة إلى مصر، بعد أن عهد إلى أماجور بالقضاء على ابن الشيخ، الأمر الذى يدفع إلى الترجيح بأن الخليفة المعتمد قد أدرك فى اللحظة الأخيرة أن من الحكمة منع ابن طولون من التوغل فى بلاد الشام لئلا يسعى إلى مصر والاستقلال بها، ولعل الخليفة رغب أيضا فى التخلص من أماجور وإبعاده عن بلاط الخلافة عن طريق إقطاعه الشام والقضاء على ثورة ابن الشيخ[٣٢]. خلاصة القول أن ابن طولون قد غنم من هذا الوضع إذ عاد بجيشه كاملا، وصار هذا الجيش فى يده أداة قام عليها سلطانه إذ تمكن أن يقضى به على كل منافسيه والثائرين عليه فى برقة والإسكندرية والصعيد فيما بعد، إذ استطاع بعد خمس سنوات من حضوره إلى مصر أن يضم لنفسه الخراج فى البلاد وأن يكون أميرا على مصر كلها بما فى ذلك الإسكندرية وبرقة وأن يكون جيشا وأن يبنى عاصمة جديدة له[٣٣].

٣٠- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٤٩، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٥.

٣١- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٥٠ - ٥٢؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٥.

٣٢- سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، ص ٦٥.

٣٣- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٥٣؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٥.

بيد أن سلطانه سرعان ما تعرض للخطر عندما تغلب الأمير الموفق طلحة على أخيه المعتمد واضطر الخليفة إلى إقطاعه مصر علاوة على الولايات الشرقية، وقد أرسل الموفق يطالب ابن طولون بالأموال والمنسوجات والعبيد والخيل والشمع وما إلى ذلك من الجزية التى اعتادت مصر إرسالها إلى الخلافة فى كل عام، فلم يرسل له سوى ألف ألف ومائتى ألف دينار استصغرها الموفق(٣٤) وأعد جيشا لإخراجه من مصر إلا أن ابن طولون انتهز فرصة موت أماجور والى الشام فى سنة ٢٦٤هـ/ ٨٧٨م(٣٥) وقاد جيشه إليها، ودخل الرملة ودمشق وحمص وحماة وحلب وأنطاكية، وصار ملكه يشمل مصر والشام وبرقة(٣٦).

والواقع أن امتداد سلطان أحمد بن طولون إلى حدود دولة الروم بعد دخوله طرسوس، ذلك الثغر الذى أمضى فيه زمنا من شبابه بين العلماء والمجاهدين جعله يفكر فى غزو الدولة البيزنطية لولا ما بلغه من ثورة ابنه العباس فأسرع بالعودة إلى القطائع فى سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م ليقضى على هذه الثورة(٣٧) التى انتهت بهزيمة العباس وأعوانه بعد فرارهم إلى برقة، حيث تم إحضارهم إلى الفسطاط فى سنة ٢٦٨هـ/ ٨٨١م(٣٨)، وأمر ابن طولون بضرب ابنه ومن أغروه على الخروج والعصيان بالسياط حتى مات بعضهم من الضرب وزج بابنه فى السجن(٣٩).

ومن أجرأ المحاولات التى قام بها أحمد بن طولون، وإن لم يكتب لها النجاح، محاولته نقل مقر الخلافة العباسية إلى مصر، منتهزا فرصة الخلاف بين الخليفة المعتمد وأخيه الموفق، لاستبداد الأخير بالأمور، إذ أرسل إلى الخليفة فى سنة ٢٦٨هـ/ ٨٨١م يغريه بترك بغداد والالتجاء إلى أملاكه بمصر(٤٠)، فرحب المعتمد بالفكرة ضجرا من أخيه، ونكاية له، وخرج بالفعل من بغداد ومعه بعض خواصه بزعم أنه ذاهب للصيد(٤١)، ولكن

٣٤- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٨٠ ، ٨١.

٣٥- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.64

٣٦- محمد حمدى المناوى مصر فى ظل الإسلام، ص ٥٤.

٣٧- سيدة إسماعيل كاشف، سيرة أحمد بن طولون، ص ٦٤.

٣٨- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٢٤؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٠.

٣٩- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٦٩، ٢٧١.

٤٠- ابن سعيد، المغرب ص ١٢٦ - ١٢٧؛ البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٨١.

٤١- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٢٥؛ البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٨٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٠؛ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة ١٩٢٩، جـ٨، ص ١٠٧.

الموفق بلغه الخبر فأرسل إلى عامله بالموصل إسحق بن كنداج يطلب منه رد المعتمد ويمنيه بالإقطاعات الواسعة والمال الجزيل[٤٢]، وقد استطاع إسحق أن يقبض على الخليفة وحاشيته وأعاده إلى أخيه الموفق، الذى خلع على إسحق ولقبه بذى السيفين وعقد له على مصر بدلا من أحمد بن طولون[٤٣]، فما كان من أحمد، وكان حينئذ بدمشق، إلا أن أحضر قضاة أعماله واستفتاهم فى خلع الموفق، وأمر بقطع اسمه من الخطبة، ومحو اسمه من الطراز، وأشهد الجميع على ذلك فيما عدا القاضى بكار بن قتيبة الذى تعلل بقوله «لم يصح عندى ما فعله أبو أحمد ولم أعلمه[٤٤]». ولم يكتف ابن طولون بذلك بل جرد حملته المشهورة على الحجاز ليمنع من أن يدعى للموفق على منابر مكة، ولكن أهل مكة ساعدوا العراقيين فكانت الهزيمة على المصريين، وحين بلغ الموفق ما فعله ابن طولون كتب بدوره إلى عماله يأمرهم بلعن ابن طولون على المنابر فلعن فى سائر الأمصار[٤٥]. وظل العداء بين الرجلين حتى رأى الموفق أن التمادى فيه لن يؤدى إلى خير فراسل ابن طولون معاتبا على المبادرة بخلعه وإسقاط اسمه، ويعتذر له على ما كان من لعنه على منابر بغداد، ولم يكن من أحمد بن طولون بعد أن تأكد من صدق رغبة الموفق، إلا أن جنح إلى المسالمة واعتذر إليه[٤٦]، وظلت المفاوضات تسير إلى غايتها حتى قاربت على التمام، وخرج رسول الموفق حاملا كتاب الصلح وإسقاط اللعن عن أحمد بن طولون فلما بلغ الرقة بلغه موت ابن طولون فقفل راجعا إلى عاصمة الخلافة[٤٧].

وهكذا نرى أحمد بن طولون استمات فى الدفاع عن حقوق اكتسبها حتى آخر رمق فى حياته فقد لقى ربه يوم الأحد لعشر خلون من ذى القعدة سنة ٢٧٠هـ/ مايو ٨٨٤م[٤٨] ولم يبلغ الخمسين[٤٩] بعد أن حكم مصر زهاء ستة عشر عاما[٥٠]، وترك دولة موطدة الأركان، إذ عنى عناية كبيرة بالإصلاحات الداخلية، وأحسن استغلال موارد

٤٢- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٩٠.

٤٣- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٩٣؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٠.

٤٤- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٩٤؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٠ - ٣٢١.

٤٥- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٥٥؛ سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، ص ١١٠.

٤٦- سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، ص١١١.

٤٧- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.95

٤٨- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٣٤٣؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٠.

٤٩- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.96

٥٠- سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، ص ١١٢.

البلاد[٥١]، وأمر باسقاط الكثير من الضرائب التى أثقلت كاهل الناس خصوصا ما فرضه ابن المدبر[٥٢]، واهتم بعمارة البلاد وحفر الترع وإقامة الجسور[٥٣]، فعم الرخاء فى عهده حتى بيع القمح كل عشرة أرادب بدينار[٥٤]. كما اهتم بأحوال الشعب فحظر الرشوة على عماله[٥٥]، وشدد قبضته عليهم وعاقب من يعتدى منهم على الأهالى[٥٦].

وكان يشرف بنفسه على أعمال الدولة، ويستطلع أحوال الرعية، حتى أنه كان يعرف من أمورهم الكثير. فكان يعرف عن أهل الفسطاط التقوى والصلاح[٥٧]. أما أهل العسكر فكانوا على ما يظهر يميلون إلى اللهو[٥٨]. ولعل ذلك راجع إلى أن أهل الفسطاط كان أغلبهم من العرب، على حين كان أغلب أهل العسكر من الترك وغيرهم من الأجناس الذين استولوا على زمام الأمور فى الدولة العباسية.

كذلك أكثر ابن طولون من الاستعانة بالمصريين فى إدارة شئون البلاد، إذ استعان بكاتب مصرى هو جعفر بن عبد الغفار بعد خروج أحمد بن محمد الواسطى كاتبه وأكبر أعوانه إلى بغداد[٥٩]، لأنه استطاع ان يعرف بثاقب بصره أن المصريين أقدر على تدبير أمورهم خصوصا المالية، حتى أصبحت الإدارة المالية كلها فى أيديهم.

وعلى هذا يمكن القول أنه إذا كان عمرو بن العاص صاحب الخطوة الأولى فى بناء مصر الإسلامية، فإن أحمد بن طولون هو صاحب أول تجربة لإنشاء كيان مصرى خاص داخل الكيان الإسلامى العام، وفضله من هذه الناحية عظيم، لأنه يعتبر بمثابة النموذج الذى سار على منواله محمد بن طغج الإخشيد، ثم الفاطميون والأيوبيون، فإن كانت تجربة

٥١- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٥٦.

٥٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص١٨٤؛ محمود رزق محمود، المجتمع المصرى، ص ١٠٦.

٥٣- جروهمان، أوراق البردى العربية، ترجمة حسن إبراهيم حسن، مراجعة عبد الحميد حسن، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٧٤، جـ٤، ص٩٢ ، ٩٧.

٥٤- ابن الداية، المكافأة، ص ١٣٣، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٣١.

٥٥- محمود رزق محمود، المجتمع المصرى، ص ٣٧٩ الذى يؤكد مع ذلك انتشار الرشوة فى أيامه نقلا عن البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ١٢٩؛ ابن سعيد، المغرب، ص ١٠١.

٥٦- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٥٦.

٥٧- البلوى، سيرة ابن طولون، ص ٢٠٥ ، ٢٠٩.

٥٨- البلوى، سيرة ابن طولون ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٣.

٥٩- محمود رزق محمود، المجتمع المصرى، ص ٦٣.

ابن طولون قد انتهت بالفشل فإن عبرتها ظلت باقية لتصبح محورا لتاريخ مصر الإسلامية(٦٠).

ولقد أقام أحمد بن طولون فى أول الأمر فى مدينة العسكر ونزل دار إمارتها(٦١)، وأسس فيها سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م بيمارستانا اشتهر بدقة أنظمته(٦٢)، كما شرع فى غضون سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م فى تأسيس مدينة جديدة عرفت بالقطائع(٦٣) لتكون مركزا لحكمه وقصرا لجنده وحاشيته الذين اقتسموها، فسميت لذلك بالقطائع، وربما كان تأسيس ابن طولون لهذه المدينة مرتبطا بضرورة إبعاد جيشه غير المتجانس عن الأحياء العربية المصرية وتجنب ما كان ممكنا حدوثه من الشغب بسبب اختلاط جنده بالتجار وغيرهم من سواد الشعب على نحو ما حدث لجند الخليفة المعتصم فى بغداد، وكان سببا فى إنشاء مدينة سامراء(٦٤). ولعل تأسيس القطائع كان مرتبطا أيضا بأطماع ابن طولون فى الاستقلال بحكم مصر. وقد اختط ابن طولون القطائع فى الطرف الشمالى الشرقى من العسكر، وكانت هذه المدينة تقع من جهة بين جبل يشكر وهو الحد الشمالى للفسطاط وبين سفح جبل المقطم عند مكان القلعة الحالية، الذى كان يعرف سابقا باسم قبة الهواء، ومن جهة أخرى بين الرميلة تحت قلعة الجبل إلى مشهد الرأس، الذى عرف فيما بعد باسم مشهد زين العابدين، وكانت مساحتها ميلا مربعا(٦٥).

وشيد بها مسجده المعروف الذى انتهى من بنائه فى سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٩م كما يتضح من بقايا اللوحة التأسيسية التى بداخله المنقوشة بالخط الكوفى(٦٦).

٦٠- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٥٨.

٦١- محمود رزق محمود، المجتمع المصرى، ص ٢٢١.

٦٢- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٩٩، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٤٠٥ - ٤٠٦؛ القلقشندى، صبح، جـ٣، ص ٢٣٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٠، ١٢٢؛ محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر، القاهرة ١٩٨٠، ص ١٥٥ - ١٥٦.

٦٣- المقريزى؛ الخطط، جـ١، ص ٣١٣؛ حسن الباشا، مدينة القطائع، القاهرة تاريخها، فنونها، واثارها، ص١٦.

٦٤- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.292.

٦٥- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٣؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١٤١.

٦٦- Van Berchem, Materiaux Pour un Corpus inscriptionum arabicarum, MIFAO, t.19, Le Caire, 1894-1903, Egypte, I, P.29, Répertoire chrologique d'épigraphie arabe, Le Caire, 1431-1982, III, p. 199, K.A.C. Creswell, A Short Account, p.393.

وعلى الرغم من الأموال الطائلة التى أنفقها ابن طولون على هذه الأعمال الا أنه ترك فى خزائنه عند وفاته سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م، عشرة آلاف ألف دينار من الذهب، ومن المماليك سبعة آلاف مملوك، ومن الغلمان أربعة وعشرين ألف غلام، ومن الخيل الميدانية سبعة آلاف رأس، ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس، ومن الدواب لخاصته ثلثمائة، ومن مراكبه الجياد مائة. وكان يدخل إلى خزائنه فى كل سنة بعد مصاريفه ألف ألف دينار[٦٧].

ورغم هذا فقد اختلفت فيه الآراء بين مادح وقادح، فالبعض لا يرون فيه إلا الرحمة والتقوى والبر، وآخرون لا يستشعرون فيه إلا القسوة والعنف والتجسس، وكلا الرأيين فيه شئ من الصحة وكثير من المغالاة، لأن ابن طولون لم يكن بدعا بين بناة الأمم، أو نسيجا وحده دونهم، بل شأنه شأن غيره ممن تصدى لإنشاء دولة أو عمل للوصول إلى السلطان فهم يستعملون كل سلاح للوصول إلى أهدافهم، والعبرة فى وصولهم إلى النجاح من عدمه رهن بحسن استغلال هذه الأسلحة، فلا يوضع السيف إلا حيث يجب أن يوضع، ولا يرسل الخير إلا حيث يجب أن يكون. فقلوبهم لا تعرف الرحمة إذا تعرض الأمر لسطانهم حتى ولو كان مع أقرب الناس إليهم، والكرم والتسامح فيما عدا ذلك[٦٨].

خلف ابن طولون ابنه الثانى أبو الجيش خمارويه، الذى ملك مصر والشام والثغور بمبايعة الجند له[٦٩] بعد وفاة أبيه وهو لا يزال فى العشرين من عمره تنفيذا لوصية ابن طولون، ومن ثم فقد كان عليه أن يعمل أولا على توحيد الأسرة الطولونية حيث تسنى له ذلك بعد مقتل العباس الابن الأكبر لأحمد بن طولون، والذى كان من المفروض طبقا لوصية أبيه أن يتولى بلاد الشام ومنطقة الثغور[٧٠]. كما عمل على الاهتمام بالجيش بصفته عدة الدولة فى نضالها من أجل البقاء ومن أجل القوة والنفوذ. وقد تجلت هذه العناية فى استقدام مجندين جدد من آسيا الوسطى، كما ضم إليه طائفة من المصريين[٧١]، وعنى أيضا بتجنيد العرب وانتقى منهم من عرف بالشجاعة والشدة والبأس وضخامة الأجسام، واهتم بتدريبهم وتنظيمهم وتسليحهم، وكون منهم فرقة خاصة عرفت فى كتب التاريخ باسم المختارة[٧٢]. ولم يبخل على أفراد هذا الجيش بالمال، فكان يمنحهم أعطيات منتظمة[٧٣].

٦٧- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢١.

٦٨- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٥٨.

٦٩- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٤٩.

٧٠- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.108.

٧١- حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ٩٩.

٧٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٨، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥٩.

٧٣- حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١٠٠.

وعمل فى الوقت نفسه على استرضاء أهل البلاد متبعا نفس السياسة التى سار عليها أبوه من قبل، فشمل النصارى بتسامحه وظفروا فى عهده بحريات لم يفوزوا بها من قبل، كما استمال قلوب المسلمين(٧٤) من المصريين وأشركهم فى الجيش كما ذكرنا، ولم يعدم الشعب أن يفيد من الرخاء الذى خيم على البلاد بصورة لم تشهدها مصر الإسلامية من قبل(٧٥).

وعمل خمارويه أيضا على الحفاظ على أملاك الدولة الطولونية فى بلاد الشام، لأنه وضع فى اعتباره أنه إذا فقد السيادة على بلاد الشام انتهى أمره فى مصر. وقد صح ما توقعه، فما كادت تصل إلى سامراء مركز الخلافة العباسية أنباء وفاة أحمد بن طولون وتوليه السلطة حتى انبعثت الفتنة من مراقدها وضاعت عروض السلام هباء، إذ عمد الموفق إلى استغلال اسحق بن كنداج، الذى سبق أن عقد له على مصر أثناء الأزمة التى ثارت بينه وبين ابن طولون، وما دام هذا الخليفة لم يعترف بخمارويه أميرا، فإن إسحق كان لايزال فى نظره صاحب الحق الشرعي، وأن عليه إذا أراد أن يجعل من ولايته حقيقة واقعة ان يسير إلى مصر لانتزاعها بالقوة من خمارويه، بل وضم إليه خصم الطولونيين العنيد محمد بن أبى الساج(٧٦)، وبعث إليهما بابنه أبى العباس أحمد على رأس القوات العراقية(٧٧) التى استطاعت أن تستولى بالفعل على الرقة وقنسرين والعواصم، وهزم بعض أنصار الطولونيين عند شيرز(٧٩)، ثم ما لبثت القوات العراقية أن دخلت دمشق، ومضت إلى الرملة تريد أن تشق طريقها إلى مصر، فأسرع خمارويه وعقد لأبى عبد الله أحمد بن محمد الواسطى على جيش إلى الشام فى ذى الحجة سنة ٢٧٠هـ/ مايو ٨٨٤م، ولسعد بن الأيسر على جيش آخر(٨٠)، كما سير مراكب كثيرة فى البحر رابطت بسواحل الشام استعداداً للطوارئ(٨١).

بيد أن خيانة الواسطى، الذى يقال أنه بعث بكتاب إلى الموفق يصغر فيه أمر

٧٤- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.218.

٧٥- حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١٠١.

٧٦- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥٠.

٧٧- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٥٢.

٧٨- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ١، ص ١٤٧.

٧٩- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.111.

٨٠- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٥؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢١.

٨١- حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١٠٥.

خمارويه ويحضه على المسير إلى مصر[٨٢]، كانت سببا فى الهزيمة التى لحقت بالطولونيين عند شيرز وسلهت للقوات العراقية الدخول إلى دمشق، إلا أن خمارويه أسرع بالخروج إليهم فى جيش يتألف من سبعين ألف مقاتل[٨٣] غير مبال بالخطر، رغم علمه بسوء الحال وبخيانة الواسطى، والتقى بالقوات المعادية عند الطواحين على نهر أبى فطرس بين الرملة ودمشق فى شوال سنة ٢٧١هـ/ أبريل ٨٨٥م[٨٤].

ويبدو أن قلة خبرة خمارويه بأمور الحرب جعلته يصاب بالذعر فى أول تجربة له، فأسرع بالفرار بأكثر جيشه إلى مصر[٨٥]، إلا أن فرقة مصرية بقيادة سعد بن الأيسر استطاعت لحسن الحظ أن ترد الأعداء المشغولين فى جمع الغنائم على أعقابهم، وأن تقلب هزيمة خمارويه إلى نصر، مما اضطر الجيوش العباسية المتحالفة إلى التراجع صوب دمشق حيث أغلقت المدينة أبوابها فى وجوههم فأنزل بهم سعد بن الأيسر هزيمة منكرة[٨٦]، وتمكن بعدها من استعادة أغلب مدن الشام إلى الطولونيين[٨٧]. ويغلب على الظن أن سعدا هذا قد استخف بخمارويه بعد هذا النصر وأراد الانفراد ببلاد الشام[٨٨] مما اضطر خمارويه إلى الخروج إليه فى سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٦م وتغلب عليه وقتله، بل ودخل دمشق وملكها فى المحرم سنة ٢٧٣هـ/ يونيو ٨٨٦م[٨٩] بعد أن استطاع التخلص من أحد قواده الذين أحرزوا له نصرا عظيما فى بلاد الشام، ربما بسبب ما أشيع عن خيانته، وربما أيضا بدافع من الغيرة نتيجة للشعبية التى حظى بها سعد فى بلاد الشام[٩٠].

ومن المرجح أن هذه الحادثة كانت سببا فى حرص خمارويه على تتبع بقية العناصر المناوئة له، حيث بدأ بإسحق بن كنداج الذى أنزل به هزيمة فادحة بأرض الرافقة، وظل

٨٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥١.

٨٣- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٥.

٨٤- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.111.

٨٥- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢١.

٨٦- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٨، ص ١٤٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥٠.

٨٧- حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١٠٦.

٨٨- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥١.

٨٩- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥١.

٩٠- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.114

يتعقبه حتى مشارف مدينة سامراء[٩١] مما اضطره فى النهاية إلى مصالحة خمارويه، وأن يكون عاملا من عماله يدعو له على المنابر بعد أن كان يدعى الإمارة على مصر[٩٢].

ونجح خمارويه أيضا فى القضاء على محمد بن أبى الساج فى سنة ٢٧٤هـ/ ٨٨٨م فى ثنية العقاب من أرض دمشق[٩٣]، وبذا ارتفع قدره فى أعين المعاصرين وامتد نفوذه من برقة حتى الفرات، ومن آسيا الصغرى حتى بلاد النوبة، بل شمل أيضا أرمينية بصورة لم تتوفر له من قبل[٩٤].

ويفهم من المصادر المعاصرة أنه رغم هذه الانتصارات التى أحرزها خمارويه فقد كان البادئ بطلب الصلح والتفاهم مع الخليفه، إذ كتب إلى الموفق فى طلب الصلح وهو ببلاد الشام على مال يدفعه[٩٥]، فرضى وبعث إليه بكتاب مع فائق الخادم فى رجب سنة ٢٧٣هـ/ ٨٨٧م، أعطى له الحق فى أن يحكم الدولة وأن ينفرد بها ثلاثين سنة هو وولده على حد تعبير الكندى، ولا يهدد بعزل أو تدخل فى شئونه[٩٦]. والحق أن هذا الكتاب جاء تسجيلا لحقيقة قائمة، واعترافا بنفوذ حصل عليه خمارويه فعلا، كما جاء إقرارا للسلام فى هذه المنطقة الهامة من الشرق الأدنى. وكان طبيعيا بعدها أن يسترد الموفق مكانه الطبيعى فى خطبة الجمعة باعتباره ولى العهد، فبدئ بذكر اسمه، وامتنع الطولونيون عن لعنه على المنابر والدعاء عليه[٩٧].

ولا شك فى أن هذا النجاح الذى أحرزه خمارويه كان سببا فى ذلك التقارب الذى تم بينه وبين يازمان الخادم صاحب طرسوس الذى دعا لخمارويه على منابر الثغور فى سنة ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م[٩٨]، بعد أن أصبح خمارويه أميرا شرعيا يعترف به الموفق والخلافة العباسية، كما بعث إليه بخمسين ألف دينار، لعلها ما يستحق على بلاده من خراج[٩٩]،

٩١- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢١؛ Lane- Poole, History of Egypt, p. 73, Becker, Beiträge, II, p. 182; Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.114.

٩٢- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٧.

٩٣- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٨، ص ١٥٤؛ الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

٩٤- حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١٠٨.

٩٥- Z.M. Hassan, Les Tulunides, P.115

٩٦- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٨؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥١، الذى أغفل شرط التوريث.

٩٧- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥٢.

٩٨- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٧٦.

٩٩- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٩؛ حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١١١.

وكان هذا الاعتراف بداية لتعاون وثيق بين الرجلين لدفع الخطر البيزنطى والدفاع عن حدود الشام.

ثم توفى الموفق فى سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩١م(١٠٠)، ولحق به الخليفة المعتمد فى السنة التالية، وبويع المعتضد بالخلافة فى رجب سنة ٢٧٩هـ/ اكتوبر ٨٩٢م، فبعث إليه خمارويه بالهدايا(١٠١) مع الحسين بن عبد الله المعروف بالجصاص، فكان ذلك إغراء بما قد تصيبه الخلافة من طرف وهدايا، إذا ساد السلام واستقامت الأمور، فصدرت معاهدة جديدة لاتختلف كثيرا عن المعاهدة الأولى اعترف فيها الخليفة المعتضد بولاية خمارويه هو وولده ثلاثين سنة من الفرات إلى برقة، وجعلت إليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال، على أن يحمل فى كل عام من المال مائتى ألف دينار عما مضى وثلاثمائة ألف عن كل عام للمستقبل(١٠٢)، وهذا يعنى أن تدفع مصر للخليفة خمسمائة ألف دينار سنويا وهو عبء ثقيل على خزانتها بيد أن خمارويه لم يجد فكاكا من دفعه(١٠٣)، كما رد الخليفة على هدايا خمارويه ونواياه الطيبة بهدايا مماثلة من بينها اثنتا عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح مع خادم يسمى سنيف(١٠٤).

كذلك عرض خمارويه أن يزوج ابنته قطر الندى لابن الخليفة المعتضد، ولكن الأخير فضل أن يتزوجها هو ودخل بها فى سنة ٢٨٢هـ/ ٨٦٥م(١٠٥). وقد بالغ خمارويه فى جهاز ابنته وتكلف فى ذلك ما يقصر دونه الوصف من بناء القصور فى كل مرحلة على طول الطريق بين مصر وبغداد لنزول العروس، كما أكثر من الجواهر والتحف(١٠٦) حتى قيل أنه انفق فى ذلك مليون دينار(١٠٧) فى الوقت الذى بلغ فيه صداقها مليون درهم فقط(١٠٨).

وتتحدث المصادر التاريخية أنه كان من بين جهازها دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها

١٠٠- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.114

١٠١- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥٢.

١٠٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥٣.

١٠٣- حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١١٨.

١٠٤- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٤٠؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢١؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥٣.

١٠٥- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٨، ص ١٧٠؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٩.

١٠٦- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٦٢.

١٠٧- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.120

١٠٨- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥٣.

قيمة، بالإضافة إلى ألف هاون من الذهب لسحق العطور(١٠٩)، ولعل خمارويه قد أراد بهذا الجهاز أن يبهر الناس بمدى تفوق مصر على حاضرة الخلافة من حيث الثراء العريض والذوق الجميل والصنعة البديعة، ولم يكن يهمه حينئذ ما أنفق من أموال طالما أنه كان يسعى إلى توثيق صلته بالخلافة بعد أن أعطى دولته الصفة الشرعية وضمن لبنيه حقا طبيعيا فى الوراثة بعد أن صاهر الخليفة، الذى قيل عنه أيضا أنه أراد بزواجه من قطر الندى «أن يفقر أباها فى جهازها»(١١٠).

والحق أنه من الصعب علينا أن نتعرف على حقيقة الآمال التى كانت تدور فى رأس خمارويه يوم خرج إلى دمشق فى ذى الحجة سنة ٢٨٢هـ/ يناير ٨٩٦م بعد إتمام هذا الزواج بقليل، وطبيعة الدور الذى كان يستعد لأن يقوم به، إذ قتل على يد بعض جواريه الحاقدات، بعد أن أغرين به من قتله، ولم يحقق ما أراد تحقيقه من أهداف(١١١).

ومع هذا فقد ترك خمارويه بصمات واضحة فى مختلف النواحى السياسية والاقتصادية والحضارية، إذ قدر لمدينة القطائع أن تنطلق فى عهده بعد أن أضاف إليها إضافات تنم على يد فنان ذواقة، سوف نشير إليها بالتفصيل فى الفصل الخاص بآثار العصر الطولونى، بمعنى أنه لم يبخل على نفسه بنعيم الحياة ولم يبخل على الناس بعطاياه(١١٢) لذا اعتبره البعض متلافا(١١٣) فقد بلغت نفقته على جنده تسعمائة ألف دينار فى السنة(١١٤)، واستكثر من الجوارى والغلمان حتى شاع أمره، وكثرت نفقته على طعامه لدرجة أن الباقى فى مطبخه من أصناف المأكول كان يزيد عن حاجة الخدم فيبيعونه، «وكان الناس يأتونهم لذلك من البعد، ويشترون منهم ما يتفكهون به من الأنواع الغريبة من المأكل. وكان هذا دواما فى كل وقت، بحيث إن الرجل إذا طرقه ضيف خرج من فوره إلى دار الحرم، فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر على عمل مثله». لذلك بلغت نفقة المطبخ فى أيام خمارويه ثلاثة وعشرين ألف دينار شهريا(١١٥)، وبذا أنفق فى أموره هذه ما

١٠٩- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٦١؛ Lane- Poole, History of Egypt, p.74.

١١٠- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.119

١١١- حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١٢٢.

١١٢- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٣٦.

١١٣- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٦١.

١١٤- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥٩.

١١٥- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣١٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٥٨، ٥٩.

كان أبوه قد ادخره وكذا ما كان يأتيه من الخراج بعد أن عكف على كل ألوان المتعة والمسرة[١١٦].

وخلف خمارويه ابنه الأكبر أبو العساكر جيش وكان شابا صغيرا فى الرابعة عشرة من عمره لا يحسن من الأمر شيئا، والتف حوله طائفة من أمثاله الغلمان والملهين أمثال بندكوش، وخضر وابن البواش فأفسدوا أمره وزينوا له قتل عمه أبى العشائر وهو نصر بن أحمد بن طولون، فدس له من قتله[١١٧]، فنفر منه الجند[١١٨] وعولوا على خلعه، وخاصة أن الجيش الذى كونه جده أحمد بن طولون كان قد أصبح القوة الفعلية فى البلاد، ولم يكن من الممكن أن يملأ مثل هذا الغلام أعين القواد، فتخلى عنه أكبرهم مثل خاقان المفلحى، ومحمد بن إسحق بن كنداج، ووصيف بن سوارتكين وغيرهم وبسطوا ألسنتهم فيه وشكوا إلى بعضهم البعض من تصرفاته[١١٩]، وكان كبير الدولة والمقدم فى هؤلاء الجند أبو جعفر بن أبى فتحدث إليه القواد فى شأنه، ولاموه لأنه قصر فى تأديبه وتسديده[١٢٠]، وانتهى الأمر بأن خرج عليه كل من طغج بن جف صاحب دمشق، وابن طوغان أمير الثغور وأسقطا اسمه من الخطبة على المنابر[١٢١]، ومع هذا فلم ينزعج مما حدث واستمر فى لهوه مع الأوباش حتى اجتمع عليه رجال أبيه وقرروا ضرورة خلعه وعمل محضرا بذلك شهد عليه عدول البلد ووجوه من حضر الاجتماع من غلمان أبيه، وتم عزله والقبض عليه[١٢٢]، وقيل أيضا أن الجند وثبوا عليه وقالوا له لا نرضى بك أبدا فتنح عنا حتى نولى عمك أبا العشائر، نصر بن أحمد بن طولون بدلا منك، فخرج إليهم كاتبه على بن أحمد المادرائى وطلب منهم الانصراف فانصرفوا، عندئذ أسرع جيش بقتل عمه فى محبسه ورمى إلى الجند برأسه قائلا: خذوا أميركم[١٢٣]، فما كان من الجند إلا أن وثبوا عليه وقتلوه مع أمه وكاتبه وأصحابه ونهبوا داره، ووقع فى أيديهم من نهبها ما يملأ قلوبهم

١١٦- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٦١.

١١٧- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٤١؛ ابن سعيد، المغرب، ص ١٤٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص٨٨.

١١٨- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٢.

١١٩- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٨٩ - ٩٠.

١٢٠- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٤٢ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٩١.

١٢١- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٩١.

١٢٢- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٩١.

١٢٣- Lane - Poole, History of Egypt, p.75.

وعيونهم حتى قيل ان بعضهم من كثرة ما حصل له ترك الجندية وسكن الريف وصار من مزارعيه وتجاره[١٢٤]. وكان مقتل أبى العساكر فى العاشر من جمادى الآخرة سنة ٢٨٣هـ/ سبتمبر ٨٩٦م بعد أن استمرت ولايته تسعة أشهر واثنى عشر يوما[١٢٥].

وخلف أبا العساكر أخوه أبو موسى هارون[١٢٦]، وكانت بيعته بغير عطاء للجند، ومع ذلك فقد بايعوه جميعا ولم يمتنع عليه أحد، وجعلوا مدبر دولته أبو جعفر بن آبى[١٢٧] فثبت ملكه بعد أن تم التخلص من جميع حاشية أخيه جيش[١٢٨]. بيد أن أحوال البلاد كانت مضطربة، ولم يكن يرجى للدولة صلاح على يديه، وخاصة أن هذه الدول كانت لا تقوم على أساس من سياسة أو هدف أو سند من أهل البلاد، وإنما كان ينشئها طموح رجل فرد، فإذا انقضى أمره زالت الدولة، وكان جند الدولة الطولونية قد فسد أمره وتفرقت وحدته، لأنه كان يتكون من فرق من الترك وأخرى من السود، وجماعات شتى هم أخلاط من المرتزقة أهمهم الروم الذى كان أمرهم قد علا بفضل ثلاثة من قوادهم هم بدر الحمامى، وفائق، وصافى، وكانوا حسب الروايات التاريخية من خيرة القواد عقلا وقدرة[١٢٩]، فحقد عليهم الباقون، وخاصة السود. يضاف إلى هذا أن ربيعة بن أحمد بن طولون، وهو عم هارون، قد أنكر ولاية هذا الغلام وحدثته نفسه بطلب الولاية لنفسه، إلا أن هارون استطاع بفضل اعتماده على طوائف الجند من السود القضاء على عمه ربيعة وقتله[١٣٠]، وفى ذلك الحين ورد على هارون خبر وفاة الخليفة المعتضد زوج أخته قطر الندى وذلك فى ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ/ مارس ٩٠٢م، وتولى ابنه محمد الملقب بالمكتفى الخلافة مكانه[١٣١] كما بدأت فى الوقت نفسه حركة القرامطة تجتاح الشام، فتصدى لها هارون وتمكن جنده من الثبات فى وجهها، الأمر الذى استنفد فيه جانبا كبيرا مما كان قد بقى لجيشه من قوة[١٣٢]، وزاد الطينة بلة تلك الوحشة التى وقعت بينه وبين الخليفة المكتفى[١٣٣]، الذى طمع فى استعادة سلطانه على مصر، لذلك أسرع بندب القائد محمد بن سليمان

١٢٤- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٩٣.

١٢٥- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٩٤.

١٢٦- المقريزى، الخطط، جـ٣، ص ٣٢٢.

١٢٧- ابن الداية، المكافأة، ص ١٥٦.

١٢٨- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٩٩.

١٢٩- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٤١.

١٣٠- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٠٠.

١٣١- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١١٠، ١٢٧.

١٣٢- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.144

١٣٣- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١١٠.

للقيام بهذه المهمة، وكان محمد هذا من خدم أحمد بن طولون، إذ استخدمه لؤلؤ الطولونى كاتبا له، فلما انحرف لؤلؤ عن بنى طولون وانضم إلى رجال الخلافة العباسية انحرف معه محمد بن سليمان، ومازال أمره يرقى حتى أصبح فى جملة القواد حتى ندبه المكتفى للقضاء على آخر الطولونيين[١٣٤].

وبينما كان جند العباسيين يستولى على أملاك الطولونيين فى الشام[١٣٥] وثب عدى وشيبان ابنا أحمد بن طولون على ابن أخيهما هارون وذبحاه وهو ثمل فى ١١ صفر سنة ٢٩٢هـ/ ٢٣ ديسمبر ٩٠٤م وهو لا يزال فى الثانية والعشرين من عمره بعد أن دامت ولايته على مصر ثمانى سنوات وثمانية أشهر وبضعة أيام[١٣٦]، وانفرد شيبان بالولاية ولقب بأبى المواقيت[١٣٧]، وكان أهوج جسيما، جلدا، شديد البدن فى عنفوان شبابه، فصار يسرع فى أموره، ويجزل العطاء للجند بعد استيلائه على ودائع أم هارون التى كانت قد خبأتها فى دور بعض تجار الفسطاط[١٣٨] ومع ذلك فقد انضم جنده جماعة بعد جماعة إلى جند الخليفة المكتفى. ووصل محمد بن سليمان إلى العباسة بمديرية الشرقية بعد أن تخلى الناس عن الطولونيين فأسرع دميانة قائد الأسطول المصرى فأحرق جسر مصر الشرقى وبعض الغربى[١٣٩] حتى تعزل الفسطاط عن الصعيد، وأقبل القائد محمد بن سليمان بمن معه ووقف دون الفسطاط، فى الوقت الذى نهض فيه شيبان بمن بقى معه من الجند السود فى محاولة يائسة لإنقاذ ملكه[١٤٠] حتى كاتبه محمد بن سليمان يؤمنه وأهله جميعا، فسار إليه بأهله تاركا جنده وهم لا يعلمون بتخليه عنهم، فلما علموا بالأمر تفرق أمرهم[١٤١] وانهال عليهم الناس حتى صاروا يذبحون جماعة بين يدى القائد العباسى، الذى أمر بإحراق القطائع ونهب الفسطاط[١٤٢]. وبذا انتهت ولاية شيبان التى لم تستمر سوى تسعة أيام، بل انتهت دولة بنى طولون بأكملها، واجتهد محمد بن سليمان فى إزالة آثارها جملة

١٣٤- ابن سعيد المغرب، ص ١٤٥؛ حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١٦١.

١٣٥- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٤٧.

١٣٦- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١١١.

١٣٧- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٢.

١٣٨- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٣٥ - ١٣٦.

١٣٩- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٣٦؛ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٨، ص ٢٣٤.

١٤٠- حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص ١٦٤.

١٤١- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٣٧.

١٤٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٢.

حتى لم يبق منها شئ واستصفى أموالهم ونهبها[١٤٣] وحمل إلى بغداد جزء وسرق الباقى، ويقال أن الخليفة المكتفى قد حاسبه على ذلك أعسر الحساب، ولم يطل مقام محمد بن سليمان بمصر، إذ استبدله الخليفة المكتفى بعيسى النوشرى[١٤٤] وعادت مصر من جديد ولاية عباسية كما كانت من قبل بعد أن حكمها بنو طولون ثمانية وثلاثين عاما[١٤٥]. ومع هذا فإن من يسمع بصيتهم فى تاريخ مصر يحسب أنهم حكموا أضعاف هذه المدة إذ تنفس الناس الصعداء معهم وانكف عنهم نهب ولاة العباسيين وبدأ ينمو فى مصر وعى بالشخصية المصرية، وإن كان وعيا ضعيفا خافتا يحتاج إلى سنوات طوال ليتجلى ويأخذ صورة واضحة. ولو تنبه آل طولون لكان لدولتهم شأن آخر، ولكنهم مضوا فى أعقاب غيرهم من الاعتماد على العسكر الأجنبى، فحيل بينهم وبين اقتطاف ثمر ماغرسوه[١٤٦]. ورغم هذا فقد أسف المصريون عليهم وقالوا فى رثائهم شعرا كثيرا[١٤٧]، ولا عجب فى هذا فقد كان أحمد بن طولون من أبطال التاريخ المصرى يمتاز عن غيره بفكرته عن مفهوم الدولة وما ينبغى لها، كما كان منشئا وبانيا ومنظما ماليا ممتازا وقد كان ذلك كله من حسن حظ مصر، ومن حسن حظ الخلافة العباسية فرغم كل شئ كان بنو طولون أبر الناس بها وأنفعهم لها، فهم لم يخرجوا على الطاعة، ولم يمنعوا مالا حتى السنوات التى قطع فيها ابن طولون مال مصر عن الخلافة، عوضه ابنه خمارويه الذى كان يرسل إلى الخلافة مائتى ألف دينار عما مضى وثلاثمائة ألف عن كل عام جديد[١٤٨]. ويكفى أن نتذكر هنا أنه فى أثناء السنوات المظلمة التى عبث فيها الزنج بمصائر الخلافة العباسية وهبت عليها ريح القرامطة لم يكن للخلافة من عماد حقيقى إلا ما يرد من مصر من دنانير الذهب، ثم إن الطولونيين حملوا عنهم عبء الحرب مع البيزنطيين، الأمر الذى يدفعنا إلى التساؤل عن السر الذى جعل محمد بن سليمان الكاتب وجنده يفعلون ببقايا بنى طولون، إذ حملوهم إلى بغداد مصفدين فى الحديد كأنهم أسرى حرب ثم عاثوا فى بلاد مصر وأحرقوا ونهبوا كأنهم يقتحمون بلدا معاديا[١٤٩].

١٤٣- ابن الداية، المكافأة، ص ١٣٨.

١٤٤- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٤٧.

١٤٥- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، ص ٦٢.

١٤٦- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٤٠٢، ٤٠٣.

١٤٧- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٢ - ٣٢٦.

١٤٨- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p.118

١٤٩- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٢.

الواقع أننا لا نجد تفسيرا لكل ما حدث سوى الانحطاط الخلقى العام لرجال الدولة العباسية، فقد كانوا شراذم من الشذاذ والعتاة شقيت بهم بغداد ودمشق كما شقيت بهم الفسطاط، وقاسى الخلفاء منهم قدر ما قاسى بنو طولون، فقد كانت بلاد الخلافة العباسية بأجمعها فريسة لأولئك الطغاة. ولو تأمل الإنسان أفعالهم لأدرك للوهلة الأولى أن حمدان قرمط لم يكن أسوأ من هؤلاء الرجال بحال، الذين كانت فوضاهم قد قضت على كل مفهوم للدولة والحق والنظام(١٥٠).

ثبت بأسماء حكام الدولة الطولونية

١	أحمد بن طولون	٢٥٤هـ/ ٨٦٨م
٢	خمارويه بن أحمد بن طولون	٢٧٠هـ/ ٨٨٣م
٣	أبو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢هـ/ ٨٩٥م
٤	أبو موسى هارون بن خمارويه	٢٨٣هـ/ ٨٩٦م
٥	شيبان بن أحمد بن طولون	٢٩٢هـ/ ٩٠٤م

١٥٠- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٤٠٥.

الفصل السابع

آثار الدولة الطولونية

القطـــائع

أكدنا فيما سبق أنه بعد وصول أحمد بن طولون إلى مصر نزل فى دار الإمارة بمدينة العسكر العباسية، ومكث فيها على مدى عامين حتى ضاقت به وبأتباعه بعد أن استكثر من العبيد والرجال[١]، لذلك شرع فى غضون سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م فى تأسيس مدينة جديدة لتكون مقرا جديدا لحكومته ورجال دولته، أراد بها أن يشبع طموحه نحو الترف والأبهة الذى عايشه شطرا من شبابه الباكر فى مدينة سامراء حاضرة الخليفة المعتصم التى بقيت صورتها ماثلة فى ذهنه، وأراد أن تكون عاصمته الجديدة أشبه شئ بالبيئة التى نشأ وترعرع فيها[٢]. فركب إلى جبل المقطم ونظر إلى ما حوله، فرأى إلى الشمال الشرقى من العسكر بقعة من الأرض مساحتها ميل مربع، لا شئ فيها من العمارة سوى بضعة قبور لليهود والنصارى فأمر بحرثها، واختط فى موضعها مدينته الجديدة، وبنى القصر والميدان وأذن لأصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة العسكر والفسطاط[٣] وأقطع كل جماعة منهم قطيعة سميت باسم من سكنها، فكانت للنوبة قطيعة، وللروم قطيعة، وللفراشين قطيعة[٤] لذلك سميت بالقطائع[٥] وكان يخترق المدينة شارع كبير يصل بين قصره وجامعه الذى شيده فوق جبل يشكر سمى الشارع الأعظم تشبيها له بالشارع الأعظم الذى كان يخترق سامراء ويمتد عدة كيلو مترات إلى قصر بلكورا وجامع أبى دلف فى شمال سامراء[٦] وتفرقت فيها السكك والأزقة[٧] وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران[٨] وسميت أسواقها، فقيل سوق العيارين، وكان يجمع العطارين والبزازين، وسوق الفاميين وكان يجمع الجزارين والبقالين والشوائين وسوق الطباخين ويجمع الصيارف والخبازين

١- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٥٣، المقريزى، الخطط، جـ٢ ص٣١٥.

٢- فريد شافعى، العمارة العربية، ص ٢٤٣، زكى من حسن، الفن الإسلامى فى مصر، القاهرة ١٩٣٥، ص ٥٨.

٣- المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣١٥، عبد الرحمن زكى، القاهرة، تاريخها وآثارها، القاهرة ١٩٦٦، ص٦.

٤- ابن دقماق، الانتصار، حـ٤ ٢ص ١٢١، المقريزى، الخطط، حـ١، ص ٣١٥، البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص٥٤، Corbett, The Life and works of Ahmad Ibn Tulun, JRAS,1891,p531.

٥- G. Wiet, L'Egypte musulmane, p154, Z.M. Hassan, Les Tulunides, p293.

٦- فريد شافعى، العمارة العربية، ص٤٢٣.

٧- المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣١٣.

٨- المقريزى، الخطط، جـ، ص٣١٥.

والحلوانيين، كما أفرد لكل صنف من جميع الصنائع سوقا حسنا[٩] حتى نافست القطائع ما كان فى الفسطاط من عمران[١٠] وصارت أعمر وأحسن من الشام على حد تعبير البلوى[١١] ومتأثرة إلى حد كبير بتخطيط مدينة سامراء التى شيدت فى العراق سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م[١٢] بما فى ذلك عمائرها، فقد ألحق أحمد بن طولون بقصره ميدانا فسيحا يضرب فيه بالصوالجة[١٣] فسمي القصر كله بالميدان، وكان كل من أراد الخروج من صغير أو كبير إذا سئل عن ذهابه يقول: إلى الميدان. وعمل للميدان تسعة أبواب لكل باب اسم خاص به مثل باب الميدان الذى خصص لدخول وخروج معظم الجيش، وباب الصوالجة، وباب الخاصة الذى خصص لخاصة أحمد بن طولون، وباب الجبل لأنه كان يلى جبل المقطم، وباب الحرم الذى خصص للخصيان والحريم، وباب الدرمون نسبة إلى حاجب أسود عظيم الخلقة كان يجلس عنده، وباب دعناج نسبة إلى حاجب آخر كان يجلس عنده، وباب الساج، لأنه عمل من خشب الساج، وباب الصلاة لأنه كان يفتح على الشارع الأعظم، وهو الأرجح شارع الصليبة الحالى[١٤] ومنه يتوصل إلى جامع ابن طولون، وقد عرف هذا الباب أيضا باسم باب السباع لأنه كان عليه صورة سبعين من الجص، كما كان يعلوه مجلس يشرف منه ابن طولون فى ليلة العيد على القطائع، ليرى أفراد جيشه وتأهبهم وتصرفهم فى حوائجهم، وكان يشرف منه أيضا على النيل[١٥]، ولم تكن هذه الأبواب تفتح كلها إلا فى يوم العيد أو فى يوم عرض الجيش أو يوم الصدقة[١٦].

٩- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ٥٤، المقريزى؛ الخطط، جـ١ ص ٣١٥.

١٠- فريد شافعى، العمارة العربية، ص٤٢٤.

١١- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص٥٣؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣١٥.

١٢- Z.M. Hassan, Les Tulunides, p293, G.wiet, Histoire de la nation,IV, p.109,

زكى محمد حسن، الفن الاسلامى فى مصر، القاهرة ١٩٣٥، ص٥٨؛ عبد الرحمن زكى، القاهرة، ص٧؛ حسن أحمد محمود، حضارة مصر، ص١٧٤. على حين يرى فريد شافعى ان تخطيط القطائع لم يتأثر بالنظم الهندسة لمدينة سامراء، انظر العمارة العربية، ص٤٢٣، استنادا إلى عبارة المقريزى" وتفرقت فيها السكك والأزقة"

١٣- عن هذه اللعبة أنظر Ahmad Abd- ar - Rāziq, Deux jeux sportifs en Egypte au temps des mamluks, Annales Islamologiques, XII,1974,pp.107-130.

١٤- فريد شافعى، العمارة العربية، ص٤٢٥.

١٥- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص٥٤- ٥٦؛ المقريزى الخطط جـ، ص٣١٥

١٦- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص٦١.

وقد زاد خمارويه فى هذا القصر الذى بناه أبوه ووسع فيه إلى أبعد الحدود[١٧]، وأضاف إليه قصرا جديدا خصصه لزوجات أبيه، وأفرد لكل واحدة منهن جناحا خاصا، بلغت نفقات بنائه سبعمائة ألف دينار[١٨]. وبنى فيه أيضا قبة سماها الدكة وجعل لها الستور التى تقى الحر والبرد، وكان كثيرا ما يجلس فى هذه القبة ليشرف منها على جميع ما فى قصره من البساتين والصحراء والنيل والجبل والمدينة[١٩]، كما أقام أمام القصر بركة طولها خمسون ذراعا فى خمسين ذراعا ملئت بالزئبق، ليخلص مما أصابه من الأرق، وجعل عليها سريرا من أدم يحشى بالريح لينام عليه، شد بخيوط من حرير إلى عمد من فضة، كان يرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب إذا تآلف نور القمر بنور الزئبق[٢٠]. وحول ميدان الصوالجة إلى بستان كبير غرس فيه أنواعا فريدة من الزهور وكسا أجسام النخيل نحاسا مذهبا، وجعل بين النحاس وأجساد النخيل أنابيب من الرصاص، ينحدر منها الماء إلى أحواض كبيرة، ثم ينحدر الماء من هذه الأحواض ليسقى أرض البستان، وشيد فى هذا البستان برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص وزوقه بشتى أصناف الأصباغ، وبلط أرضه، وجعل فيه مجارى الماء وأطلق فيه شتى أنواع الطيور[٢١]. كما شيد فى داره مجلسا سماه بيت الذهب، طلى جدرانه بالذهب واللازورد وجعل فيه على مقدار قامة ونصف، نقوشا بارزة من الخشب تمثل حظاياه والمغنيات، نقشت ثيابها بالأصابع العجيبة، وجعل على رؤوسهم الأكاليل من الذهب الخالص، والكوادن المرصعة بأصناف الجوهر، وفى آذانهن الأجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة، فكان هذا البيت من أعجب مبانى الدنيا[٢٢]. ولم يقف إسراف خمارويه وترفه عند هذا الحد بل اتخذ فى داره بيوتا للسباع عمل فيها بيتا لكل سبع ولبؤته وزود تلك البيوت بأبواب

١٧- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص٥٣.

١٨- المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣١٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣ ص٥٧؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية، جـ١، ص٢٠٩؛ لينول سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن، على إبراهيم حسن، إدوار حليم، القاهرة ١٩٥٠، ص٧٥.

١٩- المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣١٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص٥٥؛ محمود رزق محمود، المجتمع المصرى، ص٢٢٧.

٢٠- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤ ص١٣١؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣١٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص٥٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص١٧٠.

٢١- المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣١٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص٥٣.

٢٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣١٦- ٣١٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص٥٤؛ أحمد عبد الرازق، دراسات تاريخية، القاهرة ١٩٨٤؛ ص٥٨، Corbett, The Life and Works, p550

تفتح فى أعلاها بحركات، كما جعل لكل بيت طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة البيت وفرشه، وجعل فى جانب كل بيت حوض من الرخام له ميزاب من نحاس يصب فيه الماء، كما جعل بين يدى هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة مفروشة بالرمل يوجد فى جانبها حوض كبير من الرخام يملأ بالماء بواسطة ميزاب كبير، فإذا أراد سائس سبع تنظيف بيته أو وضع اللحم لغذائه رفع الباب بحيلة من أعلى البيت وصاح بالسبع فيخرج إلى القاعة المذكورة ويرد الباب، ثم ينزل إلى البيت من الطاق، فيقوم بتنظيفه ويبدل الرمل بغيره، ويضع اللحم فى المكان المعد لذلك، ثم يغسل الحوض ويملؤه بالماء، ويخرج ويرفع الباب من أعلاه فيعود السبع إلى مكانه. وكانت هذه البيوت مملوءة بالسباع من جملتها سبع أزرق العينين يقال له زريق، قد أنس بخمارويه، وصار مطلقا فى الدار لايؤذى أحدا، وكان إذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه ولايغفل عنه لحظة واحدة[٢٣] كل ذلك أصبح مجرد ذكرى على يد محمد بن سليمان الكاتب الذى أحال القصر والميدان إلى خرائب طمرها الزمان.

البيمارستان العتيق

ومن الآثار الطولونية التى أصبحت أثرا بعد عين تحدثنا المصادر عن البيمارستان العتيق أو الأعلى الذى شيده أحمد بن طولون بمدينة العسكر فى سنة ٢٥٩هـ /٨٧٣م[٢٤] فى منطقة الكيمان والصحراء التى فيما بين جامع ابن طولون وكوم الجارح، وفيما بين قنطرة السد التى على الخليج ظاهر مدينة مصر، وبين السور الذى كان يفصل بين القرافة ومصر[٢٥]، وأنفق على بنائه ستين ألف دينار، أخذ الجزء الأكبر منه من الكنز الذى عثر عليه فى تنور فرعون[٢٦]، وأوقف عليه عدة أماكن لضمان استمراره[٢٧]، وشرط أن لايعالج

٢٣- المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣١٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص٥٦؛ آدم متز، الحضارة الاسلامية، جـ٢، ص١٩٣.

٢٤- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ١٨٠؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤ ص٩٩؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٠٦؛ محمد محمد أمين، الأوقاف ص١٥٢، Corbett, The Life and Works, p.531. K.A.C Creswell, Muslim Architecture, II,p.329.

٢٥- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٠٥؛ أحمد عيسى، تاريخ البيمارستان فى الإسلام، دمشق ١٩٣٩، ص٦٨ - ٦٩.

٢٦- ابن سعيد، المغرب، ص١٣٢؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٠٥؛ السيوطى حسن المحاضرة، جـ٢، ص٢٤٦، ٢٤٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص١٦٤.

٢٧- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص١٨٠؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٩٩؛ محمد محمد أمين، الأوقاف، ص١٥٥؛ أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، العلوم العقلية، ص١٧٠.

فيه جندى مملوك، كما شرط أنه إذا جئ بالعليل تنزع ثيابه، ويودع مامعه من المال عند أمين البيمارستان وتقدم له ثياب خاصة من البيمارستان، ويخصص له مكان تتوفر له فيه الراحة ويباشره الأطباء بالعلاج، ويصرف له الدواء مجانا حتى يتم شفاؤه.

وكانت علامة الشفاء أن يقدم له فروج ورغيف فإذا استطاع أكلهما عد علاجه منتهيا وأذن له بمغادرة البيمارستان بعد ان ترد إليه ثيابه ونقوده[٢٨]، وفى حالة وفاة المريض فإنه يجهز ويكفن على نفقة البيمارستان[٢٩].

ويفهم من المصادر التاريخية أن البيمارستان كان يشتمل على قسمين، أحدهما خاص بالذكور والآخر خاص بالإناث[٣٠] وأن كل قسم كان مجهزا بما يحتاجه من آلات وعدد وخدم وفراشين من الرجال والنساء، كما كان كل قسم يشتمل على عدة قاعات للأمراض الباطنية وللجراحة والكحالة والتجبير[٣١] بالإضافة إلى قسم خاص بالامراض العقلية[٣٢]. وكان ملحق به أيضا حمامان أحدهما للرجال والآخر للنساء[٣٣].

وكان أحمد بن طولون حريصا على تفقد البيمارستان وزيارته يوم الجمعة من كل أسبوع، حيث يطوف على خزائن الأدوية ويتفقد أعمال الأطباء ويشرف على سائر المرضى من المجانين حتى غافله فى يوم أحدهم ورماه برمانة عريشية كبيرة كادت تقضى عليه، فلم يعاود النظر فى البيمارستان بعد ذلك[٣٤].

حصن الجزيرة

ومن آثار الدولة الطولونية الدارسة تتحدث المصادر عن الحصن الذى شيده أحمد ابن طولون فى جزيرة الروضة سنة ٢٦٣هـ / ٨٧٦م ليكون معقلا لحرمه وذخائره وماله[٣٥]،

٢٨- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٠٥.

٢٩- أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، العلوم العقلية، ص١٧٠.

٣٠- ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، القاهرة ١٨٨٣، جـ١ ص٣١٠.

٣١- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص ١٨٠؛ ابن أبى أصيبعة، طبقات الأطباء، جـ٢، ص٢٤٢.

٣٢- ابن أبى أصيبعة، طبقات الأطباء، جـ٢، ص٢٦٠؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٠٥.

٣٣- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص١٨٠؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٠٥.

٣٤- القلقشندى، صبح الأعشى، حـ٣، ص٣٣٧؛ المقريزى الخطط، حـ٢،ص٤٠٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص١٠، ١٢٢.

٣٥- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص٨٦ - ٨٧؛ الكندى، الولاة والقضاة، ص٢١٨؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣١٩، جـ٢، ص١٧٨، ١٨٠؛ Corbett, The Life and Works, p.533

بعد أن وقع الخلاف بينه وبين الموفق طلحة ولى عهد الخليفة المعتمد العباسى وماتبع ذلك من محاولة لإخراج ابن طولون من مصر، لذلك لم يجد أمامه من بد سوى المحاربة ليدافع عن نفسه، وتأمل مدينة الفسطاط فوجدها لا تؤخذ إلا من جهة النيل، فأمر ببناء حصن على الجزيرة[٣٦]، فى نفس مكان الحصن القديم الذى قيل أنه كان قائما وقت فتح عمرو بن العاص لمصر، ولجأ إليه المقوقس وأصحابه عندما اشتد المسلمون فى حصار حصن بابليون[٣٧]. وأخذ ابن طولون يجد فى البناء وألزم قواده وثقاته أن يقوم كل منهم بالإشراف على جزء منه وكان يتعاهدهم بنفسه فى كل يوم[٣٨] ويبذل لهم المال الكثير[٣٩] مما جعل العمال يغادرون منازلهم فى الأسحار بكرة كل يوم من تلقاء أنفسهم من غير استحثاث، لكثرة ما سخا به عليهم من أموال حتى قيل أن كل طوبة فى الحصن وقفت عليه بدرهم صحيح[٤٠]. وقد استمر العمل فى بناء الحصن مايقرب عن عشرة أشهر أنفق ابن طولون خلالها مايقرب ثمانين ألف دينار ذهبا[٤١]، ومع هذا فمجرد أن بلغته الأنباء بوفاة موسى بغا، قائد الجيش العباسى المكلف بالهجوم على مصر، أمر بابطال العمل فيه[٤٢]، ولم يعد يرى أحدا من العمال التى كانت فيه مع كثرتهم، الأمر الذى أثار دهشة البلوى فكتب يقول"كنار صب عليه ماء فخمد من وقته[٤٣]".

ولم تصلنا آثار من ذلك الحصن كما لم تزودنا المصادر التاريخية بأى وصف له واكتفت بالقول أنه ظل عامرا بالجزيرة فى أيام بنى طولون حتى أخذه النيل شيئا بعد شئ[٤٤]، وأقام السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى موضعه قلعة الروضة فى طرف الجزيرة الجنوبى بجوار المقياس التى اندثرت بدورها[٤٥].

٣٦- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص٨٦؛ المقريزى، الخطط، جـ٢٢ ص١٨٠؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص٣٧٨.

٣٧- فريد شافعى، العمارة العربية، ص٥٢٠.

٣٨- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١٨٠.

٣٩- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص٨٨.

٤٠- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص٨٧؛ المقريزى، الخطط جـ٢، ص١٨٠؛ محمود رزق، المجتمع المصرى، ص٢٦٨.

٤١- ذكر البلوى أنه أنفق عليه مائتى ألف دينار انظر سيرة أحمد بن طولون، ص٣٥١.

٤٢- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١٨٠؛ فريد شافعى، العمارة العربية، ص٥٢٠.

٤٣- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص٨٧ - ٨٨؛ المقريزى، الخطط جـ٢، ص١٨٠.

٤٤- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١٧٨، ١٨٠؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص١٠٧.

٤٥- فريد شافعى، العمارة العربية، ص٥٢٠.

مسجد التنور

ومن الآثار الطولونية التى اندثرت ولم يعدلها وجود نشير أيضا إلى مسجد التنور الذى بناه أحمد بن طولون بأعلى جبل المقطم من وراء قلعة الجبل إلى الشرق منها فى شهر صفر سنة ٢٥٩هـ / ديسمبر ٨٧٢م، فى موضع تنور فرعون وجعل له منارة وصهريجا فيه ماء(٤٦)، وذلك بعد أن ضاق جامع العسكر بالمصليين من جند الأمير وعامة الشعب(٤٧) وكان ينفق عليه من وقف البيمارستان العتيق والعين بالمعافر.

والواقع أننا نجهل تماما شكل هذا المسجد وأسلوب تخطيطه بسبب صمت المصادر وإن كنا نعلم أنه ظل عامرا حتى عهد المقريزى فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر للميلاد لقوله" وأدركته عامرا، وفيه من يقيم به(٤٨)".

قناطر المياه

مع أن أغلب آثار الدولة الطولونية قد اندثرت وأصبحت أثرا بعد عين إلا أنه قد وصلنا بعض عمائر هذه الدولة التى استطاعت أن تقاوم عوادى الزمن مثل قناطر المياه أو العين التى أقامها أحمد بن طولون فى سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م(٤٩) بمنطقة المعافر، جنوب شرق الفسطاط(٥٠). وقد أرجعت المصادر سبب بنائها إلى قصة مؤداها أن أحمد بن طولون خرج يوما إلى تلك المنطقة وسبق من كان معه من الجند فمر بمسجد الأقدام وقد نال منه العطش، فوجد خياطا فطلب منه ماء فأخرج له كوزا فيه ماء وطلب منه أن يقتصد فى الشرب ولكن ابن طولون شرب أكثره، ثم علم من الخياط أن طلبه الاقتصاد فى الشرب مرجعه إلى أن الموضع منقطع والماء عزيز المنال، وبعد عودة ابن طولون إلى قصره أرسل فى طلب الخياط وبعث معه بالمهندسين فحفروا بئرا عرفت بالعفصة الكبرى وبنوا فوقها القناطر، وأجرى الماء إلى الفسقية التى بقرب درب سالم(٥١) وأشارت المصادر أيضا إلى

٤٦- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٥٥، الكندى، الولاة والقضاة، ص٢٥٥.

٤٧- زكى محمد زكى، الفن الإسلامى فى مصر، ص٣٥.

٤٨- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٥٥.

٤٩- عبد الرحمن فهمى، العمارة قبل عصر المماليك، كتاب القاهرة، ص٢٢٢.

٥٠- Z.M.Hassan, Les Tulunides, p.295,Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Cair, p.122.

٥١- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص١٨٠، ١٨٢؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٥٨؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٥٧؛ زكى محمد حسن، الفن الاسلامى فى مصر، ص٦٤، ٦٥؛ Carbett, The Life and Works, p.532, K.A.C. Creswell, A Brief Chronology,p.43.

أن المهندس الذى شيدها كان رجلا نصرانيا كما أشارت إلى تكاليف البناء الذى قدره البلوى بمائة ألف وأربعين ألف دينار(٥٢) على حين ذكر المقريزى أنه كان أربعين ألف دينار(٥٣)، الأمر الذى يصعب معه تصديق هذه الرواية، لأنه ليس من المعقول أن ينفق ابن طولون هذا المال الوفير لمجرد نقل المياه إلى هذه المنطقة المقفرة من القرافة التى لايسكنها إلا النزر اليسير من الناس(٥٤)، لذلك يرى بعض الباحثين أن السبب الرئيسى وراء بناء هذه القناطر هو حمل الماء إلى كل من قصره المترامى الأطراف وإلى البساتين الملحقة به بالإضافة إلى منطقة المعافر، ولاسيما أن بداية هذه القناطر كانت تقع على حدود بركة الحبش التى كانت تقع الى الجنوب من مدينة الفسطاط(٥٥) وتمتد إلى شمال بساتين الوزير(٥٦) وكانت تستمد ماءها من النيل مباشرة. ويفهم من المصادر أيضا أن هذه القناطر كانت غاية فى البناء ولم يكن لها نظير لدرجة أن المادرائيين اجتهدوا ليحاكوها وأنفقوا الأموال الكثيرة، ومع ذلك فقد عجزوا عن ذلك بسبب موضعها الذى جعل جميع الجيران محتاجين إليها(٥٧)، لذلك أمر ابن طولون بأن تظل مفتوحة طول النهار لمن كشف وجهه للأخذ منها، ولمن كان له غلام أو جارية، أما الليل فقد خصصه للفقراء والمساكين والمستورين(٥٨).

وتعرف بقايا هذه القناطر حاليا بمجرى الإمام(٥٩) وهى عبارة عن برج للمآخذ مشيد من الآجر بداخله بئر مفرغ مفتوح إلى السماء، وعلى جانبيه غرفتان يغطيهما قبوان. وينقسم البئر إلى قسمين، ويسحب الماء منها بواسطة ساقيتين ترفعانه إلى المجرى فوق

٥٢- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص٣٥١؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٥٧؛ محمود رزق، المجتمع المصرى، ص٢٣٤؛ Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire p.122

٥٣- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٥٨.

٥٤- فريد شافعى، العمارة العربية، ص٥٣.

٥٥- عن هذه البركة انظر المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٥٢، ومابعدها.

٥٦- المقصود بها البساتين المنسوبة إلى الوزير الفاطمى يعقوب بن كلس ويقال أيضا أنها منسوبة إلى الوزير محمد بن على المادرائى أو إلى الوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات وزير كافور الإخشيد وهى سبعة بساتين كانت عند مقابر النصارى إلى النيل انظر ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٥٧.

٥٧- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص١٦؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٥٧.

٥٨- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص١٨١؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٤٥٧؛ محمود رزق، المجتمع المصرى، ص٢٣٥

٥٩- Hautecoeur et Wiet Les mosquées du Caire, p.209, K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture, II, pp.329-332.

ظهر البرج، ثم يسير منه فى مجرى وضع فوق القناطر التى تخرج من البرج فى انحراف يبلغ ١٤٠ درجة على جانب البرج الشمالى، وبعد نحو سبعة عشر مترا ينحرف اتجاه القناطر من الشمال الغربى إلى الشمال بميل قليل نحو الغرب، ثم ينحرف مرة أخرى بعد ١٢٢ مترا نحو الشمال بميل إلى الشرق، ويمتد بعد ذلك فى خط مستقيم نحو مئذنة شاهين أغا الخلوانى، وعقود هذه القناطر التى تهدم أغلبها من النوع المدبب وتشبه عقود الجامع الطولونى(٦٥) أى عقود مدببة ذات مركزين.

الجامع الطولونى

يعتبر جامع أحمد بن طولون[٦٠] ثالث المساجد الجامعة التى شيدت بمصر الإسلامية بعد جامع عمرو بن العاص، الذى شيده هذا القائد العربى بمدينة الفسطاط، غداة فتحه لمصر فى عام ٢١هـ / ٦٤٢م، والذى توالت عليه أعمال الترميم والإصلاح، بحيث لم يصلنا من الجامع الأصلى سوى بقعة الأرض التى شيد عليها[٦١] وجامع العسكر الذى شيده فى العصر العباسى سنة ١٦٩هـ / ٧٨٥م الفضل بن صالح بن على فى مدينة العسكر، ثانية عواصم مصر الإسلامية، والذى ظل باقيا إلى سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م ثم صار بعدها أثرا بعد عين[٦٢] وذلك على العكس من جامع ابن طولون الذى لا يزال يحتفظ بأغلب عناصره المعمارية، منذ أن شيده أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية، فى الطرف الجنوبى لمدينة القطائع التى شيدها إلى الشمال الشرقى من مدينة العسكر لتكون عاصمة لدولته، فوق الربوة الصخرية المعروفة بجبل يشكر[٦٣] وهى على حد تعبير بعض

٦٠- عن هذا المسجد انظر ما كتبه كل من حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٣٢ وما بعدها؛ محمود عكوش، الجامع الطولونى، ص ٣٢ وما بعدها K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture, II, pp.348 ff; Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire, I, pp.208 ff; D.B. Abouseif, Islamic Architecture, pp.51 ff; Corbett, The Life and Works of Ahmed ibn Tulun; Z.M. Hassan, Les Tulunides, pp. 298-308.

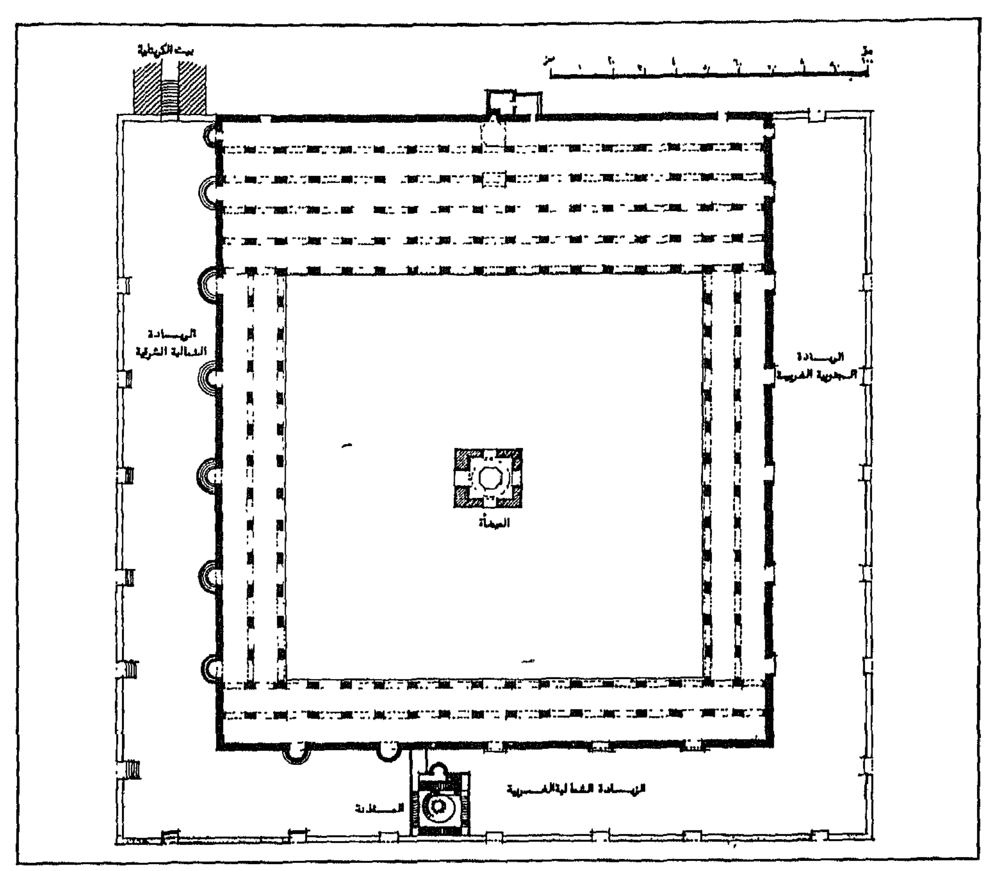
٦١- المقريزى، الخطط جـ٢، ص٢٦٤؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية جـ١ ،ص٢٣.

٦٢- عرف بهذا الاسم نسبة إلى يشكر بن جزيلة من قبيلة لخم، وكانوا قد اتخذوا هذه الرقعة خطة لهم أقاموا فيها منازلهم عند تأسيس مدينة الفسطاط فى أيام عمرو بن العاص، وقيل أيضا نسبة إلى رجل صالح كان يسمى يشكر، انظر المقريزى، الخطط جـ٢، ص٢٦٦ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص١٢٢ ، ١٢٣.

٦٣- ابن دقماق، الانتصار جـ٥، ص١٢٣؛ المقريزى، الخطط جـ٢ ص٢٦٥؛ القلقشندى صبح الأعشى، جـ، ص٣٤٤.

المؤرخين بقعة مباركة، إذ ناجى موسى عليه السلام ربه من عليها، كما أنها كانت مشهورة بإجابة الدعوات(٦٤).

بيد أنه من الواضح أن السبب الرئيسى وراء اختيار أحمد بن طولون لهذه البقعة، هو أن يصير المسجد مشيدا فوق أساس متين من الصخر وحتى يكون بمنأى عن فيضان النيل، فضلا عن كون هذه البقعة كانت تشرف على الميدان الذى أنشأه أمام قصره، كما أنها تقع فى الجزء الفاصل بين مدينة العسكر ومدينة القطائع العاصمة الجديدة المصرية(٦٥).



شكل (٤) جامع أحمد بن طولون مسقط أفقى، عن فريد شافعى

٦٤- فريد شافعى، العمارة العربية، ص٤٦٤؛ حسن الباشا، جامع ابن طولون، القاهرة تاريخها فنونها آثارها، ص٤٣٧.

٦٥- Van Berchem, Corpus, p.29; Répertoire,1964, VII, p.199; K.A.C.Creswell, A short Account, p.304.

ويجمع المؤرخون على أن أحمد بن طولون بدأ فى بناء هذا المسجد فى ٢٦٣هـ / ٨٧٦ م وانتهى منه فى شهر رمضان سنة ٢٦٥ هـ/ مايو ٨٧٩م، حسبما جاء فى اللوحة التأسيسية المثبتة فوق إحدى دعامات رواق القبلة[٦٦] وهذا يعنى أن عملية التشييد استغرقت حوالى ثلاث سنوات.

ويعد جامع ابن طولون من أكبر جوامع مصر الإسلامية مساحة إذ يغطى مع الزيادات التى تحيط به من الشمال والجنوب والغرب ما يقرب من ستة أفدنة ونصف، تأخذ شكلا مربعا يبلغ طول ضلعه حوالى ١٦٢م، يشغل المسجد منها شكلا مستطيلا تبلغ أطواله حوالى ١٣٨ × ١١٨م، على حين ترتفع الجدران من منسوب أرضية الأروقة الداخلية إلى قمة شرافاته العليا إلى ما يقرب من ثلاثة عشر مترا[٦٧] وهو مصمم على النظام التقليدى[٦٨]، أى صحن أوسط مكشوف مربع الشكل تبلغ أبعاده ٩٢.٣٥م × ٩١.٨٠م، يحيط به أربعة أروقة مسقوفة بالخشب أكبرها رواق القبلة الشرقى الذى يشتمل على خمسة صفوف من الدعامات يعلوها عقود تمتد بموازاة جدار القبلة وتضم خمس بلاطات، جددت المطلة منها على الصحن فى عام ١٩٢٠ على يد لجنة حفظ الآثار العربية.

أما باقى الأورقة ونعنى بها الرواق الغربى المقابل لرواق القبلة والرواقين الجانبيين الشمالى والجنوبى فيشتمل كل منهم على صفين من الدعامات تسير فى موازاة جدار الرواق[٦٩].

ويلاحظ أن الدعامات تحل هنا محل الأعمدة فى أغلب المساجد الإسلامية حيث يصل عددها إلى مائة وستين دعامة ذات قاعدة مستطيلة شيدت من الآجر، ذات أركان

٦٦- فريد شافعى، العمارة العربية فى مصر، ص٤٦٧.

٦٧- ساد هذا التخطيط العالم العربى الإسلامى فى المشرق والمغرب منذ أن شيد الرسول ﷺ مسجده بالمدينة المنورة، وبقى مستعملا للمساجد حتى بعد ظهور المسقط ذى الإيوانات فى حوالى القرن ٦هـ / ١٢م. انظر فريد شافعى، العمارة العربية الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، الرياض ١٩٨٢، ص٣؛ العمارة العربية فى مصر، ص ٤٦٧-٤٦٨.

٦٨- احمد فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، القاهرة ١٩٦١، ص ١٠٩؛ حسن الباشا، جامع ابن طولون، كتاب القاهرة، ص٤٤٧. A. Fattal, La mosquee d'Ibn Touloun, Beyrouth,1960,P.15..

٦٩- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد جـ١، ص٣٥؛ أحمد فكرى مساجد القاهرة، المدخل ص١١٣ فريد شافعى، العمارة العربية، ص٤٦٩.

مخلقة بأعمدة مشيدة أيضا من الآجر، لها تيجان ناقوسية الشكل مكسية بالجص[٧٠] يعلوها عقود من النوع المدبب ذى المركزين يرتكز عليها سقف الجامع، فتح بينها فتحات صغيرة معقودة، مخلق فى نواصيها عمد صغيرة مشيدة من الآجر تشاهد من الداخل والخارج، قصد منها تخفيف ثقل البناء فوق الدعامات بالإضافة إلى زيادة الإضاءة والتهوية[٧١].

ورغم أن استخدام الدعامات هنا بدلا من الأعمدة قد أفضى إلى توفير مايقرب من مائتى عمود[٧٢]، وأنه يعكس هنا أحد تأثيرات مدينة سامراء التى شيدها الخليفة العباسى المعتصم إلى الشمال من بغداد فى سنة ٢٢١هـ / ٨٣٦م[٧٣] إلا أنه ارتبط ببعض الأساطير التى كانت تدس على المؤرخين والكتاب العرب فى العصور الإسلامية الوسيطة فيرددونها بغير تحقيق أو تمحيص إذ يذكر المقريزى نقلا عن جامع السيرة الطولونية[٧٤] أن أحمد بن طولون لما أراد بناء الجامع قدر له ثلثمائة عمود، فقيل له ماتجدها أو تنفذ إلى الكنائس فى الأرياف والضياع والخراب فتحمل ذلك، فأنكر ذلك ولم يختره، وتعذب قلبه بالفكر فى أمره، وبلغ النصرانى، الذى تولى بناء العين(وكان قد غضب عليه وضربه ورماه فى المطبق)، الخبر فكتب إليه يقول أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد إلا عمودى القبلة، فأحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه فقال له: ويحك ما تقول فى بناء الجامع، فقال: أنا أصوره للأمير حتى يراه عيانا بلا عمد إلا عمودى القبلة، فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت وصوره له فأعجبه واستحسنه، وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار فقال له: أنفق وما احتجت إليه بعد ذلك أطلقناه لك، فوضع النصرانى يده فى البناء فى الموضع الذى هو فيه وهو جبل يشكر فكان ينشر منه ويعمل الجير ويبنى إلى أن فرغ من جميعه وبيضه...[٧٥].

والمتأمل لهذه الرواية وغيرها سوف يلاحظ بوضوح أنها تريد النيل من الإسلام ومن المسلمين عن طريق تصوير أن النصارى كانوا دائما مضطهدين تحت الحكم الإسلامى،.

٧٠- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد جـ١ ص١٣٥؛ احمد فكرى مساجد القاهرة المدخل، ص١١٤؛ فريد شافعى، العمارة العربية ص٤٧٠، حسن الباشا، جامع ابن طولون، ص٤٤٨.

٧١- فريد شافعى العمارة العربية فى مصر، ص٤٤٧.

٧٢- K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture II,pp.228-231 ؛ فريد شافعى، العمارة العربية ص٣٥.

٧٣- هو أبو محمد عبد الله البلوى صاحب كتاب سيرة أحمد بن طولون، دمشق ١٩٣٩.

٧٥- المقريزى، الخطط جـ٢ ص٢٦٥

وأنهم كانوا يعانون من تخريب كنائسهم للاستيلاء على عمدها واستخدامها فى عمائر المسلمين، الذين صوروا على أنهم كانوا دائما فى حاجة إلى خبرة النصارى فى مجال العمارة والفنون مع أن فكرة بناء الدعامات ظهرت من قبل فى جامعى سامراء وأبى دلف، أى أنها ابتكار عراقى لابد أنه جاء إلى مصر مع بعض التأثيرات العراقية الأخرى مع أحمد بن طولون(٧٦).

والواقع أن هذه الأسطورة تذكرنا برواية أخرى توضح لنا كيف كان بعض مؤرخى الفترة الإسلامية يفسرون بعض الظواهر المعمارية الهامة، من ذلك ما يرويه المقريزى أيضا بصدد استخدام مهندس الجامع لمادة الآجر فى البناء إذ يقول نقلا عن القضاعى"إن أحمد ابن طولون قال أريد أن أبنى بناء إن احترقت مصر بقى، وإن غرقت بقى، فقيل له يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى للنار إلى السقف، ولا يجعل فيه أساطين رخام فإنه لاصبر لها على النار، فبناه هذا البناء"(٧٧).

وذلك على الرغم من أن استخدام الآجر فى البناء قد شاع فى عمارة مصر الإسلامية، حيث نلاحظه فى بعض أجزاء من جدران جامع عمرو بن العاص التى شيدت على يد قرة بن شريك فى سنة ٩٣هـ / ٧١٠م(٧٨) واستمر بعد ذلك إلى العصر الفاطمى الذى عرف استخدام الحجر لأول مرة فى الواجهة الغربية لمسجد الحاكم بأمر الله وفى منارتيه(٧٩).

ويزين جميع البائكات من الداخل والخارج، باستثناء الواجهات المطلة على الصحن شريط من زخارف جصية تلتف حول إطارات العقود، يعقبها إلى أعلى تحت السقف مباشرة إزار من الخشب، نقش عليه بالحفر البارز آيات قرآنية بالخط الكوفى البسيط من سورتى البقرة وآل عمران(٨٠). وقد حاول البعض أن يربط بين هذا الإزار وبين رواية ثالثة للمقريزى أشار فيها إلى أنه رأى من يقول "أنه عمل له منطقة دائرة بجميعه من عنبر" كما ذكر أنه شخصيا لم ير مصنفا بذلك رغم"أنه مستفاض من الأفواه والنقلة(٨١)"، وذلك على

٧٦- فريد شافعى، العمارة العربية، ص٤٦٨.

٧٧- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤ ص١٢٣؛ المقريزى، الخطط ، جـ٢، ص٢٦٦.

٧٨- فريد شافعى، العمارة العربية فى مصر، ص٤٧٧.

٧٩- G. Wiet, L'Egypte musulmane, pp.184-186; K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pp. 36-64,pls4-14; زكى محمد حسن، الفن المصرى الإسلامى، ص٤٢

٨٠- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٣٦.

٨١- المقريزى، الخطط جـ٢، ص٢٦٧.

الرغم من أن المؤرخ ابن دقماق قد أشار إلى هذه الرواية إذ قال فى هذا الصدد أن ابن طولون لما أكمل بناء جامعه أراد أن يعمل بدائره منطقة عنبر معجون ليفوح ريحها على المصلين[٨٢].

وقد فتح فى النصف العلوى لجدران المسجد الأربعة صف من الشبابيك ذات عقود مدببة، لم يفتح مثلها فى جدران الزيادات الشمالية والجنوبية والغربية، خلقت نواصيها بأعمدة قصيرة ملتصقة تشبه تلك التى تطالعنا فى جامع عمرو بن العاص، يبلغ عددها مائة وتسعة وعشرين شباكا[٨٣] ملئت بالجص المفرغ بزخارف هندسية نفذت حسب أسس مدروسة، يرجع أربعة منها إلى عصر بناء الجامع حيث نشاهدها جميعا فى رواق القبلة[٨٤] وهى تعد ثالثة الأمثلة الباقية من العصر الإسلامى المبكر، إذ وجدت لأول مرة فى الجامع الأموى بدمشق، ثم فى قصر هشام بخربة المفجر[٨٥]. ولاشك أن هذه النوافذ كانت تقوم بحجب الرياح والغبار عن المسجد مع السماح بإدخال النور المناسب بالإضافة إلى إسهامها فى الخطة الزخرفية بالجامع[٨٦]، يفصل بين هذه النوافذ حنيات غائرة زودت بطواقى مروحية ذات أضلاع وقنوات تبدو أكثر تطورا عن نظائرها فى جامع عمرو بن العاص[٨٧].

ويلاحظ أن المسجد زود باثنين وأربعين بابا، وزعت توزيعا متناسبا على طول امتداد واجهات المسجد وعلى جدران الزيادات التى تحف به من ثلاث جهات، إذ يخترق حائط الزيادة الغربية سبعة أبواب يقابلها سبعة أبواب تفضى إلى الرواق الجنوبى بالمسجد، وبحائط الزيادة الشمالية ستة أبواب يقابلها سبعة أبواب تفضى إلى الرواق الشمالى بالمسجد، بالإضافة إلى باب آخر فى نهاية هذه الزيادة من جهة، الشرق يؤدى إلى متحف جاير أندرسون الذى يقع خلف جدار القبلة الذى يشتمل بدوره على ثلاثة أبواب، الأوسط منها كان يؤدى إلى دار الإمارة التى شيدها أحمد بن طولون ملاصقة لجدار القبلة وأثثها

٨٢- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص١٢٣.

٨٣- انظر حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد جـ١، ص٣٦؛ على حين أشار أحمد فكرى أن عددها ١٢٨ نافذة فقط انظر مساجد القاهرة، المدخل ص١١١.

٨٤- K.A.C. Creswell, Early Muslim II,pp.245-247. Fig258; A.Fattal, La mosquée d'Ibn-Toulon, pl.65.

٨٥- K.A.C. Creswell, Early Muslim , Figs.610,626 Pls.103c,109a.

٨٦- حسن الباشا، جامع ابن طولون، ص٤٥٠.

٨٧- فريد شافعى، العمارة العربية فى مصر، ص٤٧١.

بالفرش والستور لينزل بها عند ذهابه إلى صلاة الجمعة فيجلس فيها ويجدد وضوءه، ثم يدخل منها إلى مقصورة المسجد[88] بيد أن هذه الدار قد اندثرت ولم يبق منها سوى مدخلها وبقايا كوابيل للسقف شكل كل منها على هيئة رأس فيل بنابيه[89].

ولعل السبب فى كثرة هذه الأبواب يرجع إلى الرغبة فى تسهيل عملية الدخول والخروج من المسجد نظرا لاتساع رقعته[90] أو لكثرة المساكن والأسواق التى كانت مشيدة حول ساحته الخارجية، إذ يروى المؤرخ ابن تغرى بردى أنه كان يوجد خلف الجامع مصطبة مساحتها ذراع بلغت أجرتها كل يوم اثنى عشرة درهما، يستغلها ثلاثة أفراد، أحدهم فى بكرة النهارة لبيع الغزل، والثانى لخباز بعد الظهر إلى العصر، والثالث من العصر إلى المغرب لبيع الحمص والفول[91]، مما جعل بعض الباحثين يعتقد بأن السبب الرئيسى وراء قيام أحمد بن طولون بعمل زيادات حول الجامع من الشمال والجنوب والغرب، يرجع بصفة أساسية للفصل بين الجامع وبين ضوضاء الحياة خارجية حتى يتوفر للمصلين الهدوء والسكينة داخل الجامع[92] وذلك فى الوقت الذى يشير فيه ابن دقماق إلى أن السبب الرئيسى وراء تشييد ابن طولون لهذه الزيادات يرجع إلى ضيق الجامع بالمصلين[93].

ومن المرجح أيضا أن السبب فى بناء هذه الزيادات يعود إلى بناء الجامع فوق ربوة مرتفعة حيث كان من الصعب توفير رقعة كبيرة مسطحة من الأرض على مستوى واحد، لذا لجأ مهندس الجامع إلى فكرة الزيادات حتى يتمكن من بنائه على مستويين. وحسبنا دليلا على ذلك أن زيادات الجامع تبدو أقل انخفاضا من أرضية الجامع الداخلية[94] وذلك على الرغم من أن فكرة الزيادات قد وجدت فى كل من جامع سوسة فى تونس وفى المسجد الجامع وفى مسجد أبى دلف بسامراء بالعراق[95].

٨٨- المقريزى، الخطط جـ٢، ص٢٦٦.

٨٩- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١ ص٣٩.

٩٠- أحمد فكرى مساجد القاهرة، المدخل، ص١١١، حاشية رقم (١).

٩١- المقريزى، الخطط جـ٢، ص٢٦٧؛ ابن تغرى بردى النجوم، جـ٣، ص١١.

٩٢- محمود عكوش، تاريخ ووصف الجامع الطولونى، القاهرة ١٩٢٧، ص٣٢؛ حسن الباشا، جامع ابن طولون.ص٤٤٧؛ K.A.C. Creswell, A Short Account, p.306

٩٣- ابن دقماق، الانتصار جـ٤، ص١٢٣.

٩٤- المقريزى الخطط جـ٢، ص٢٦٦؛ زكى محمد حسن، الفن المصرى الإسلامى، ص٣٩؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد جـ١، ص١٣٤؛

٩٥- المقريزى الخطط جـ٢، ص٢٦٦؛ زكى محمد حسن، الفن المصرى الإسلامى، ص٣٩؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد جـ١، ص١٣٤.

وجدير بالذكر أن النهايات العليا لجدران الزيادات ولجدران المسجد زودت بشرافات فريدة فى شكلها شيدت من الآجر، لانجد مثيلا لها فى العالم الإسلامى، شبهها البعض بشكل عرف الديك(٩٦) وأطلق عليها البعض اسم العرائس(٩٧) لأنها تشبه أشكالا آدمية تجريدية صفت متجاورة متشابكة الأذرع تقوم أرجلها على صف من المربعات، بداخل كل منها دائرة مفتوحة.

وتعد ظاهرة تعدد المحاريب فى الجامع الطولونى من الخصائص المميزة لهذا المسجد، إذ يلاحظ أن رواق القبلة يشتمل على ستة محاريب أقدمها المحراب الرئيسى فى منتصف جدار القبلة وهو مجوف، يكتنفه على الجانبين أربعة أعمدة قديمة من الرخام، يمتاز تاجا الأماميين منها بأنهما من نوع شوكة اليهود (الأكانثاس) على حين نجد تاجا العمودين الآخرين من النوع المعروف بالسلسلة المشبكة، وذلك فى الوقت الذى كسى تجويفه بألواح من الرخام والفسيفساء الرخامية، يتوجها شريط من الفسيفساء الزجاجية الملونة والمذهبة بها كتابات نسخية تشتمل على الشهادة بقسميها «لا إله إلا الله محمد رسول الله»(٩٨)، على حين كسيت طاقية المحراب ووجه العقد من الخارج بالخشب الملون المنقوش، أثناء تجديد السلطان المملوكى لاجين للجامع فى سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م، الذى شملت عمارته أيضا عمل قبة فوق هذا المحراب تقوم فوق مقرنصات مكسوة بالخشب الملون، وضع بينها شمسيات جصية معشقة بقطع من الزجاج الملون على الطراز المملوكى.

ويفهم من المقريزى أن هذا المحراب منحرف إلى الجنوب عن سمت محراب الصحابة بجامع عمرو بن العاص، لأن أحمد بن طولون لما عزم على بناء هذا المسجد بعث

٩٦- أحمد فكرى مساجد القاهرة، المدخل، ص١١٦.

٩٧- فريد شافعى، العمارة العربية فى مصر، ص٤٧١.

٩٨- تعد النماذج التى وصلتنا من هذا النوع من الفسيفاء الزجاجية الملونة فى مصر قليلة للغاية، أقدمها فى طاقية محراب قبة الصالح نجم الدين أيوب من سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، ثم فى طاقية محراب قبة شجر الدر من سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ثم فى طاقية محراب مدرسة المنصور قلاوون من سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، يليها عصابة محراب الجامع الطولونى من سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦. فتواشيح المدرسة الطيبرسية بالجامع الأزهر من سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، فالزخارف التى عثر عليها حديثا فى بقايا القصر الأبلق بقلعة الجبل من سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م بالإضافة إلى طاقية محرابى المدرسة الاقبغاوية بالجامع الأزهر من سنة ٧٤٠هـ/١٣٤٠م، وأخيرا طاقية محراب مسجد الست حدق مسكة من نفس السنة انظر A. Abd Ar-Rāziq, Trois Fondations féminines dans L'Egypte mamlouke, REI.XLI/I, Paris,1973,pp.105-107.

إلى محراب مدينة رسول الله ﷺ من أخذ سمته، فإذا هو مائل عن خط سمت القبلة المستخرج بالصناعة نحو العشر درج إلى جهة الجنوب، فوضع حينئذ محراب مسجده هذا مائلا عن خط سمت القبلة إلى جهة الجنوب بنحو ذلك اقتداء منه بمحراب مسجد الرسول كما اشار المؤرخ نفسه إلى أن أحمد بن طولون رأى الرسول ﷺ فى منامه وقد خط له المحراب، فلما أصبح وجد النمل قد أطاف بالمكان الذى خطه له رسول الله فى المنام[٩٩].

وينسب إلى عصر السلطان المملوكى لاجين محراب آخر، وهو مسطح من الجص، حافل بالزخارف النباتية والكتابات العربية بالخطين الكوفى والنسخ يعرف بمحراب السيدة نفيسة، يقع على يسار المحراب الرئيسى المجوف بنحو سبعة وعشرين مترا، كما نجد بنفس الرواق الشرقى للمسجد محرابا ثالثا من النوع الجصى المسطح ينسب أيضا إلى السلطان لاجين ثبت على واجهة إحدى دعامات البائكة الثانية من جهة الصحن، يعد فى الواقع تقليدا لمحراب رابع من عمل وزير الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، الأفضل شاهنشاه فى سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م[١٠٠].

أما المحرابان الخامس والسادس فنجدهما على واجهتى الدعامتين اللتين تكتنفان دكة المبلغ وهما أيضا من النوع الجصى المسطح أرجعهما فلورى إلى القرن ٤هـ/ ١٠م[١٠١]. وإن كنا نفضل نسبة الأيمن منهما إلى العصر الطولونى.

ولقد حاول بعض الباحثين[١٠٢] أن يربط بين تعدد المحاريب وبين تعدد المذاهب استنادا إلى ما جاء على لسان المؤرخ ابن كثير من أن الصاحب تقى الدين بن مراحل ناظر الجامع الأموى بدمشق عمل فيه محرابين للحنفية، والحنابلة فى سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م[١٠٣] بيد أننا نرى فى تعدد المحاريب بالمسجد نوعا من تجليد وإحياء الذكرى والتقرب إلى الله.

٩٩- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٥٦ . ٢٦٧.

١٠٠- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٣٨؛ فريد شافعى العمارة العربية فى مصر، ص٤٩٥؛ حسن الباشا، جامع ابن طولون، ص٤٥٢.

١٠١- S. Flury, Samarra Und die Ornamentik der Moschee des Ibn Tulun, Der Islam, IV,1913, pp.421-432;F.Shafii, An Early Fatimid Mihrab in the Mosque of Ibn Tulun, Bulletin of the Faculty of Arts, Univ. of Cairo, XV/1,1953, pp.67-81.

١٠٢- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٣٩.

١٠٣- ابن كثير البداية والنهاية فى التاريخ، القاهرة ١٩٣٩، جـ١٤، ص٣٠٤.

ويشتمل رواق القبلة الشرقى أيضا على منبر خشبى يجاور المحراب الرئيسى المجوف، يتبع فى تصميمه النظام المألوف فى تشييد المنابر الخشبية من حيث الباب المثبت داخل إطار يعلوه صفوف من المقرنصات، يتوجها صف من الشرافات على هيئة أوراق نباتية صغيرة، يفضى هذا الباب إلى سلالم تنتهى فى أعلاها بالمقعد المخصص لجلوس الإمام وهو مغطى بجوسق بصلى الشكل، وللمنبر ريشتان مسدودتان، يزين كلا منهما حشوات من خشب الساج الهندى والأبنوس، نقشت بزخارف نباتية دقيقة الحفر، تؤلف فى مجموعها أطباقا نجمية الشكل، تعد من خصائص الفن الإسلامى، حيث بدأ ظهورها فى العهد الأيوبى، واكتملت زمن سلاطين المماليك، وهذا يعنى أن المنبر الحالى قد حل مكان المنبر الأصلى الذى نقله السلطان المملوكى لاجين إلى جامع الظاهر بالمنشاة على شاطئ النيل(١٠٤) ووضع مكانه هذا المنبر، الذى أمر بصنعه خصيصا برسم هذا المسجد فى العاشر من صفر سنة ٦٩٦هـ / ٨ ديسمبر ١٢٩٦م، حسبما جاء فى اللوحة الخشبية التى تعلو بابه(١٠٥). وقد تم تجديده على يد لجنة حفظ الآثار العربية بعد أن تعرضت أغلب حشواته للنهب والسلب(١٠٦).

ويفهم من المصادر التاريخية أن أحمد بن طولون شيد بوسط صحن الجامع فوارة، ألزم الأولاد بصلاة الجمعة فيها، كان يعلوها قبة مذهبة مشبكة من جميع جوانبها، ترتكز على عشرة عمد رخامية يلتف حولها ستة عشر عمودا من الرخام أيضا، أقيمت فى جوانبها، كما فرشت أرضيتها بالرخام، وكان يتوسطها قصعة رخامية قطرها أربعة أذرع، بوسطها فوارة تفور بالماء، يحيط بسطحها العلوى، الذى يشتمل على علامات الزوال، درابزين من خشب الساج(١٠٧). وقد تعرضت هذه الفوارة للحريق فى أوائل العصر الفاطمى فى سنة ٣٧٦ هـ / ٩٨٦ م، حيث أمر الخليفة العزيز بالله أو أمه السيدة تغريد ببناء واحدة أخرى، فتولى عمارتها ابن الرومية وابن البناء فى سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م(١٠٨) بيد أنها احترقت بدورها وأقيم مكانها القبة الحالية على يد السلطان المملوكى لاجين ضمن الإصلاحات التى قام بها فى المسجد فى سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٦٩ م(١٠٩). وهى على هيئة بناء

١٠٤- ابن دقماق، جـ٤، ص١٢٠.

١٠٥- A. Fattal, La mosquée d'Ibn Touloun, p.28, pls.20-28

١٠٦- محمود عكوش؛ تاريخ ووصف الجامع الطولونى، ص٩٥، حسن عبد الوهاب؛ تاريخ المساجد جـ١، ص٣٧-٣٨، فريد شافعى، العمارة العربية فى مصر، ص٤٩١.

١٠- ابن دقماق، الانتصار جـ٤، ص١٢٢؛ المقريزى، الخطط جـ٢، ص٢٦٧-٢٦٨.

١- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص١٢٣.

- المقريزى، الخطط جـ٢، ص٢٦٨.

مربع طول ضلعه أربعة عشر مترا، زود بأربعة مداخل محورية، يعلو كلا منها عقد مدبب ذو مركزين ويعلو المبنى قبة ذات قطاع مدبب، يبلغ ارتفاعها من أرضية الصحن إلى نهاية قمتها ما يقرب من ثلاثة وثلاثين مترا، ترتكز فوق أربعة صفوف من المقرنصات تحول المربع إلى مثمن، تستند عليه دائرة القبة، التى نقشت رقبتها الداخلية بآيات قرآنية بخط النسخ المملوكى تشير إلى الضوء مما أوضح الغرض من بنائها ولا سيما أنه يتوسط أسفلها من الداخل حوض رخامى مثمن الشكل كان يملأ بالماء للوضوء[١١٠].

ويفهم من المقريزى أن الجامع كان فى بداية أمره بلا ميضأة مما جعل الناس ينتقدون أحمد بن طولون على ذلك، فكان يقول: «وأما الميضأة فإنى نظرت فوجدت ما يكون بها من النجاسات فطهرته منها وها أنا أبنيها خلفه ثم أمر ببنائها[١١١]».

هذا وقد زود الجامع بمنارة شيدت من الحجر فى الزيادة الغربية خارج المسجد تعتبر الوحيدة فى مصر ذات السلم الخارجى[١١٢] وهى تتألف من قاعدة مربعة التخطيط، تعلوها منطقة أسطوانية، فوقها مثمن علوى يحمل مثمنا آخر أصغر منه، يتوجه قبة صغيرة مضلعة تعرف فى المصطلح المعمارى المحلى باسم المبخرة[١١٣]. يبلغ ارتفاع قمتها عن أرضية الجامع نحو أربعين مترا[١١٤] ويصعد إليها عن طريق سلم خارجى يرتقى فى عكس اتجاه عقارب الساعة، كما يربطها بسطح الجامع قنطرة حجرية ترتكز على عقدين على شكل حدوة الفرس، ويزين باطنها كوابيل حجرية مفصصة الشكل من النوع المألوف فى المغرب الإسلامى وخاصة فى شمال أفريقية والأندلس. وذلك بالإضافة إلى جملة تأثيرات من أساليب عربية إسلامية مختلفة بعضها محلى وبعضها وافد من الغرب وآخر من الشرق[١١٥].

والطريف أن هذه المنارة قد استرعت انتباه علماء الآثار الإسلامية الذين اختلفوا فى تحديد العصر الذى تنسب إليه، إذ أرجعها البعض إلى عصر بناء الجامع فى أيام أحمد بن طولون، بينما رأى البعض الآخر أنها من العصر الفاطمى، على حين ذهب فريق ثالث بأنها

١١٠– حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٤٢؛ فريد شافعى العمارة العربية فى مصر، ص٤٨٦.

١١١– المقريزى، الخطط جـ٢، ص٢٦٧.

١١٢– حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٤٢.

١١٣– فريد شافعى، العمارة العربية فى مصر، ص٤٨١.

١١٤– K.A.C. Creswell, A Short Account, p.314; A.Fattal, La Mosquée d'Ibn Touloun,P.38.

١١٥– فريد شافعى مئذنة مسجد ابن طولون، رأى فى تكوينها المعمارى، مجلة كلية الآداب– جامعة فؤاد الأول، المجلد الرابع عشر، جـ١، مايو١٩٥١، ص١٦٧–١٨١.

من بناء السلطان المملوكي لاجين الذي عمر المسجد في سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م[١١٦]، وهو الرأي الذي استقر عليه حاليا أغلب علماء الآثار الإسلامية[١١٧].

كذلك أثارت هذه المنارة بشكلها الغريب انتباه الكتاب العرب في العصور الوسطى، الذين اتخذوا من هذا الشكل مادة طيبة لمواصلة نسج الروايات والأساطير حول الجامع الطولوني فذكروا أن أحمد بن طولون، كان لا يعبث بشئ قط فاتفق أنه أخذ درجا أبيض بيده وأخرجه ومده واستيقظ لنفسه وعلم أنه قد فطن به وأخذ عليه لكونه لم تكن تلك عادته، فطلب المعمار على الجامع وقال: «تبنى المنارة التي للتأذين هكذا، فبنيت على تلك الصورة»[١١٨]. كما ربطوا بينها وبين منارة المسجد الجامع في سامراء المشهورة باسم الملوية[١١٩] رغم أن الأخيرة تتميز بقاعدة أسطوانية وبدرج يدور ست مرات صاعدا بانحدار قليل إلى أعلى، على النقيض من المنارة الطولونية ذات السلم والقاعدة المربعة[١٢٠].

والحق أن هذا التشابه الذي جذب أنظار بعض المؤرخين في العصور الوسطى قد دفع ببعض علماء الآثار الإسلامية إلى الربط بين منارات المسجد الجامع ومسجد أبي دلف في سامراء، والجامع الطولوني في مصر وبين المعابد العراقية القديمة المعروفة باسم الزيجورات أو الزيقورات [١٢١] من جهة ، وبين معابد النار الساسانية المعروفة باسم

١١٦- انظر تفاصيل هذه الآراء في كل من محمود عكوش، تاريخ ووصف الجامع الطولوني، ص٧١-١٨٢.
Comité de conservation des monuments de l'art arabe,1915-1919,p.21; M.S.Briggs, Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine, Oxford,1924, p.55; L.Hautecoeur et G.Wiet, les Mosquées du Caire, I,pp.215-216;K.A.C. Creswell, A Brief Chronology, p.21.

١١٧- أحمد فكري، مساجد القاهرة، المدخل ص١١٧؛ فريد شافعي، العمارة العربية في مصر ص٤٤١.

١١٨- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص١٢٤؛ المقريزي، الخطط جـ٢، ص٢٦٧.

١١٩- المقريزي، الخطط جـ٢، ص٢٦٦؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص٢٦٧.

١٢٠- Sarre und Herzfeld, Archaologische Reise im Euphrat und Tigris, Berlin,1911, I, pp.96-97; E.T. Richmond, Moslem Architecture, London,1926,p.52.

١٢١- الزاقورة كلمة بابلية تعني العلو والسمو، نشأت فكرتها من إقامة المعابد العراقية القديمة منذ حضارة العبيد(٣٣٠٠ - ٤٠٠ ق.م) فوق مصاطب اصطناعية منحدرة، ثم تطورت حيث صارت تتألف من سبع طبقات مربعة أو مستطيلة الشكل تعلو بعضها البعض وتنتهي في أعلاها بمعبد يعرف بالمعبد العلوي الذي يمثل استراحة الإله وهو في طريقه من المعبد الأرضي إلى السماء وهذا يعني أن درجات الزاقورة كانت ترمز إلى السلم الممتد من الارض إلى السماء. أنظر: طه باقر، فاضل عبد الواحد، عامر سليمان، تاريخ العراق القديم، بغداد ١٩٨٠، جـ٢، ص٢٨.

اتش كاه[١٢٢] من جهة أخرى، كما ربط بعضهم بين المنارة الطولونية وبين فنار الإسكندرية[١٢٣]، بل ذهب البعض الآخر أبعد من ذلك حين ربط بين هذه المنارة وبين الكثير من المبانى الصينية المنسوبة إلى أسرة تانج (٦١٨-٩٠٧م[١٢٤]).

ويفهم أيضا من كتابات بعض المؤرخين أنه كان بأعلى هذه المنارة عشارى (مركب صغير) عثر عليه أحمد بن طولون، ضمن الكنز الذى أصابه وشيد منه الجامع[١٢٥]، يزعمون انه كان يدور مع الشمس، بيد أن المقريزى يؤكد أنه كان يدور مع الريح[١٢٦].

ويفهم من الجبرتى أن هذا العشارى قد ظل باقيا فى مكانه حتى سقط فى غضون سنة ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م[١٢٧] حيث استبدل بالهلال الحالى الذى يتوج قمة المنارة، رغم أننا نشاهده فى الرسوم التى أمدتنا بها الحملة الفرنسية عن هذه المنارة.

ومن طريف مايروى بصدد هذه المنارة أن أحفاء ابن طولون باعوا هذا المسجد إلى الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله بثلاثين ألف دينار مغربى، وبعد مدة شرعوا فى هدم المنارة بحجة أنها لها لم تكن ضمن الصفقة، فأرسل إليهم الحاكم بأمر الله قائلا: لقد بعتمونى هذا المسجد فكيف تهدمونه؟ فأجابوا: نحن لم نبع المئذنة. فأعطاهم خمسة آلاف دينار ثمنا لها[١٢٨].

والحق أن هذه المنارة لم تكن الوحيدة بجامع أحمد بن طولون، إذ أضاف إليه السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون منارتين[١٢٩] أسطوانتى الشكل بطرفى جدار القبلة الشرقى، هدمت الجنوبية فى القرن ١٣هـ / ١٩م والشمالية فى عام ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م لخلل أصابهما[١٣٠] وهذا يعنى أن جامع أحمد ابن طولون قد شهد العديد من الأحداث على مر الزمان، لعل أهمها تلك العمارة التى تمت على يد الوزير الفاطمى بدر

١٢٢- Van Berchem, Notes d'archeologie arabe,JA,XVII-XIX,1891, p.435.

١٢٣- Van Berchem, Corpus, Egypte, I, p.481.

١٢٤- E.Kühnel, Die Islamische Kunst, Springer Handbuch der Kunstgeschichte, IV, Leipzig,1929.p.390

١٢٥- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص١٢٣؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٢٦ - ٢٦٧.

١٢٦- المقريزى، الخطط جـ٢،ص٢٦٧.

١٢٧- الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، بولاق ١٢٩٧هـ، جـ١، ص٢٥.

١٢٨- ناصر خسرو، سفر نامة، ص٥٩.

١٢٩- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٩٦.

١٣٠- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٤٥.

الجمالى فى صفر سنة ٤٧٠هـ / أغسطس ١٠٧٧م كما جاء باللوح الرخامى الذى يعلو سور الزيادة الشمالية فوق المدخل الحالى للمسجد(١٣١)، تعرض الجامع بعدها للخراب وصار مأوى للحجاج المغاربة وهم فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة(١٣٢) الذين صاروا ينزلون فيه "بأباعرهم ومتاعهم"(١٣٣) كما اتخذ فيه السلطان المملوكى الظاهر بيبرس البندقدارى مخبزا فى القرن ٧هـ / ١٣م، يعمل فيه مائة أردب خبز توزع يوميا على أرباب الزوايا(١٣٤). واستمر على هذا الحال حتى كانت تلك الفتنة التى أعقبت مقتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون فى سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م فاختفى فيه الأمير حسام الدين لاجين خوفا من أن يقع فى أيدى منافسيه من الأمراء المتصارعين على السلطان ونذر ان سلمه الله من هذه المحنة ومكنه من كرسى السلطنة أن يجدد عمارة هذا الجامع وما تخرب منه فلما حدث ذلك أنفق على عمارته من خالص ماله عشرين ألف دينار، وابتاع له من بيت المال منية أندونة من أرض الجيزة ووقفها على المدرسين والمؤذنين والفراشين وغيرهم من المشتغلين فى الجامع ورتب فيه دروسا للحديث والتفسير والفقه، ودرسا للطب، كما أنشأ به مكتبا لاقراء أيتام المسلمين(١٣٥) وسبيلا جدده السلطان الأشرف قايتباى فيما بعد(١٣٦) يعد من أقدم الأسبلة فى مصر الإسلامية، بعد سبيل المدرسة الظاهرية بشارع المعز لدين الله.

واستمر الجامع الطولونى فى مسيرته التاريخية حتى تعرض للخراب فأنشئ فيه مصنع لعمل الأحزمة الصوفية إبان القرن ١٢هـ / ١٨م، ثم تحول إلى ملجأ للعجزة والمتقدمين فى السن تحت إشراف كلوت بك اعتبارا من سنة ١٢٦٣هـ / ١٨٥٧م فلحق به خراب عظيم حتى أدركته أخيرا لجنة حفظ الآثار العربية فأعادته إلى سابق عهده من روعة وبهاء بعد جهود مضنية استمرت من سنة ١٨٩٠ - ١٩١٨م(١٣٧) ومازال جامع أحمد بن

١٣١- Repertoire, VII,p.199; A, Fattal, La Mosquee d'Ibn Touloun, pl.6

١٣٢- رحلة ابن جبير، القاهرة ١٩٥٥، ص٢١.

١٣٣- المقريزى، الخطط جـ٢، ص٢٦٨.

١٣٤- المقريزى، السلوك فى معرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤، جـ١، ص٥٠٨.

١٣٥- ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت ١٩٣٩، جـ٨، ص٢٢٩؛ ابن الجيعان، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، القاهرة ١٨٩٨؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٦٨.

١٣٦- حسنى نويصر، مجموعة سبل السلطان قايتباى بالقاهرة رسالة ماجستير لم تطبع كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٠، ص٦٥.

١٣٧- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٤٥ - ٤٦،

M. Herz, Index géneral des Bulletins du comité des annees1882 à1910, Le Caire,1914, pp.10-11.

طولون يحظى باهتمام ملحوظ من هيئة الآثار المصرية التى تشمله بعين الرعاية والصيانة نظرا لما يتمتع به من شخصية ذات طابع محلى وصريح، رغم ما يشتمل عليه من تأثيرات ليست بالقليلة وفدت إليه مع مهندسه، الذى لاشك فى أصله العراقى، إذ من المرجح أنه جاء من مدينة سامراء التى أمضى احمد بن طولون فيها فترة شبابه ونقل الكثير من معالمها المعمارية والفنية إلى مدينة القطائع التى شيدها عاصمة لملكه فى مصر.

الدور الطولونية

يفهم من المصادر التاريخية أن مدينة الفسطاط كانت تضم أيضا العديد من الدور الطولونية التى جذبت أنظار المؤرخين، فقد حدثنا الكندى أن القاضى محمد بن عبده شيد دارا عظيمة بها أنفق على بنائها ألف دينار[١٣٨]، كما ذكر المقريزى أن فائقا غلام أحمد بن طولون ابتاع دارا فيها بعشرين ألف دينار وسلم الثمن لأصحابها وأمهلهم شهرين لمغادرتها فلما عز عليهم مغادرتها وهبها لهم وترك لهم الثمن[١٣٩]. وروى أيضا أن بدر الخفيفى غلام أحمد بن طولون بنى دارا عظيمة بالقرب من المصلى القديم فى الفسطاط انتزعها من أحمد بن طولون بعد أن غضب عليه، فسكنها طاهر بن خمارويه، ومن بعده الحمامى غلام ابن طولون[١٤٠] بيد أن هذه الدور تعرضت للخراب شأنها شأن الدور السكنية لمدينة القطائع التى هلك سكانها أثناء الشدة المستنصرية وكانت تنيف على حد زعم المقريزى" على مائة ألف دار، نزهة للناظرين محدقة بالجنان والبساتين[١٤١]" وبذلك أصبح من الصعب علينا التعرف على مكونات تلك الدور وتخطيطها المعمارى، وإن كانت الحفائر الأثرية قد كشفت لنا عن بقايا بعض الدور السكنية بمدينة الفسطاط أمكن نسبة ثلاثة منها إلى العصر الطولونى، عثر على أقدمها فى حفائر متحف الفن الإسلامى عام١٩٣٢ فى الفضاء بين كوم الجارح وجامع أحمد بن طولون أى فى موقع مدينة العسكر[١٤٢]. وهى عبارة عن بقايا دار تمثل القسم الجنوبى منها وهو يتألف من إيوان أوسط مستطيل الشكل يكتنفه من يمين ويسار غرفتان صغيرتان، ويتقدم الوحدات الثلاث سقفية مستعرضة تفتح على فناء مكشوف يقع إلى الشمال منها بواسطة ثلاث فتحات[١٤٣] يفصلها دعامتان ضخمتان بقى منهما الدعامة

١٣٨- الكندى، الولاة والقضاة، ص٥١٦.

١٣٩- المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣٣٠.

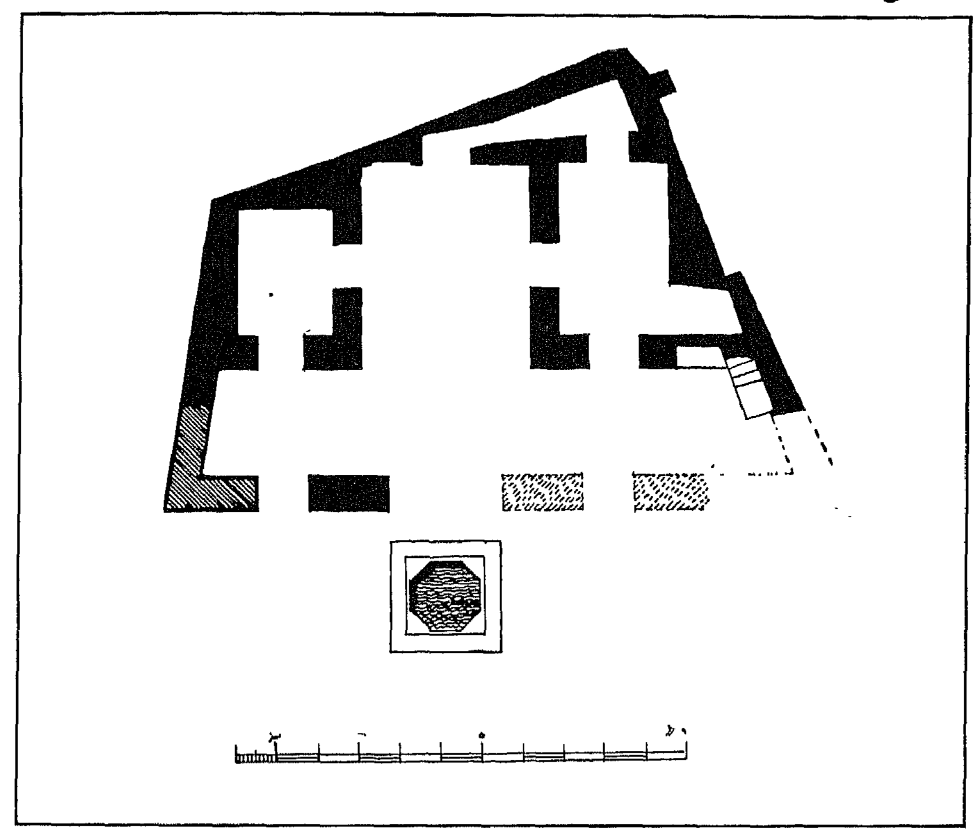
١٤٠- ابن دقماق الانتصار، جـ٤، ص١٠؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص٣٣٦.

١٤١- المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣٢٦.

١٤٢- H. al- Hawary, Une maison de L'époque toulounide, BIE, XV, p.49.

١٤٣- K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture,II, pp.365-366.

الشرقية، وقد عثر فى منتصف الفناء على بقايا فوارة ذات تخطيط مربع، بداخلها تجويف مثمن الشكل، يتصل بها فى الزاوية الجنوبية الشرقية أنبوب من الفخار كان يغذيها بالمياه(١٤٤) وقد أمكن نسبة تلك البقايا إلى حوالى سنة ٢٨٥هـ / ٩٠٠م استنادا إلى الزخارف الجصية التى كانت تكسو الجدران لأنها تشبه إلى حد كبير الطراز الثالث من زخارف سامراء الجصية(١٤٥)، وقد عثر بينها على محراب جصى مسطح يزين أعلاه الشهادة بقسميها، نقشت بالخط الكوفى البسيط(١٤٦) وهو يشبه بدوره أحد محاريب الجامع الطولونى(١٤٧).



شكل (٥) البيت الطولونى الأول، مسقط أفقى، عن فريد شافعى.

١٤٤- H. al- Hawary, Une maison, p.80.

١٤٥- فريد شافعى، العمارة العربية، ص٤٢٧؛ H.Gluck Und Diez, Die Kunst des Islam, p.147;Z.M.Hassan, Les Tulunides, p.293.

١٤٦- H. al- Hawary, Unc maison, p.85, pl.I; Z. M. Hassan, Les Tulunides, pl. I.

١٤٧- فريد شافعى، العمارة العربية، ص ٤٩٥، شكل ٣٢١.

ومع أن تلك البقايا لاتعطى صورة واضحة عن تخطيط الدور فى العصر الطولونى، إلا أنها ظلت زمنا طويلا بمثابة المثل الوحيد الذى وصلنا من هذه الفترة حتى استطاع أحد الباحثين فى عام ١٩٦٨، نسبة إحدى الدور التى سبق أن عثر عليها المرحوم على بهجت فى حفائر الفسطاط إلى العصر الطولونى استنادا إلى بعض الزخارف الجصية التى كانت تزين بعض جدرانها[١٤٨]. وهذه الدار لاينقص تخطيطها سوى القليل وان كانت جدرانها لاترتفع أكثر مما ترتفع جدران الدار الأولى التى كشفت عنها حفائر متحف الإسلامى فى عام ١٩٣٢.

ويتألف تخطيط هذه الدار من فناء أوسط مكشوف يتعامد عليه من الشمال والجنوب جناحان، يشتمل كل منهما على إيوان أوسط مستطيل الشكل، يكتنفه من يمين ويسار غرفتان صغيرتان، ويتقدم الوحدات الثلاث سقفية مستعرضة تفتح على الفناء الأوسط من خلال فتحات ثلاث كما هو الحال فى الجزء المكتشف من الدار الأولى. كما يوجد جناح ثالث أصغر حجما فى الركن الجنوبى الشرقى يتصل بممر المدخل الرئيسى لهذه الدار وهو من النوع المنكسر الذى يعرف عند المؤرخين العرب باسم الباشورة[١٤٩]، الذى شاع استعماله فى الدور السكنية التى كشف عنها على بهجت فى حفائر الفسطاط. وكان هذا النوع من المداخل يهدف إلى حجب أنظار المارة فى الطريق من كشف من بداخل الدار[١٥٠] إذا مافتح الباب الخارجى فى وقت شاع فيه الحجاب بين أفراد المجتمع المصرى[١٥١]، إذ كان الداخل من الباب ينحى يمينا أو يسارا نحو دهليز ومنه ينحرف إلى الفناء الداخلى كما كان يساعد أيضا على زيادة فرص الدفاع عن الدار إذا ما قامت قلاقل أو فتن داخلية أو خارجية[١٥٢].

أما باقى الغرف والوحدات فقد تم توزيعها حول الفناء والأجنحة السابق الإشارة إليها، نجد بينها غرفة تشغل الزاوية الشمالية الشرقية يرجح أنها كانت المطبخ الرئيسى لهذه

١٤٨- عباس حلمى عمار، تطور المسكن المصرى الإسلامى من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى، رسالة دكتوراة، كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٦٨، ص٤٧.

١٤٩- وجد هذا النوع من المداخل لأول مرة فى أبواب مدينة بغداد التى شيدها الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور التى اندثرت ولم يعد لها وجود انظر K.A.C. Creswell, Early Muslim Architecture II, pp.12-14, figs3,4.

١٥٠- على بهجت، البير جبرييل، كتاب حفريات الفسطاط، ص ٨٣، ٩٣.

١٥١- محمود رزق، المجتمع المصرى، ص٢١٤.

١٥٢- فريد شافعى، العمارة العربية، ص٤٣٥؛ أحمد عبد الرازق احمد، بيوت الفسطاط الأثرية، ص٩.

الدار، عثر بجوارها على بقايا سلم يفضى إلى الطوابق العليا المخصصة للحريم ولحجرات النوم التى لم يعد لها وجود فى الوقت الحالى[١٥٣].

وقد ساعد اكتشاف هذه الدار ونسبتها إلى العصر الطولونى على نسبة دار ثالثة من بين مكتشفات المرحوم على بهجت بمدينة الفسطاط إلى نفس الفترة الزمنية وهى الدار التى أطلق عليها اسم الدار السادسة وذكر بصددها أنها تشذ من حيث التخطيط عن بقية الدور المكتشفة لاحتوائها على جناحين متماثلين، كما ذكر أنها تشبه نظائرها من الدور العراقية بمدينةسامراء[١٥٤].

والحق أن هذه الدار تشبه إلى حد كبير من حيث التخطيط الدار السابق الإشارة إليها، فهى تشتمل على فناء أوسط مكشوف يتعامد عليه من الشمال والجنوب جناحان يتألف كل منهما من إيوان أوسط يكتنفه غرفتان من شرق وغرب ويتقدم الجميع سقفية مستعرضة تفتح على الفناء من خلال فتحات ثلاث، على حين وزعت بقية وحدات الدار على جانبى الفناء الشرقى والغربى، أى أنها تشبه تخطيط الدور الطولونية[١٥٥].

ومن المعروف أن هذا النوع من التخطيط أى الإيوان الأوسط والغرف الجانبية والسقفية المستعرضة، وجد للمرة الأولى فى بعض بيوت قصر الاخيضر الذى عثر عليه فى بادية العراق، والذى ينسب إلى حوالى سنة ١٦٠هـ / ٧٧٧م[١٥٦]، كما استخدم كذلك فى بيوت مدينة سامراء التى تنسب إلى القرن الثالث الهجرى / التاسع للميلاد[١٥٧]، ولعله منقول عن قصر شرين الذى ينسب إلى كسرى الفرس خسرو ابراويز الذى حكم فيما بين ٥٩٠ – ٦٢٨م[١٥٨].

بقى أن نشير إلى أن هذه الدور كانت مزودة بشاذروان أى بلاطة مستطيلة من الرخام أو الحجر، يعلو سطحها زخارف متنوعة بالحفر البارز، كانت تثبت فى صدر الإيوان فى

١٥٣– فريد شافعى، العمارة العربية، ص٤٣٢.

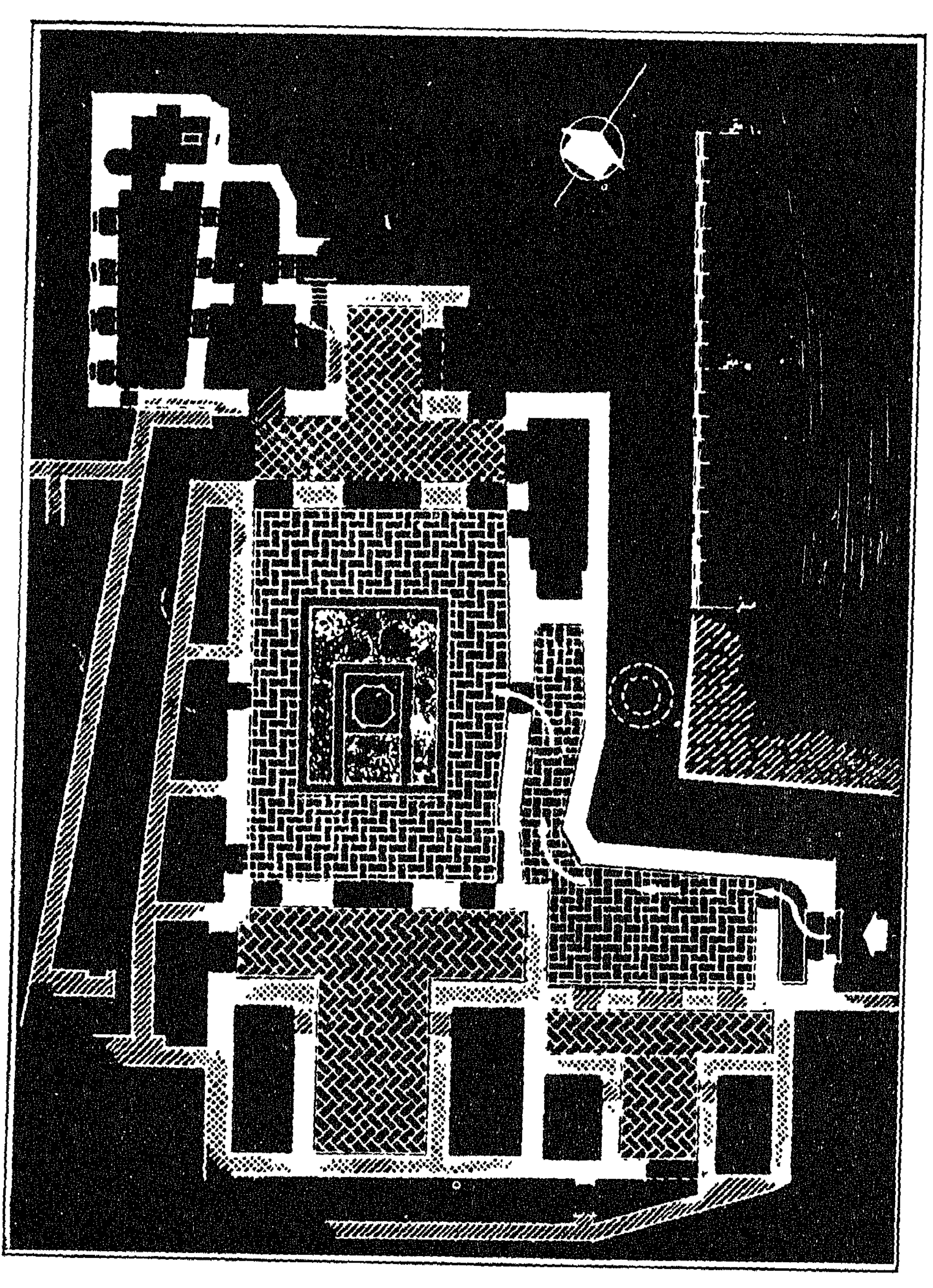
١٥٤– على بهجت، ألبير جبرييل، كتاب حفريات الفسطاط، ص٧٧.

١٥٥– فريد شافعى، العمارة العربية، ص٤٥٩.

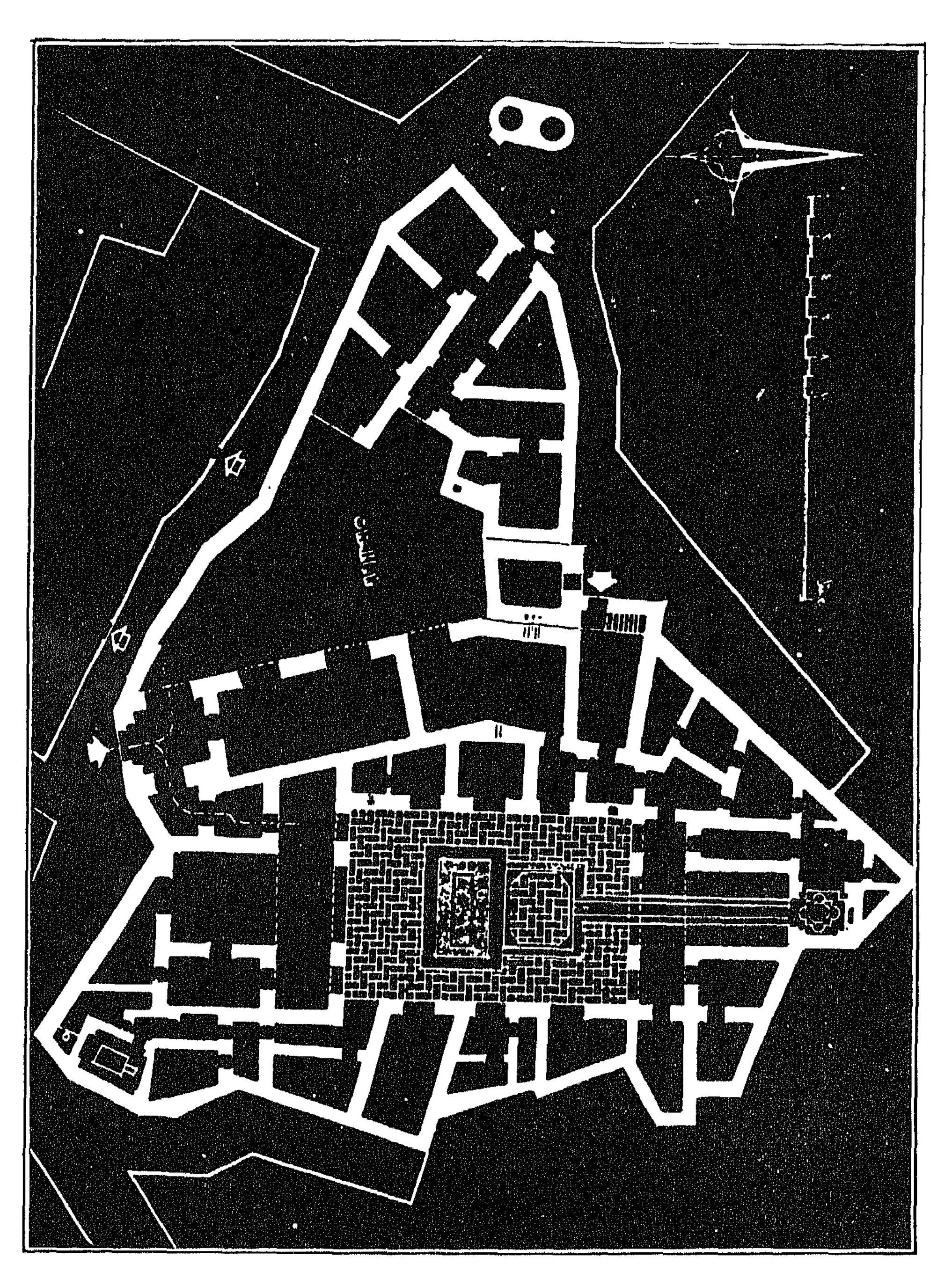
١٥٦– G. Bell, Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford,1914,p.168.

١٥٧– Hassan, Les Tulunides, p.194,A. Bahgat et A. Gabriel, Fouilles d'al- Fus-tat, Le Caire,1921,p.80.

١٥٨– G. Bell, Palace, pp.44-, H.al- Hawary, Une maison, p.80.



شكل (٦) البيت الطولونى الثانى، مسقط أفقى، عن فريد شافعى.



شكل (٧) البيت الطولونى السادس، مسقط أفقى، عن فريد شافعى.

وضع مائل، يعلوها صنبور يسيل منه الماء متعرجا فوقها فيلطف جو المكان ويضفى عليه منظرا جميلا وهو يسيل منحدرا أسفل البلاطة، ومنها إلى قناة تمتد فوق أرضية الإيوان أو أسفلها حتى تصل الفوارة التى تتوسط فناء البيت(١٥٩).

كما كانت هذه الدور مزودة بآبار منقورة فى الصخر لتزويدها بالمياه اللازمة التى كانت تجلب إليها من نهر النيل على ظهور الحمالين أو بواسطة الدواب(١٦٠)، فقد ذكر المقريزى أن الدار الواحدة كان يصب لمن فيها، إبان هذا العصر، أربعمائة راوية ماء فى كل يوم، كما ذكر أن عدد الأسطال التى كانت بالطاقات المطلة على النيل، ستة عشر ألف سطل مؤيدة ببكر وأطناب بها ترخى وتملأ(١٦١).

كنيسة العذراء بدير السريان

ووصلنا أيضا من العصر الطولونى أثر معمارى أخير يوجد فى بقعة من الصحراء فى الشمال الغربى من مدينة القاهرة فى وادى النطرون، حيث شيدت أديرة لرهبان المسيحيين كدير البراموس، ودير الأنبا بشواى وديرأبى مقار، ودير السريان(١٦٢).

إذ يوجد فى دير السريان كنيسة صغيرة عبارة عن قاعة تعرف بكنيسة العذراء، زينت الأجزاء العليا من جدرانها بأشرطة وحشوات مسطحة وغائرة، تنتشر داخلها وفيما حولها زخارف جصية معظمها من النوع النباتى المتطور من طراز سامراء الثالث(١٦٣) تبدو أوثق صلة بهذا الطراز من زخارف الجامع الطولونى نفسه لذا يرجح نسبتها إلى حوالى سنة ٣٠٢هـ / ٩٠٤م(١٦٤).

١٥٩– على بهجت، ألبير جبرييل، كتاب حفريات الفسطاط، ص٧٣.

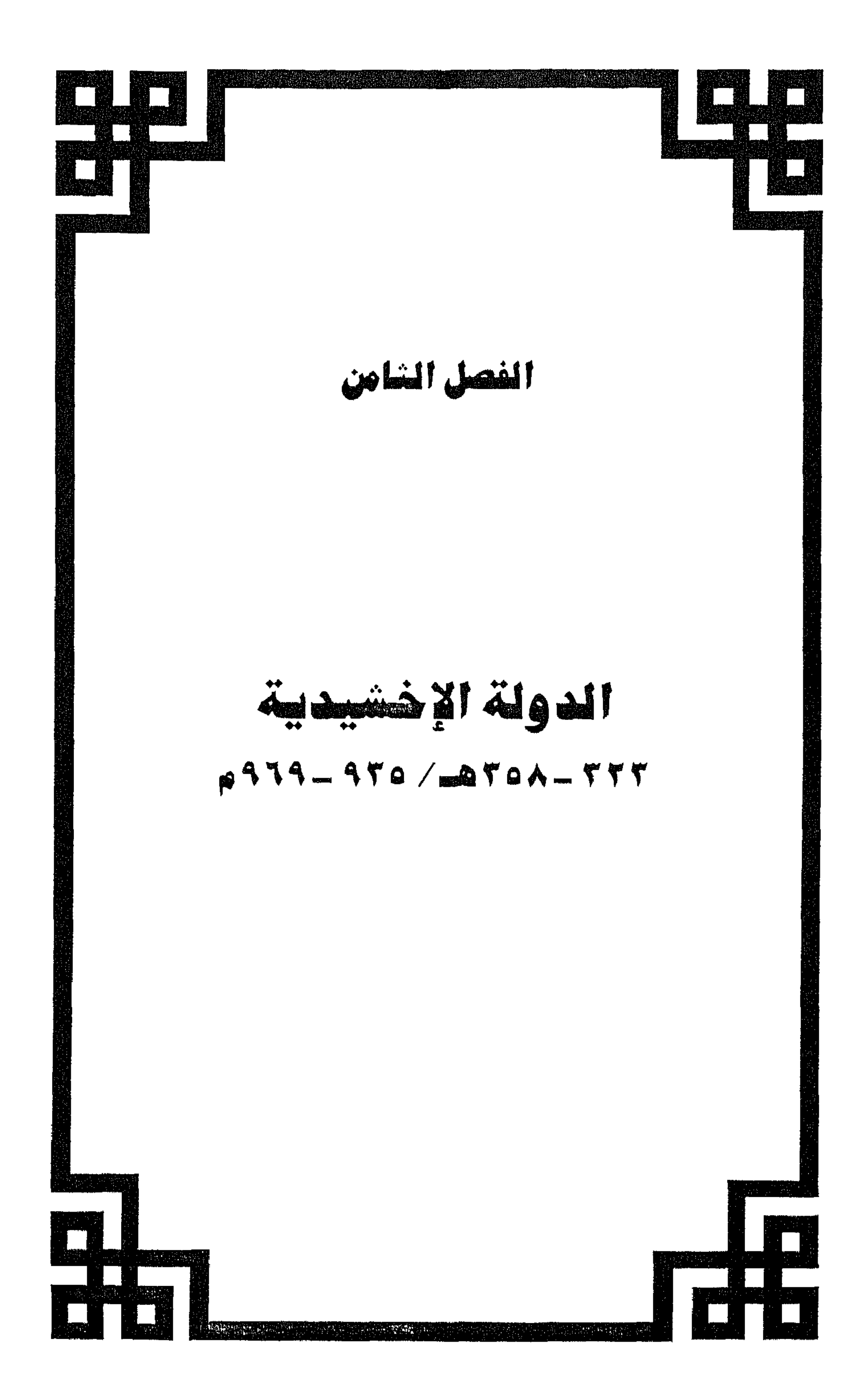
١٦٠– أحمد عبد الرازق أحمد، بيوت الفسطاط الأثرية، ص١٠.

١٦١– المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣٣١.

١٦٢– فريد شافعى، العمارة العربية، ص٥١١.

١٦٣– H. al- Hawary, Une maison , p.85;Z.M. Hassan Les Tulunides, p.294.

١٦٤– فريد شافعى، العمارة العربية، ص٥١١.



الفصل الثامن

الدولة الإخشيدية

٣٢٣ - ٣٥٨هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩م

عادت مصر من جديد إلى بحر الدولة العباسية الحافل بالعواصف، ولم يكن من المأمول أن تستقر حالها أو تهدأ أمورها على يد ولاة الخلافة العباسية الذى كان الواحد منهم يعزل بعد ولايته ببضعة أشهر، إذ ما أن استقر بها محمد بن سليمان شهورا حتى عزله الخليفة المكتفى بعيسى بن محمد النوشرى، وكان من جملة قواد محمد بن سليمان وذلك فى شهر جمادى الآخرة سنة ٢٩٢هـ/ ابريل ٩٠٥م[١] فبدأ يرتب أموره فى مصر وجعل الحسين بن أحمد المادرائى المعروف بأبى زنبور على الخراج، وجمع بقايا رجال الدولة الطولونية وأخرجهم من البلاد موكلا بهم. أما بقية جند الطولونيين فقد ساروا مع محمد بن سليمان حتى بلغوا دمشق ثم تفرق أمرهم، فمنهم من ذهب إلى العراق، ومنهم من عاد ثانية إلى مصر. وكان من بين هؤلاء العائدين شاب يدعى محمد بن على الخلنجى[٢] أو الخليجى[٣]، أو ابن الخليج[٤]، ساءه ما حل ببنى طولون وما فعله جند الخلافة العباسية بمصر فجمع حوله نفر من جند الطولونيين وأسرع بمن معه نحو الرملة فى شهر شعبان سنة ٢٩٢هـ/ يونيو ٩٠٥م وقضى على الحامية العباسية بها واستولى عليها، وخطب على منابرها للخليفة ومن بعده لإبراهيم بن خمارويه بن طولون بوصفه أميرا للبلاد ومن بعدهما لنفسه بوصفه نائبا عن إبراهيم الذى كان حيئذ أسيرا فى بغداد. ثم كر الخلنجى إلى مصر، وحاول واليها عيسى النوشرى أن يتصدى له، فانهزم أمامه ولم يجد بدا من الجلاء عن الفسطاط ونزل بجيشه عند الجيزة، ودخل الخلنجى الفسطاط فأحسن الشعب استقباله ودعا له الإمام على المنبر بعد الخليفة المكتفى وإبراهيم بن خمارويه. عندئذ هرب النوشرى إلى الاسكندرية فأرسل الخلنجى خلفه فرقة من جيشه بقيادة جندى نوبى يسمى خفيفا فانهزم هذا الأخير، مما أفضى إلى اضطراب أمر الخلنجى وأخذ يطالب الناس بالأموال ليؤدى لجنده أرزاقهم، فتكاثر عليه رجال الدولة، وتخلى عنه كثير من أتباعه مما اضطره إلى الاختفاء عند أحد الأصدقاء، الذى خانه فى النهاية وكشف أمره، فقبض عليه فى رجب سنة ٢٩٣هـ/ ابريل ٩٠٦م بعد أن دام سلطانه سبعة

١- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٥٨؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٢٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٤٤.

٢- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٤٧.

٣- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ١١، ص ٣٩٢؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، القاهرة ١٢٨٤هـ، جـ٤، ص ٣١١.

٤- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٢٧.

أشهر وعشرين يوما[٥]. وأخذ إلى بغداد عاصمة الخلافة، حيث طيف به وبأصحابه على ظهور الجمال، ثم قتل جزاء فعلته هذه.

ومع هذا فإن الأمور لم تستقر بمصر بعد القضاء على ثروة الخلنجى فقد ألقت هذه الفتنة بالبلاد فى هوة من الفوضى وعدم الاستقرار، كما ظهر خطر جديد فى هذه الأثناء تمثل فى قيام الدولة الفاطمية فى المغرب سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م فانحصرت مصر بين خطرين، خطر هذه الدولة الناشئة فى المغرب، وخطر القرامطة فى المشرق[٦]، وما أن استقرت الأمور للفاطميين حتى قامت المحاولات لفتح مصر حلمهم الأكبر، ويؤكد الكندى أن بعض المصريين كاتبوا الفاطميين فى المغرب وطلبوا منهم غزو مصر مما يشير إلى أن المصريين وجدوا فى هذه القوة الجديدة منفذا للخلاص من سيطرة الدولة العباسية، وأرسل المهدى بالفعل سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م جيشا من أفريقية بقيادة ابنه أبى القاسم استطاع أن يستولى على برقة ثم الإسكندرية والفيوم، كما دان له جزء كبير من مصر، فاضطر والى مصر أبو منصور تكين إلى الاستنجاد بالخليفة المقتدر بالله العباسى، فبعث إليه جيشا على رأسه مؤنس الخادم تمكن من إنزال الهزيمة بالفاطميين وأرغمهم على الجلاء عن مصر[٧].

ولكن الفاطميين لم ييأسوا من فتح مصر نهائيا، فلما كان العام التالى أى سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٤م أرسل عبيد الله المهدى جيشا كبيرا بقيادة حباسة بلغ عدده حسب زعم الكندى مائة ألف أو زيادة[٨]، نجح فى الاستيلاء على الإسكندرية[٩]، ولكن قدمت الجيوش من المشرق بقيادة مؤنس الخادم والتقت بالفاطميين على مقربة من الجيزة وكان النصر حليف المصريين وفر حباسة بجيشه إلى المغرب فقتله الخليفة المهدى[١٠]. وقام القائد مؤنس الخادم بعزل تكين عن ولاية مصر وأمره بالرحيل عنها فخرج

٥- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٦٢؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٢٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص١٥٢ - ١٥٤.

٦- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، جـ١، ص ٦٤.

٧- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، بولاق ١٢٩٠هـ، جـ١، ص ٣٠؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨، ص ٩٨.

٨- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٦٩؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، القاهرة ١٩٧٠، ص٢٨.

٩- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٧٣.

١٠- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص٢٨.

فى السابع من ذى الحجة سنة ٣٠٢هـ/ يوليو ٩١٥م[١١]، وأقام مؤنس فى مصر يدبر أمورها[١٢] إلى أن أرسل إليه الخليفة المقتدر واليا جديدا بدلا من تكين هو ذكاء الأعور[١٣] المعروف أيضا بذكاء الرومى، الذى وصل إلى مصر فى شهر صفر سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م[١٤]، وأوصاه بضرورة استئصال شأفة أنصار الفاطميين فى مصر، على أن تلك الإجراءات لم تمنع من وصول جيش فاطمى جديد فى سنة ٣٠٧هـ/ ٩١٩م بقيادة أبى القاسم بن المهدى، نجح فى الاستيلاء على الإسكندرية[١٥] وسار إلى الجيزة، فجد ذكاء الرومى فى التأهب للحرب، وأمر ببناء حصن على الجسر الغربى بالجيزة، وحفر خندقا يحيط بعسكره حتى لا يفجأه العدو. ومازال ذكاء جادا فى أمر الحرب حتى مرض ومات فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٠٧هـ/ سبتمبر ٩١٩م[١٦]، فعهد الخليفة المقتدر بولاية مصر إلى تكين للمرة الثانية فقدم إليها فى شعبان سنة ٣٠٧هـ/ ديسمبر ٩١٩م[١٧]، بيد أنه لم يستطع أن يحرز أى انتصار على الفاطميين فاستنجد بالخليفة العباسى الذى أمده بجيش بقيادة مؤنس الخادم الذى وصل إلى مصر فى المحرم سنة ٣٠٨هـ/ مايو ٩٢٠م[١٨] واستطاع أن يهزم أبا القاسم بن المهدى ويضطره إلى الفرار إلى المغرب بعد أن خسر كثيرا من جنده وسفنه، مما كان له أكبر الأثر فى بغداد فخلع عليه الخليفة ولقبه بالمظفر[١٩].

وهكذا لم يقدر النجاح لتلك المحاولات الأولى لغزو مصر من جانب الفاطميين، لأن الخلافة العباسية كانت على درجة من القوة مكنتها من مدافعة الفاطميين، وإن كانت الخلافة العباسية قد اهتزت أمام الخطر الفاطمى، لأن استيلاء الفاطميين على مصر كان من شأنه أن يمهد لامتداد نفوذهم إلى الشام مما يهدد الخلافة العباسية فى عقر دارها.

ومما لا شك فيه أن وقوع الصدام بين الفاطميين والعباسيين أكثر من مرة على أرض مصر أنزل كثيرا من الأضرار بأهلها وعرضهم لمتاعب قاسية من جانب الجنود

١١- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٧٣.

١٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٨.

١٣- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٧٤.

١٤- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٨.

١٥- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٩٧.

١٦- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٧٥ - ٢٧٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٨.

١٧- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٨.

١٨- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٣٤.

١٩- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٣٠٣.

فساءت أحوال البلاد وتعرضت مرافقها للإهمال. وظل تكين فى ولايته الثانية على مصر إلى أن عزله مؤنس الخادم فى ربيع الأول سنة ٣٠٩هـ/ يوليو ٩٢١م وخلفه هلال بن بدر[٢٠]، الذى لم يكن موفقا فى ولايته فزاد الاضطراب على يده وثار عليه فريق كبير من الجند وقامت بينه وبين أولئك الثوار حروب طويلة وعم الفساد فى البلاد وكثر القتل والنهب فعزله الخليفة المقتدر، وأقام بدلا منه أحمد بن كيغلغ[٢١]، الذى حاول تنظيم عطاء الجند مما جعل بعضهم يثورون عليه ففر إلى مدينة فاقوس وظل فى مخبئه والحكومة المركزية فى بغداد عاجزة عن تأديب الثوار بسبب ضعفها وحاجتها إلى جميع الجند للدفاع عن مصر، ولم يعد أمامها سوى عزل ابن كيغلغ، وأعاد الخليفة المقتدر تكين إلى مصر للمرة الثالثة[٢٢] فى سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م ، حيث نجح فى إعادة الهدوء والنظام إليها فقد كان على حد تعبير المؤرخ ابن تغرى بردى «أميرا عاقلا شجاعا عارفا مدبرا... وكان عنده سياسة ودربة بالأمور ومعرفة بالحروب»[٢٣]. بيد أن ولايته لم تطل، إذ مرض ومات فى ربيع الأول سنة ٣٢١هـ/ مارس ٩٣٣م[٢٤]، بل كادت وفاته أن تقضى على الاستقرار الذى بلغته مصر فى ولايته الأخيرة بسبب النزاع على حكم البلاد بعد وفاته[٢٥]. وهنا ظهر على مسرح السياسة المصرية محمد بن طغج بن جف لأول مرة حيث نجح فى تحقيق حلم قديم له وحصل من الخليفة القاهر على تقليد بولاية مصر فى شعبان سنة ٣٢١هـ/ يوليو ٩٣٣م[٢٦]، ولكن اضطراب الأمور فى مصر وفى مقر الخلافة نفسه لم يترك للاستقرار سبيلا، إذ لم يدع لمحمد بن طغج على منابر مصر إلا نحو اثنين وثلاثين يوما، ورد بعدها كتاب من الخليفة القاهر بولاية أحمد بن كيغلغ على البلاد للمرة الثانية فى شوال سنة ٣٢١هـ/ سبتمبر ٩٣٣م[٢٧]. ولكن محمد بن طغج لم ييأس، وظل يسعى حتى حصل على ولاية مصر للمرة الثانية[٢٨] من الخليفة الراضى بفضل المصاهرة التى كانت بينه وبين

٢٠- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٨.

٢١- الكندى، الولاة والقضاة، ص٢٧٩؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٨.

٢٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٨؛ انظر أيضا ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ الذى يذكر أن تكين ولى مصر ثلاث مرات قبل ذلك.

٢٣- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢١١.

٢٤- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٨.

٢٥- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٣٨.

٢٦- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٨٢؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

٢٧- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٧٦.

٢٨- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٨٥؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٩.

الفضل بن جعفر[٢٩]، ودخل مدينة الفسطاط فى الأيام الأخيرة من شهر رمضان سنة ٣٢٣هـ/ أغسطس ٩٣٥م[٣٠]. وأصل محمد هذا من ملوك فرغانة[٣١]، أحد أقاليم ما وراء النهر، التى كان يسيطر عليها كبار الملاك والفرسان[٣٢]، وقيل أنه لقب بالإخشيد، وهو لقب ملوك فرغانة السابقين لأن أباه من نسلهم، وأن الخليفة الراضى بالله هو الذى منحه هذا اللقب فى سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٨م[٣٣] أو فى السنة التى تليها ٣٢٧هـ/ ٩٣٩م[٣٤] على أصح الآراء. وقيل أيضا أن معناه بلغة إقليم فرغانة ملك الملوك[٣٥]، وهذا تفسير لا يمكن التسليم به، ومثله فى ذلك مثل الرأى القائل بأن لفظة طغج تعنى عبد الرحمن[٣٦].

مجمل القول أن بيت محمد بن طغج اتصل بالعباسيين من أيام الخليفة المعتصم، فقد كان جده جف من بين فرسان فرغانة الذين جئ بهم إلى المعتصم فعنى بهم وأقطعهم قطائع فى مدينة سامراء، وبعد وفاة المعتصم انتقل جف إلى خدمة ابنه الواثق وبعد وفاته سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م، صحب جف الخليفة المتوكل وظل فى بطانته إلى أن مات فى بغداد فى نفس الليلة التى قتل فيها المتوكل سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م[٣٧].

وخلفه ابنه طغج بن جف وكان من كبار الجند وأصحاب الولايات، وقد دخل فى خدمة الطولونيين[٣٨]، وتولى الشام[٣٩] لهم وأخلص فى خدمتهم، ويروى أيضا أنه كان مع خمارويه فى القصر ليلة قتله، وأنه طارد الخدم الذين اشتركوا فى ذبحه، وقبض عليهم وأمر بذبحهم وصلبهم[٤٠]، مع أن خمارويه كان قد أزمع الفتك به، لامتناعه عن القبض على راغب والى طرسوس، ولكن مصرعه حال دون ذلك[٤١].

٢٩- ابن سعيد، المغرب، ص ١١.

٣٠- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٩.

٣١- ابن سعيد، المغرب، ص ٥؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص٥٣.

٣٢- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٦٠.

٣٣- ابن سعيد، المغرب، ص ٢٣.

٣٤- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص٥٤.

٣٥- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٣٧.

٣٦- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ٤٠٨؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٧١.

٣٧- ابن سعيد، المغرب، ص ٥؛ خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٥٣ - ٥٤.

٣٨- ابن سعيد، المغرب، ص ٥.

٣٩- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٥٤.

٤٠- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٦٠.

٤١- ابن سعيد، المغرب، ص ٦.

وظل طغج واليا على دمشق وطبرية فى أيام أبى العساكر جيش ابن خمارويه، وفى أيام هارون بن خمارويه نجده واليا على الشام مستبدا بالأمر فيه، ثم تمكن رجال الدولة الطولونية من استرضائه واستمالته فدخل فى طاعتهم وأقروه على الشام[٤٢]. وعندما قتل شيبان بن أحمد بن طولون ابن أخيه هارون، لم يعترف طغج بشيبان وانضم إلى محمد بن سليمان وشارك بهذا فى القضاء على دولة الطولونيين، ثم انتقل طغج إلى بلاط العباسيين وناله ما كان ينال رجال الدولة إذ ذاك من الأذى فحبسه الخليفة المكتفى بالله مع ابنيه محمد وعبيد الله[٤٣] بسعاية الوزير العباسى ابن الحسن، الذى كان يريد من طغج إذا لقيه فى موكبه أن يترجل له، ولكن طغج لم يكن ليقبل ذلك. وبقى فى السجن إلى أن توفى به فى سنة ٢٩٤هـ/ ٩٠٦م، ثم أطلق ولداه[٤٤].

وكان لطغج سبعة أبناء أكبرهم أبو بكر محمد مؤسس الدولة الإخشيدية، الذى لانعرف شيئا عن نشأته سوى أنه ولد فى بغداد فى منتصف رجب سنة ٢٦٨هـ/ فبراير ٨٨٢م[٤٥]، وأنه كان يستخلف فى الحكم على طبرية عندما كان أبوه واليا عليها وعلى دمشق، ثم تنقلت به الأحوال حتى ظهر أمره سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٤م، وكان فى خدمة تكين والى مصر، فقد اشترك فى رد الغزوة الفاطمية على مصر بقيادة حباسة وأبلى بلاء حسنا فى القتال، فقربه تكين وتوثقت صلته به حتى أصبح منه بمنزلة الولد[٤٦]. لدرجة أنه عندما نحى عن ولاية مصر وخرج إلى الشام صحبه معه. ولما تولى تكين ولاية دمشق أناب عنه محمد بن طغج فى حماه وجبل السراة. فلما عاد تكين لولاية مصر من جديد ولاه الإسكندرية[٤٧] وهناك أتيحت له أيضا فرصة الاشتراك فى رد الفاطميين بقيادة أبى القاسم بن المهدى عن مصر فى سنة ٣٠٧هـ/ ٩١٩م. وقد حرص محمد بن طغج فى أثناء ذلك على توثيق صلته بكبار رجال الدولة خاصة أسرة المادرائيين مثل أبى بكر محمد بن على المادرائى، والحسين بن أحمد المادرائى المعروف بأبى زنبور وعرف منهما شيئا كثيرا عن شئون مصر المالية. وعقب ذلك ولاه تكين أمر الحوفين الشرقى والغربى فأظهر أثناء

٤٢- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ١٠١.

٤٣- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٥٤، الذى يذكر أن الذى كان محبوسا معه هو ابنه محمد فقط.

٤٤- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٦٥.

٤٥- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٥٥.

٤٦- ابن سعيد، المغرب، ص ٧.

٤٧- ابن سعيد، المغرب ، ص ٧.

ولايته شراهة إلى المال وأقبل على مصادرة المياسير والاستيلاء على التركات، وقد أنكر تكين منه ذلك وبدأت العلاقات تسوء بين الرجلين[٤٨].

وشعر محمد بن طغج بدقة موقفه فسعى لدى أحد معارفه ببغداد وهو محمد بن جعفر القرطى حتى دبر له ولاية الرملة بالشام وهرب إليها فى سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م[٤٩]، ثم حصل عن طريق نفس الصديق على تقليد من الخليفة المقتدر بولاية دمشق فى سنة ٣١٩هـ/ ٩٣١م[٥٠]، وأخذ يمكن لنفسه فيها، وذلك عن طريق تكوين قوة عسكرية يعتمد عليها فى صراع السلطان الذى كان دائرا إذ ذاك، ثم استقدم إخوته وأخذ يستعد لانتهاز أول فرصة تسنح له، ولا شك أن عينيه كانتا مثبتتين على مصر فأخذ يجمع المال بالمصادرات وغصب التركات، ومن ذلك ما يروى أنه خرج يوما للصيد فى ظاهر دمشق فرأى حماما فأطلق إليه طائر الصيد فأمسكه فإذا مع الحمام كتاب من الراشدى، والى دمشق السابق، إلى رجل من أهل دمشق يذكر فيه أن ما بقى عند هذا الدمشقى ثمانون ألف دينار، فما كان منه إلا أن عاد إلى داره واستدعى الرجل وطالبه بالمال وأخذه منه عنوة[٥١].

واستطاع فى النهاية أن يستصدر من الخليفة الراضى أمر بضم مصر إلى ولايته فى الشام ودخل الفسطاط كما أوضحنا من قبل فى شهر رمضان سنة ٣٢٣هـ/ أغسطس ٩٣٥م.

وتروى المصادر بصدد توليته هذه أنه كان يجلس يوما فى دمشق فرأى طائرا يقال له السدلى ويزعم الناس أن من دار هذا الطائر على رأسه ثلاث مرات وتمنى على الله شيئا بلغه، فلما رأى محمد بن طغج هذا الطائر وقد دار على رأسه ثلاث مرات تمنى إمارة مصر فبلغه الله مراده[٥٢]. وقد ظل يحكم مصر إلى حين وفاته فى ذى الحجة سنة ٣٣٤هـ/ يوليو٩٤٦م[٥٣].

٤٨- ابن سعيد، المغرب، ص ٨.

٤٩- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٦٨.

٥٠- عريب بن سعد القرطبى، صلة تاريخ الطبرى، جـ١٢ من تاريخ الأمم والملوك، للطبرى، ص٨٢ .

٥١- ابن سعيد، المغرب، ص ١٠؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٧٠.

٥٢- ابن سعيد، المغرب، ص ١٠.

٥٣- أشارت سيدة إسماعيل كاشف إلى وفاته فى شهر ذى الحجة من السنة المذكورة انظر مصر فى عصر الإخشيديين، ص١٠١، ثم عادت وذكرت فى ص ١٣١ أن ذلك حدث فى شهر ذى القعدة. أما حسين مؤنس فقد ذكر أنه توفى فى سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م انظر تاريخ مصر، ص ٤٠٩.

والحق أن الظروف التى تولى فيها محمد بن طغج مصر لم تكن مواتية، فقد كان طمع رجال الدولة فيها عظيما. أما من جهة الغرب فقد اشتد طمع الفاطميين ولم يعد يمر عام دون أن يوجهوا إلى مصر حملة. وقد عاش الإخشيد وخلفاؤه بين حجرى الرحى هذين طوال مدة حكمهم مصر، وانتهى أمرهم عندما غلبهم المعز الفاطمى على البلاد وفصل مصر عن الخلافة العباسية جملة[٥٤].

ولم يكد محمد بن طغج الإخشيد يتولى أمور مصر حتى نهض محمد بن رائق، وكان هذا من فحول الرجال وعتاة ذلك الزمان، ولم يزل أمره يعلو حتى اضطر الخليفة الراضى إلى تقليده جميع أمور الدولة، كما أمر أن يخطب له على المنابر فى أنحاء العالم الإسلامى «وبطلت الدواوين من ذلك الوقت، وبطلت الوزارة، فلم يكن الوزير ينظر فى شئ من الأمور، إنما كان ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمور جميعها[٥٥]». واتسع سلطان ابن رائق فى الأقاليم المتاخمة لولاية الشام فبدأ فى تهديد الإخشيد ومطالبته بالمال كأنه جزية على الممتلكات الإخشيدية فى الشام. وفزع الإخشيد من التفات محمد بن رائق إليه وسار لحربه[٥٦] والتقى الجانبان عند اللجون على مقربة من طبرية فى فلسطين، وأفلح الإخشيد فى مباغتة ابن رائق وانتصر عليه انتصارا كبيرا، ولكنه أحس رغم انتصاره أنه لن يستطيع الصمود لابن رائق فصالحه على أن يحمل إليه كل عام مائة وأربعين ألف دينار[٥٧] على أن تكون له الرملة ويترك باقى الشام لابن رائق وذلك فى المحرم سنة ٣٢٩هـ/ أكتوبر ٩٤٠م كما تصاهر الفريقان فزوج الإخشيد ابنته فاطمة من مزاحم بن محمد بن رائق[٥٨].

ثم توفى الخليفة الراضى فى ربيع الآخر سنة ٣٢٩هـ/ يناير ٩٤١م، وخلفه أخوه المتقى بالله، كما قتل ابن رائق فى العام التالى، فسار الإخشيد ودخل دمشق فى شوال

٥٤- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٤٠٩.

٥٥- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٣٨١هـ، جـ٤، ص٢٤؛ حسن الباشا، الفنون والوظائف، جـ٣، ص ١٣٢٥؛ عبد العزيز الدورى، النظم الإسلامية، بغداد ١٩٥٠، ص ٢١٠ – ٢٢٧؛ أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية، ص ٥٥ ، ٦٠.

٥٦- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٨٩؛ ابن سعيد، المغرب، ص ٢٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٥٢.

٥٧- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٨٩ – ٢٩٠؛ ابن سعيد، المغرب، ص ٢٨ – ٢٩؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص ١٢٨؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٩؛ ابن خلدون، العبر، جـ٣، ص ٤٠٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٥٢ – ٢٥٣.

٥٨- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٩١.

سنة ٣٣٠هـ/ يونيو ٩٤٢م وضم الشام إلى ولايته[٥٩] وقد أقره الخليفة المتقى على ذلك. والواقع أن محمد بن طغج قد عرف كيف يكسب ثقة الخليفة المتقى، بل دعاه إلى ترك بغداد والمجئ إلى مصر[٦٠]، مقلدا فى ذلك ما فعله أحمد بن طولون مع الخليفة المعتمد، ولكن المتقى لم يقبل هذا الرأى. وهكذا أخفق كل من ابن طولون والإخشيد فى جعل مصر مركز الخلافة العباسية، ولم يتم ذلك إلا على يد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس فى سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م[٦١].

وفى ذلك الحين كان أمر بنى حمدان فى حلب قد اشتد، وبدأ الصراع بينهم وبين الإخشيد، وهو صراع كتب النصر فيه للإخشيد[٦٢] فظلت ولايته على مصر والشام خلال بقية أيام المتقى، الذى قال له «قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك أونوجور[٦٣]» ثم المستكفى[٦٤] ثم المطيع[٦٥]، وفى خلافة الأخير توفى الإخشيد فى دمشق فى شهر ذى الحجة سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م[٦٦]. وخلفه ابنه أبو القاسم أونوجور، بعد أن ظل واليا على مصر إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ويومين كان فى معظمها واليا على الشام أيضا، وكانت سنه عندما مات ستة وستين عاما ودفن بالقدس[٦٧].

وقد استطاع محمد بن طغج الإخشيد أن يحتفظ بملكه خلال هذه السنوات بفضل القوة العسكرية التى استطاع أن ينشئها، ثم إنه كان كيسا مداورا يستطيع أن يراوغ

٥٩- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٩.

٦٠- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٩٢؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص ١٤٨ - ١٤٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٥٥؛ السيوطى، تاريخ الخلفاء، القاهرة ١٣٠٥هـ، ص ١٥٩؛ ابن العميد، تاريخ المسلمين، ليدن ١٨٢٥، ص ٢١٢. F.Wüstenfeld, Die Statthalter. Von Agypten zur Zeit der Chalifen, Gottingen, 1875, IV, p.33.

٦١- المقريزى، السلوك فى معرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٧٢، جـ١، ص ٤٥٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٧، ص ١٠٩؛ ابن اياس، بدائع الزهور، طبعة محمد مصطفى، جـ١، ص ٣١٣ - ٣١٥.

٦٢- ابن العديم، زبدة الحلب فى تاريخ حلب فى كتاب M.Canard, Sayf al- Daula, Alger, 1934, p.370.

٦٣- ابن سعيد، المغرب، ص ٤٠.

٦٤- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٩٢.

٦٥- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٩٧.

٦٦- ابن سعيد، المغرب، ص ٤٢؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٩.

٦٧- ابن سعيد، المغرب، ص ٤٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٥٥؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٦ - ٢٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم جـ٣، ص ١٥٦.

ويداور وينحنى للعواصف وما كان أكثرها إذ ذاك، وقد سبق أن استعرضنا موقفه من ابن رائق. وكان الزمان عصيبا لا يسلك فى متاهته إلا من كانت له هذه الخصال، فقد كانت غارات القرامطة لا تنكف عن الشام والحجاز، وليس هنا موضع تفصيل أعمالهم وإنما المهم أن نقول أن الله رحم المسلمين بموت أبى طاهر سليمان بن سعيد الجنابى القرمطى فى سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م بعد أن فعل بالشام والحجاز والحجاج الأفاعيل، وسرق رجاله الحجر الأسود من الكعبة اثنين وعشرين عاما، ولم يردوه إلا بعد عناء. هذا والأتراك المستبدون بدولة بنى العباس ينهزمون أمامه مرة بعد أخرى، وكلما انهزموا لم يجدوا أمامهم إلا الخلفاء المساكين يسومونهم العذاب ويسملون أعينهم ويقتلونهم. ولم يكن أولئك الخلفاء على شئ من المهابة واحترام النفس، وقد بلغ من أحدهم، وهو القاهر، وكان قد خلع وسملت عيناه، أنه لما بلغه خبر قبض توزون التركى الملقب بأمير الأمراء على المتقى وسمله عينيه قال: «صرنا اثنين، ونحتاج إلى ثالث» يعرض بالمستكفى الذى بويع بعده. كذلك لم يكن الوزراء بخير من الخلفاء وحسبنا أن نشير هنا إلى أن الوزير ابن شيرزاد، وزير المتقى كان قد أمن لصا فاتكا «وخلع عليه وشرط عليه أن يصله كل شهر بخمسة عشر ألف دينار، وكان يكبس بيوت الناس بالمشعل والشمع ويأخذ الأموال[٦٨]».

وجدير بالذكر أن محمد بن طغج كان يحاول التشبه دائما بأحمد بن طولون، ولكن شتان بين الرجلين من كل ناحية، خاصة وقد عرفنا الكثير عن خصال ابن طولون، أما محمد بن طغج فبالرغم من أنه وصف بالشجاعة الزائدة وبعد النظر وحسن السياسة والقدرة على اصطناع اللين عند الضرورة، ومدارة أعدائه إذ لم يستطع التغلب عليهم، إلا أنه كان جشعا محبا للمال إلى أبعد الحدود. ومن ذلك ما ترويه المصادر التاريخية أنه لما عاد إلى مصر بعد فراغه من قتال ابن رائق ودعاه محمد بن على المادرائى مع حاشيته ورؤساء جنده إلى مأدبة حافلة، نصب فيها بين يدى الإخشيد التماثيل من الكافور والعنبر، بل زاد الحفلة بهاء عندما حمل إلى الإخشيد صينيتين كبيرتين إحداهما مملوءة بالدنانير والأخرى بالدراهم لينثر هذا المال بين الحاضرين. ولكن جشع الإخشيد دفعه إلى الاحتفاظ بصنية الدنانير والاكتفاء بنثر الدراهم[٦٩].

ويروى المؤرخون أيضا بصدد جشعه إلى المال واستهانته بما فى أيدى الناس وقلة تعففه وأنه كان يطمع فى القليل، أنه دخل عليه مزاحم بن محمد بن رائق وكان يرتدى فروا ثمينا فأعجب الإخشيد به وقال أنه لم ير مثله قط، وكان مزاحم يحب هذا الفرو، فضلا عن

٦٨- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٤١٠ - ٤١١.

٦٩- ابن سعيد، المغرب، ص ٢٩.

أنه كان زوج ابنة الإخشيد فلم تسمح نفسه بأن ينزعه لتقديمه إلى الأمير، فلما أيس الإخشيد منه حرض بعض غلمانه عليه فغصبوا الفرو منه وهو خارج من عنده ثم أنكروه. وبعد ذلك أراد الإخشيد أن يتطرف فلبس الفرو، فلما دخل عليه مزاحم مرة أخرى ورآه عليه ضحك الإخشيد وقال: «كيف رأيت؟ ما أصفق وجهك، ولكنك ابن أبيك؟ وكم عرضت لك وأنت لا تستحى فلم تفعل حتى أخذناه بلا شكر ولامنة»[٧٠].

ورغم هذا فقد كان الإخشيد شديد التقى، ولكن تقاه لم يكن يظهر إلا بعد قيامه بالأذى. والحق أن حال الإخشيد من هذه الناحية لم يكن يختلف عن حال غيره من رجال الدولة والساسة فى ذلك الزمان، فقد كانوا يظهرون الأسف والندم على ما يفعلونه بعد فوات الأوان، وكانت ضراعتهم إلى الله خوفا من العذاب، لا عن عاطفة دينية خالصة[٧١].

وهكذا كان الإخشيد حريصا من هذه الناحية على ألا تفوته فرصة بطلب الغفران والمغفرة، حتى قيل أنه أفطر ليلة تسع وعشرين من رمضان فى سنة من السنين «ولحقه كسل عن حضور الختم فقالت له جاريته: تأخر وأنا أعتق عنك غدا عشر رقاب، فقال أعشرة رقاب، ويحك لعله يكون فى هذه الليلة رجل صالح له عند الله منزلة فيقول فى دعائه اللهم اغفر لجماعتنا، فعسى أن أدخل بهم[٧٢]»، ثم ركب إلى الجامع العتيق فحضر الصلاة والختم.

وحاول الإخشيد أن يتشبه بأحمد بن طولون فى مظاهره فلم يوفق لسبب بسيط، هو أنه لم يكن فى ثقافة أحمد بن طولون واتساع أفقه، وظل الناس لا يوقرونه توقير الملوك حتى أصبح يطلب منهم ذلك ويصر عليه[٧٣]. وقد قرب إليه نفرا من الطولونيين وأتباعهم فكانوا يأكلون معه ويسامرونه[٧٤]، كما كان بلاطه مجمعا للعلماء والأدباء، الذين كان يصلهم بعطاياه ويشملهم برعايته ويستمع إلى أحاديثهم[٧٥] فى بعض الأحيان، ولعل من مظاهر الثروة والترف فى بلاد الإخشيد ما جمعه من الخيل الجميلة المدربة والجوارح المهيأة للصيد من مختلف الأنواع «مما لم يكن بين يدى خليفة قط»[٧٦].

٧٠- ابن سعيد، المغرب، ص ٣٤؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ١٢٢ - ١٢٣.
٧١- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٤١١.
٧٢- ابن سعيد، المغرب، ص ٣٩؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ١٢٣.
٧٣- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٤١١.
٧٤- ابن سعيد، المغرب، ص ١٦ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٦١.
٧٥- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٥٧.
٧٦- ابن سعيد، المغرب، ص ٤٣.

مجمل القول أن الإخشيد عند وفاته ترك دولة مستقلة وراثية تمتد حتى دمشق[٧٧]، وولى بعده ابنه أبا القاسم أونوجور أو أنوجور أى محمود حسب رغم ابن خلكان[٧٨]. وكان أكبر أولاده، فقد ولد فى دمشق فى التاسع من ذى الحجة سنة ٣١٩هـ/ ٢٣ ديسمبر ٩٣١م، وهذا يعنى أنه لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة بعد[٧٩]، ولذلك فقد خضع لوصاية كافور الذى لم يتح له أى فرصة ليظهر مزاياه أو عيوبه فى الحكم، بل أصبح يدعى له على المنابر كلها منذ سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م[٨٠] إلى جانب أبى القاسم أونوجور. وكان على أونوجور أن يكتفى بإنفاق المخصصات التى حددها له كافور وقدرها أربعمائة ألف دينار فى العام[٨١]، واستمر الحال على ذلك حتى سنة ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م. حين شعر بأنه تجاوز سن الرشد وأنه من حقه أن ينفرد بشئون الحكم، ولكن كيف السبيل وكافور متحكم فى كل شئ، فبدأ يظهر سخطه علانية وذلك بإيعاز من بعض أصحابه الذين قالوا له: «قد احتوى كافور على الأموال وانفرد بتدبير الجيوش وأخذ أملاك أبيك وأنت معه مقهور[٨٢]». وأخذ يدبر الخروج إلى الرملة والاستعداد لمناوأة كافور، وانقسم الجند إلى طائفتين: كافورية يناصرون كافورا، وإخشيدية يناصرون أونوجور.

وكانت أم أونوجور لا تثق فى قوة ابنها وتخشى عليه من بطش كافور لذلك أسرعت تكتب إلى ابنها تخوفه من سوء العاقبة، كما أعلمت كافورا بأن ابنها ينوى الرحيل عن مصر، فكتب كافور إلى أونوجور وصالحه[٨٣] وإن كان قد احتفظ بكل سلطانه. وقد نظم الشاعر المتنبى قصيدة بمناسبة هذا الصلح نذكر بعض أبياتها هنا لأنها تصور لنا طبيعة العلاقة بين أونوجور وكافور:

حسم الصلح ما اشتهته الأعادى	وأذاعته ألسن الحساد
وأرادته أنفس حال تدبيرك	ما بينها وبين المراد
وأشارت بما أبيت رجال	كنت أهدى منها إلى الإرشاد
نلت ما لا ينال بالبيض والسمر	وصنت الأرواح فى الأجساد

٧٧- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ١٣١.
٧٨- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٥٤٥.
٧٩- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ١٣٤.
٨٠- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧.
٨١- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٢٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٩١.
٨٢- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٢٩٢.
٨٣- المتنبى، ديوان المتنبى، بيروت ١٩٠٠، ص ٣٩٣ - ٣٩٦.

ففـــدى رأيك الـذى لـم تقـده كـل رأى معلـــم مســـتفاد
فبهـذا ومـثله سـدت ياكـافور واقتـدت كل صـــعب القـياد
إنمـا أنت والـد والأب القاطــع أحنـــى مـــن واصـــل الأولاد
لاعدا الشـر من بغـى لكما الشـر وخـص الفسـاد أهل الفسـاد
أنتـما ما اتفقـتـما الجسـم والرو ح فلا احتجتما إلى العواد[83]

مجمل القول أن كافورا بقى يدبر أمور الدولة الإخشيدية إلى أن مات أونوجور فى شهر ذى القعدة سنة ٣٤٩هـ/ ديسمبر ٩٦٠م ونقل جثمانه إلى القدس حيث دفن إلى جوار أبيه[84]، وقد ذهب بعض المؤرخين إلى الزعم بأنه لم يمت ميتة طبيعية، بل دس كافور له السم فمات[85]، بعد أن ولى حكم مصر نحو أربع عشرة سنة.

وخلف أونوجور فى حكم مصر أخوه على بن الإخشيد، فزاد معه نفوذ كافور، وظل على ينفق نفس المخصصات التى كانت لأخيه من قبل أى الأربعمائة ألف دينار فى السنة، واستبعده كافور بدوره عن شئون الإدارة والحكم بالرغم أنه كان عند ولايته فى الثالثة والعشرين من عمره[86]، بل لم يتركه كافور يظهر للشعب أو يجتمع بغير ندمائه إلا وهو معه الأمر الذى جعل على بن الإخشيد ينصرف إلى اللهو والشراب، ثم تاب بعدها وأقبل على ملازمة الصلاة وقراءة القرآن[87].

وقد حاول على بن الإخشيد القيام فى سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م بنفس المحاولة التى سبق أن قام بها أبو القاسم أونوجور من قبل وهى تنحية كافور عن تدبير أمور الدولة، إلا أنه لم يفلح بدوره لضعف شخصيته وقلة أنصاره. وأفضت هذه المحاولة إلى الوحشة بينه وبين كافور الذى منع الناس من الاجتماع به إلى أن مات فى المحرم سنة ٣٥٥هـ/ ديسمبر ٩٦٥م، وقيل أيضا أن كافور دس له السم كما فعل مع أخيه أونوجور من قبل، وحمل جثمانه إلى القدس حيث دفن إلى جوار أبيه وأخيه[88].

٨٤- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ١٣٥.

٨٥- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧.

٨٦- الكندى الولاة والقضاة، ص ٢٩٦؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٥٤٥؛ المقريزى، الخطط، جـ٢١، ص ٣٢٩؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ١٣٥.

٨٧- Wüstenfeld, Statthalter, IV, p.85.

٨٨- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٢٩٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٢٩ - ٣٣٠؛ جـ٢، ص ٢٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٣، ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

وبعد وفاة على بن الإخشيد ظلت مصر أياما بغير أمير، فكان لا يدعى على المنابر إلا للخليفة المطيع، ذلك أن كافورا رفض أن ينصب أحمد بن على بن الإخشيد الذى كان فى التاسعة من عمره، وانتهى الأمر باستيلائه على حكم البلاد، وقد أشار بعض المؤرخين إلى تقلده الحكم بمرسوم من الخليفة المطيع ومن ذلك ما ذكره المقريزى من أن كافور «أخرج كتابا من الخليفة المطيع بتقليده بعد على بن الإخشيد»، فدعى له على المنابر، واحتفظ لنفسه بلقب الأستاذ أبو المسك[٨٩]، ربما لأنه لم يكن صاحب حق شرعى فى ولاية مصر، إذ أنه ليس من أسرة الإخشيد. والغريب هنا أن الخلافة العباسية لم تحتج على اغتصابه الحكم، ربما أيضا لأنها اعتادت أن تراه يقوم بتدبير جميع أمور مصر منذ وفاة سيده الإخشيد فى سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م.

وكان كافور يعرف أيضا باللابى نسبة إلى إقليم اللاب من بلاد النوبة[٩٠]. وعرف كذلك بالليثى والصورى حسب قول ياقوت الرومى فى معجم بلدانه. وقد أجمع المؤرخون أنه كان عبدا أسود، بصاصا، أى براقا لامعا، خصيا، قبيح الشكل، بطينا، ثقيل البدن، قبيح القدمين، مثقوب الشفة[٩١].

ولسنا نعرف على وجه التحديد متى كان مولده بسبب تضارب المراجع التاريخية فيما بينها، فقد أشار البعض إلى أن مولده كان فى سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م[٩٢]، على حين أرجعه الفريق الآخر إلى سنة ٢٩٧هـ/ ٩١٠م[٩٣]، أما الفريق الثالث فقد ذهب إلى الاعتقاد بأن مولده كان فى سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م على أساس أنه جلب إلى مصر فى سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م وهو فى الرابعة عشرة من عمره[٩٤].

وكما اختلفت المصادر فى تاريخ مولده، فقد اختلفت أيضا فى كيفية وصوله إلى بلاط محمد بن طغج الإخشيد، إذ أشارت بعض الروايات إلى أنه جلب إلى مصر مع عبيد

٨٩- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٣٠؛ جـ٢، ص ٢٧.

٩٠- لقول المتنبى فى هجائه:

كأن الأسود اللابى فيهم   غراب حوله رخم وبوم

انظر ديوان المتنبى، ص ٤٢٩.

٩١- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٦.

٩٢- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٥٤٧.

٩٣- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٦؛ ابن الزيات، الكواكب السيارة، القاهرة ١٩٠٧، ص ١٩٩.

٩٤- Wüstenfeld, Statthalter, IV, p.59.

آخرين، فبيع لتاجر من تجار الزيت[٩٥]، وقيل أيضا أن الذى ابتاعه هو محمد بن هاشم، أحد أصحاب الضياع فى مصر، وقد باعه بدوره إلى محمود بن وهب بن عباس الكاتب[٩٦]، ثم اشتراه منه محمد بن طغج الإخشيد بثمانية عشر دينارا. ويروى كذلك أن ابن عباس الكاتب أرسل كافورا يوما بهدية إلى محمد بن طغج، وكان وقتها أحد قواد تكين والى مصر، فتوسم الإخشيد فى كافور الذكاء وأخذه بدلا من الهدية[٩٧].

ورغم أننا نجهل مدى صحة هذه الروايات، كما أننا لا نستطيع قبول إحداها على حساب الأخرى، فإن الأمر الذى لاشك فيه أن ارتفاع مكانة كافور من العبودية إلى أرقى المناصب، كان الدافع الرئيسى وراء العديد من الأساطير والروايات التى نسجها حوله بعض المؤرخين، ومن ذلك ما روى من أنه بعد جلبه إلى مصر مر على السوق ومعه عبد أسود آخر، فقال هذا الأخير: كنت أتمنى أن أباع لطباخ حتى أكون طول عمرى شبعان من المطابخ. فقال كافور: وأنا أتمنى أن أملك هذه المدينة. وبعد أن بلغ كافور مراده مر يوما على نفس السوق فرأى زميله القديم فى ثياب الطباخين وهو يحرك القدر فضحك وقال: «أدرك كل واحد ما أمله[٩٨]».

كما زعم البعض الآخر أن كافورا فى بداية أمره لحقه جرب كثير حتى لم يستطع الظهور أو مقابلة أحد مما اضطر سيده إلى طرده فهام على وجهه فى الشوارع إلى أن مر بأحد الأسواق وطلب من أحد الطباخين بعض الطعام، فضربه الطباخ بالمغرفة على يده وهى حارة فوقع مغشيا عليه، فأخذه رجل طيب القلب وداواه حتى شفى فسار به إلى سيده الذى أخذه وعرض على الرجل الطيب أجرا على إيوائه وعلاجه، إلا أن الرجل رفض قائلا: «أجرى على الله». وكان كافور حسب هذه الرواية يذكر هذا الحادث كلما عزت نفسه، وقيل أيضا أنه ربما سار إلى السوق وسجد إلى الله شكرا قائلا لنفسه: «اذكر ضرب المغرفة[٩٩]».

٩٥- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١.

٩٦- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٥٤٥؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٦.

٩٧- ابن سعيد، المغرب، ص ٤٦؛ ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١، ص ٥٤٥؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٦ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١؛ سيده إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص١٣٧.

٩٨- ابن سعيد، المغرب، ص ٤٦.

٩٩- Wüstenfeld, Statthalter, IV, pp. 59-60. ابن الزيات، الكواكب السيارة، ص ٢٠٠.

ومع هذا فمن المؤكد أن ذكاء كافور كان سببا في احتواء محمد بن طغج له وعنايته بأمره، وحسبنا دليلا على ذلك أنه قربه إليه، بل وظلت منزلته عنده في ارتفاع تدريجي حتى أصبح موضع ثقته وأقرب المقربين إليه، ولهذا فقد اهتم بتربيته وتثقيفه، ثم أعتقه، وقد استطاع كافور بدوره أن يترقى في بلاط سيده، ويتمرس على مختلف شئون الحكم والإدارة بفضل فطنته وذكائه، بدليل أنه استطاع أن يصبح في النهاية من كبار قواد محمد بن طغج ومن ذوي الشأن في دولته، كما عهد إليه بتربية ابنيه أونوجور وعلي ووكل إليه كذلك قيادة جيشه أثناء قتال سيف الدولة الحمداني وغير ذلك من شئون الدولة الهامة(١٠٠).

ومن الثابت أيضا أن كافورا قد بادل سيده إخلاصا بإخلاص، بل وتبعه حتى النهاية، إذ كان إلى جانبه عندما توفي في دمشق سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م، وعمل على القضاء على الفتنة التي ثارت في هذه المدينة بقصد نهب خزائن الإخشيد، إذ حافظ على قسط كبير من هذه الأموال بعد أن وضعها في أكياس من الأمتعة، وألقى بهذه الأكياس في بركة ماء، وظلت هناك حتى سكنت الفتنة(١٠١).

وسارع كافور أيضا بالقضاء على الثورة التي قام بها والي الأشمونين المعروف باسم غلبون(١٠٢)، وكان قد شق عصا الطاعة عقب وفاة الإخشيد، واستبد بالأمور في منطقة نفوذه، بل ووصل به الحال إلى دخول مدينة الفسطاط على رأس جيش كبير واستولى على دار الإمارة، مما اضطر كافورا إلى مطاردته حتى الشرقية حيث أوقع به هزيمة فادحة انتهت بمقتله في أواخر سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٨م بعد أن شغل الناس بهذه الثورة، واضطربت الأمور في هذه السنة حتى أن أحدا من المصريين لم يستطع الذهاب إلى الحج فيها(١٠٣).

مجمل القول أن كافورا استطاع أن يحفظ كيان الدولة ضد الطامعين فيها من الغرب والشرق، ولولاه لانتهت الدولة الإخشيدية بوفاة محمد بن طغج، وحسبنا أن نعرف أن مصر قد سقطت في أيدي الفاطميين بعد وفاته بعام واحد(١٠٤)، إذ توفي في جمادى

١٠٠- سيدة إسماعيل كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ١٤٠.

١٠١- ابن سعيد، المغرب، ص ٤٣.

١٠٢- الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢٩٥.

١٠٣- الكندي، الولاة والقضاة، ص ٢٩٥ - ٢٩٦؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ١٥٦؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ٣، ص ٢٩٢؛ جـ٤، ص ٢؛ G.Wiet, L'Egypte arabe, IV, p.140.

١٠٤- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٤١٤.

الأولى سنة ٣٥٧هـ/ إبريل ٩٦٨م، بعد أن انفرد بحكم مصر زهاء سنتين وأربعة أشهر[١٠٥] وحمل إلى بيت المقدس حيث دفن هناك[١٠٦]، وقيل أيضا أنه دفن بالقرافة الصغرى في مصر[١٠٧].

وكان كافور «خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا، جيد العقل داهية، إذ كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه. وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء[١٠٨]». وإن كان هذا لم يمنع الفاطميين من أن يسفروا في بعض الأحيان عن نواياهم تجاه مصر. فقد تضمنت المصادر أخبار جموع عسكرية بعث بها المعز من المغرب، وقامت بمهاجمة الواحات المصرية، مما اضطر كافورا إلى أن يبعث إليهم بجيش حاربهم وأجلاهم عنها[١٠٩].

ولا عجب في هذا فقد أثر عن كافور الشجاعة، وقوة الساعد، لا يكاد أحد يمد قوسه، كما حاز شهرة واسعة في الرمى وفى فنون القتال، تجلت من خلال مديح الشعراء له. بيد أن غروره واعتزازه بنفسه يعد من مواطن الضعف فيه، إذ كان يرضى غالبا عمن يظهر العجز عن منافسته، في الوقت الذى كان يعبس فيه لمن يجرأ على الاستهانة بتفوقه أو يطمع حتى فى مساجلته[١١٠]. ورغم هذا فقد عرف بمداومة الجلوس صباحا ومساء لقضاء حوائج الناس، وكذا بكثرة التهجد وتمريغ وجهه ساجدا وهو يقول: «اللهم لا تسلط على مخلوقا»[١١١]. وكان يتظاهر أمام الناس بكل ما يحببه إلى قلوبهم. ذكروا أن خطيبا عرض به فى إحدى مواعظه وذكره فى معرض التدليل على هوان أمر الدنيا على الله تعالى فإنه أعطاها لمقصوصين ضعيفين: ابن بويه ببغداد وهو أشل، وكافور بمصر وهو خصى، فسمع كافور بذلك، فأرسل إليه خلعة ومائة دينار فصار الواعظ يقول بعد ذلك فى قصصه: ما أنجب من ولد حام إلا ثلاثة، لقمان، وبلال المؤذن وكافور.[١١٢]

١٠٥- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٣٠؛ جـ٢، ص ٢٧؛ Wüstenfeld, Statthalter, IV, p.59.

١٠٦- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٠.

١٠٧- ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١، ص ٥٤٧.

١٠٨- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٦.

١٠٩- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧.

١١٠- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٦.

١١١- ابن تغرى بردى، التجوم، جـ٤، ص ٦؛ سيده إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص١٤٨.

١١٢- السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ١٢.

ومن سياسة كافور فى كسب قلوب الشعب أنه كان يجل أهل البيت ويكرم العلويين أعظم الإكرام، كما عرف بالجود والكرم، حتى قيل أنه وقع يوما لأحد القواد الإخشيدية بعطاء قدره أربعة عشر ألف دينار، فمازال عبدا له حتى مات(١١٣). ولا غرابة فى هذا فقد بلغ سماطه فى اليوم الواحد، على حد زعم أحد المؤرخين، «مائتى خروف كبار، ومائة خروف رميس، ومائتين وخمسين أوزة، وخمسمائة دجاجة، وألف طير من الحمام، ومائة صحن حلوى، لكل صحن عشرة أرطال، ومائتين وخمسين قربة شراب يصنع من السكر المحلول بالماء والليمون يسمى أقسما»(١١٤). كما كان له خزانة شراب يوزع منها على حاشيته قرابة الخمسين قربة يوميا من مختلف أنواع الأشربة(١١٥).

ويفهم من روايات المؤرخين أيضا مدى حرص كافور على أن يكون بلاطه مجمع العلماء والأدباء، رغبة منه فى أن يفوق كلا من بلاط الخليفة العباسى، وبلاط سيف الدولة الحمدانى، ولذا فقد قرب العلماء والمؤرخين، الذين صاروا يقرأون له كتب السير وأخبار الدول الماضية(١١٦). كما قرب الأدباء والشعراء وحسبنا أن نشير هنا إلى ما كان بينه وبين الشاعر المتنبى، إذ من المعروف أن هذا الأخير كان متصلا بسيف الدولة الحمدانى وقال فى مدحه قصائد خالدات، بيد أن أمرا ما حدث بينهما، أفضى إلى خروج المتنبى ميمما وجهه شطر مصر(١١٧). وهنا تروى بعض كتابات المعاصرين أنه صرح قبل دخوله إليها فى سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م(١١٨) «أنه إذا دخل مصر لا يقصد العبد كافورا، وإنما يقصد مولاه أونوجور(١١٩)». ورغم هذا فقد رحب به كافور وأخلى له دارا، وخلع عليه، بل وحمل إليه مالا كثيرا، حيث بقى المتنبى فى بلاط كافور يقول فى مديحه القصيدة تلو الأخرى طمعا فى أن ينصبه كافور واليا على إقليم من دولته، إلا أن هذا الأخير لم يكن فى استطاعته على حد قوله «أن يأمن لرجل ادعى النبوة مع خير البشر ﷺ(١٢٠)»، مما دفع المتنبى إلى مقاطعة

١١٣- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧.

١١٤- ابن الزيات، الكواكب السيارة، ص ٢٠٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٩؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص ٤٣.

١١٥- Wüstenfeld, Statthalter, IV, p.59.

١١٦- ابن تغرى بردى، النجوم؛ جـ٤، ص ٦.

١١٧- ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١، ص ٤٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص ٤٤.

١١٨- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٤٥.

١١٩- Wüstenfeld, Statthalter, IV, p.60.

١٢٠- ابن سعيد، المغرب، ص ٤٧؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٤٥.

بلاطه قرابة العام، فى الوقت الذى حرص فيه على الركوب فى خدمته خوفا منه. كما أخذ فى الاستعداد للرحيل سرا[١٢١]، وقد استطاع بالفعل أن يغادر مصر يوم عرفة سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦٢م بعد أن قال قصيدته الدالية المشهورة التى هجا فيها كافورا ومطلعها:

عيد بأية حال عدت ياعيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

كما جاء فيها

إنى نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدى وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود
أكلما إغتال عبد السوء سيده أو خانه فله فى مصر تمهيد
صار الخصى إمام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد
من علم الأسود المخصى مكرمة أقومه البيض أو آباؤه الصيد
أم أذنه فى يد النخاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردود
وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود[١٢٢]

وبعد أن توفى كافور اجتمع رجال الدولة وولوا أبا الفوارس أحمد بن على الإخشيد وكان فى الحادية عشرة من عمره، ودعى له على المنابر فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ/ أبريل ٩٦٨م، ثم من بعده للحسن بن عبيد الله، ابن عم أبيه، باعتباره خليفته، وتولى أموره الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات[١٢٣]، الذى أساء التصرف وصادر بعض الناس وفى جملتهم يعقوب بن كلس وكان من أثرياء الناس، ففر إلى المعز لدين الله وأخذ يحرضه على دخول مصر[١٢٤]. وكان الفاطميون لمصر بالمرصاد واستطاعوا أن يدخلوا مصر فاتحين وقبض على أحمد بن على ومات بعد قليل[١٢٥]، بعد أن انتهت الدولة الإخشيدية، فى شعبان سنة ٣٥٨هـ/ يونيو ٩٦٩م.

١٢١- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٥٤٦؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٨.

١٢٢- دوان المتنبى، ص ٤٣١ - ٤٣٤.

١٢٣- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٣٠.

١٢٤- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٤١٥.

١٢٥- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ١٥٥.

تلك هى التجربة الإخشيدية، أراد صاحبها من ورائها أن يعيد تجربة أحمد بن طولون فلم يوفق وانقضت سنواتها الأربع والثلاثون وكأنها ظل مر على حائط دون أن يخلف أثرا[١٢٦]، ذلك أنه لم يكن للإخشيديين أثناء حكمهم فى مصر عناية حقيقية إلا بشئون المال، وقد وفقوا فى ذلك بفضل المادرائيين، وظلوا يجبون مال مصر كل سنة نحو مليونين من الدنانير[١٢٧] على قول، و ٣,٢٧٠,٠٠٠ على قول آخر[١٢٨]، والراجح أن الرقم الأخير أقرب إلى الصحة. إذ تشدد الأخشيديون فى ذلك وأرهقوا الناس بالمغارم والجبايات حتى كان الجباة يستخرجون من الناس ضرائب على الأراضى البور[١٢٩]. وقد ذكر المقدسى أن الضرائب والمكوس كانت ثقيلة وبخاصة فى تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل[١٣٠]، كما عرفنا أن الإخشيد كان لا يتورع عن مصادرة الأموال[١٣١]، وإن كان كافور قد كف يده عن ذلك، إلا أن المصادرات عادت من جديد بعد وفاته، فقد أسرف الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات فى ذلك[١٣٢]. ويبدو أيضا أن رجال الدولة قد أهملوا صيانة المرافق حيث توالت على البلاد الغلوات، وفى السنة التى استولى فيها الفاطميون على مصر كانت الحالة قد بلغت مبلغا جعل البلاد على حافة الخراب، بيد أن المعز لدين الله قد تدارك ذلك[١٣٣].

ومع هذا يمكن القول بأن التجربة الإخشيدية قد أتاحت للشعب المصرى عددا من السنوات عاشها بعيدا عن العواصف التى هزت بقية أجزاء الدولة العباسية فى ذلك الحين. فلقد شقيت الجزيرة العربية والشام والعراق بغارات القرامطة. وهددت الدولة البيزنطية حدود مملكة الإسلام من الشمال، واجتاحتها فى مواضع، على حين بقيت مصر هادئة تجرى الحياة فيها على مألوف عهدها فى تلك العصور من التشابه والتكاسل. والأمر الذى لاشك فيه أن محمد بن طغج الإخشيد كان حريصا على الدفاع عن مصر والابتعاد بها عن

١٢٦- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٤١٦.

١٢٧- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٩٩؛ ابن إياس، نشق الأزهار فى عجائب الأمصار، باريس ١٨٠٧، ص٣٧؛ عمر طوسون، مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الان، الإسكندرية ١٩٣١، ص ٥٢.

١٢٨- أبو صالح الأرمنى، تاريخ، المعروف بكنائس وأديرة مصر، اكسفورد ١٨٩٥، ص ٣٠.

١٢٩- A.Grohmann, Arabic Papyri in Egyptian Library, Cairo, 1936, IV, pp.47, 69-76.

١٣٠- المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٢١٣.

١٣١- انظر على سبيل المثال ابن سعيد، المغرب، ص ١٤ - ٣٦؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٥٦.

١٣٢- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ١٣٧ - ١٣٨.

١٣٣- المقريزى، إغاثة الأمة، ص ١٣ - ١٤.

المعمعة الدائرة، وضحى فى سبيل ذلك بمعظم الشام فلم يحتفظ منه إلا بالرملة وهى كما نعلم مفتاح مصر من ناحية الشام(١٣٤).

وهكذا تشترك الدولة الإخشيدية مع الدولة الطولونية فى أمور وتختلف عنها فى أمور أخرى. أما وجه الشبه بين الدولتين فإنهما أول تجربتين هامتين فى تاريخ مصر الإسلامية هما تجربة الاستقلال الذاتى وتكوين دولة لها كل مقومات الدول بعد قرون طويلة من التبعية سواء قبل الفتح العربى أو بعده، كما أن عمر الدولتين متقارب. وثالث أوجه الشبه أن هاتين الدولتين قامتا على كتفى رجلين طموحين استطاعا بمجهودهما وكفاءتهما السياسية ومقدرتهما الحربية أن يحققا ما يريدان(١٣٥).

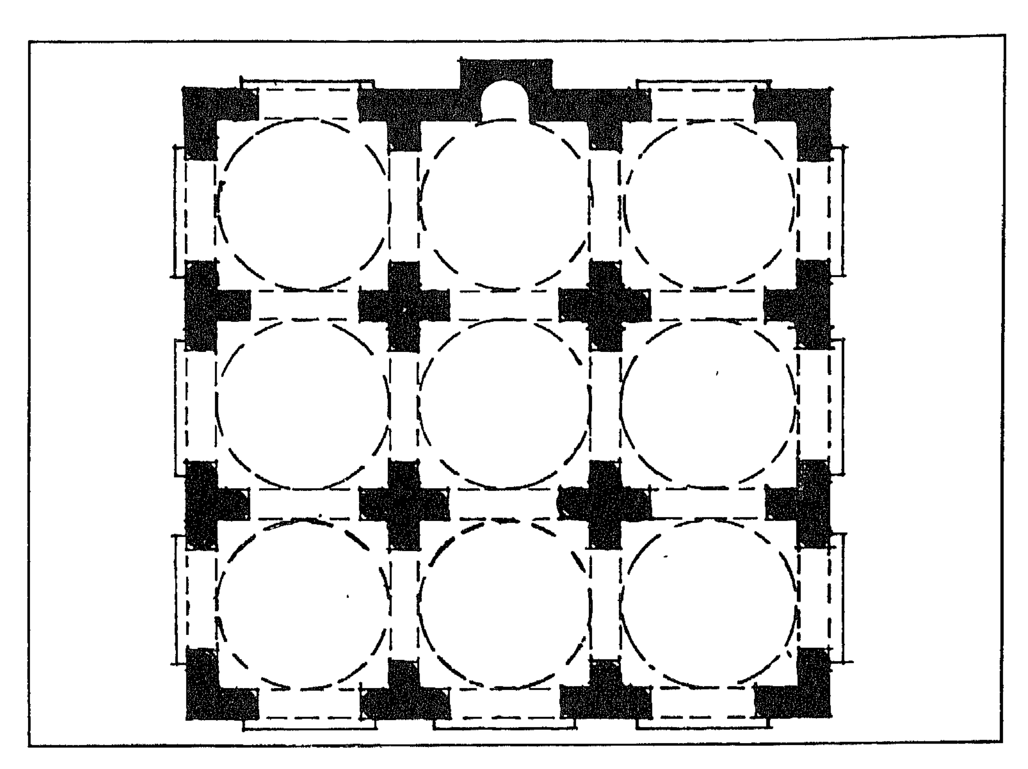
بيد أن وجه الخلاف بين الدولتين وبين الرجلين واضح كما سبق أن نوهنا، فالدولة الطولونية شهدت البلاد فى عهدها نهضة عمرانية ورخاء ماديا وأمنا، وذلك على العكس من الدولة الإخشيدية التى لم تخلف وراءها أثرا عمرانيا. كذلك لم يكن ابن طغج على ثقافة واتساع ذهن أحمد بن طولون، ولم يرزق شيئا من مواهبه. هذا عدا جشعه إلى المال وقلة تعففه وتطلعه إلى ما فى أيدى الناس(١٣٥).

بقى أن نشير إلى أن العصر الإخشيدى على قصره قد شهد تشييد العديد من العمائر التى لم يصلنا منها سوى مشهد آل طباطبا الذى يرجع إلى سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٣م. وهو يقع على بعد خمسمائة متر غربى مشهد الإمام الشافعى وعلى نحو مائتين وثلاثين مترا شمالى حمامات عين الصيرة بالقاهرة(١٣٦)، وهو عبارة عن مساحة مستطيلة غير منتظمة الشكل يبلغ طولها نحو ثلاثين مترا، وعرضها نحو عشرين مترا، يشغل طرفها الجنوبى قبتان ويحيط بها جدار به مدخل فى الجهة الشمالية الشرقية، يوجد على يساره حجرة حديثة البناء مربعة الشكل يعلوها قبة، تضم بداخلها بئرا كانت تغذى المشهد بالمياه، يتصل بها بناء مستطيل الشكل يضم ست غرف يعلوها قباب وأقبية بعضها متقاطع تضم مقابر أسرة طباطبا، تفضى من جهتها الغربية إلى مصلى مربع الشكل يبلغ طول ضلعه ثمانية عشر مترا مشيد من الآجر يشتمل على ثلاث بلاطات بواسطة صفين من الدعامات

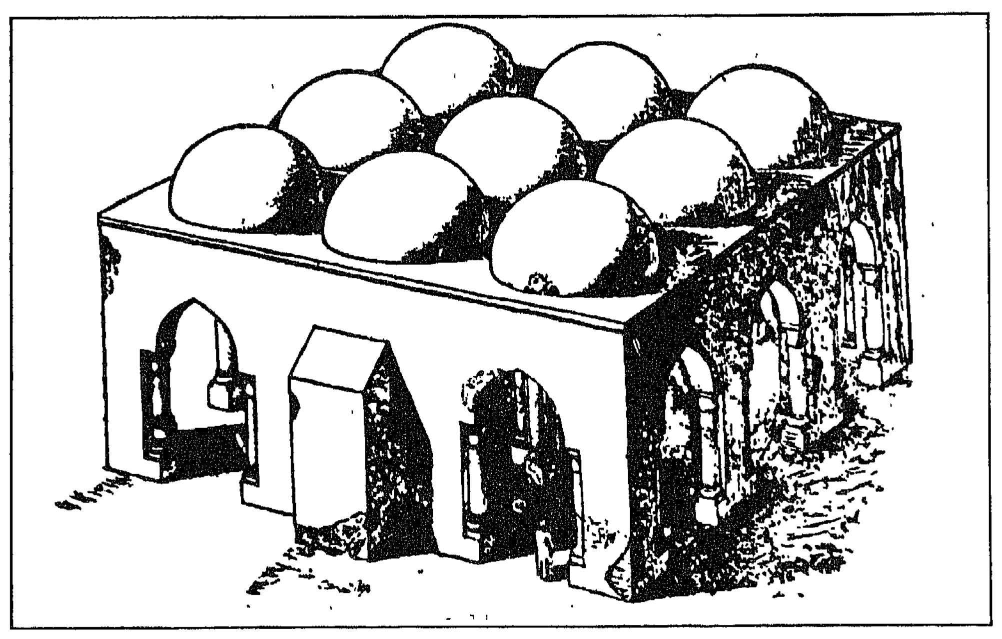
١٣٤- حسين مؤنس، تاريخ مصر، ص ٤١٦.

١٣٥- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، جـ١، ص ٧٠.

١٣٦- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٢٩٩؛ سعاد ماهر محمد، مساجد مصر، جـ١، ص ١٦٣؛ عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، القاهرة ١٩٦٩، ص ٣٤٤.



شكل (٨) مشهد طباطبا، مسقط أفقى، عن فريد شافعى.



شكل (٩) مشهد طباطبا ، منظور لحالته الأصلية، عن فريد شافعى.

ذات أعمدة ملتصقة فى الأطراف الأربعة على عكس الحال بالنسبة لدعامات الجامع الطولونى ذات الأعمدة المخلقة فى الأركان الأربعة. ويغطى المصلى تسع قباب، بكل بلاطة ثلاث منها. كما يتصدر الجدار الشرقى محراب بسيط له بروز خارجي. ويشبه هذا المشهد فى تصميمه، مشهد السبعة والسبعين وليا بأسوان وكذا مئذنة بلال بالقرب من السد العالى(١٣٧)، مما دفع كريزويل عالم العمارة الإسلامية الراحل، إلى نسبته إلى سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٣م(١٣٨)، أى إلى سنة وفاة الشريف طباطبا الأصغر حسبما ورد فى تاريخ ابن الزيات(١٣٩) الذى أشار إلى أسماء كل من دفن فى هذا المشهد من أسرة طباطبا من بينهم عبد الله بن أحمد أخو طباطبا الأصغر الذى توفى سنة ٣٤٨هـ/ ٩٥٩م(١٤٠) والذى كانت تربطه علاقات وثيقة مع كافور، فقد اعتاد أن يبعث إلى كافور كل يومين بصحنين من الحلوى ورغيف فى منديل مختوم. فحسده بعض الأعيان وقال لكافور إن إرسال الرغيف إلى الأمير أمر لا يليق، فأرسل كافور إلى الشريف العلوى يسأله أن يعفيه من الرغيف، فأدرك عبد الله أنهم حسدوه وقصدوا إبطال عادته فذهب إلى كافور وقال له.!! أيدك الله إنا لا ننفذ الرغيف تطاولا ولا تعاظما، وإنما هى صبية حسنية تعجنه بيدها وتخبزه فنرسله على سبيل التبرك فإذا كرهته قطعناه فقال كافور «لا والله لا تقطعه ولا يكون قوتى سواه». وعاد العلوى إلى ما كان عليه من إرسال الحلوى والرغيف(١٤١).

ومن المنشآت الإخشيدية الدارسة تتحدث المصادر التاريخية عن قصر المختار والبستان الذى شيده الإخشيد فى جزيرة الروضة سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م، وكان يفاخر به أهل العراق(١٤٢). وهناك أيضا البستان الذى أنشأه شمالى الفسطاط والذى عرف فيما بعد باسم البستان الكافورى(١٤٣)، وأصبح جزءا من مدينة القاهرة الفاطمية واتخذه الفاطميون متنزها لهم(١٤٤). وتشير الرويات التاريخية أيضا إلى العديد من المساجد التى

١٣٧- سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص ١٦٣.

١٣٨- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, I, pp. 11-15, figs 3-6, pl. 3a,b.

١٣٩- ابن الزيات، الكواكب السيارة، ص ٦٣.

١٤٠- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٣٢٦؛ ابن الزيات الكواكب السيارة، ص ٦٠ - ٦١.

١٤١- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٣٢٦؛ ابن الزيات، الكواكب، ص ٦١؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الاخشيديين، ص ١٤٣.

١٤٢- ابن سعيد، المغرب، ص ١٣ - ١٤.

١٤٣- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٥.

١٤٤- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٥٧.

شيدت إبان هذه الفترة ومنها مسجد الريح، ومسجد عبد الله، ومسجد الزمام ومسجد ابن عروس، ومسجد الأقدام، ومسجد موسى[١٤٥]. ومسجد الفقاعى فى سفح جبل المقطم وقد بناه كافور[١٤٦]. ويفهم كذلك من هذه الروايات أن كافورا شيد بعض القصور الجميلة فى مصر مثل دار الفيل التى عرفت بهذا الاسم لأنها كانت تضم عددا من الأفيلة وقد سكنها من سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م إلى أن توفى سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م[١٤٧]. وكان هناك أيضا البيمارستان الذى ينسب إلى الإخشيد ويعرف فى المراجع باسم البيمارستان الأسفل تمييزا له عن المارستان الطولونى[١٤٨]. الذى ينسب خطأ إلى كافور فى سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م. ويجب ألا ننسى كذلك الجوسق الذى شيده فى القرافة الوزير أبو بكر محمد بن على المادرائى وكان على هيئة الكعبة. وكان الناس يجتمعون عنده فى الأعياد ويوقد كله فى ليلة النصف من شعبان ويجتمع القراء حوله لقراءة القرآن[١٤٩]. هذا عدا العديد من القيساريات لبيع المنسوجات[١٥٠] التى كان يحبس دخلها على البيمارستان الاخشيدى[١٥١].

ومن العمائر الإخشيدية الدارسة نشير فى النهاية إلى السبع سقايات التى شيدها الوزير جعفر بن الفرات فى سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م لجلب الماء إلى سكان مدينة الفسطاط فى موسم الجفاف، من منطقة الروضة وحفر لها بئرا لينقل منها الماء إلى تلك السقايات التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين التى كانت بخط الحمراء ونقش عليها النص التالى «بسم الله الرحمن الرحيم. لله الأمر من قبل ومن بعد وله الشكر، وله الحمد ومنه المن على عبده جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات، وما وفقه له من البناء لهذه البئر وجريانها إلى السبع سقايات التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين وحبسه وسبله وقفا مؤبدا لا يحل تغييره ولا العدول بشئ من مائه، ولا ينقل ولا يبطل ولا يساق إلا إلى

١٤٥- ابن زولاق، أخبار سيبويه المصرى، نشره محمد إبراهيم سعد وحسين الديب، القاهرة ١٩٣٣، ص ٣٢، ٣٦، ٤١، ٤٤، ٥٦.

١٤٦- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٤٥٦.

١٤٧- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١٢٥؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٣١.

١٤٨- ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ٩٩.

١٤٩- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٤٥٣.

١٥٠- الكندى، الولاة والقضاة، ص ٥٦٢.

١٥١- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٤٤.

حيث مجراه السقايات المسبلة، فمن بدله بعدما سمعه فإنما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم، وذلك فى سنة خمس وخمسين وثلثمائة وصلى الله على نبيه محمد وآله وسلم».

وبمرور الوقت تخربت تلك السقايات وبنى فوق البئر المذكورة، وتولد فيها كثير من الوطاويط، فعرفت ببئر الوطاويط(١٥٢).

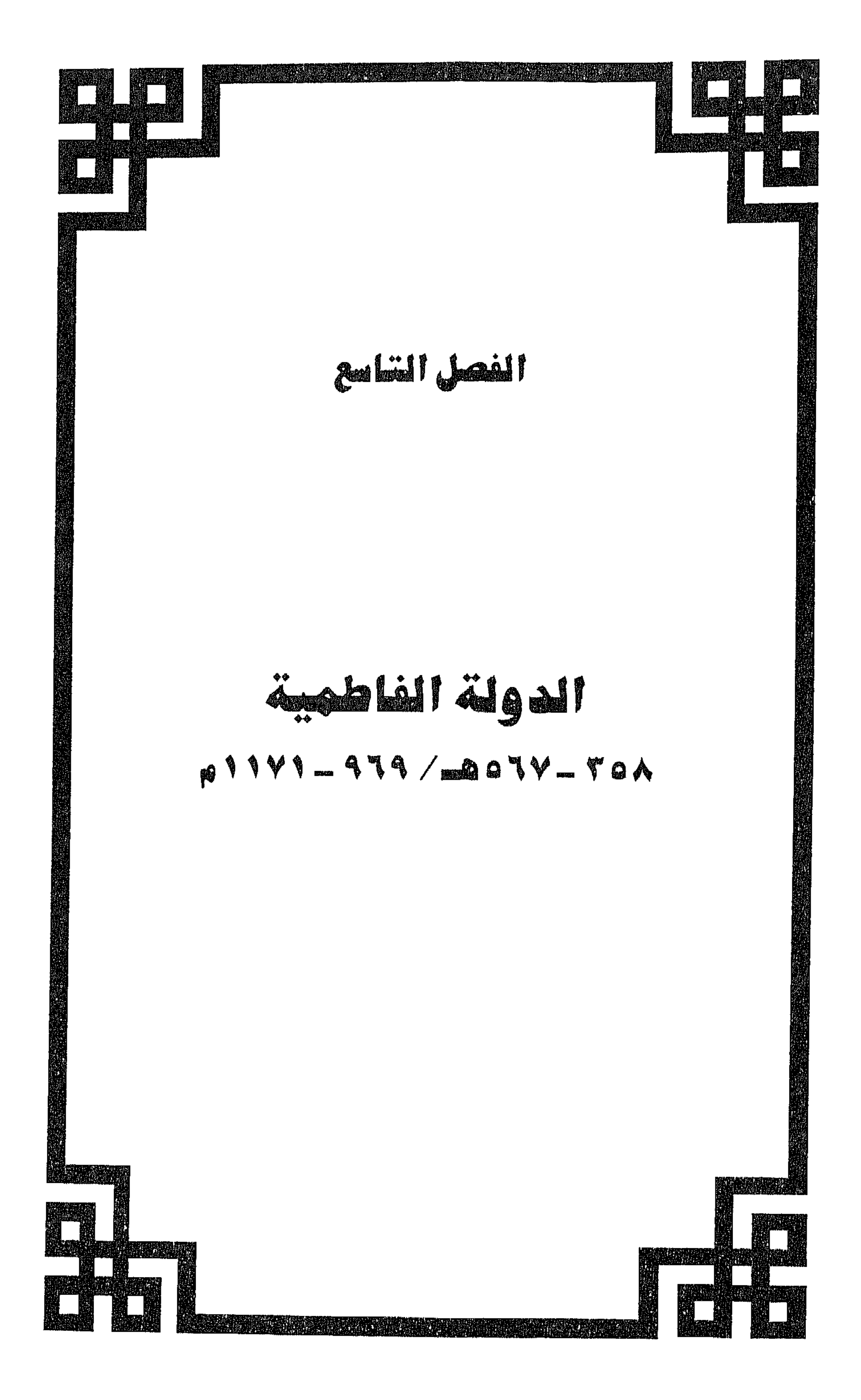
وقد عثر بالفعل على لوحة حجرية كبيرة فى حى الصليبة عند مدخل الشارع الصغير الذى يصل شارع الصليبة بجامع أحمد بن طولون، والذى كان يعرف باسم عطفة بئر الوطاويط، تهشم أغلبها ولم يبق منها سوى ثلاثة أسطر(١٥٣) تؤكد رواية المقريزى.

ثبت بأسماء حكام الدولة الإخشيدية

١	محمد بن طغج الإخشيد ٣٢٣هـ / ٩٣٤م
٢	أبو القاسم أنوجور ٣٣٤هـ/ ٣٤٦م
٣	أبو الحسن على بن الإخشيد ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م
٤	أبو المسك كافور ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م
٥	أبو الفوارس أحمد بن على ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م.

١٥٢- المقريزى، الخطط، جـ٢. ص ١٣٥.

١٥٣- G.Wiet, Materiaux Pour un corpus inscriptionum arabicarum, Le Caire, 1930, IV, pp. 91-94.



الفصل التاسع

الدولة الفاطمية

٣٥٨ - ٥٦٧هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م

ينسب الفاطميون إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ، وزوجة على بن أبى طالب عن طريق جعفر الصادق، وولده إسماعيل، وهم بذلك من الشيعة الإسماعيلية[1].

ولقد اختلف المؤرخون فى وقت ظهور الشيعة كفرقة دينية سياسية، إذ ذكر النوبختى أحد كتاب القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى «أنهم فرقة على بن أبى طالب، المسمون بشيعة على، وأنهم ظهروا فى زمان النبى ﷺ وبعده وعرفوا بانقطاعهم لعلى والقول بإمامته[2]». على حين أشار ابن النديم فى كتابه الفهرست أن هذه التسمية ظهرت للمرة الأولى عندما حارب على طلحة والزبير، اللذين أبيا إلا الطلب بدم عثمان بن عفان واتهما عليا به، فتسمى من اتبع عليا فى قتالهما بالشيعة، وكان على يقول: شيعتى[3].

والحق أن عليا كان يطمع فى الخلافة منذ اللحظة الأولى التى تلت وفاة الرسول عليه السلام[4]، ولكن المنصب فاته باختيار أبى بكر الصديق رضى الله عنه لمنصب الخلافة لما له من مميزات، لعل أهمها أن النبى ﷺ كان قد أنابه عنه فى الصلاة بالمسلمين عندما أعجزه مرض الموت عن القيام بتلك المهمة[5].

وكان من الطبيعى ألا يرضى على بذلك وشايعه فى موقفه كثيرون مما أفضى إلى حدوث الانقسام بين المسلمين[6]، ولكن بفضل سياسة أبى بكر، وحزم عمر، ظلت بذور الانقسام مكبوتة لا تقوى على الانطلاق إلا فى عصر عثمان بن عفان الذى أدت سياسته إلى نوع من القلق، تطور فيما بعد إلى الفتنة التى أودت بحياته وأدت إلى مقتله[7]. وتولى معاوية زعامة المعارضة تحت زعم المطالبة بثأر عثمان والانتقام من قتلته ومن حماة هؤلاء القتلة[8]، إلا أن هذه الحجة التى اتخذها معاوية شعارا ليثير بها شعور المسلمين على على ابن أبى طالب وأتباعه، لم تكن إلا شعارا وهميا اختفى وراءه الصراع السياسى القديم

١- النوبختى، فرق الشيعة، صححه وعلق عليه محمد صادق، النجف ١٩٣٦، ص ٧٣.

٢- النوبختى، فرق الشيعة، ص ٢ ، ١٧ - ١٨.

٣- ابن النديم، الفهرست، تحقيق فلوجل، ليبزج ١٨٧١ - ١٨٧٢ ، جـ١ ، ص ١٧٥.

٤- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، فى تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثانى، ص ٤٢٠.

٥- ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة، القاهرة ١٩٣٧ ، جـ١ ، ص ٦ ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت ١٩٥٧ ؛ جـ٣، ص ١٧٩ ؛ السيوطى، تاريخ الخلفاء، بيروت ١٩٦٩، ص ٥٨.

٦- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ١٦ ، ١٧ ؛ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص ٢٠٢.

٧- المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٨، جـ٢، ص ٣٤٦؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص ١٧٨ - ١٧٩.

٨- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، جـ١، ص ١٣٣؛ الاصفهانى، الأغانى، طبعة بولاق، جـ١٥، ص ٧٠، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ٣١٤ ؛ يوسف العش، الدولة الأموية، دمشق ١٩٨٥، ص٨٥.

الذى كان على أشده بين بنى أمية وبنى هاشم قبل الإسلام من أجل السيادة[٩]، ولما ظهر محمد ﷺ كان بنو أمية بطبيعة الحال من أشد الناس عداوة له. وكان أبو سفيان يمثل قمة المعارضة لبنى هاشم، وانتهى الصراع فى مرحلته الأولى بانتصار محمد ﷺ وانتقال السيادة رغما عن بنى أمية إلى بنى هاشم لانتساب الرسول ﷺ إليهم.

وآلم بنى أمية أن ينال بنو هاشم هذا الشرف، بيد أنهم سكتوا على مضض وخاصة بعد دخولهم فى الإسلام إلى أن ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه الخلافة وكان من كبار رجال بنى أمية[١٠]، عندئذ استيقظت عوامل الخلاف من جديد والتف رجال بنى أمية حوله يوجهون سياسته كما يريدون[١١] حتى ثارت الفتنة التى أودت بحياته[١٢]، ولم يرض معاوية بن أبى سفيان عن اختيار على بن أبى طالب خليفة عقب مقتل عثمان[١٣]، وقاد النضال فى عنف وإصرار شديدين مستعملا كل ما أوتى من مكر ودهاء. فظهر فى الدولة حزبان كبيران، حزب عثمان وعلى رأسه قريبه معاوية وهم يمثلون بنو أمية، وحزب على بن أبى طالب، رأس بنى هاشم الأعداء القدامى لبنى أمية وقد عرفوا بالمتشيعين لعلى وقد انضم إلى هذا الحزب كل المتذمرين من العرب وغيرهم، ومن الموالى بوجه خاص، ووضع رجال هذا الحزب لأنفسهم مبدأ خاصا، وفلسفوا هذا المبدأ فلسفة تأثروا فيها إلى حد بعيد بنظريات الحكم عند الفرس التى كانت تؤمن بحق الملك المقدس، وحجر الزاوية فى هذا المبدأ هو عقيدتهم فى الإمامة[١٤]. وأسسوا هذه العقيدة على حديث نبوى ذكروا فيه أن الرسول ﷺ عند أوبته من حجة الوداع فى السنة العاشرة من الهجرة/ ٦٣٢م قام بالقرب من غدير خُمّ، وهو مكان بين مكة والمدينة، خاطبا فى الحجاج بقوله: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم»، قالوا: «بلى يارسول الله»، قال: «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من خذله[١٥]».

٩- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص ١٣؛ المقريزى، النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم، القاهرة ١٩٣٧، ص ١٨ - ٢١.

١٠- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص ٩٧، ٣٠١، ٣٠٢، ابن الاثير، الكامل، جـ٣، ص ٢٧.

١١- ابن الاثير، الكامل، جـ٣، ص ٤٤ - ٤٥.

١٢- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص ٤١١ - ٤١٤ ، ٤٤١ ؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص ٦٨ - ٧٠.

١٣- محمد جمال الدين سرور، الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية القاهرة ١٩٦٦، ص ٦٩.

١٤- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٢١.

١٥- النعمان، شرح الأخبار، مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٠٦٢ ح، ورقة ٣ - ٥، الغزالى، فضائح الباطنية، ليدن ١٩١٦، ص ٣٨، عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين فى مصر، القاهرة ١٩٧٣، جـ١، ص ٥٢؛ ظهور خلافة الفاطميين، ص٧٩.

وقد استنتجت الشيعة من هذا الحديث بأنه يتضمن مبايعة ضمنية من محمد لعلى وأن عليا وصى الرسول أوصى له بالإمامة من بعده، وأن الإمامة يجب أن تنتقل من على إلى أولاده الواحد بعد الآخر إلى يوم الدين[١٦].

وقد انتهى الصراع بين الحزبين فى موقعة صفين بالتحكيم عند أذرح بين الشام والعراق فى رمضان سنة ٣٨هـ/ فبراير ٦٥٩م[١٧] وظهر الخوارج بزعامة عبد الله بن وهب الراسبى[١٨] الذين قتلوا عليا رضى الله عنه فى رمضان سنة ٤٠هـ/ يناير ٦٦١م[١٩].

ولاشك فى أن تلك النهاية المؤلمة التى انتهت بها حياة على بن أبى طالب ونجاح خصمه عن طريق الخديعة والعنف فى الوصول إلى منصب الخلافة وتأسيس الدولة الأموية. كل ذلك زاد من شعور العطف على أهل البيت ووقف أتباع الشيعة إلى جانب أولاد على يحرضونهم على المناداة بحقهم فى الخلافة، فرشحوا أولا الحسن بن على ليلى أمر المسلمين بعد مقتل أبيه، ولكن الحسن كان رجلا بعيد النظر، ورأى أن أهل الشام ومصر والحجاز واليمن، قلوبهم مع معاوية، ورأى كذلك أن أهل العراق الذين تقاعسوا عن نصرة أبيه لا يمكن أن يعاونوه ضد معاوية[٢٠] لذلك قنع بمسالمة معاوية وتنازل عن حقه فى الخلافة حقنا لدماء المسلمين واستقر فى مدينة الرسول حيث توفى هناك سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م[٢١].

ونجح معاوية فى أن يستميل الناس ويصطفيهم لنفسه ولأسرته حتى تمكن من أن يخمد دعوة الشيعة ويسكتها مؤقتا وأخذ البيعة لابنه يزيد قبل موته[٢٢]، وبهذا استن للخلافة نظاما جديدا وحولها من الشورى إلى الوراثة[٢٣]، ولذلك تجددت الفتنة بمجرد ولاية يزيد الخلافة، وثارت أهم المدن الإسلامية وخاصة مكة والكوفة وأرسل شيعة الكوفة يطلبون

١٦- النعمان، دعائم الإسلام، تحقيق آصف بن على فيظى، القاهرة ١٩٥١ - ١٩٦٠، جـ١، ص ٥٤؛ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٨٠.

١٧- ابن حزم، الفصل فى الملل والأهواء والنحل، القاهرة ١٣٢١هـ، جـ٤، ص ١٥٦.

١٨- البغدادى، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، القاهرة ١٩١٠، ص ٥٧ .

١٩- ابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص ١٩٦؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، القاهرة ١٩٧٥، جـ١، ص٢٧١.

٢٠- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٢٢.

٢١- محمد جمال الدين سرور، الحياة السياسية فى الدولة العربية، ص ٩٣.

٢٢- ابن الأثير، الكامل، جـ٣، ص ٥١١.

٢٣- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ص ٣٤٤.

حضور الحسين بن على إليهم[٢٤]، ويحرضونه على المطالبة بالخلافة فهو أحق بها من يزيد ابن معاوية، وأحسن الحسين الظن بأهل الكوفة وسارع بالسير إليهم[٢٥]، غير أنهم تخلفوا عن نصرته وتقدم عبيد الله بن زياد، عامل يزيد على العراق، لمقاتلته ولم يستطع الحسين أن يصمد أمامه بجيشه القليل[٢٦]، فهزم هزيمة نكراء وقتل قتلة شنيعة فى موقعة كربلاء سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م، بعد أن قاسى كثيرا من شدة العطش، وبعد أن قتل كل رجاله، وحمل رأسه بعد ذلك إلى يزيد[٢٧].

وجاءت كارثة كربلاء لتزيد من مضاعفة شعور العطف على آل البيت، فقد أصبح الحسين أبا للشهداء، وأصبحت كربلاء رمزا للاستشهاد، وهب الشيعة فى كل مكان يطالبون بثأر الحسين[٢٨] ولهذا نرى أن النزاع بين الأمويين والعلويين قد اشتد واحتدم بعد مقتل الحسين، وزاد اضطهاد الخلافة الأموية للشيعة، وأعلنت سب على ولعنه فى الخطب على منابر المساجد[٢٩]، واختاروا له اسم أبى تراب، وحقروا الشيعة وسموهم الترابية[٣٠].

وقد استفاد بنو العباس، وهم فرع آخر من البيت الهاشمى، من هذه الحالة ومكروا بالشيعة العلوية، وجعلوا الدعوة للخلافة عامة شاملة، وخاصة أنهم هم أيضا من أبناء البيت النبوى، أليس العباس عم الرسول ﷺ، فلم إذن تكون الدعوة للفرع العلوى من سلالة على بن أبى طالب ولا تكون للفرع العباسى من سلالة العباس؟ ونجح العباسيون فى الدعوة لأنفسهم سرا تحت شعار الدعوة للرضا من آل محمد[٣١]، وهو شعار واسع عريض يشمل بنى العباس وبنى على جميعا. واشتد ساعد الدعوة السرية للعباسيين عندما نهض

٢٤- ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ٢٠؛ الدينورى، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١، ص٢٢٩.

٢٥- المسعودى، مروج الذهب، جـ٣، ص ٦٠.

٢٦- المسعودى، مروج الذهب، جـ٣ ص ٦١؛ الدينورى، الأخبار الطوال، ص ٢٥٠ - ٢٦٠.

٢٧- المسعودى، مروج الذهب، جـ٣، ص ٦٠ - ٦١؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ٤٦.

٢٨- ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ١٥٨، ٢١٥؛ الدينورى، الأخبار الطوال، ص ٢٨٩.

٢٩- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٧٦.

٣٠- الأصفهانى، كتاب الأغانى، جـ١٣، ص ١٦٨، ص ٦ - ٧؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى، جـ٢، ص ٦٩ - ٧٠، ومع هذا فقد ذكر الأصفهانى فى مقاتل الطالبين، النجف ١٣٥٣هـ ص ١٥ أن الرسول ﷺ هو الذى أطلق تلك التسمية على على عندما وجده فى المسجد راقدا وقد زال رداؤه، وأصابه التراب، وأن تلك التسمية كانت أحب التسميات إلى على.

٣١- ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ٣٠٧.

بها أبو مسلم الخراسانى[٣٢]، حتى انتهى الأمر بسقوط الخلافة الأموية سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م وقيام الخلافة العباسية[٣٣].

وأخيرا أفاق العلويون وأدركوا أن بنى العباس قد خدعوهم عندما جعلوا الدعوة للرضا من آل محمد، دون تحديد لاسم أو فرع[٣٤]. ولم يرض العلويون عن تلك النتيجة الفاشلة التى آلت إليها جهودهم. وبدءوا صفحة جديدة من النضال لانتزاع حقهم فى الخلافة من أقربائهم بنى العباس. ولما كان العلويون لا يقوون على المقاومة المسلحة فى ذلك الدور، فقد اعتمدوا أساسا على الحيلة والدعوة السرية[٣٥]، ولم يتركوا فرصة إلا اغتنموها للثورة المسلحة ضد العباسيين، حينا فى الحجاز[٣٦] وأحيانا فى جنوب العراق. وفى هذه الثورات المسلحة سقط شهداء جدد من زعماء العلويين فى باخمرا[٣٧] وفخ وغيرها من المواقع. واتصفت الموقعة الأخيرة بالذات قرب مكة سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م بالعنف[٣٨].

وهكذا عنف العباسيون بالعلويين أضعاف ما كان يفعل بهم الأمويون وأطلقوا على بنى على الطالبيين[٣٩] وأظهروا أن أبا طالب مات كافرا[٤٠]، كما لعنوا عليا[٤١]، ثم تتبعوا الذرارى العلوية وقتلوهم[٤٢]، ولكن الشيعة ثابروا وكان قد كثر عددهم لكثرة أفراد آل على

٣٢- ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

٣٣- المقريزى، النزاع والتخاصم، ص ٥٠.

٣٤- عبدالمنعم ماجد، التاريخ السياسى، جـ٢، ص ٣٢٦؛ ظهور خلافة الفاطميين، ص٧٧، العصر العباسى الأول، جـ١، ص ٤٠.

٣٥- أى لجأوا إلى التقية أو التستر انظر، الدينورى، الأخبار الطوال، ص ٣٣٦.

٣٦- انظر فتنة محمد النفس الزكيه الذى قتله القائد العباسى قحطبة وحز رأسه فى ١٤ رمضان سنة ١٤٥هـ/ فبراير ٧٦٣م فى موضع بالمدينة يقال له أحجار الزيت. الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٩، ص ٢٢٨، مجهول، العيون والحدائق فى اخبار الحقائق، بريل ١٨٦٩، ص ٢٤٥؛ ابن طباطبا، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت ١٩٦٠، ص ٣٠.

٣٧- انظر الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، جـ٩، ص ٢٠٦ ؛ عبد المنعم ماجد، العصر العباسى الأول، جـ١، ص ٩٢ - ٩٦.

٣٨- مجهول، العيون والحدائق، ص ٢٨٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٢، ص ٥٩. وعن هذه الحركة انظر عبد المنعم ماجد، العصر العباسى الأول، جـ١، ص ١٨١ - ١٨٧.

٣٩- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٧٨.

٤٠- آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٨٨.

٤١- المقريزى، النزاع والتخاصم، ص ٦٤.

٤٢- حسين الهمدانى، بحث تاريخى فى رسائل إخوان الصفا وعقائد الإسماعيلية، بومباى ١٩٣٥، ص١٥.

وصارت كل فرقة تدعو إلى إمام منهم حتى بلغت فرقهم ثلثمائة فرقة(٤٣). وكانت أهم هذه الفرق فى العصر العباسى، الفرقة التى قالت بإمامة إسماعيل(٤٤) بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين، بن الحسين بن على بن أبى طالب(٤٥). وكانت تؤمن مثل غيرها من فرق الشيعة إيمانا لاحد له بوصاية النبى ﷺ عند غدير خم لتبقى الإمامة فى بيت على إلى يوم الدين(٤٦)، وكانت عقيدتها: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، على ولى الله(٤٧)». بيد أنها تميزت عن غيرها بأن الإمامة تكون بالنص أو التنصيص(٤٨) وهو يعنى ضرورة تعيين الإمام الحالى لخلفه، وأن الإمامة تكون فى الأعقاب ولا ترجع القهقرى(٤٩)، فلا تنتقل من أخ إلى أخيه، بل من الأب إلى الابن. وعلى هذا فإن موت إسماعيل سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م فى حياة أبيه جعفر الصادق(٥٠)، جعل النص ينتقل إلى ابنه محمد(٥١) وليس لاخى إسماعيل المعروف بموسى الكاظم(٥٢). ولذلك عرفت بالإسماعيلية كما عرفت أيضا بالسبعية(٥٣) باعتبار أن إسماعيل كان يمثل الإمام السابع منذ على(٥٤). وأمام اضطهاد العباسيين، اضطرت هذه الفرقة إلى الدعوة السرية، تقية(٥٥) وصيانة لأشخاص الأئمة.

ومنذ أن تستر محمد بن إسماعيل أرسلت الفرقة الإسماعيلية دعاتها إلى كل مكان(٥٦) مثل البحرين ومصر واليمن والهند والمغرب(٥٧)، وقد كتب لها الفوز فى الأخيرة

٤٣- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٧٩.

٤٤- النوبختى، فرق الشيعة، ص ٧٣.

٤٥- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٩٣.

٤٦- النعمان، شرح الأخبار، ورقة ٣ - ٥؛ دعائم الإسلام، جـ١، ص ٥٤.

٤٧- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٨٠.

٤٨- ابن حزم، الفصل فى الملل، ص ١٠٩.

٤٩- ابن حزم، الفصل فى الملل، ص ١٤٦.

٥٠- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ١٨٥.

٥١- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٩٣.

٥٢- ابن حزم، الفصل فى الملل، ص ١٤٥ - ١٤٦؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ١٥٨ - ١٥٩.

٥٣- ابن حزم، الفصل فى الملل، ص ١٤٦؛ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٨٠.

٥٤- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٩٣؛ عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين، جـ١ ص ٩.

٥٥- النوبختى، فرق الشيعة، ص ٦٤ - ٦٥.

٥٦- S.De Sacy, Recherches Sur l'initiation a la secte ismaelienne, JA, 1824, p.302.

٥٧- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٨٣.

حيث استطاعوا إنشاء خلافتهم هناك بعد أن قام بالدعوة لهم فى المغرب أبو عبد الله الشيعى الصنعانى(٥٨) ونجح فى أن يتغلب على الأغالبة ويدخل دار ملكهم فى رقادة سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م(٥٩)، واستنقذ الإمام عبيد الله المهدى الذى كان قد قبض عليه هو ومن معه فى سجلماسة فى جنوب المغرب وسار به إلى أن نزل فى رقادة فى ٢٩ ربيع الآخر سنة ٢٩٧هـ/ ١٥ يناير ٩١٠م وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين(٦٠) وأقام خلافته التى اشتهرت بالعلوية والفاطمية نسبة إلى فاطمة الزهراء(٦١) وكذا بالعبيدية(٦٢) نسبة إلى عبيد الله.

ولما استقر حكم الفاطميين فى شمال أفريقيا، عملوا على الاستيلاء على مصر حتى يمكنهم من هناك مد سيطرتهم على بلاد المشرق، وظلوا أكثر من نصف قرن يتحينون الفرصة حتى واتتهم أخيرا فى خلافة المعز الذى انتهز فرصة موت كافور وأخذ يستعد لغزو مصر، فأمر بحفر الآبار على طول الطريق إليها، وإعداد الجيش الذى عقد لواءه لجوهر الصقلى(٦٣)، كما بعث إلى دعاته بالبلاد المصرية أعلاما وأمرهم أن يوزعوها على الجند الذين يؤيدون بيعته لينشروها إذا ما اقتربت عساكره من مصر(٦٤).

ولقد ساعد على نجاح هذه الحملة أمور كثيرة لعل أهمها ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر والتى استطاعت أن تصد الحملات الفاطمية السابقة، وكذا ضعف الدولة الإخشيدية صاحبة السلطان الفعلى فيها(٦٥). أما الخلافة العباسية فقد بدأت

٥٨- المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ٧٤.

٥٩- ابن حماد، أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، تحقيق Vonderheyden ، الجزائر، باريس ١٩٢٧، جـ١، ص ٧.

٦٠- المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ٩٢.

٦١- ابن حجر، الإصابة فى أخبار الصحابة، القاهرة ١٣٢٨هـ، جـ٤، ص ٣٨٠؛ السجلات المستنصرية، تقديم وتحقيق عبد المنعم ماجد، القاهرة ١٩٥٤، ص ١٠٤، ١٠٩؛ Massignon, Fātima bint al- Husayn et l'origine du nom dynastique Fatimites. Akten des XXIV. Intern. Orientalisten kongresses, Münich, 1957, p.368.

٦٢- السيوطى، تاريخ الخلفاء، القاهرة ١٩٠٣ ، ١٩٠٤، ص ٢١٤ ؛ أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، نشره عبد الله بن السعود، القاهرة ١٢٨٧ - ١٢٨٨هـ، جـ١، ص ٢٠١؛ ابن القطان، جزء من كتاب نظم الجمان فى أخبار الزمان، تحقيق محمود مكى، الرباط ١٩٦٤، ص ٢٣٩.

٦٣- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، جـ١، ص ٧٣ - ٧٤.

٦٤- المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١٤٧؛ محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية فى مصر، القاهرة ١٩٧٩، ص ٦٦.

٦٥- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٣٦٥.

عوامل الضعف تتسلل إلى كيانها فى العصر العباسى الثانى واستبد الأتراك بشئون الحكم حتى غدا الخلفاء كالدمى فى أيديهم يحركونهم كيف شاءوا حتى عرفوا فى المراجع التاريخية بالمستضعفين(٦٦) وانطبق عليهم قول الشاعر:

خليفة فى قفص	بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له	كما تقول الببغا(٦٧)

واجترأ كل طموح وراغب فى السلطة إلى الثورة على الخلافة، فقامت ثورة الزنج فى إقليم البصرة والجزء الجنوبى الغربى من فارس، ثم تلتها ثورة القرامطة الذين ملكوا بادية الشام وجنوبه، بل وهددوا حدود مصر الشرقية وعاثوا فى الجزيرة العربية فسادا، واستلبوا الحجر الأسود حيث بقى معهم مدة اثنين وعشرين عاما، كما سبق أن نوهنا من قبل، ولم يردوه إلا بعد أن دفع لهم الخليفة العباسى مبلغا كبيرا من المال، وصاحب هذه الثورات انفصال الإطراف وقيام دول مستقلة فيها(٦٨).

ففى الشرق قامت الدولة الصفارية والسامانية والطاهرية(٦٩)، وفى الغرب قامت الدولتان الطولونية والإخشيدية، وفى قلب الخلافة نفسها فى العراق قامت دول ملكت زمام الحكم فى أيديها، ففى الشمال قامت الدولة الحمدانية فى الموصل وحلب، وفى العاصمة بغداد قامت الدولة البويهية فى سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م واستبدت بأمور الخلافة جميعا(٧٠).

فى هذه الظروف خرج جوهر من القيروان بعد أن ودعه الخليفة المعز فى ربيع الآخر سنة ٣٥٨هـ/ فبراير ٩٦٩م متجها إلى مصر على رأس جيش يزيد على مائة ألف جندى، وهو عدد لم تشهده مصر منذ عهد الإسكندر(٧١) الأكبر، بدليل أن أحد المصريين وصفه عند رؤيته له بأنه «مثل جمع عرفات كثرة وعدة(٧٢)». كما صاحب الجيش أسطول

٦٦- ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨؛ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٧٤.

٦٧- ابن خلدون، المقدمة، ص ١٩؛ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٧٤؛ جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٢٨.

٦٨- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٢٨.

٦٩- عنها انظر فتحى أبو سيف، المشرق الإسلامى بين التبعية والاستقلال، الطاهريون، القاهرة ١٩٧٨، ص ٩٥ وما بعدها.

٧٠- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٤ - ١٥.

٧١- المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١٣٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٧٣؛ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٠٥.

٧٢- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٣٠.

بحرى ليقضى على أى اعتداء من قبل الروم الذين كانوا قد بدأوا يطمعون فى استعادة مصر من جديد. ووصل جوهر إلى الإسكندرية ودخلها دون قتال، فلما وصلت الأنباء إلى الفسطاط، اضطرب أهلها وتملكهم الذعر واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات أن يرسل فى طلب الصلح والأمان[٧٣]، فأرسل وفدا على رأسه الشريف أبو جعفر مسلم بن عبيد الله، وتمت المفاوضات بالفعل فى تروجه قرب الإسكندرية وكتب جوهر للمصريين أمانا[٧٤] تعهد فيه بحمايتهم والجهاد عنهم، واحترام ملتهم، ونشر الأمن، وتأمين طرق الحج، والعناية بالحالة الاقتصادية للبلاد عن طريق إصلاح السكة، كما تعهد لهم بترميم المساجد وتزينها بالفرش والإيقاد.

وكما يحدث عادة فى التاريخ فى مثل هذه المواقف لابد أن يرتفع صوت المعارضة فظهر انقسام بين الناس والجند ما بين مؤيد للفاطميين يرى فتح أبواب البلاد لهم، ومعارض يرى ضرورة مقاومة جوهر وجنوده والعمل على طردهم من البلاد، وكان يتزعمهم رجل يدعى فاتك الملقب بالأستاذ[٧٥]، الذى قال «ما بيننا وبين جوهر إلا السيف[٧٦]». وقاد المعارضة من أتباع الدولة العباسية والإخشيدية، الذين قطعوا جسور الجيزة وانتظروا جوهر وجيشه بمنية شلقان، شرقى القناطر الخيرية، إلا أن جوهر استطاع التغلب عليهم[٧٧]، واضطرت المقاومة الإخشيدية والكافورية إلى الهرب إلى الشام[٧٨]، وشاع الذعر ثانية بين الناس فى الفسطاط وطلبوا إلى الشريف أبى جعفر مسلم أن يسأل جوهر إعادة الأمان، ففعل وأعيد الأمان[٧٩] وهدأت النفوس، وخرج الوزير جعفر بن الفرات ومعه الأشراف ووجوه البلد يوم السابع عشر من شعبان سنة ٣٥٨هـ/ الثالث من يوليو ٩٦٩م لمقابلة جوهر وتهنئته بسلامة الوصول ونجاح الفتح[٨٠].

٧٣- محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية فى مصر، ص ٦٧.

٧٤- المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١٤٨.

٧٥- الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء البطاركة، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٦٤٣٤ح، جـ٣، ورقة ٣٨ ب.

٧٦- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٠٧.

٧٧- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٢٠٠؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١٥٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٣١.

٧٨- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٠٧.

٧٩- المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١٥٦؛ محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية، ص ٦٨.

٨٠- المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١٥٧ - ١٥٨.

ولما دخل جوهر مصر وجاز بالفسطاط وأناخ حيث موضع القاهرة الآن[٨١]. وكان مناخه فى منطقة رملية تقع فى الشمال الشرقى من مدينة القطائع ولم يكن بها سوى بستان الإخشيد، المعروف بالكافورى، ودير للنصارى، يعرف بدير العظام، فى المكان الذى يشغله الآن الجامع الأقمر، وحصن صغير يعرف بقصر الشوك، بنى على أنقاضه أحد القصور الفاطمية الذى سمى أيضا بقصر الشوك[٨٢].

فى هذه البقعة اختط جوهر فى نفس الليلة موقع القصر الذى قرر أن يستقبل فيه المعز تنفيذا لأوامره، وبنى سورا خارجيا من اللبن، اكتشف فى صباح اليوم التالى تعرجات غير معتدلة، فلم تعجبه، بيد أنه تركها على حالها واستمر فى البناء حتى أكمله. كما حفر خندقا من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام القرامطة[٨٣] لهذا الحصن الذى أطلق عليه اسم المنصورية[٨٤] تقربا إلى خليفته المعز بإحياء ذكرى والده المنصور بنصر الله. وظلت هذه المدينة أو الحصن تعرف بهذا الاسم حتى قدم المعز لدين الله إلى مصر بعد أربع سنوات من الفتح فسماها القاهرة[٨٥]. وقد روى بصدد ذلك أن المعز قال لجوهر عند خروجه لفتح مصر أمام مجمع من شيوخ كتامة «والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، ولتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب، ولتنزلن فى خرابات ابن طولون، وتبنى مدينة تسمى القاهرة، تقهر الدنيا[٨٦]».

كذلك رأى جوهر ألا يفاجئ السنيين فى مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمى الشيعى خشيه إغضاب المصريين، ومن ثم فقد عول على بناء مسجد يكون رمزا لسيادة الفاطميين على مصر. وشرع فى بناء الجامع الأزهر فى ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ/ مارس ٩٧٠م، وانتهى من تأسيسه وأقيمت فيه أول جمعة فى ٧ رمضان سنة ٣٦١هـ/ يونيو ٩٧٢م[٨٧].

وباستكمال الفتح ووضع أساس القاهرة، وبناء القصر لنزول الخليفة، وتشييد

٨١- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٣١.

٨٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٣٤.

٨٣- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٦١.

٨٤- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٧٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٤١.

٨٥- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٦٦، ٣٧٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٤١.

٨٦- المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١٦٢؛ الخطط، جـ١، ص ٣٧٨؛ جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٣٢.

٨٧- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٣٢.

الجامع، أرسل جوهر إلى المعز يدعوه للقدوم إلى مصر مقر ملكه الجديد، فغادر المعز شمال أفريقيا ودخل مصر فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢هـ/ يونيو ٩٧٢م، حاملا معه توابيت آبائه الثلاثة(٨٨): المهدى، والقائم، والمنصور، الذين تولو الخلافة قبله دلالة على عزمه النهائى على نقل مقر الخلافة الفاطمية إلى مصر، ونزل بالقصر الشرقى الكبير حيث توافدت عليه هناك جموع الناس مهنئين، فتقبل منهم ما قدموه من هدايا وتحف وأمر بإطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الإخشيديين(٨٩)، ثم تسلم المعز من قائدة جوهر دواوين مصر. وبذلك يكون جوهر قد أشرف على شئون البلاد أربع سنين تقريبا.

بدأ الفاطميون حكمهم فى مصر بداية طيبة إذ عملوا على استمالة المصريين بشتى الطرق ومن ذلك لم يسمحوا للمغاربة بالسكن فى مدينة الفسطاط وكان منادى جوهر ينادى كل عشية بألا يبقى أحد منهم فى المدينة، وتم أيضا جلد بعض المغاربة الذين ضايقوا المصريين. هذا ومن المعروف أن المغاربة قد أثاروا بعض المضايقات عقب وصول المعز إلى مصر، ولكن الخليفة أقر سكناهم خارج مصر وجعلهم بالقاهرة(٩٠) التى شيدها جوهر، ولما نزل بعضهم فى دور المصريين، أنكر المعز ذلك، بل ونقلهم بعيدا إلى عين شمس ويقال أنه ركب بنفسه إليها حتى يشاهد المواضع التى ينزلون فيها(٩١). ومع هذا فمن الصعب القول بأن الفاطميين عملوا دائما على تدليل الشعب المصرى، بل كانوا يحكمونه كما جرت العادة بذلك فى العصور الوسطى عملا بالمثل القائل «أنا الملك الزوج، والشعب زوجتى الشرعية»، كناية عن تصرف الحاكم بالشعب على هواه(٩٢).

والمتأمل لتاريخ الدولة الفاطمية يمكنه أن يميز بسهولة بين عصرين يتسم كل منهما بسمات وصفات خاصة. ففى العصر الأول الذى يمتد حوالى قرن من الزمن، وينتهى فى النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر حوالى سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م، نجد أن الخلافة قد بذلت أقصى ما تستطيع لتنظيم شئون مصر الداخلية، فنشرت الأمن فى ربوعها ووضعت النظم الإدارية الدقيقة، واهتمت بالجيش والأسطول ونمت الزراعة، ونهضت بالتجارة، وشجعت العلوم والفنون. كما امتاز خلفاء هذه الفترة الأولى بقوة الشخصية ولذا فقد كانت السلطة كلها مركزة فى أيديهم ولم يكن للوزراء سوى المكانة الثانية. وقد

٨٨- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٣.

٨٩- المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١٨٩.

٩٠- المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ٢٠٣.

٩١- ابن ميسر، تاريخ مصر، تحقيق ماسيه، القاهرة ١٩١٩، ص ٤٥؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١٩٧.

٩٢- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٢٩١.

استطاع هؤلاء الخلفاء الأوائل مد نفوذهم الخارجى إلى اليمن والحجاز والمغرب وصقلية والشام، بل وخطب لهم فى الموصل وبغداد فى بعض الأوقات[٩٣]. ولا عجب فى هذا فقد كان أولهم المعز لدين الله الذى عرف بجبار الشيعة[٩٤]، وقيل أنه كان على درجة عالية من الذكاء وإجادة اللغات المتعددة كاللاتينية واليونانية والسودانية[٩٥]. والحق أن المعز هذا قد اهتم بشئون مصر المالية اهتماما شديدا كما منع النداء بزيادة النيل كما جرت به العادة قديما منعا للبلبلة وأمر بألا يكتب بذلك إلا إليه وإلى قائده جوهر حتى إذا تم الفيضان ووصل إلى أقصاه أعلن ذلك للناس[٩٦]. ويفهم من المصادر التاريخية أنه شارك فى الاحتفال بوفاء النيل[٩٧]. كما عهد المعز بالإشراف على شئون مصر المالية إلى كل من يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن[٩٨]، فقاما بواجبهما خير قيام، وبذا زادت إيرادات الدولة زيادة ملحوظة فى وقت قصير. وأمر أيضا بإصلاح السكة إذ ضرب الدينار المعزى الذى صارت له المكانة الأولى فى المعاملات التجارية وفضل على الدينار الراضى الذى اتضع حاله وقلت قيمته وطرد من السوق شيئا فشيئا[٩٩]. وتخلص المعز كذلك من تهديد القرامطة الذين هددوا مصر برا وبحرا، ووصل أسطولهم إلى مدينة تنيس، فقاتلهم أهلها، وأخذت عدة من سفنهم وأسر عدد كبير من جنودهم[١٠٠]. والحق أن المعز أدرك أيضا منذ الوهلة الأولى ما قد تتعرض له مصر من خطر الهجوم عليها من ناحية البحر، لذلك نراه يعنى بالأسطول عناية كبيرة فشيد دارا جديدة لصناعة السفن فى المقس التى أمدت الأسطول بستمائة سفينة حربية لم ير مثلها من قبل[١٠١].

٩٣- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٣٨.

٩٤- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق العبادى والكتانى، الدار البيضاء ١٩٦٤، ص ٦١.

٩٥- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٠٣.

٩٦- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٥١٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٦١.

٩٧- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٠؛ محمد حمدى المناوى، نهر النيل فى المكتبة العربية، ص ١٥٩.

٩٨- محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية فى مصر، ص ١٤١؛ جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٣٩.

٩٩- المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ١٩٩؛ ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٤٢؛ مايسه محمود داود، المسكوكات الفاطمية بمجموعة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، ١٩٩١، ص ٤٨.

١٠٠- المقريزى، اتعاظ الحنفا، ص ٢٥٠.

١٠١- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٩٥؛ عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين فى مصر، جـ١، ص ٢٢٠.

ومات المعز فى سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٦م[١٠٢] بعد أن ترك دولة موطدة مترامية الأطراف وخلفه ابنه العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ/ ٩٧٦ - ٩٩٦م) وكان سمحا كريما وامتدت الخلافة فى عهده من المحيط الأطلسى غربا إلى الخليج الفارسى شرقا، ومن أقصى الشام شمالا إلى بلاد النوبة واليمن جنوبا، وخاف بأسه إمبراطور الدولة البيزنطية الذى بعث إليه بالرسل والهدايا طالبا الصلح والهدنة، وقد أجابه العزيز بشروط منها إطلاق الأسرى فى مملكته وأن يخطب له فى جامع القسطنطينية كل جمعة[١٠٣].

وهكذا بلغت مصر فى عهده الذروة وفاقت الخلافة العباسية قوة ونفوذا وبدأت تهدد ما بقى فى أيدى العباسيين من أملاك[١٠٤].

كذلك عرف العزيز بالتسامح مع أهل الذمة الذين نعموا فى عهده بالحرية التامة فى أداء شعائر دينهم وترميم كنائسهم، بل وبناء كنائس جديدة، ولا غرو فى ذلك فقد كانت زوجته مسيحية، ولذا فقد عين أخويها بطريركين ملكانيين فى الإسكندرية والقدس[١٠٥]. وفى عهد العزيز نمت أيضا ثروة البلاد، وزادت ثرواتها فعاش الناس فى رفاهية كما عاش الخليفة حياة كلها بذخ وترف[١٠٦] فاقتنى كثيرا من التحف وجوارح الصيد[١٠٧] وشيد لنفسه قصرا جديدا عرف بالقصر الغربى[١٠٨]، وذلك فى مقابل القصر الشرقى الكبير الذى بناه جوهر للمعز من قبل، وصار يفصل بين القصرين ميدان متسع يستخدم لعرض الجند، وإليه يرجع الفضل أيضا فى تحويل الجامع الأزهر إلى جامعة بمعنى الكلمة. ففى سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م استأذنه الوزير يعقوب بن كلس فى أن يعين به جماعة من الفقهاء للدرس والقراءة فى أوقات منتظمة مستمرة، على أن تعقد حلقاتهم بالأزهر كل يوم جمعة، وكان عددهم خمسة وثلاثين فقيها، وقد رتب لهم العزيز أرزاقا وجرايات شهرية، وبنى لهم

١٠٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٧٧.

١٠٣- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٥١ - ١٥٢.

١٠٤- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٤٠.

١٠٥- يحيى بن سعيد الأنطاكى، تاريخ أو صلة كتاب أوتيخا، ص ١٤٤ - ١٤٥.

١٠٦- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٤٠.

١٠٧- لذلك عرف بالخليفة الصياد، انظر ابن الحسين، كتاب البيزرة، تحقيق محمد كرد على، دمشق ١٩٥٢، ص ٧، ٢٤٩؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٤.

١٠٨- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٥٧.

دارا لسكناهم بجوار الجامع الأزهر[١٠٩]. كما بدأ العزيز أيضا بناء جامعه الكبير الذى أتمه فيما بعد ابنه الحاكم الذى عرف به أيضا[١١٠].

كذلك رأى العزيز أن الجيش القوى هو السياج الطبيعى لحماية هذه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف فصرف همه للعناية بالجيش حيث أدخل فيه عناصر جديدة من الترك والديلم وأخذ يعتمد عليهم ويقربهم على حساب العناصر الأخرى من المغاربة التى كانت تكون العنصر الأكبر فى الجيش مما أوجد التحاسد بينهم فدبت بين الترك والمغاربة عوامل الشقاق والنزاع مما أدى إلى قيام الفتن والحروب بينهم فجرّ ذلك الخراب والدمار على الدولة[١١١].

وقد بدا ذلك واضحا فى خلافة الحاكم الذى خلف أباه العزيز فى شهر رمضان سنة ٣٨٦هـ/ ١٨ أكتوبر ٩٩٦م، فقد انتهز المغاربة صغر سن الحاكم، الذى بويع بالخلافة وهو فى الحادية عشرة من عمره[١١٢]، وفرضوا عليه تولية شيخهم أبى محمد بن عمار الواسطة وهى أشبه بالوزارة ولقب بأمين الدولة[١١٣]، الذى أصبح الحاكم الفعلى للبلاد وقرب أبناء جنسه من المغاربة وحط من شأن الأتراك والديلم أى المشارقة، وأساء معاملتهم فهرب كثير منهم إلى الشام[١١٤] ثم اجتمع شمل هؤلاء الترك تحت زعامة أبى الفتوح برجوان الذى كان وصيا على الحاكم والذى قام بتنحية ابن عمار وتولى السلطة بدلا منه[١١٥]. وظل برجوان هذا مطلق السلطان حتى قتله الحاكم غيلة فى سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م[١١٦] بعد أن أنفذ إليه من ينبهه بقوله: «أن الوزغة – أى الحية الصغيرة، وكان برجوان قد أطلقه على الحاكم– صارت تنينا كبيرا[١١٧]». وباشر الأمور بنفسه حيث أخذ يتصرف تصرفا مطلقا فى كافة الأمور مع حداثة سنه، وكانت له أهداف فى أن يكون

١٠٩– المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٣.

١١٠– المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٧.

١١١– المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٢؛ محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية فى مصر، ص ١٠١.

١١٢– ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٧٦؛ عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، الخليفة المفترى عليه، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٥.

١١٣– المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٦؛ يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ١٨٠ – ١٨١.

١١٤– عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ٣٠.

١١٥– المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣.

١١٦– المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٤؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص ١٨٠.

١١٧– الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٥٣؛ ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨ ، ص٤٥.

الخليفة المثالى فى الخلق والحكم مما جعل سيرته فريدة فى زمانها واتهمه بعض المؤرخين بالشذوذ وعدم اتزان الفكر ونعتوا عهده بالقسوة والعنف وكثرة سفك الدماء(١١٨). وذلك رغم زهده وتقشفه الذى تجلى فى رفضه للنعيم الذى تركه له أبوه وجده إذ أخرج من قصره جماعة من حظاياه(١١٩). وأعتق سائر مماليكه من الإناث والذكور، كما أخذ من والدته وإخوته وخواصه أملاكهن وعقارهن(١٢٠) محتذيا بذلك الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى جعل زوجته تترك جواهرها لبيت مال المسلمين(١٢١).

كذلك أبطل ما كان يستعمل برسمه من الثياب(١٢٢)، ولبس الملابس الخشنة من الصوف(١٢٣)، ومركب حديدى فى رجليه(١٢٤)، وكان لون ثيابه البياض شعار الفاطميين، ثم أصبح السواد مع عمامة زرقاء، ثم جعلها أيضا سوداء زيادة فى التقشف(١٢٥). وصار يركب من غير زينة أو أبهة، بل صار يركب الحمير بدلا من الخيل(١٢٦) مخالفا عادة آبائه السابقين. ونهى عن تقبيل الأرض بين يديه وكذا تقبيل اليد، والانحناء بالسجود إلى الأرض وقد اعتبر ذلك من صنيع الروم(١٢٧)، وأمر بألا يصلى أحد عليه فى مكاتباته كما جرت به العادة من قبل(١٢٨).

والحق أن كل هذه الأمور قد قلبت الأوضاع المتعارف عليها فى عصره مما جعله فى نظر بعض المؤرخين ملتاث العقل غير متزن التفكير خاصة وقد لجأ إلى استخدام القتل كوسيلة من وسائل الحكم لسحق كل من يشك فى ولائه ولإصلاح اعوجاج الدولة بعد أن فسدت شئونها، مما جعل اسمه يخيف أى شخص وشبهوه بالأسد الضارى الذى يطلب

١١٨- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٤٠.

١١٩- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٠٦.

١٢٠- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٠٩.

١٢١- ابن الأثير، الكامل، جـ٤، ص ١٥٤؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى، جـ٢، ص ٢٥٩.

١٢٢- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٠٠؛ عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ٤٠.

١٢٣- ابن العماد، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥٣هـ، جـ٣، ص ١٩٤.

١٢٤- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٠٨.

١٢٥- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٠٥ ، ٢١٨ ؛ عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص٤١.

١٢٦- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٣، ص ٧.

١٢٧- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٠٥؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٣، ص ١٩٣؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٨.

١٢٨- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٨؛ عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين، جـ١، ص ٧٦.

فريسة وقد ساعد على ذلك أن منظره كان رهيبا، فعيناه واسعتان إذا نظر إلى إنسان ارتعد منه لعظم هيبته وكان صوته جهيرا مخوفًا[١٢٩]، حتى قيل أن عدد من قتلهم بلغوا العشرة آلاف إنسان[١٣٠] وأرجعوا ذلك إلى أنه كان يعبد كوكبى زحل والمريخ، ولاسيما أن الأخير يرمز للحرب، وأنه كان يسفك الدماء تقربا لهما[١٣١]. وجدير بالذكر هنا أن معظم من قتلهم الحاكم لم يكونوا من ضعفاء الناس وإنما من أكابر رجال الدولة مما يؤكد أن القتل عنده لم يكن إلا وسيلة من وسائل الحكم[١٣٢]. ويبدو أن سياسته هذه قد أثمرت بدليل أن الناس أصبحوا فى عهده آمنين على أموالهم فكان التجار يتركون حوانيتهم مفتوحة ولا يخافون عليها[١٣٣].

كذلك أخذ هذا الخليفة، الذى كان الدين يملك عليه كل حواسه، على عاتقه أن يقوم بالحسبة[١٣٤] فكان يصدر عدة أوامر من وقت لآخر بمنع تناول أو بيع بعض المأكولات، التى كان يترتب عليها مضار صحية وأمراض فى عصره، فمنع الناس من أكل وبيع الملوخيا، والجرجير، والقرع والمتوكلية وهى نبات للحساء، والدلينس[١٣٥] وهو نوع من الصدف لعله أم منخول، والترمس العفن، وقد أثارت مثل هذه الأوامر سخرية عدد من المؤرخين فرموه باضطراب الذهن، كما فسرها البعض على أنها تعصب مذهبى، إذ قيل أن الملوخيا كانت محببة لدى معاوية، والجرجير كان ينسب ادخاله فى الطعام للسيدة عائشة، والمتوكلية تنسب إلى الخليفة العباسى المتوكل[١٣٦].

ومن الواجبات الأخلاقية التى عمل الحاكم على حمايتها وأثارت حوله الكثير من الجدل تصرفاته إزاء شرب الخمر إذ منع شربه وصنعه وتتبع السكارى، وأمر بقطع كروم الجيزة، وديس العنب فى الطرقات تحت أرجل البقر وغرق بعضه فى النيل، كما كسر جرار العسل ودنانها[١٣٧].

١٢٩– الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٥٣ ، ٥٤ .

١٣٠– الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٥٣ .

١٣١– ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤ ، ص ١٧٧؛ عبد الله عنان، الحاكم بأمر الله، القاهرة ١٩٣٢، ص٦٠.

١٣٢– عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ٤٧ .

١٣٣– عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ٦٣.

١٣٤– ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٨٤.

١٣٥– المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦؛ ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة بولاق، جـ١، ص ٥٢.

١٣٦– عبد المنعم ماجد، الحاكم، ص ٩١.

١٣٧– المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٧٧.

كذلك حاول وضع حد لسفور النساء منعا للفتنة ما يدل على حمية نادرة، لا تقف عند نسائه، وإنما تشمل أيضا نساء رعاياه[١٣٨]، إلا أن أعداءه شوهوا حقيقة تصرفه نحو النساء وأرجعوها إلى عقدة فى نفسه ناشئة عن شغفه بالنكاح[١٣٩]، مما يجعله يميل إلى تعذيبهن مع أن تصرفه حيالهن كان متدرجا كما هو شأنه دائما إذ أمر فى أول الأمر بمنعهن من الخروج فى الليل، وكشف وجوههن وراء الجنائز[١٤٠]، فلما لم يرتدعن أصدر أوامره بمنعهن من الخروج نهائيا ولضمان تنفيذ ذلك أمر الخفافين بعدم عمل الأخفاف لهن وقد استمر هذا المنع من سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م إلى وقت خلافة الظاهر فى سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م أى حوالى سبع سنوات[١٤١]، لم يسمح خلالها إلا بخروج من دعت الضرورة إلى خروجه من النساء كالقابلة أو الغاسلة أو المرأة الراغبة فى السفر[١٤٢].

ومن الأشياء التى أخذت على الحاكم أيضا سياسته إزاء أهل الذمة الذين كانوا قد إشتد بأسهم بين المسلمين منذ أن تمكنوا فى أيام أبيه العزيز[١٤٣] مما اضطره إلى الرجوع إلى الشروط العمرية[١٤٤] وألزمهم بالتميز عن المسلمين بعلامات خاصة عرفت بالغيار[١٤٥] وذلك بوضع زنانير ملونة جلها أسود حول أوساطهم ولبس العمائم السود على رؤوسهم[١٤٦] وتلفيعات، سوداء طيالس، وجعل القبط يحملون صلبانا واليهود يحملون الخشب ومنعهم من ركوب الخيل، وألزمهم بركوب البغال والحمير، كما أمرهم أن يتميزوا فى الحمامات عن المسلمين[١٤٧]، ثم أفرد لهم حمامات على حدة، ولكن أهل الذمة نزعوا

١٣٨- عبد المنعم ماجد، الحاكم، ص ٩٤.

١٣٩- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٠٧.

١٤٠- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٥؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٨٥، ص ١١٩.

١٤١- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٧٨ - ١٧٩؛ ابن حماد، أخبار ملوك بنى عبيد، ص ٥٥؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى، ص ١٢٠.

١٤٢- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٠٨؛ عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ٩٥.

١٤٣- عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى، ص ٩٨.

١٤٤- عن الشروط العمرية انظر الماوردى، الأحكام السلطانية، القاهرة ١٢٩٨هـ، ص ١٣٨ - ١٣٩؛ النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ٨، ص ٢٣٨ - ٢٣٩؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة ص ٢٦.

١٤٥- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ١٨٧ ، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣؛ ابن حماد، أخبار ملوك بنى عبيد، ص ٥٢؛ الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٥٤ - ٥٥؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٧.

١٤٦- الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٥٤؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى، ص ١٠٠.

١٤٧- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٨.

الغيار وتشبهوا بالمسلمين حتى لا يعرفوا(١٤٨) مما أثار غضب الحاكم عليهم واتخذ نحوهم قوانين صارمة لم تعرف قبلا، وذلك بأن جعل النصارى يحملون صلبانا ثقيلة، طولها ذراع ونصف وزنتها خمسة أرطال بعد أن كان طولها شبرا، وختمها بالرصاص، أما اليهود فجعلهم يلبسون الزنار ويحملون الخشب الثقيل(١٤٩). كذلك منع النصارى من تقديم النبيذ فى قرابينهم، وأمر بأن يمحو الناس الصلبان المرسومة على أيديهم وسواعدهم(١٥٠)، وأكثر من ذلك أمر بهدم الكنائس والبيع والأديرة فى مصر وصادر أملاكها(١٥١)، كما أصدر سجلا إلى واليه على القدس يأمره بهدم كنيسة القيامة جاء فيه «أمر الإمامة إليك بهدم قمامة فاجعل سماءها أرضا وطولها عرضا»(١٥٢). ولعل السبب وراء هدم الحاكم لهذه الكنيسة هو قيام ملك الروم بهدم جامع القسطنطينية(١٥٣).

ورغم هذا فإن الحاكم فى آخر سنة من حكمه عدل عما زاده على الشروط العمرية واكتفى من أهل الذمة بلبس الغيار(١٥٤) فقط وهى العلامة المميزة لهم وأصدر بذلك عدة سجلات يأمر فيها بإعادة بناء ما تهدم من الكنائس ورد أوقافها(١٥٥)، كذلك أعيد بناء كنيسة القيامة(١٥٦)، وإن قيل أن ابنه الظاهر هو الذى وافق على ترميمها بعد المعاهدة التى وقعت بينه وبين قسطنطين الثامن ملك الروم(١٥٧)، ولعل أيضا حفيده الخليفة المستنصر هو الذى فعل ذلك فى مقابل ما عرضه عليه رومانوس ملك الروم من إطلاق سراح خمسة آلاف أسير نصرانى(١٥٨).

١٤٨- الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٥٦.

١٤٩- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٧٨.

١٥٠- الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٥٤؛ يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٠٠ ، ٢٠٣ ؛ عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ٩٩.

١٥١- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخار ص ٢٢٩ ، ٢٣٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٧٧.

١٥٢- ابن الأثير، الكامل، جـ٢، ص ٢٤٠؛ يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٣٠ - ٢٣١؛ الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ٥٥ وما بعدها، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٧٨.

١٥٣- عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٠٠.

١٥٤- يحيى بن سعيد صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٣٢.

١٥٥- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

١٥٦- عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٠٣.

١٥٧- أسد رستم، الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، بيروت ١٩٥٥ - ١٩٥٦، جـ١، ص ٦٤.

١٥٨- عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٠٣.

ومن الأشياء التى رمى بها الحاكم أيضا ادعاؤه الألوهية ومرجع ذلك أن رجلا فارسيا يدعى الحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم[١٥٩] غلا فى ذات الحاكم واعتبره المعبود ودعا إلى إبطال النبوة وأسقط اسم الله واسم النبى واعتبر التنزيل والتأويل والتشريع خرافات وقشورا، ودخل الجامع فى خمسين رجلا على القاضى ابن أبى العوام وأخذوا أموال الناس وثيابهم وسلموه رقعة ليقرأها على الناس بدأت باسم الحاكم الرحمن الرحيم، فرفع القاضى صوته منكرا وهجم الناس على الأخرم وقتلوا أصحابه، أما الأخرم نفسه فهرب وقيل أنه قتل[١٦٠]. كذلك ظهر داعية آخر اسمه محمد بن إسماعيل لقب بالدرزى، التى لا يعرف لها أصل، وكان الحاكم قد قربه فى أول الأمر حتى عرف بغلام الحاكم وكان القواد والعلماء يقفون على بابه ولا ينقضى لهم شغل إلا على يده[١٦١]. وكان الدرزى هذا يؤمن بالتجسيم ويرى أن روح آدم جاءت عليا، وأن روح على انتقلت إلى أبى الحاكم، ثم انتقلت إلى الحاكم، ودعا الناس إلى أن يعتقدوا أن الحاكم الإله الذى صنع العوالم وصنف كتابا شبهه بالقرآن سماه الدستور[١٦٢]. وقد جعل الدرزى له أتباعا عرفوا بالدرزية[١٦٣] بلغ عددهم ستة عشر ألفا، وكانوا يأتون بأمور مبتذلة مثل تلطيخ القبلة، والبول على المصاحف[١٦٤]. وقد اختلفت الروايات فى نهايته فقيل أنه قتل على يد الأتراك وهو فى موكب الحاكم لأنه نصح الحاكم بسلب ألقابهم التى كانوا يتباهون بها، وقيل أيضا أنه هرب إلى الشام ونشر دعوته فيها[١٦٥]، على حين ذهب البعض إلى الترجيح بأنه قتل فى إحدى المعارك سنة ٤١٠هـ/ ١٠١٩م[١٦٦].

والحق أن الحاكم لم يدع الألوهية إطلاقا وذلك بالاعتماد على أوثق المصادر التاريخية، فضلا عن أنه لم يصلنا نص واحد يشير إلى أن الحاكم نفسه قال أنه هو الإله، بل عظم الأمر عليه لتجاسرهم على هذه الدعوى بألوهيته[١٦٧].

١٥٩- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٨٣؛ الكرمانى، الرسالة الواعظة، تحقيق كامل حسين، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، المجلد الرابع عشر، الجزء الأول، مايو ١٩٥٢.

١٦٠- عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٠٧.

١٦١- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٨٤.

١٦٢- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ٢٢٤.

١٦٣- يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص٢٢٣، محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية فى مصر، ص ٩٧؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسى، القاهرة ١٩٤٦، جـ٣، ص ٣٦٧.

١٦٤- عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٠٨.

١٦٥- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ١٨٤.

١٦٦- عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٠٨.

١٦٧- عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١١٠.

وقد ترتب على كل هذه الأمور اجتراء الخلافتين السنيتين العباسية والأموية على مهاجمة الدولة الفاطمية(١٦٨)، فقد جمع الخليفة القادر بالله عددا من علماء بغداد وقضاتها(١٦٩) وكتبوا محضرا طعنوا فيه في النسب الفاطمي وأعلنوا فيه أن الحاكم وسلفه «أدعياء خوارج لانسب لهم في ولد علي بن أبي طالب» وإنما هم «كفار فساق زنادقة، ملحدون معطلون، وللإسلام جاحدون» وأرسلت نسخ منه إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي فكان له صدى قوي(١٧٠).

أما الخلافة الأموية بالأندلس فقد اتخذ هجومها شكلا أكثر إيجابية وخطرا، إذ خرج في الصحراء الغربية خارج اسمه الوليد بن هشام(١٧١) المعروف بأبي ركوة(١٧٢) وادعى انتسابه إلى بني أمية، وقاد جيشا كبيرا هاجم به حدود مصر الغربية فأرسل إليه الحاكم جيشا لمقابلته فهزم الجيش، فأرسل إليه آخر تتبعه في الصعيد حتى قبض عليه في بلاد النوبة وأرسله إلى القاهرة وقتله(١٧٣).

ورغم فشل هاتين الحركتين إلا أنهما أثرتا دون شك في الخلافة الفاطمية، إذ أضاعتا ما كان لها من هيبة قديمة، وبدأ الكل يجترئون عليها، وتطور الأمر إلى أن قام النزاع في الداخل بين عناصر الجيش من مغاربة وأتراك وسودان ولم تهدأ الفتنة إلا بعد أن قتل عدد كبير من قادة الجيش.

يضاف إلى هذا ما أقدم عليه الخليفة الحاكم نفسه من محاولة تغيير أصل هام من أصول المذهب الإسماعيلي، وذلك أن نظام الوراثة عند الشيعة الإسماعيلية يقضي أن تكون الإمامة في نسل علي بن أبي طالب دون غيرهم، وأن تنتقل دائما من الأب، لأنهم كانوا يعتقدون أن للإمامة صفات وعلوما خاصة تنتقل بالوراثة كما تنتقل الصفات الخلقية تماما.

١٦٨- جمال الدين الشيال، مصر في العصر الفاطمي، ص ٤٤١.

١٦٩- ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص ٢٢٩؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٣٣؛ جـ٢، ص ١٤.

١٧٠- ابن تغري بردي، النجوم، جـ٤، ص ٢٢٩ - ٢٣٠؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ٣، ص ١٦٢ - ١٦٣.

١٧١- عنه انظر ابن خلدون، العبر، جـ٤، ص ٥٨ - ٥٩؛ يحيى بن سعيد، صلة تاريخ أوتيخا، ص ١٨٨؛ ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص ٢٣٤ - ٢٣٧؛ المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ٤، ص ٢١٥ - ٢١٧؛ عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٥٧ - ١٦٣.

١٧٢- عرف بهذا اللقب لأنه كان يظهر النسك ويحتفظ بركوة معه أي وعاء من الجلد للوضوء على عادة الصوفية. انظر عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٢٤٦.

١٧٣- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦.

وقد التزم الفاطميون منذ إنشاء دولتهم بهذا النظام، ولكن الخليفة الحاكم حاول مخالفة هذا المبدأ فأوصى بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس وأصدر أوامره بأن يضرب اسمه إلى جانب اسم الخليفة على السكة وأن ينقش على الطراز. وكادت هذه المحاولة أن تفضى إلى انقسام خطير بين الشيعة الإسماعيلية لولا أن الحاكم قتل فى شوال سنة ٤١١هـ/ فبراير ١٠٢١م وقضت أخته ست الملك على هذه المحاولة، فأرسلت إلى عبد الرحيم من قبض عليه وقتله وأجلست على بن الحاكم الذى تلقب بالظاهر لإعزاز دين الله على عرش الخلافة[١٧٤].

وهكذا خلف الحاكم ابنه الظاهر على وكان صبيا فى السادسة عشرة من عمره[١٧٥]، فقامت بالوصاية عليه عمته ست الملك[١٧٦]، فلما ماتت انصرف الخليفة إلى اللهو والتف حوله نفر من الرجال سيطروا على الأمور دون غيرهم من كبار المسئولين حتى الوزراء، فساءت الحالة الداخلية وتفشى الغلاء فى سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م واضطرب الأمن حتى لم يحج أحد من مصر فى هذه السنة، وبلغ بالناس الجوع إلى درجة أن عبيد القصر هجموا على سماط عيد النحر الذى مد فى القصر ونهبوه، كما هاجم العبيد والعامة الأهالى فأغلق الناس دورهم وحفروا دونها الخنادق[١٧٧].

ومع هذا فيحمد للظاهر أنه عمل على تحسين العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن كانت قد بلغت من السوء مبلغا كبيرا فى عهد أبيه، فجدد الهدنة مع صاحب الروم فى سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م بشروط من أهمها إعادة فتح جامع القسطنطينية وأن يخطب فيه للظاهر فى مقابل السماح بإعادة بناء كنيسة القيامة بالقدس[١٧٨] كما سبق أن أشرنا من قبل.

ولما مات الظاهر خلفه ابنه المستنصر بالله فى سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م، وكان عمره سبع سنين[١٧٩]، وقد حكم المستنصر ستين عاما[١٨٠] (٤٢٧ - ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ - ١٠٩٤م)،

١٧٤- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٤٢.

١٧٥- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٢٤٧.

١٧٦- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٤، ص ٢٤٨.

١٧٧- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٤ - ٣٥٥.

١٧٨- اسد رستم، الروم، جـ٢، ص ٦٤؛ Zananiri, L'Egypte et l'équilibre du Levant au Moyen Age, Marseille, 1933, p.40.

١٧٩- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١.

١٨٠- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٥.

وهو بذلك أطول خلفاء الفاطميين حكما. وقد تميزت السنوات الأولى من حكمه بالرخاء والثروة، ويتضح ذلك من كتابات الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذى زار مصر سنة ٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م، ووصف نظمها ومدنها وغناها وثروتها وحضارتها، وصف المعجب بما رأى وشاهد فيها[١٨١].

والحق أن مصر بدأت فى النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر ترنو بأبصارها ثانية نحو العراق وبغداد، ويبدو أن الخلافة العباسية قد شعرت ببوادر الخطر فأصدرت فى سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م[١٨٢] محضرا ثانيا شبيها بالمحضر الأول الذى صدر فى عهد الحاكم للطعن فى نسب الخلفاء الفاطميين، ووقع عليه كبار العلماء والقضاة فى بغداد وأرسلت نسخ منه إلى أطراف العالم الإسلامى[١٨٣].

بيد أن الخليفة المستنصر استطاع أن يرد على ذلك بقوة وعنف ففى سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م خرج على الخليفة العباسى أحد قواده وهو أبو الحارث البساسيرى[١٨٤]، وانضم للخليفة المستنصر الذى أمده بالسلاح والأموال[١٨٥] فتقدم فى سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م[١٨٦] ودخل بغداد ففر منها الخليفة القائم بأمر الله العباسى، وأرسل البساسيرى البردة والقضيب والمنبر والشباك[١٨٧]، وخطب للخليفة المستنصر بالله الفاطمى على منابر بغداد نحو أربعين أسبوعا[١٨٨]، كما حذت مدن العراق الأخرى حذو بغداد، فخطب للمستنصر فى هذه السنة على منابر البصرة وواسط وأعمالهما[١٨٩].

١٨١- انظر ناصر خسرو، سفر نامة؛ جمال الدين الشيال، مصر فى الفاطمى، ص ٤٤٣.

١٨٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٦؛ ابن الأثير الكامل، جـ٨، ص ٦٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص٥٣.

١٨٣- لم تصلنا صيغة هذا المحضر، انظر عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٦٣.

١٨٤- المؤيد فى الدين، سيرة المؤيد داعى الدعاة، ترجمة حياته بقلمه، تقديم وتحقيق كامل حسين، القاهرة ١٩٤٩، ص ١٢٢ - ١٢٤؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٦؛ حسن إبراهيم، تاريخ الفاطميين، ص٢٣٢.

١٨٥- يذكر ابن تغرى بردى أنه أرسل إليه خمسمائة ألف دينار، انظر النجوم، جـ٥، ص ١١ - ١٢.

١٨٦- ابن الأثير، الكامل، جـ٨؛ ص ٨٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٦؛ جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٤٣.

١٨٧- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٦؛ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٧٩.

١٨٨- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٦؛ Quatremère, Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte, Paris, 1811, IV, p.328.

١٨٩- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٤٣.

وهكذا بلغت الخلافة الفاطمية فى النصف الأول من حكم المستنصر أوج عظمتها، ولكن عوامل الضعف بدأت تسرى فى كيانها فى النصف الثانى من حكم الخليفة إذ استطاع طغرل بك السلجوقى دخول بغداد وقتل البساسيرى فى ذى الحجة سنة ٤٥١هـ/ ١٠٦٠م(١٩٠) وأعاد الخليفة القائم العباسى إلى عرشه من جديد. كذلك أفضى النزاع الذى وقع بين اليازورى، وزير الخليفة المستنصر، وبين المعز بن باديس، عامل الفاطميين على المغرب إلى إسقاط الخطبة للخليفة المستنصر بالمغرب، ولعن الفاطميين وسبهم على المنابر بأبشع الألفاظ(١٩١) حوالى سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م أو بعدها بقليل، وبذا قضى على كل صلة بين الفاطميين والمغرب بعد مرور مائة وخمس وأربعين سنة من دخولهم وإقامتهم الخلافة هناك(١٩٢).

يضاف إلى هذا المجاعات التى انتابت مصر إبان هذه الفترة والتى كانت تنتج غالبا من تقصير النيل عن ارتفاعه مما يترتب عليه ترك الأرض بدون زراعة وبالتالى قلة وجود الأقوات وارتفاع الأسعار، ولقد شهد عصر المستنصر عدة مجاعات فى سنوات ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م، وفى ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م، وفى ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، وفى ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م، وفى ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م(١٩٣)، أثناء وزارة اليازورى الذى عمد إلى الحلول الوقتية فى علاجها بقصد التقرب من الخليفة(١٩٤).

وتعد مجاعة سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م من أطول وأبشع المجاعات التى تعرضت لها البلاد إذ امتدت سبع سنين حتى سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م(١٩٥) وعرفت بالشدة المستنصرية، ووصلت آثارها إلى العراق والحجاز وبلاد ما وراء النهر(١٩٦)، وقد عانى الأهالى خلالها

١٩٠- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ١٠٨.

١٩١- ابن عذارى، البيان المغرب فى أخبار المغرب، تحقيق ليفى بروفنسال، طبعة ليدن ١٩٤٨، جـ١، ص ٤٠١.

١٩٢- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٢٦٠.

١٩٣- ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٦ - ٧؛ المقريزى، إغاثة الأمة، ص ١٨ - ٢٠؛ عبد المنعم ماجد، الإمام المستنصر بالله الفاطمى، القاهرة ١٩٦٠، ص ١٥٥ - ١٥٦.

١٩٤- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٦٥.

١٩٥- المقريزى، إغاثة الأمة، ص ٢٤ وما بعدها.

١٩٦- العينى، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٢٥٧٨ تاريخ، ورقة ١٨٧ - ١٨٨؛ ابن أيبك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح المنجد، القاهرة ١٩٦١، جـ٦، ص ٣٦٩.

الأمرين، فعدمت الأقوات وارتفعت الأسعار، واضطر الناس إلى آكل الميتة من القطط والكلاب[١٩٧]، ثم انقلبوا يأكلون بعضهم بعضا[١٩٨] بعد بيع رغيف الخبز كبيع الطرف بأربعة عشر دينارا وقيل أربعة عشر درهما، وبيع أردب القمح بمائتى دينار[١٩٩]، واضطر الخليفة المستنصر إلى بيع كل ما كان فى قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره وصار يجلس على حصير وقد تعطلت دواوينه، وذهب وقاره[٢٠٠].

وقد ترتب على هذه المجاعة أيضا أن منعت مصر ما كانت ترسله إلى الحجاز من غلال ومؤن، فقطعت الخطبة للمستنصر فى مكة والمدينة، وخطب للخليفة العباسى فى سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م، وإن كانت قد أعيدت للمستنصر ثانية فى سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م[٢٠١] وهكذا توالى انفصال أجزاء الدولة، كما دخل النورمان صقلية فى سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م واستولوا عليها[٢٠٢]، فخرجت بذلك عن حكم الفاطميين، بعد أن ظلت جزءا من أملاكهم منذ أن قامت دولتهم فى سنة ٢٩٧هـ/ ٩١٠م.

وفى سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م تفاقم الحال واضطربت الأمور اضطرابا شديدا وعجز المستنصر عن مواجهة الموقف فاستدعى بدر الجمالى والى عكا الذى سارع بدوره إلى تلبية نداء الخليفة ودخل مصر على رأس جنده من الأرمن[٢٠٣]، واستطاع بعد مجهود مضن أن يعيد الأمن والنظام، وأن يضرب على أيدى المفسدين[٢٠٤]. ويعتبر هذا الحادث

١٩٧- حتى بيع الكلب بخمسة دنانير والقط بثلاثة دنانير، المقريزى، إغاثة الأمة، ص ٢٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة بولاق، جـ١، ص ٦٠.

١٩٨- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٣٧؛ إغاثة الأمة، ص ٢٤؛ ابن تغرى بردى النجوم، جـ٥، ص ١٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ص ٦٠؛ عبد المنعم ماجد، الإمام المستنصر، ص ١٥٨.

١٩٩- ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨١ ص ٥٨؛ المقريزى، إغاثة الأمة، ص ٢٤؛ ابن أيبك الدوادارى، كنز الدرر، جـ٦، ص ٣٧١ الذى أشار إلى بيع الأردب بثمانين دينارا؛ على حين أشار ابن تغرى بردى إلى بيعه بمائة دينار، انظر النجوم، جـ٥، ص ١٧؛ E.Ashtor, Histoire des prix et des salaires dans l'Orient médieval, Paris,1969, pp.125.132

٢٠٠- المقريزى، إغاثة الأمة، ص ٢٤ - ٢٥؛ جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٤٤.

٢٠١- عبد المنعم ماجد، الإمام المستنصر بالله، ص ١٢٢؛ جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٤٤.

٢٠٢- ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص ١٥٩.

٢٠٣- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٦؛ ابن الصيرفى، الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة ١٩٢٤، ص ٥٦.

٢٠٤- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٩٤.

فى حد ذاته بداية دور جديد فى تاريخ الخلافة الفاطمية وهو دور اتسم باضمحلال سلطة الخلافة ونفوذها، وظهور نفوذ الوزراء العظام[٢٠٥] الذين سيطروا على مقاليد الأمور فى الدولة، الذى اصطلح على تسميته بعصر وزراء التفويض أو العصر الفاطمى الثانى بعد انتهاء العصر الأول الذى عرف أيضا فى المصطلح التاريخى بعصر وزراء التنفيذ، وكان الوزراء فيه من أرباب الأقلام أى من العلماء والفقهاء[٢٠٦]. أما بدر الجمالى فقد كان من أرباب السيوف أى من العسكريين، ولعل خير ما يوضح ذلك لقبه الخاص وهو السيد الأجل أمير الجيوش، ذلك اللقب الذى ظل يتلقب به من بعده وزراء التفويض فى العصر الفاطمى الثانى، إذ كانوا جميعا رجال سيف[٢٠٧].

وفى هذا العصر ظهرت أيضا ظاهرة تولى أبناء الوزراء الوزارة بعد آبائهم فتولى شاهنشاه بعد أبيه بدر الجمالى، حيث وزر للمستنصر[٢٠٨] ثم للمستعلى (٤٨٧ - ٤٩٥هـ/ ١٠٩٤ - ١١٠١م)[٢٠٩] ثم للآمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤هـ/ ١١٠١ - ١١٣٠م)[٢١٠]، وقد زيد فى ألقابه الأفضل، الذى اشتهر به حتى أصبح يعرف بالأفضل شاهنشاه[٢١١]، ومن المعروف أن هذا اللقب أضيف كذلك للوزراء من بعده[٢١٢].

ودراسة الألقاب التى تلقب بها الوزراء إبان العصر الفاطمى الثانى توضح لنا مدى تزايد سلطان الوزراء تباعا، وكان ذلك يصاحبه بالضرورة نزول الخط البيانى إلى أسفل معلنا تدهور سلطات الخليفة تدريجيا، وبالتالى تدهور الخلافة الفاطمية برمتها. فمنذ عهد الخليفة الحافظ لدين الله (٥٢٤ - ٥٤٤هـ/ ١١٣٠ - ١١٤٩م) لقب الوزير بلقب الملك، وكان

٢٠٥- محمد حمدى المناوى الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٧٠، ص ٣٧.

٢٠٦- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٤٥؛ عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين، جـ١، ص٨٢.

٢٠٧- السجلات المستنصرية، تقديم وتحقيق عبد المنعم ماجد، القاهرة ١٩٥٤، أرقام ١٥، ١٩، ٢٠، ٢٧، ٣٧، ٤٦، ٥٣، ٦٣، ٦٤؛ جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٤٥.

٢٠٨- الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء، جـ٣، ورقة ١٠٢؛ محمد حمدى المناوى، الوزارة، ص ٢٧١.

٢٠٩- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٤١٥.

٢١٠- السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ١٤ - ١٦؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٨، ص ٢٣٧ - ٢٤١.

٢١١- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٠؛ M.Van Berchem, Corpus, Egypte, I, nos18,38؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٥٧، ص ١٦٤.

٢١٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٤٠ - ٤٤١؛ جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص٤٤٥.

أول من لقب به رضوان بن ولخشى الذى لقب بالسيد الأجل الملك الأفضل(٢١٣)، ولقب به كذلك من أتى بعده من الوزراء مثل طلائع بن رزيك الذى عرف بالملك الصالح(٢١٤)، وابنه رزيك بن طلائع، الذى لقب بالملك العادل والناصر وضرغام، وشاور وشيركوه، الذى عرف كل منهم بالملك المنصور، وأخيرا صلاح الدين الذى تلقب بالملك الناصر(٢١٥).

والحق أن كل هذه الألقاب تكشف لنا قوة ونفوذ وزراء العصر الفاطمى الثانى، الذين شيدت لهم دار خاصة فى القاهرة بجوار قصر الخليفة، ليباشر فيها الوزير شئون الحكم والإدارة عرفت بدار الوزارة الكبرى(٢١٦). وقد ساعد على ازدياد قوة الوزراء واستقلالهم بأمور الحكم صغر سن الخلفاء، فقد تولى الخليفة الآمر والفائز وعمر كل منهما خمس سنوات، بل إن الفائز مات وهو فى الحادية عشرة من عمره. كذلك ولى العاضد الخلافة وهو فى الحادية عشرة من عمره(٢١٧).

ولعل السبب الرئيسى فى تولى الخلفاء الفاطميين وهم فى هذه السن المبكرة، هو نظام الوراثة عند الشيعة الإسماعيلية الذى كان يقضى بأن تكون الإمامة أو الخلافة فى نسل على بن أبى طالب دون غيرهم، وأن تنتقل دائما من الاب إلى الابن كما أشرنا من قبل، وهم بذلك يختلفون عن الأمويين والعباسيين الذين كانوا يبيحون أن تنتقل الخلافة أحيانا إلى الأخ أو إلى ابن العم أو إلى أكبر أفراد الأسرة سنا، لأنهم كانوا يشترطون فى الخلافة شروطا أخرى كثيرة من أهمها أن يكون بالغا، عاقلا، سليم الحواس(٢١٨). ومع ذلك فهناك من يقول بأنه كان لنظام الوراثة عند الفاطميين فوائد كثيرة من أهمها أنه كان عاملا من عوامل استقرار الدولة، لأنه جنب الأسرة والدولة إلى حد كبير، عوامل المنافسة والنزاع والتخاصم على العرش(٢١٩).

٢١٣- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٦، ص ٤٥٨ - ٤٦٣؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ٤٩٩.

٢١٤- لقبه المقريزى خطأ بالملك المنصور انظر الخطط، جـ١، ص ٤٤٠؛ حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٤٩٩.

٢١٥- أبو شامة، الروضتين، جـ١، ص ١٥٨ - ١٦٥؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥، ص ٤٨٧، جـ٩، ص ٤٠٣؛ المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٦٣٦ - ٦٣٧.

٢١٦- عنها انظر المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٣٧ - ٤٤٠.

٢١٧- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٤٧.

٢١٨- عن الشروط الواجب توافرها فيمن يلى الخلافة انظر الماوردى، الأحكام السلطانية، ص ٤، ١٤؛ ابن خلدون المقدمة، ص ١٩٣؛ أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية، ص ٤٧ - ٤٨.

٢١٩- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٤٧.

وكان من الشروط الهامة لصحة الإمامة عند الشيعة الإسماعيلية، الوصية أوما يسمى بالنص أو التنصيص[٢٢٠]، أى أن ينص الإمام السابق على الإمام اللاحق من أولاده، فهم يعتبرون النص بمثابة أمر تعيين صادر عن الإمام السابق. وكان يشترط فى النص عندهم أن يصدر عن الإمام وقت نقلته، أى عند موته، بمعنى أنه إذا صدر عن الإمام أكثر من نص لأكثر من ولد من أولاده، فإنه لا يؤخذ إلا بالنص الأخير، الذى صدر عنه وقت نقلته وانتقاله إلى الدار الآخرة، لأنه فى رأيهم يجب كل النصوص الأخرى السابقة.

والواقع أن الفاطميين عملوا على احترام هذا النظام الوراثى إلا فى حالات ثلاث، الأولى عندما حاول الخليفة الحاكم بأمر الله ان يحرم ابنه الظاهر، فعهد بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس كما ذكر سابقا، غير أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح فقد قتل الحاكم، وسعت أخته ست الملك حتى أقامت ابنه الظاهر لإعزاز دين الله على عرش الخلافة فى سنة ٤١١هـ/ ١٠٢١م.

والحالة الثانية عندما توفى الآمر بأحكام الله سنة ٤٢٤هـ/ ١١٣٠م وتولى الخلافة بعده ابن عمه الحافظ لدين الله.

أما الحالة الثالثة فقد حدثت عقب وفاة الخليفة الفائز بنصر الله فى سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، إذ تولى الخلافة بعده ابن عمه العاضد لدين الله، الذى يعد آخر الخلفاء الفاطميين[٢٢١].

والحق أنه فى كل مرة خولف فيها نظام الوراثة، كان يحدث انقسام مذهبى يترتب عليه هزات عنيفة فى الدولة، ساعدت فيما بعد على إضعافها وتدهورها، وحسبنا دليلا على ذلك ما حدث عقب وفاة الخليفة المستنصر فى سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م من خلاف بصدد تحديد النص، إذ قال نزار الابن الأكبر بأن النص والوصية له[٢٢٢]، على حين ذكر الوزير الأفضل شاهنشاه بأن النص والوصية للابن الأصغر أبى القاسم أحمد، وانتهى النزاع بهزيمة نزار وتولية أبى القاسم الذى تلقب بالمستعلى[٢٢٣]، وانقسم الإسماعيلية إلى نزارية ومستعلية[٢٢٤]، وقد ناصبت النزارية (الحشيشية[٢٢٥]) التى نجح دعاتها فى إقامة ملك لهم فى الشام، الفواطم فى مصر العداء، وانتهزت كل فرصة ممكنة للكيد لهم والإضرار بهم.

٢٢٠- ابن حزم، الفصل فى الملل، ص ١٠٩.

٢٢١- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٤٧ - ٤٤٨.

٢٢٢- السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ١٥٤؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٤٢، ١٤٣.

٢٢٣- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٤٣.

٢٢٤- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٤١٩.

٢٢٥- كامل حسين، طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، القاهرة ١٩٥٩، ص ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٧.

ولقد كان إبعاد نزار وتولية أخيه المستعلى بمثابة انقلاب سياسى قام به الوزير الأفضل شاهنشاه، محافظة منه على السلطان القوى الذى كان يتمتع به منذ أواخر عهد الخليفة المستنصر بالله[٢٢٦]، إذ من المعروف أن نزارا كان عند موت أبيه شابا مكتمل الرجولة[٢٢٧]، بيد أن العلاقات بينه وبين الأفضل لم تكن طيبة أثناء حياة المستنصر، بل على العكس كان يشوبها دائما الكراهية المتبادلة[٢٢٨].

وهكذا واصل الوزراء إبان هذه الفترة استبدادهم بالخلفاء وبشئون الحكم، حتى بات منصب الوزارة محط أنظار قواد الجيش وكبار رجال الدولة، فقامت بين بعضهم والبعض الآخر منافسات دامية فى سبيل الوصول إلى هذا المنصب. ويعد النزاع الذى قام بين شاور وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وضرغام صاحب الباب، آخر حلقة من حلقات هذه المنافسة، وقد انتهى الصراع بين الرجلين بانتصار ضرغام وتوليه الوزارة، وفرار شاور إلى الشام[٢٢٩].

وكانت الشام قد انسلخت من ملك الفاطميين واقتسم ملكها قوتان: قوة نور الدين محمود بن زنكى فى الداخل، وقوة الصليبيين فى الساحل وفى فلسطين.

وقد لجأ شاور إلى القوة الإسلامية، أى نور الدين، فى سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م وسأله أن يرسل معه جيشا إلى مصر ليساعده فى نضاله ضد خصمه ضرغام وفى إعادته إلى منصب الوزارة، وعرض أن يدفع له فى مقابل هذا ثلث إيرادات مصر سنويا، وأن يمنح جنده الإقطاعات، وأن يدين له بالولاء[٢٣٠] إن عادت إليه مقاليد الحكم والوزارة.

ورحب نور الدين بشاور وأكرم ضيافته، ولكنه تردد فى أول الأمر فى إجابته إلى مطلبه، بيد أنه لم يلبث أن وافق تحت إلحاح قائده أسد الدين شيركوه الذى كان يرغب فى الذهاب إلى مصر[٢٣١] على رأس هذه الحملة، ولعل نور الدين رأى فى موافقته على طلب

٢٢٦- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٤٨.

٢٢٧- ابن ميسر، أخبار مصر، تحقيق ماسيه، ص ٣٧، الذى يذكرأن مولده فى سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م.

٢٢٨- يتحدث المؤرخون عن مباينة وقعت بين نزار والأفضل، فقد خرج نزار ذات يوم من بعض أماكن القصر، فوجد الأفضل قد دخل من أحد الأبواب وهو راكب فصاح به: انزل ياأرمنى يانجس، فحقدها الأفضل عليه وظهرت كراهة أحدهما للآخر، انظر ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٣٥؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ١٤٢.

٢٢٩- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٨؛ جمال الدين الشيال مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٥٤.

٢٣٠- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٤٦؛ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٤٦٢.

٢٣١- ابن الاثير، الكامل، جـ٩، ص ٨٤ - ٨٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٨، جـ١، ص ١٣٧ وما بعدها.

شاور، تحقيقا لخطته التى كان يهدف من ورائها إلى توحيد الجبهة الإسلامية توطئة لمقاومة الخطر الصليبى والقضاء عليه[٢٣٢].

وأرسل نور الدين مع شاور جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه الذى صحب معه ابن أخيه يوسف صلاح الدين، الذى لم يكن قد تجاوز خمسة وعشرين عاما، والذى لم يكن متحمسا للمغامرة فى مصر، فقد نسب إليه أنه قال: «خرجت مع عمى كارها وأنا كمن يقاد إلى المذبح[٢٣٣]». ويبدو أيضا أن شاور لم يكن يرغب فى حضور شيركوه وصلاح الدين، ولكنه أسقط فى يده. وعلم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله إلى مصر، فأصابه الفزع إذ لم يكن الجيش الفاطمى فى حالة تمكنه من المقاومة أو إحراز النصر، وأرسل ضرغام يستنجد بالقوة الثانية فى الشام ونعنى بها الصليبيين[٢٣٤].

ووصل أسد الدين شيركوه إلى مصر وانتصر على جيش ضرغام بعد قتال عنيف اشترك فيه طوائف الجند الفاطمى من مصريين وسودانيين وتفرق عن ضرغام قواده وأعوانه، ثم قبض عليه وقتل[٢٣٥]، وأعيد شاور نتيجة لهذا النصر إلى دست الوزارة وتلقب بالملك المنصور، وكتب له العاضد سجلا بتوليه الوزارة[٢٣٦]، ذكر فيه أنه ما اختاره إلا لحنكته فى السياسة والتدبير، كما قلد ابنه المعروف بالكامل الوزارة نيابة عن أبيه[٢٣٧].

غير أن شاور كان خلقه الغدر والخيانة، فلم يلبث أن حنث بوعده، ورفض أن يدفع لشيركوه وجيشه المقيم بظاهر القاهرة المبلغ المتفق عليه، بل طلب إليه الانسحاب بجيشه والعودة إلى الشام، وآلم شيركوه مسلك شاور، وأبى أن يستمع له، وأسرع إلى بلبيس بناء على إشارة صلاح الدين وتحصن بأسوارها[٢٣٨]، وهنا فعل شاور ما فعله ضرغام من قبل إذ لجأ إلى الفرنجة، وأرسل يستنجد بعمورى ملك بيت المقدس، ووعده بمال كثير، ورحب عمورى المسمى بأملريك بالدعوة وأسرع بالخروج بجيشه، لأنه كان يخشى أن يملك نور الدين مصر فتصبح قوى الصليبيين وأملاكهم فى الشام محاصرة بقوى نور الدين من الشمال والجنوب[٢٣٩].

٢٣٢- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٥٤.

٢٣٣- ابن طباطبا، الفخرى فى الآداب السلطانية، ص ٧٢.

٢٣٤- حسن حبشى، نور الدين والصليبيون، القاهرة ١٩٤٨، ص ١٠٦.

٢٣٥- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٤٧.

٢٣٦- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١، ص ٣١٠ - ٣١٨.

٢٣٧- المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٤٤.

٢٣٨- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٤٧.

٢٣٩- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٥٥؛ محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية، ص ١٢٧.

اتجه عموري بجيشه في سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م نحو مصر، وحاصر أسد الدين شيركوه في بلبيس شهورا ثلاثة[٢٤٠]، وأحس نور الدين بما يهدد جيشه في مصر من خطر فبدأ يضغط على أملاك الصليبيين في الشام مما جعل عموري يفكر جديا في الانسحاب، واتفق أخيرا مع شيركوه أن ينسحبا معا في وقت واحد من مصر[٢٤١].

خرجت القوتان من مصر ولكن لتعودا إليها ثانية وثالثة وكل منهما يحاول أن يستولى على مصر للقضاء على القوة الأخرى، فقد رأى شيركوه ضعف حالها ووصفها بأنها بلاد بغير رجال وأخذ يحرض نور الدين من جديد لإرساله على رأس حملة ثانية[٢٤٢] وخرج بالفعل في سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م[٢٤٣]، يصحبه للمرة الثانية ابن أخيه صلاح الدين ودخل مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر من ناحية الصعيد ونزل بالجيزة حتى لايحاصر ببلبيس مرة أخرى. عندئذ أرسل شاور يستنجد بالفرنجة ويعدهم بالمال فأتاه عموري إلى الجيزة وأرسل رسله إلى قصر الخليفة العاضد للاتفاق على المبلغ الذي سيدفع لقاء طرد شيركوه من البلاد، فحاربهم شيركوه وهزمهم، ونجا عموري بحياته بمعجزة[٢٤٤]. وسار شيركوه عقب ذلك إلى الإسكندرية التي رفض أهلها وأعيانها أن يسلموها إلى شاور عميل الصليبيين وسلموها لشيركوه[٢٤٥] الذي تركها لصلاح الدين وسار هو إلى الصعيد، فأسرع شاور تسانده مراكب الصليبيين إلى حصارها حوالي أربعة أشهر[٢٤٦] ولكن صلاح الدين كافح عنها كفاحا شديد، وعبثا حاول شاور استمالة أهل الاسكندرية على أن يسلموه صلاح الدين في مقابل رفع الضرائب عنهم بيد أنهم رفضوا تسليم المسلمين للفرنج على حسب قولهم. عندئذ سعى شاور إلى الصلح وقبله شيركوه لسوء موقف جيشه وليخرج الصليبيين من مصر بأي ثمن، وقبل ترك مصر مقابل مبلغ من المال، على أن يخرج

٢٤٠- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٥٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص ١٤٠؛ نظير سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين، القاهرة ١٩٥٧، ص٨.

٢٤١- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٥٨؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ٥، ص ٣٤٨.

٢٤٢- ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق دومنيك سورديل، دمشق ١٩٥٣، جـ١، ص ٢٩.

٢٤٣- ابن الاثير، الكامل، جـ٩، ص ٩٤ - ٩٦؛ ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص ١٤٨؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ٥، ص ٣٤٨؛ حسن حبشي، نور الدين، ص ١١٠.

٢٤٤- Récueil des historiens des croisades, Hist. Occ., Paris, 1844, p.928; Schlumberger, Campagnes du roi Amaury Ier, de Jérusalem en Egypte au XIIe siècle, Paris,1906, pp.142-143.

٢٤٥- أبو شامة، الروضتين، جـ١، ص ١٦٨.

٢٤٦- المقريزي، الخطط، جـ١، ص ٣٥٨؛ ابن تغري، بردي، النجوم، جـ٥، ص ٣٤٩.

الصليبيون أيضا[٢٤٧] الذين اشترطوا منحهم مبلغا من المال أيضا وأن يكون لهم بأبواب القاهرة حامية[٢٤٨]، ووافق شاور على هذا العرض، وخرجت القوتان.

بيد أن الصليبيين صمموا هذه المرة على سباق جيش نور الدين فى الوصول إلى مصر بغية احتلالها وأسرع عمورى بالوصول إلى الريف المصرى شرقى الدلتا المعروف بالحوف الشرقى فى سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م[٢٤٩] وقتل الرجال والنساء والشيوخ فى بلبيس مما جعل شاور يرتعد من الفرنجة وجمع جاليتهم فى مصر وقتل منهم جماعة كبيرة وحفر خندقا وبنى حصنا، ثم أحرق الفسطاط وهجر أهلها إلى القاهرة بعد أن وزع عليها عشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل[٢٥٠]، ووصلت الانباء إلى نور الدين فأسرع بارسال شيركوه ومعه صلاح الدين على رأس حملة ثالثة، وقيل أنه كان ينوى أن يخرج بنفسه على رأسها[٢٥١]، فلما سمع الصليبيون بخروج جيش نور الدين قبلوا الصلح مع شاور الذى عرض عليهم مائة ألف دينار[٢٥٢] على أن يرد إليهم بقية مليون دينار أخرى فيما بعد[٢٥٣]، ورحل الفرنج عن مصر بعد أن اقترب جيش نور الدين من القاهرة، وقتل شاور لغدره وخيانته واستعانته بالصليبيين المرة بعد الأخرى على يد شيركوه بعد أن أخذ إقرارا من الخليفة العاضد بأنه هو الذى أوصى بقتله لخيانته[٢٥٤]، ولم يجد الخليفة من بين رجاله من يصلح للوزارة فاختار أسد الدين شيركوه ليكون وزيره وتلقب بالسيد الأجل، الملك المنصور، سلطان الجيوش[٢٥٥]؛ لسيطرته على جيش الفاطميين وجيش نور الدين[٢٥٦]. ولكن شيركوه لم يمكث فى الوزارة أكثر من شهرين ومات بعدها، وقيل أيضا أن العاضد

٢٤٧- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٤٦٧.

٢٤٨- ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص ١٥٢؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٨؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٤٩.

٢٤٩- ابن الاثير، الكامل، جـ٥، ص ٩٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص ١٥٧؛ أبو شامة، الروضتين، جـ١، ص ١٧٠؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٥٠.

٢٥٠- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٣٥، ٣٣٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٥٠.

٢٥١- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٤٧٠؛ الناصر صلاح الدين يوسف الايوبى، بيروت ١٩٦٧، ص ٦٩.

٢٥٢- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٥٠.

٢٥٣- ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص ١٦٠؛ عبد المنعم ماجد، الناصر صلاح الدين، ص ٦٨.

٢٥٤- ابن الأثير، الكامل، جـ٩، ص ١٠١؛ أبو شامة، الروضتين، جـ١، ص ١٧١ - ١٧٢؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ٣٩٤؛ المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٤٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٥١-٣٥٢.

٢٥٥- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٠، ص ٨٠ ، ٩٠.

٢٥٦- عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين، جـ١، ص ٨٤؛ الناصر صلاح الدين، ص ٧٢.

سمه[٢٥٧]، واختير صلاح الدين مكانه، وتلقب بالملك الناصر فى ٢٥ جمادى الآخر سنة ٥٦٤هـ/ ٢٦ مارس ١١٦٩م[٢٥٨]، وكتب له العاضد سجل الوزارة بخط يده، وألبسه خلعة الوزارة أمام جمع عظيم من موظفى الدولة[٢٥٩].

كان موقف صلاح الدين منذ ولى الوزارة موقفا غريبا، فهو وزير لخليفة مصر العاضد الشيعى المذهب، وفى الوقت نفسه قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السنى المذهب، وهذا يعنى أنه كان موزع الولاء، ومع ذلك فقد اتبع سياسة الحكمة والتؤدة إزاء الرجلين[٢٦٠].

وكان نور الدين يود أن يبادر صلاح الدين إلى القضاء على الدولة الفاطمية، وقطع الخطبة عن آخر خلفائها العاضد، والخطبة للخليفة العباسى المستنجد بالله، وذلك لكراهية نور الدين للشيعة، ورغبة منه فى تلبية مطلب الخليفة العباسى، فقد كان دائم الإلحاح عليه بأن يسارع بإقامة الخطبة له على منابر مصر[٢٦١]. بيد أن صلاح الدين كان أعرف من نور الدين بأحوال مصر، ولهذا آثر التمهل حتى يمكنه تمهيد الطريق قبل أن يضرب ضربته الأخيرة، خاصة وقد شعر بأن أعيان المصريين يميلون صراحة إلى الخلافة الفاطمية، وأن المذهب الشيعى قد انتشر بينهم انتشارا هائلا، بل «إنه خالط من المصريين اللحم والدم» على حسب تعبير القاضى الفاضل[٢٦٢].

بدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره، فأبعد هؤلاء القواد عن القاهرة واستولى على إقطاعاتهم ومنحها لقواده هو ليضمن ولاءهم وإخلاصهم، ثم أرسل إلى نور الدين يستأذنه فى أن يرسل إليه آباه نجم الدين أيوب، الذى كان بعد وصوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين، كما سوف نرى عند الحديث عن قيام الدولة الأيوبية، وذلك لما كان يتمتع به من مكر ودهاء وخبرة طويلة[٢٦٣].

كذلك عمل على محاربة الدعوة الفاطمية وساعده على ذلك أنه كان له الإشراف على القضاء والدعوة معا، فعزل قضاة مصر الشيعة وقطع أرزاقهم، وعين صدر الدين عبد الملك

٢٥٧- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٣، ص ٤٧٩؛ المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٥١.

٢٥٨- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص٤٧٤؛ الناصر صلاح الدين، ص ٧٢.

٢٥٩- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١٠، ص ٣٠٨.

٢٦٠- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٥٥.

٢٦١- السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ١٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٦، ص ٧.

٢٦٢- ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص ٢٠٠؛ عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٤٧٧.

٢٦٣- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٥٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٩.

بن درباس الشافعى قاضيا للقضاة[٢٦٤]، كما شرد الدعاة وألغى مجالس دعوتهم، وأزال أصول المذهب الشيعى مثل الأذان «بحى على خير العمل»، بدلا من الأذان «بحى على الفلاح» وحذف من على العملة والطراز العبارات الشيعية مثل «على ولى الله»[٢٦٥]، ومنع صلاة الجمع بالجامع الأزهر[٢٦٦]. ولتنفيذ ذلك أخذ فى تعميم إنشاء المدارس فى مصر مقتديا فى ذلك بنور الدين، الذى أكثر من بناء المدارس فى الشام[٢٦٧] لمحاربة المذهب الشيعى والدعوة للمذهب السنى وتدريسه. وكانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين فى مصر هى المدرسة الناصرية التى شيدت فى الفسطاط لتدريس المذهب الشافعى[٢٦٨]. وهكذا «اشتهر مذهب الشافعية واندرس مذهب الإسماعيلية بالكلية وانمحى أثره ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به «على حد تعبير المؤرخ ابن واصل[٢٦٩]».

وتدلنا هذه العبارة الأخيرة على مدى أهمية الخطوات التى قام بها صلاح الدين فى حرص وحذر للتمهيد لتحقيق رغبة الخليفة العباسى ونور الدين بقطع الخطبة عن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، ولما تم لصلاح الدين إضعاف جانب الخلافة الفاطمية لم يتردد فى إلغائها فى مصر وذلك فى أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ/ العاشر من سبتمبر ١١٧١م وأعاد الخطبة من جديد للخلافة العباسية وللخليفة المستضئ بنور الله الذى كان قد تولى بعد أبيه المستنجد بالله فى سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م، بعد انقطاع دام حوالى قرنين من الزمن[٢٧٠].

وتروى المصادر التاريخية روايات متعددة بصدد قطع الخطبة عن الخليفة العاضد منها أن صلاح الدين لما خطب لبنى العباس اغتم العاضد ومات، وقيل أيضا أنه كان فى يده خاتم فيه سم فتناوله ومات، وروى كذلك أن الطبيب الذى كان يعالجه لما رأى رغبة صلاح الدين فى عزله، امتنع عن مداواته[٢٧١]. كما زعمت بعض مصادر الفرنجة أن توران شاه أخو صلاح هو الذى تولى قتل العاضد بنفسه[٢٧٢].

٢٦٤- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٩.

٢٦٥- مايسه محمود داود، المسكوكات الفاطمية، ص ٤٧.

٢٦٦- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٦؛ حسن عبد الوهاب، المساجد الأثرية، جـ١، ص ٥٢ - ٥٣.

٢٦٧- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٦٣؛ ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٦، ص ٥٤ - ٥٥؛ أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية، العلوم العقلية، ص ٢٩ - ٣٠.

٢٦٨- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٦٣؛ السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ١٤٢.

٢٦٩- ابن واصل، مفرج الكروب، جـ١، ص ٢٠٠ - ٢٠١؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٩.

٢٧٠- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٤١.

٢٧١- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

٢٧٢- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٤٨٤؛ Ency. de l'Islam, art. al-ʿAdid, IV, p88.

خلاصة القول أن الدولة الفاطمية انتهت بعد أن حكمت مصر قرابة قرنين من الزمان كانت مصر فى خلالهما إمبراطورية مستقلة واسعة مترامية الأطراف ذات حضارة مجيدة مزدهرة(٢٧٣). وجدير بالملاحظة أيضا أن هذه الدولة كانت لا تعرف وسطا، فهى إما فى قمة المجد والشموخ، أو فى حضيض الضعف والمهانة، وتتسع رقعتها تارة حتى تمتد من أقصى المغرب إلى العراق، ثم نراها تنكمش على نفسها فى مصر محاولة الدفاع عن كيانها ضد الطامعين فيها.

ونجدها تارة دولة غنية كأغنى ما تكون الدول، تبهر العالم بثرائها وكنوزها، ونراها وقد خيم عليها الفقر وحطمتها المجاعة حتى لا يجد خليفتها ما يأكله. ونراها دولة نشرت لواء التسامح الدينى، حتى وجد الكل على اختلاف عقائدهم الأمن والأمان، ونراها فى وقت أخر كأشد ما تكون تعصبا واضطهادا لغير شيعتها.

حقيقة أنه كان لهذه الدولة أعظم شأن فى تاريخ مصر الإسلامية بل إنها صبغت مصر بصبغة لاتزال آثارها باقية إلى اليوم.

فمن الناحية السياسية نلاحظ أن الدولة الفاطمية قامت فى وقت بلغت فيه الخلافة العباسية أدنى درجات الضعف ولم يعد لخلفائها من الأمر إلا الاسم فقط، ولم يعد نفوذ الخليفة يتعدى جدران قصره الذى أصبح فيه أشبه بالسجين فى يد أمير الأمراء، وقد ترتب على هذا قيام الفتن والثورات فى كل مكان وانفصلت الولايات البعيدة وقامت الدول المستقلة(٢٧٤). فى هذا الجو العام من الضعف والانقسام قامت الدولة الفاطمية قوية فتية وبسطت نفوذها على أرض تمتد من شاطئ المحيط إلى حدود العراق، بل دعى لها بعض الوقت على منابر بغداد(٢٧٥) كما سبق أن نوهنا من قبل.

وكان الخلفاء الأوائل رجالا أقوياء استطاعوا أن يفرضوا هيبة الحكم وسلطان الخلافة على هذه الدول المترامية الأطراف، وظلت هذه الدولة متماسكة حتى كانت خلافة المستنصر فكان ذلك إيذانا بتفككها وضياع أملاكها، وكانت العوامل التى ساعدت على ذلك كثيرة منها ضعف الخلفاء، وانقسام الجيش، والأزمة الاقتصادية التى تعرضت لها مصر فى أواخر عهد الخليفة المذكور (٤٥٧ - ٤٦٤هـ/ ١٠٦٥ - ١٠٧١م)(٢٧٦). على أن أهم هذه الأسباب وأكبرها أثرا، ظهور قوة جديدة فى الشرق، هى قوة السلاجقة التى عملت على الاستيلاء على أملاك مصر فى الشام والحجاز، ونجحت فى ذلك حتى أنهم حاولوا غزو

٢٧٣- جمال الدين الشيال، مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٥٧.

٢٧٤- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، جـ١، ص ٨٥.

٢٧٥- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٥، ص ٦، ١٢.

٢٧٦- المقريزى، إغاثة الأمة، ص ٢٤ وما بعدها.

مصر نفسها[٢٧٧] لولا جهود بدر الجمالى، وإن كان هذا الأخير لم يستطع أن يستعيد أملاك مصر بالشام، ومات وليس لها سوى بعض مدن ساحلية سرعان ما فقدتها أمام الغزو الصليبى الذى أخذ بدوره يهدد مصر نفسها كما سبق أن أوضحنا.

أما من الناحية الدينية فقد قامت الدولة الفاطمية على عقيدة معينة تخالف عقيدة الدولة العباسية المنافسة لها، فكانت خلافة الفاطميين خلافة عقائدية مذهبية تقوم على الإمامة وانتقالها من الأب إلى الابن عن طريق الوصية أو النص. وكان هناك فقه إسماعيلى يخالف الفقه السنى كما أن المذهب نفسه كان فى حاجة إلى دعاة يقومون بنشره فى مختلف الأرجاء، ويعملون على جذب الناس بالحجة والإقناع. ولما كان الخليفة هو رأس السلطة الدينية فقد كان يجمع شئون المذهب فى يده كالقضاء والدعاة تحت إشرافه المباشر، كما كان يختار بنفسه القضاة والدعاة، بيد أن كل هذا لم يستمر طويلا وسرعان ما انتقلت كل هذه السلطات إلى الوزراء فى العصر الثانى الذين تدخلوا أيضا فى اختيار الخلفاء أنفسهم مما أفضى إلى انقسام المذهب الإسماعيلى إلى فرق متعادية وجعل الناس فى النهاية ينصرفون عنه حتى أن صلاح الدين قضى على الدولة الفاطمية والمذهب الإسماعيلى دون أى معارضة، أو كما يقول المؤرخ ابن الأثير «ولم ينتطح فيه عنزان» ومر الأمر بهدوء وعاد المصريون إلى المذهب السنى من جديد كأنه لم يكن هناك مذهب آخر عاش بينهم قرنين من الزمان[٢٧٨].

وشهد العصر الفاطمى فى مصر أيضا ازدهاراً أدبيا وعلميا نتيجة إغداق الخلفاء الأموال على العلماء والأدباء والمفكرين، فأصبحت القاهرة فى عهدهم كعبة العلوم والفنون ومركز إشعاع جذب إليه العلماء والشعراء وأهل الفنون من مختلف أنحاء العالم الإسلامى، كما اهتم الفواطم بمحاولة نشر العلم على أوسع نطاق وبين مختلف الطبقات وذلك بتشجيع نسخ الكتب وإنشاء المكتبات مثل دار الحكمة[٢٧٩]. ويشير المقريزى إلى أن مكتبة الخلفاء الفاطميين كانت فى القصر الكبير، وكانت تتألف من أربعين حجرة وتضم عددا ضخما من الكتب التى تخصصت فى فنون العلوم المختلفة. كما يذكر أيضا أن أحد العامة تحدث مرة أمام الخليفة عن كتاب العين الذى ألفه الخليل بن أحمد، فما كان من هذا الخليفة إلا أن أحضر من مكتبته أكثر من ثلاثين نسخة من هذا المؤلف ومن بينها نسخة بخط المؤلف نفسه. وروى كذلك أن أحد الناس قدم إلى الخليفة العزيز نسخة من تاريخ الطبرى كان قد

٢٧٧- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ١٩١.

٢٧٨- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، جـ١، ص ٨٨ - ٨٩.

٢٧٩- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٥٨ - ٤٥٩؛ جـ٢، ص ٣٤٢.

اشتراها بمائة دينار، فأخبره الخليفة بأن لديه أكثر من عشرين نسخة من هذا الكتاب من بينها أيضا نسخة المؤلف نفسه. وقد قيل أن مكتبة هذا الخليفة كانت تضم علاوة على ما تقدم ثمانية عشر ألف مجلد عن علوم القدماء كان من بينها على عهد الخليفة المستنصر ٢٩٠٠ نسخة من القرآن مجلدة تجليدا جميلا وكتبها أمهر الخطاطين وأشهرهم ومذهبة ومفضضة، وتزينها عناصر زخرفية غاية فى الدقة والروعة(٢٨٠).

وإذا كان غالبية التراث الأدبى للفاطميين قد فقد فيما فقد من تراثهم فإن أعظم مآثرهم جعل الأزهر معهدا للدراسات الفقهية المنظمة، وهى الخطوة الأولى التى جعلت الأزهر فيما بعد تلك الجامعة الإسلامية الشامخة(٢٨١).

والواقع أنه كان للرخاء الذى عم البلاد فى معظم فترات الحكم الفاطمى أثره الواضح على تلك النهضة الفنية والعمرانية التى شهدها هذا العصر، والتى شارك فيها الخلفاء وكبار رجال الدولة بما أولوه للفنانين من تشجيع ورعاية. ولعل أهم الآثار الفاطمية التى مازالت باقية إلى يومنا هذا هى أسوار وأبواب القاهرة التى أعاد بناءها بدر الجمالى، والجامع الأزهر، وجامع الحاكم، ومشهد أمير الجيوش بالمقطم والجامع الأقمر، وجامع الصالح طلائع والحمام الفاطمى وغيرها مما سوف نتعرض له بالتفصيل فى الفصل التالى.

ولا جدال فى أن الشعب المصرى قد سعد طوال حكم الفاطميين بالأعياد الكثيرة التى كان ينعم فيها ببر الفاطميين وبذخهم مثل عيد أول العام الهجرى الذى كان يعمل فيه عدة خراف كثيرة، والكثير من الرؤوس حيث يتم توزيعها على أرباب الرتب وأصحاب الدواوين مع جفان الألبان والخبز وأنواع الحلوى وذلك فى ليلة أول المحرم من كل عام(٢٨٢)، وعيد مولد النبى ﷺ، الذى كان يصنع فيه عشرون قنطارا من الحلوى(٢٨٣)، وليالى الوقود الأربعة وهى أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه التى وصفها أحد المؤرخين بأنها من أبهج الليالى وأحسنها(٢٨٤)، وعيد الغدير نسبة إلى غدير خم بين مكة والمدينة، الذى يقال أن الرسول ﷺ نزل به عند عودته من مكة إلى المدينة بعد حجة الوداع فى السنة العاشرة من

٢٨٠- المقريزى، الخطط، جـ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩؛ زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين، القاهرة ١٩٣٧، ص ٢٧ - ٢٩.

٢٨١- حسن إبراهيم، الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، القاهرة ١٩٣٢، ص ١٢٧؛ محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية فى مصر، ص ١٧٥.

٢٨٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٩٠.

٢٨٣- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٣٣؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى، ص ١٣٢.

٢٨٤- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٦٥ - ٤٦٧.

الهجرة ويعتبره الشيعة مكان مبايعة من الرسول ﷺ لعلى بن أبى طالب[٢٨٥] كما سبق أن أشرنا.

وهناك أيضا بعض الأعياد التى اتخذت صبغة قومية مثل عيد جبر أو كسر الخليج[٢٨٦] الذى يعقب الاحتفال بوفاء النيل، وعيد النوروز[٢٨٧] ونعنى به عيد الربيع، وعيد خميس العهد الذى أطلق عليه العامة اسم خميس العدس، وهو أحد الأعياد المسيحية التى احتفل بها الفاطميون مشاركة منهم للنصارى الذى كان من عادتهم طبخ العدس فى هذا اليوم[٢٨٨].

خلاصة القول أن الفاطميين بالغوا فى إحياء الأعياد والمواسم مبالغة تستحق منا إمعان النظر لأن الثراء لم يكن السبب الوحيد وراء هذا الإسراف، فقد عرفت مصر حكاما غيرهم كانوا أيضا على درجة كبيرة من الثراء، لم نسمع عنهم كل هذا الإسراف فى إقامة الأعياد ومد الأسمطة والولائم التى اشتهر بها رجال العصر الفاطمى.

وعلى هذا فالمسألة تبدو فى نظرنا أبعد من إظهار الثراء وخاصة إذا تذكرنا أن الدولة الفاطمية قامت على أساس الدعوة لمبدأ جديد ومذهب جديد فى أرض لم يسبق لها به معرفة من قبل، وكان لابد إذن لنشر تعاليم هذا المذهب الشيعى أن تقوم الدولة بعمل دعاية واسعة تنفذ إلى قلوب الناس وعقولهم وفق المستويات الفكرية السائدة فى تلك العصور، ولم يجد هؤلاء الخلفاء أحسن من وسيلة إشباع البطون سبيلا للدعاية إلى مذهبهم والنفاذ إلى القلوب، وكسب ولاء الناس ومحبتهم وإعجابهم بالنظام الجديد. هذا فى الوقت الذى دأب فيه رجال الفكر من دعاة الفاطميين على اكتساب جماهير الناس عن طريق نشر مبادئ المذهب الجديد، حيث اتخذوا من الجوامع ودور العلم والحكمة مراكز لهذه الدعوة الفكرية وخاصة أثناء هذه الأعياء والاحتفالات، تلك الأعياد التى لا تزال قائمة فى المجتمع المصرى حتى يومنا هذا[٢٨٩].

٢٨٥- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٢، ص ٤٠٦؛ جـ١٣، ص ٢٤١؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٨.

٢٨٦- عن هذا العيد انظر ناصر خسرو، سفر نامة، ص ٥٢ - ٥٤؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٧٧ - ٤٧٩؛ اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ١٠٧؛ عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى، ص ١٨٦ - ١٨٩.

٢٨٧- عنه انظر، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٢، ص ٤٠٨ ، ٤١٠ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٩٣ - ٤٩٤؛ طه ندا، الأعياد الفارسية فى العالم الإسلامى، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، المجلد ١٧، سنة ١٩٦٣، ص ٧ - ٣١.

٢٨٨- القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٢، ص ٤١٧؛ المقريزى، خطط، جـ١، ص ٢٦٦.

٢٨٩- عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى، ص ١٢٦.

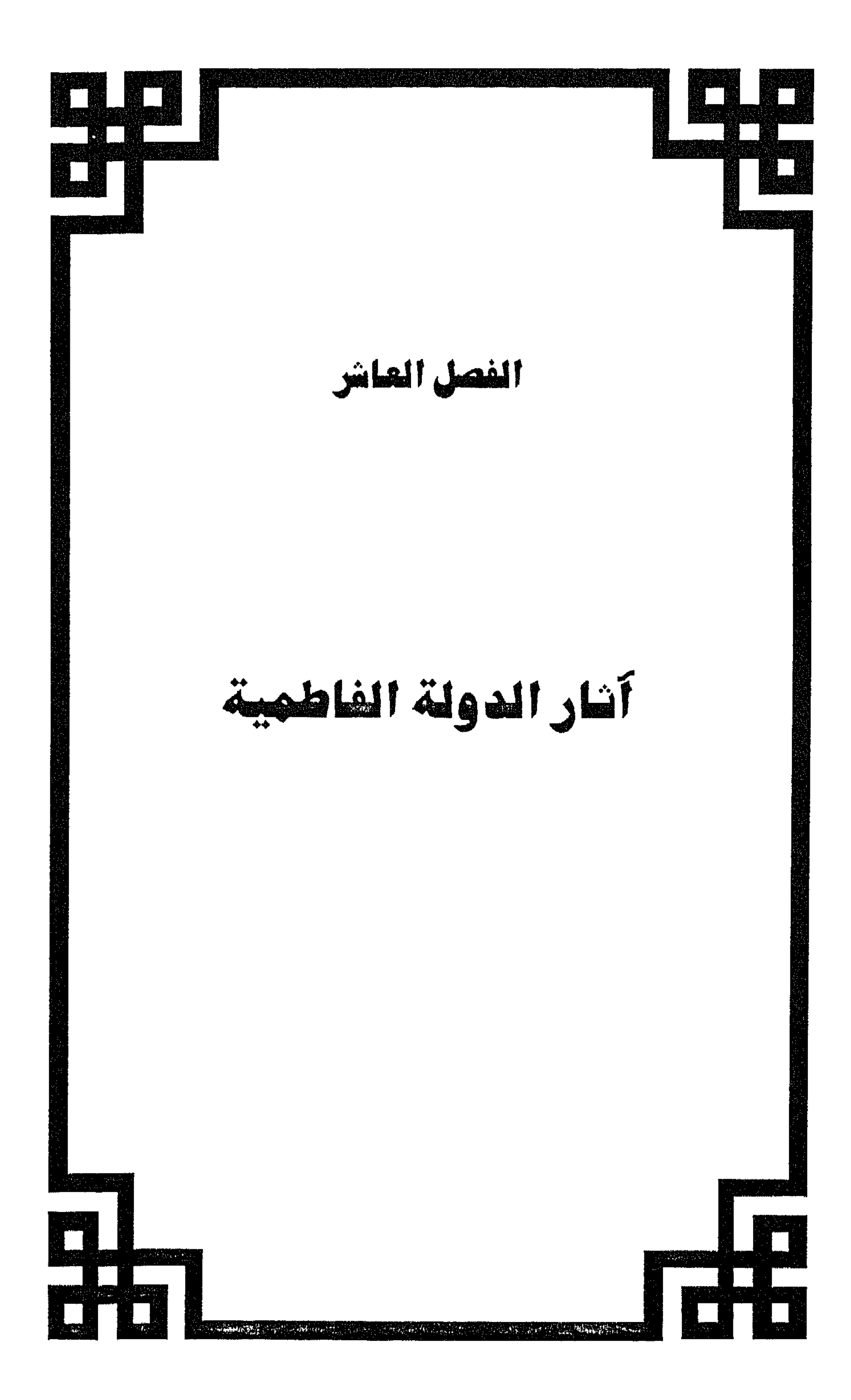
بقى ان نشير فى نهاية الحديث عن العصر الفاطمى أن المصريين وجدوا تحت حكم هذه الخلافة، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم الحرية فى أداء شعائرهم الدينية، كذلك لقى غير المسلمين من أهل الذمة معاملة طيبة لاسيما وقد استعان بهم الفاطميون فى كثير من الأعمال وخصوصا الأعمال المالية، بل وصل الأمر بالخلفاء إلى الاستعانة بالوزراء الأقباط الذين تعصبوا بدورهم لأبناء دينهم وخصوهم بالوظائف العليا فى الدولة وأبعدوا عنها المسلمين بل عملوا على اضطهادهم فى بعض الأحيان[٢٩٠] مما أدى إلى قيام الفتن والاضطرابات بين المسلمين والنصارى مما أدى إلى تدخل بعض الخلفاء كما حدث مثلا فى أيام الخليفة الحاكم سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م الذى قاد حملة اضطهاد عنيفة ضدهم لإلزامهم بالشروط العمرية، انتهت إلى التسامح من جديد معهم قبيل قتله فى سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م[٢٩١].

ثبت بأسماء خلفاء الدولة الفاطمية

١	المعز أبو تميم معد ٣٤١هـ/ ٩٥٢م
٢	العزيز أبو منصور نزار ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م
٣	الحاكم أبو على المنصور ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م
٤	الظاهر أبو الحسن على ٤١١هـ/ ١٠٢١م
٥	المستنصر أبو تميم معد ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م
٦	المستعلى أبو القاسم أحمد ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م
٧	الآمر أبو على منصور ٤٩٥هـ/ ١١٠١م
٨	الحافظ أبو ميمون عبد المجيد ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م
٩	الظافر أبو منصور إسماعيل ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م
١٠	الفائز أبو القاسم عيسى ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م
١١	العاضد أبو محمد عبد الله ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م

٢٩٠- ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، بيروت جـ١٩، ص ٣٣؛ J.Mann, The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid caliphs, Oxford, 1920, pp. 14-20.

٢٩١- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٥٦ - ٣٥٨.



الفصل العاشر

آثار الدولة الفاطمية

يرتفع عدد الآثار الباقية من العصر الفاطمى إلى سبعة وعشرين أثرا عدا ما اندثر منها، بيد أننا لن نستطيع أن نتعرض هنا إلا للبارز والهام من هذه الآثار الفاطمية.

مدينة القاهرة

فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ/ ٦ يوليو ٩٦٩م[١] سار الجيش الفاطمى بقيادة جوهر الصقلى فى مدينة الفسطاط، بعد الاستيلاء عليها من بقايا الإخشيديين، وهو يحمل لواء النصر، حتى حط الرحال فى السهل الرملى الواقع إلى الشمال من الفسطاط، وهو سهل يحده من الشرق جبل المقطم، ومن الغرب خليج أمير المؤمنين. وكان هذا السهل خاليا من البناء إلا قليلا، مثل بقايا بستان كافور الإخشيد، وحصن صغير يسمى قصر الشوك، ودير مسيحى يعرف بدير العظام، وهو المكان الذى يشغله حاليا الجامع الأقمر[٢].

فى هذا السهل اختط جوهر فى ليلة وصوله رابعة مدن مصر الإسلامية، التى قرر تأسيسها لتكون مدينة ملكية حصينة للخليفة وأتباعه؛ كما اختط القصر الفاطمى، الذى أعده ليستقبل فيه مولاه المعز لدين الله. وحينما أتت وفود أعيان الفسطاط فى صباح اليوم التالى لتهنئته بالفتح، وسلامة الوصول، وجدوا أن مواضع أسس البناء الجديد كانت قد حفرت[٣]. وبنى جوهر سورا خارجيا من اللبن على هيئة مربع. طول كل ضلع من أضلاعه حوالى ١٢٠٠ متر[٤]، أدرك المقريزى فى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى جزءاً منه فيما بين باب البرقية ودرب بطوط، خلف السور الحالى الذى بناه فيما بعد صلاح الدين الأيوبى، وأبدى دهشته من كبر حجم الطوب المستخدم فى البناء، إذ بلغ طول الواحدة منه قدر ذراع فى ثلثى ذراع، كما أشار أن هذا السور كان من السمك بحيث يستطيع أن يمر فوقه فارسان جنبا إلى جنب[٥]. ومن الظريف أن ياقوت الحموى قد أشار إلى رواية مشابهة عند حديثه عن جدران مدينة المهدية، عاصمة الفاطميين الأولى فى شمال

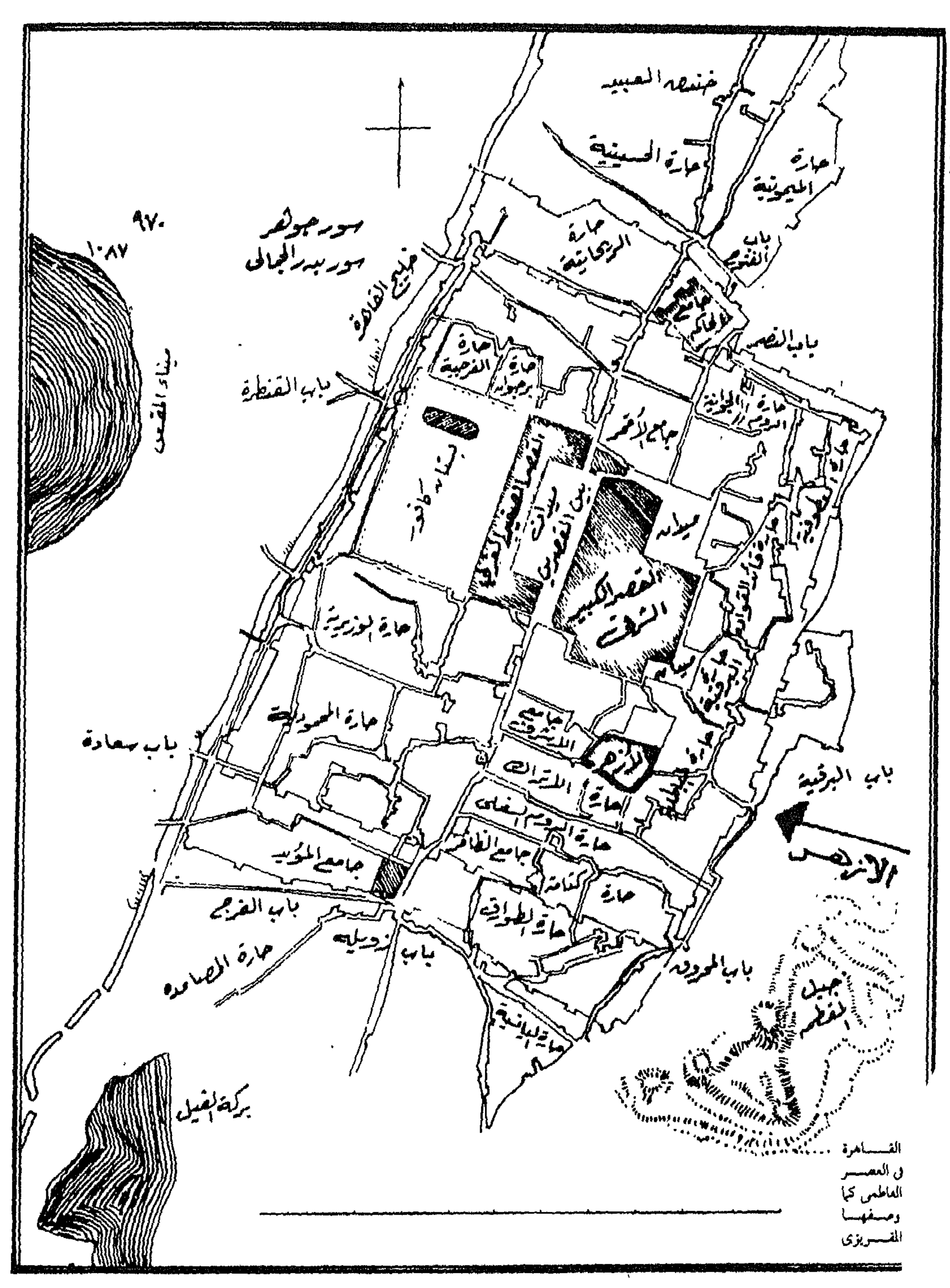
١- ابن الأثير، الكامل، جـ٨، ص ٤٣٥؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ١٦٦؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٥، ص ٣٥؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٤٩؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٦١.

٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٥٩؛ K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.20.

٣- ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ١٦٨؛ جـ٢، ص ٥ – ٧؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٥، ص ٣٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٦١.

٤- ابن دقماق، الانتصار، جـ٥، ص ٣٦؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٧٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة بولاق، جـ١، ص ٤٥.

٥- المقريزى الخطط، جـ١، ص ٣٧٧.



شكل (١٠) خريطة لمدينة القاهرة فى العصر الفاطمى، عن الأزهر فى عيده الألفى.

أفريقيا[٦]. ولعل السبب فى بناء الأسوار بهذا السمك راجع إلى تمكين الحامية المدافعة عن المدينة من التجمع السريع عند أية نقطة معرضة لأن يتسورها الأعداء، أو يهاجموها بطريقة أو بأخرى[٧].

ونظرا لأن الأعمال الإنشائية قد تمت فى ليلة وصول الجيش الفاطمى، فإن جوهر الصقلى قد لاحظ فى صباح اليوم التالى أن جدران السور والقصر جاءت غير معتدلة، فلم تعجبه، ومع ذلك فقد تركها على حالها، واستمر فى تشييد البنيان حتى أكمله[٨]. وكان كل ضلع من أضلاعه يواجه إحدى الجهات الأصلية إلى حد كبير، فقد كان الضلع الشرقى فى محاذاة جبل المقطم، والضلع الغربى فى محاذاة الخليج، والضلع الجنوبى فى مواجهة مدينة الفسطاط، والضلع الشمالى فى مواجهة السهل الرملى. وقد ضم هذا السور جميع المنشآت الداخلية بالقاهرة، فبدت المدينة كأنها حصن عظيم يدور حوله سور سميك. وقد اختلف المؤرخون فى الغرض الذى أقيم من اجله، فمن قائل أن جوهراً «قصد باختطاط القاهرة– حيث هى اليوم– أن تصير حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها، فأدار السور اللبن على مناخه الذى نزل فيه بعساكره، وأنشأ داخل السور جامعا وقصرا، واعتبرها معقلا يتحصن به، وتنزله عساكره، واحتفر الخندق من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراءها من المدينة»[٩]. على حين رأى بعض آخر فى هذا السور هدفا أرستقراطيا يختلف عن هدف التحصين، كما يفهم من عبارة المؤرخ ابن دقماق حين يقول إن جوهرا «بنى لسيده القاهرة والقصور، ليكون هو وأصحابه وأحفاده بمعزل عن العامة. وعلى هذه العادة فعل ملوك بنى عبد المؤمن ذلك فى مراكش وتلمسان وغيرها»[١٠].

وعلى هذا فمن المرجح أن يكون جوهر قد قصد الغرضين معا، بمعنى أنه استطاع أن يحصن المدينة تحصينا كافيا، وأن يعوق فى الوقت نفسه عامة الشعب فى كل من الفسطاط والعسكر والقطائع من الوصول إلى القاهرة، فقد كان محظورا على أى فرد اجتياز أسوار القاهرة إلا إذا كان من جند الحامية الفاطمية، أو من كبار موظفى الدولة،

٦– ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ٤، ص ٦٩٤.

٧– K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.21.

٨– المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٦١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص ١٦٨؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٥، ص٣٦؛ القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٤٩.

٩– المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٦١.

١٠– ابن دقماق، الانتصار، جـ٥، ص ٣٦.

كما كان الدخول إليها وفق تصريح خاص[11]، عن طريق الأبواب الثمانية التى فتحها جوهر فى السور، وهى: اثنان فى السور الشمالى هما باب الفتوح وفى شرقه باب النصر، وباب بعقدين فى السور الجنوبى يطلق عليه باب زويلة، افتتح جوهر إلى الغرب منه بابا آخر أسماه باب الفرج. أما بابا الضلع الشرقى للسور فهما باب البرقية، الذى كشف عنه فى عام ١٩٥٧م فى أثناء إزالة تلال البرقية، وهو يعرف أيضا بباب التوفيق[12]. أما الباب الثانى فى هذا الضلع فهو باب القراطين[13]، الذى عرف فيما بعد بالباب المحروق. وقد عرف بهذا الاسم نتيجة لما فعله سبعمائة مملوك كانوا قد هربوا من القاهرة عندما علموا بمقتل الأمير أقطاى فى ٢١ شعبان سنة ٦٥٢هـ/ ٦ أكتوبر ١٢٥٤م، حيث تركوا منازلهم فى أثناء الليل، وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقا كما جرت العادة بذلك، فأوقدوا النار فى الباب حتى سقط من الحريق، وخرجوا منه. ومنذ ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق[14].

وفى الضلع الغربى كان هناك بابان كذلك، أولهما باب القنطرة الذى بناه جوهر بعد سنتين من بناء السور نفسه، وأقام أمامه قنطرة فوق الخليج ليمشى عليها إلى المقس ليدافع عن القاهرة ضد القرامطة الذين هاجموا مصر فى شوال سنة ٣٦٠هـ/ أغسطس ٩٧١م[15]. أما الباب الثانى فهو باب سعادة، الذى عرف بهذا الاسم تيمنا باسم سعادة ابن حيان ، غلام الخليفة المعز لدين الله، الذى يقال إنه دخل بجيشه مدينة القاهرة من هذا الباب فى رجب سنة ٣٦٠هـ/ مايو ٩٧١م[16].

ويجمع الباحثون الذين تناولوا موضوع تأسيس مدينة القاهرة على صحة القصة المتواترة فى المصادر بصدد اعتماد جوهر على المنجمين عند ابتداء بناء السور، إذ أصدر إليهم الأوامر باختيار طالع سعيد لتأسيس أسوار القاهرة وأبوابها وقصورها. وعندما حفرت الخنادق لبناء أساس الجدران، ثبتت فيها قوائم ربطت بحبال علقت عليها أجراس.

١١- عبد الرحمن فهمى، أسوار القاهرة وأبوابها، كتاب القاهرة، ص ٤٦٩.

١٢- عبد الرحمن فهمى، أسوار القاهرة، كتاب القاهرة، ص ٤٧١.

١٣- نسبة إلى باعة القرط حيث كان يوجد سوق للغنم أمامه انظر، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٣٥٣.

١٤- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٣؛ السلوك، جـ١، ص ٣٨٩- ٣٩١؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٢، ص ٩٧.

١٥- المقريزى، الخطط ، جـ١، ص ٣٨٢.

١٦- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٣.

حتى إذا حانت الساعة المحددة، أرسل المنجمون الإشارة الخاصة بالبدء فى العمل، وأمر العمال بأن يقفوا على تمام الأهبة لإلقاء مواد البناء فى الخنادق المعدة لذلك، عندما تصدر إليهم الإشارة بذلك، وهى دق الأجراس. ولكن قبل أن تحين اللحظة المقررة، وقع غراب على الحبال المشدودة، فدقت الأجراس، فظن العمال أن المنجمين قد أعطوا إشارة البدء فى العمل، فألقوا الأحجار ومواد البناء فى الخنادق المحفورة. وفى هذه اللحظة كان كوكب المريخ فى الطالع، وكان يطلق عليه قاهر الفلك، فسميت المدينة «القاهرة»[١٧]. ومع هذا هناك بعض الباحثين الذين يشكون فى صحة هذه الرواية، استنادا إلى قصة مشابهة رواها المسعودى بصدد بناء الإسكندر لمدينة الإسكندرية[١٨]. وهذا يدفع إلى الاعتقاد أن هذه الرواية خرافة من الخرافات التى أراد بها المؤرخون القدامى تفسير إطلاق اسم القاهرة على هذه المدينة، فقد عرفت فى أول الأمر باسم المنصورية تيمنا باسم المنصورية، التى أنشأها المنصور بالله، ثالث الخلفاء الفاطميين، خارج مدينة القيروان بشمالى أفريقيا[١٩]، ولم تعرف بالقاهرة إلا بعد أربع سنوات، بعد أن حضر الخليفة المعز إلى مصر، ورأى من قراءاته الخاصة للطالع أن هذه التسمية فأل حسن، إذ رأى أن اسم القاهرة مشتق من القهر والظفر، فأطلق عليها اسم القاهرة. ومع هذا أشارت بعض المصادر إلى أن موقع القاهرة لم يرق فى نظر الخليفة لأنها بغير ساحل، وأنه وجه اللوم إلى جوهر قائلا: «فاتك عمارة القاهرة على الساحل»- عند المقس- «فهلا كنت بنيتها على الجرف[٢٠]»، أى منطقة الرصد فى جهة مصر القديمة، لأن هذه المنطقة كانت تشرف على النيل وبركة الحبش، وجمعت بين السهل والجبل، وبين الخضرة والماء.

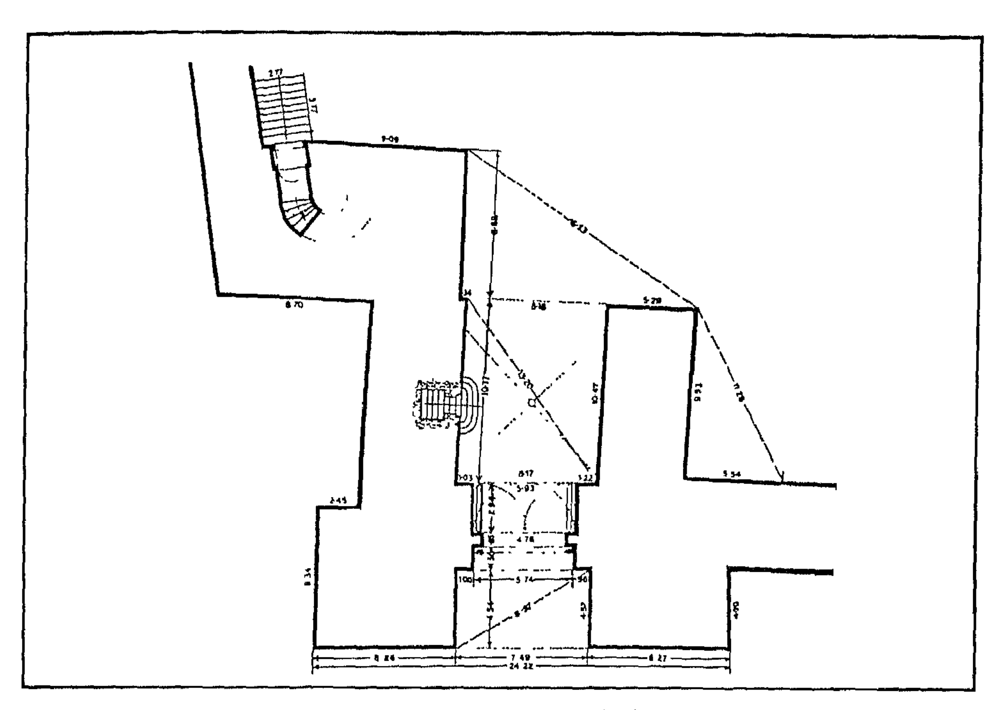
ويفهم من المصادر التاريخية أن سور القاهرة الذى بناه جوهر لم يعمر أكثر من ثمانين سنة، إذ كان قد تهدم فى عصر الخليفة المستنصر بالله[٢١]، فاستبدل به بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر سورا آخر بناه ثلاثة من الإخوة، أحضرهم من مدينة

١٧- المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٣٧٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة بولاق، جـ١، ص ٤٤ ، ٤٥.

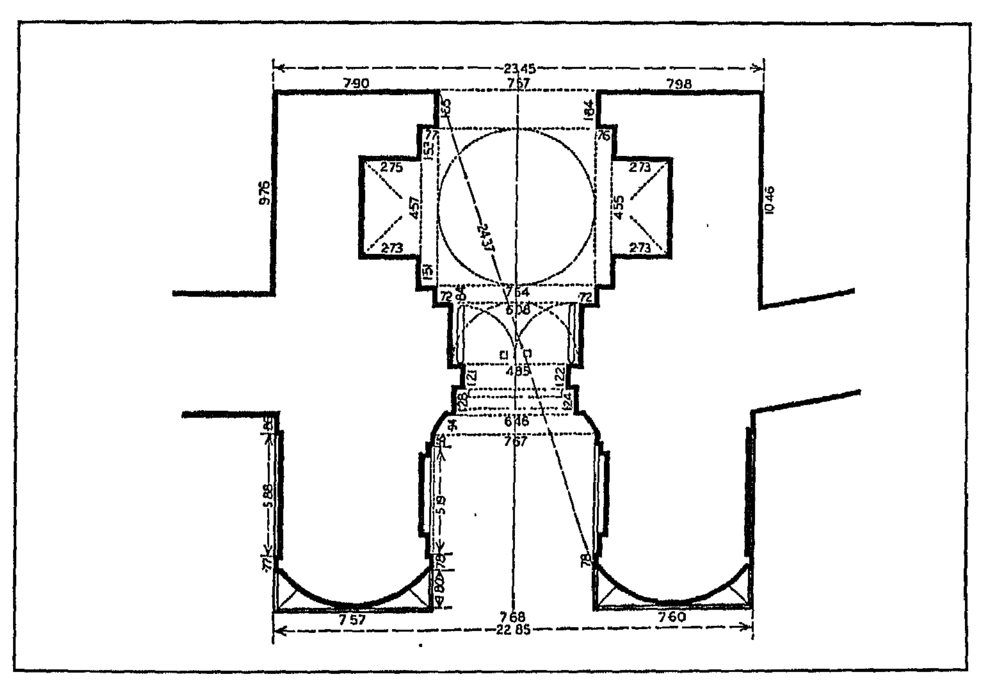
١٩- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٧٧؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٥، ص ٣٥؛ عبد الرحمن زكى، أسوار القاهرة وأبوابها من جوهر القائد إلى الناصر صلاح الدين، مجلة المجلة، العدد (٥١)، ١٩٦١، ص ٣٢ ، ٣٣.

٢٠- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٧٧؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٥، ص ٣٦.

٢١- لاحظ ناصر خسرو عند زيارته لمصر فيما بين ٤٣٩ - ٤٤١هـ/ ١٠٤٧ - ١٠٤٩م أن مدينة القاهرة لم يكن لها سور محصن وكانت أبنيتها الداخلية أعلى من بقايا أسوارها. انظر سفر نامة، ص ٨٩؛ عبد الرحمن فهمى، أسوار القاهرة، القاهرة، ص ٤٦٩.



شكل (١١) باب النصر، مسقط عن كريزويل



شكل (١٢) باب الفتوح، مسقط أفقى عن كريزويل

«الرها» فى شمال العراق بأرض أرمينية[٢٢]، وذلك بعد أن وسع رقعة القاهرة بمقدار ١٥٠ مترا إلى شمال السور القديم[٢٣]، وحوالى ثلاثين مترا إلى الشرق، ومثلها إلى الجنوب[٢٤]. وقد تم تشييد هذا السور فيما بين سنة ٤٨٠ - ٤٨٥هـ/ ١٠٨٧ - ١٠٩٢م[٢٥]، سورا موازيا للأسوار والأبواب القديمة، من الحجر[٢٦] المنحوت، المصقول السطح، المثبت فى مداميك منتظمة[٢٧]، ليكون أوفى بأغراض الدفاع عن القاهرة. وقد بقى من هذا السور الجديد ثلاثة أبواب مهمة، هى: باب النصر، وباب الفتوح شمالا، وباب زويلة جنوبا. وأقدمها جميعا باب النصر المعروف بباب العز، الذى شيد بين برجين مربعين، نقش على أحجارهما رسوم تمثل بعض آلات القتال من دروع وسيوف. ويعلو الباب فتحات أعدت لكى تصب منها المواد الحارقة على العدو المهاجم. ولكل برج سلم يوصل إلى دورين آخرين فوق الدور الأرضى المصمت. وبالدور الأوسط حجرات تسقفها أقبية متقاطعة شيدت من أحجار منحوتة[٢٨]. ويتوج باب النصر شريط به نقش كتابى بالخط الكوفى، يسجل لنا تاريخ إنشاء هذا الباب والسور الشمالى فى سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م. ويعلو المدخل عقد مستقيم من صنج معشقة فى شكل زخرفى، يعد الأول من نوعه فى عمارة القاهرة الفاطمية[٢٩].

وقد أقيم باب الفتوح المعروف بباب الإقبال فى السنة نفسها، ولكنه يختلف من حيث التخطيط عن باب النصر، إذ نجد أن برجيه مقوسا القاعدة، وقد حليت جوانبهما بعقدين مغلقين نحتت حجارتهما على هيئة وسائد حجرية صغيرة متلاصقة، تعد الأولى من نوعها، كما يتوج مدخله مجموعة من العقود، زينت بأشكال متنوعة من معينات وأزهار ونجوم

٢٢- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨١ Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire, Paris, 1932, I, p.233.

٢٣- أحمد فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة ١٩٦٥، جـ١، ص ٢٤؛ فؤاد فرج، المدن المصرية وتطورها مع العصور، القاهرة ١٩٤٣ - ١٩٤٦، جـ٣، ص ٤٢٩.

٢٤- عبد الرحمن فهمى، أسوار القاهرة وأبوابها، القاهرة، ص ٤٧٢؛ انظر أيضا أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص ٢٤، الذى يذكر مساحة مائة وخمسين بالنسبة للاتساع جنوبا.

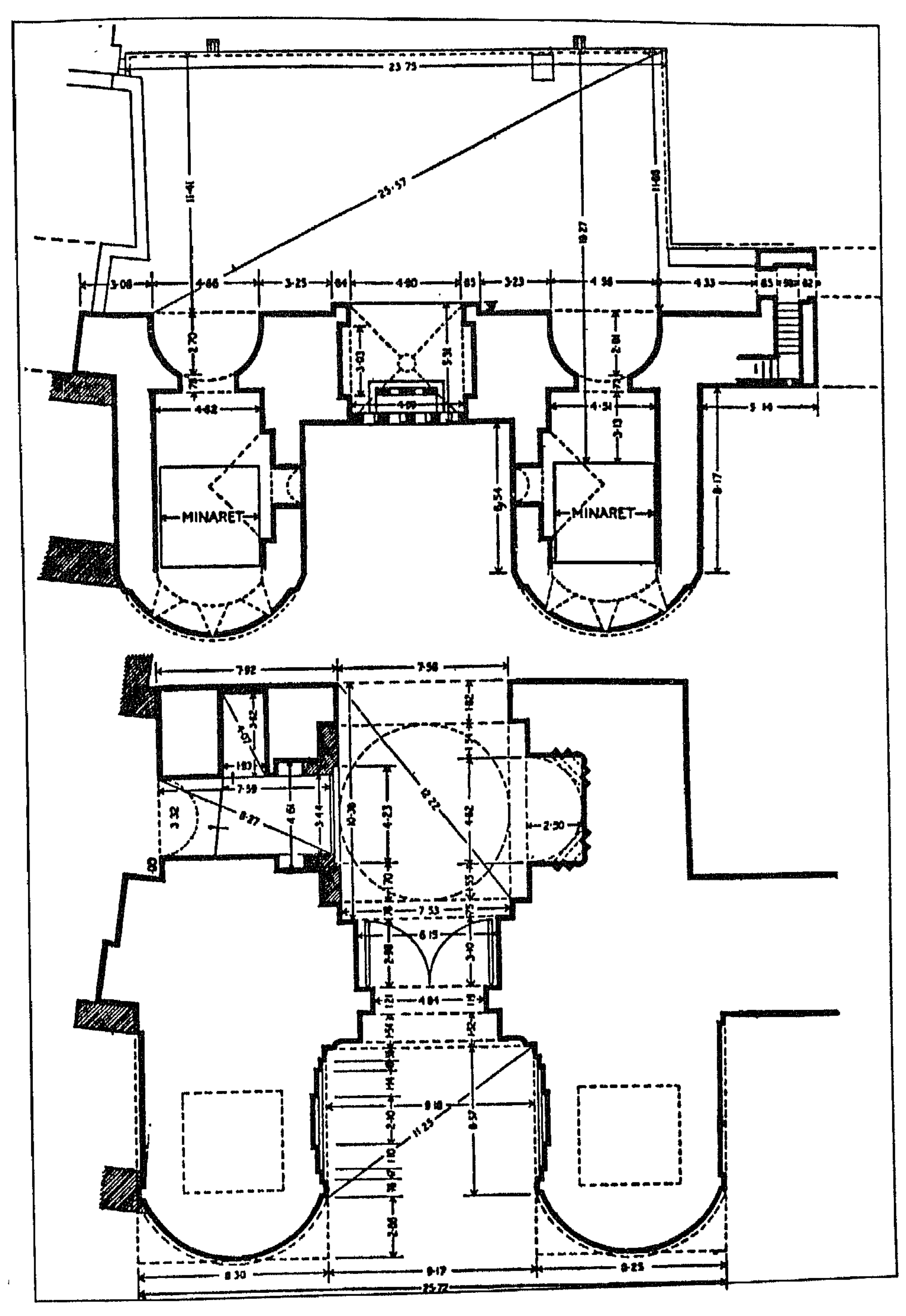
٢٥- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٧٩، ٣٨٠؛ اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٣٢٧؛ ابن الصيرفى، الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٩٠، ص ٩٧؛ ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٥١.

٢٦- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٧٩؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٣، ص ٢٦١.

٢٧- عبد الرحمن فهمى، أسوار القاهرة وأبوابها، القاهرة، ص ٤٧٢.

٢٨- لمزيد من التفاصيل راجع K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pp. 166-176, Hautecaeur et Wiet, Les mosquées du Caire, I, pp. 234-237; D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.68.

٢٩- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص ٢٦؛ عبد الرحمن فهمى، أسوار القاهرة، ص ٤٧٤.



شكل (١٣) باب زويلة، مسقط أفقى، عن كريزويل

ومحارات وفصوص تذكرنا بزخارف العمارة المغربية فى تونس. كما أن ممر البوابة تعلوه قبة ضحلة، مشيدة من الحجر فوق مثلثات كروية، على حين سقفت أبراج الدور الأوسط بقبوات متعارضة[٣٠].

أما باب زويلة فقد تم تشييده مع السور الجنوبى للقاهرة فى سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م. وكان يتقدمه زلاقة كبيرة تغير بعض مظاهرها فى زمن السلطان الكامل الأيوبى. ويفهم من المقريزى أن بدنتى هذا الباب كانتا أكثر علوا مما هما عليه الآن، إلا أن السلطان المؤيد شيخ هدم أعلاهما عند بناء مسجده فى سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، وأقام عليهما مئذنتى مسجده. وبرجى باب زويلة مقوسى القاعدة، ويشبهان برجى باب الفتوح، ولكنهما أكثر استدارة. وممر الباب يعلوه أيضا قبة ضحلة، ترتكز على مثلثات كروية، وإن كانت أغلب زخارف واجهته قد اختفت تماما، فى الوقت الذى بقيت فيه جدرانه خير شاهد على عظمة فن البناء فى زمن الدولة الفاطمية. وبذا صدق الشاعر محمد بن على النيلى حين قال:

ياصاح لو أبصرت باب زويلة لعلمت قدر محله بنيانا
لو أن فرعونا رآه لم يرد صرحا ولا أوصى به هامانا[٣١]

فى قلب هذه المدينة نمت أول بذور العمارة الفاطمية، حيث وضع جوهر أساس السور المحيط بالقاهرة، والقصر الكبير الذى أعده لنزول الخليفة المعز. وقد تلاشى هذا القصر عقب سقوط الدولة الفاطمية، ولم يبق لنا منه سوى الوصف الذى جاء فى بعض المصادر التاريخية، ويفهم منه أنه كان يشتمل على تسعة أبواب[٣٢]، وأنه كان يشغل مساحة تقرب من سبعين فدانا[٣٣] من جملة مساحة القاهرة البالغة ٣٤٠ فدانا[٣٤]، وأنه

٣٠- عنه انظر Hautcoaeur et Wiet, Les mosquées I, pp. 237-238; K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pp. 176-181, D.B. Abouseif Islamic Architecture, p. 69; D. Brandenburg, Islamische Baukunst in Agypten, Berlin, 1966, pp. 246-247.

٣١- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٨٠ - ٣٨١؛ يراجع أيضا ماكتبه K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, PP. 197-205.

٣٢-المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٣٢؛ ابن دقماق، الانتصار، جـ٥، ص ٣٧.

٣٣- ذكر أحمد فكرى أن هذا القصر كان يشغل مساحة تقرب من أربعين فدانا. انظر مساجد القاهرة، جـ١، ص ٢٧ على حين أشار عبد الرحمن زكى أنه كان يشغل مساحة ٦٣ فدانا، انظر موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، القاهرة ١٩٦٩، ص ٢١٠.

٣٤- عبد الرحمن زكى، أسوار القاهرة وأبوابها، ص ٣٢؛ شحاته عيسى، القاهرة تاريخها ونشأتها، امتدادها وتطورها، القاهرة (د. ت)، ص ٥٥.

كان يتألف من خطط وأحياء تخترقها الطرقات والمسالك التى تفضى إلى أجزائه المختلفة فوق الأرض، أو فى داخل السراديب المارة تحت الأرض. وكانت تضيئه الرحبات الكبيرة غير المسقوفة، أو الأفنية الداخلية الصغيرة. ويفهم من الوصف الذى جاء بالمصادر التاريخية أن بعض السراديب كان مظلما تماما، وحسبنا دليلا على ذلك الوصف الفريد الذى وصل إلينا عن هذا القصر عند زيارة رسولى الملك عمورى (أملريك) للخليفة العاضد فى سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م ليعقدا معه، باسم سيدهما، تحالفا قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتى ألف دينار معجلة، ومثلها مؤجلة، نظير دفاعهم عن مصر وصد الأعداء عنها. وقد نقل لنا غليوم رئيس أساقفة صور وصف هذه الزيارة، وعبر عن حماسة الرسولين، وإعجابهما بعظمة ما رأياه، بقوله: «وسار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة عظيمان، وفيه زخارف أنيقة نضيرة... ووجدوا فى هذا القصر حراسا عديدين، وسار الحراس فى طليعة الموكب، وسيوفهم مسلولة، وقادوا الفرنج فى دهاليز طويلة ضيقة، وأقبية حالكة الظلمة، ولا يستطيع إنسان أن يتبين فيها شيئا... ولما خرجوا إلى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة، كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلحين... ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف، تحيط به أروقة ذات عمد، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان، وفيها تذهيب خارق للعادة بنضارته وبهائه، كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة... وكان فى وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافى منها فى أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام... وكانت ترفرف فى الفناء أنواع لاحد لها من الطيور الجميلة. ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة إعجابا بها... ومن هذا الفناء سار الموكب إلى أفنية عديدة أشد جمالا وإبداعا، ثم إلى بستان لطيف رأوا فيه أنواعا غريبة من الحيوانات ذات الأربع. وبعد أن عبروا أبوابا عديدة أخرى، وساروا فى تعاريج كثيرة، وصلوا إلى القصر الكبير حيث يقطن الخليفة. وقد فاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك. وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين، متقلدين أسلحتهم، وعليهم الزرد والدروع، تلمع بالذهب والفضة. ثم أدخل المبعوثون فى قاعة واسعة، تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المتعدد الألوان، وعليها رسوم الحيوان والطير وبعض المناظر الآدمية. وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار الكريمة... والخليفة جالس على عرش من الذهب المرصع بالجواهر والأحجار الثمينة»[٣٥].

٣٥- .Lane- Poole, History of Egypt, pp. 180-181؛ زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين، ص ٧٤ – ٧٦؛ جاستون ڤيت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادى، بيروت ١٩٦٨، ص ٤٣ – ٤٥.

وكان بالقاهرة عدا هذا القصر قصر آخر إلى الغرب منه، عرف بالقصر الغربى، شيده الخليفة العزيز بالله، ووصفه المسبحى بأنه «لم يبن مثله فى شرق ولا فى غرب». وكان له أيضا عدة أبواب، أهمها باب الساباط، وباب التبانين، وباب الزمرد، وكان يتصل بالقصر الكبير الشرقى بواسطة سرداب تحت الأرض كان ينزل منه الخليفة ممتطيا ظهر بغلته، تحيط به فتيات القصر. وقد تم بناء هذا القصر فى سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م فى زمن الخليفة المستنصر، الذى أقام فيه وغرم عليه ألفى ألف دينار وكان يشتمل على عدة أماكن، من جملتها قاعة كبيرة سكنتها ست الملك، أخت الخليفة الحاكم بأمر الله، وأقيم عليها فيما بعد بيمارستان المنصور قلاوون(٣٦).

وكان أمام القصر الكبير الشرقى، وفيما بينه وبين القصر الغربى، ميدان فسيح، كانت تقام فيه حفلات عرض الجيش، حيث يقف فيه عشرة آلاف بين فارس وراجل، واشتهر فيما بعد باسم بين القصرين، كما كان هناك ميدان آخر بجوار القصر الغربى، يجاور البستان الكافورى المطل على الخليج.

وإلى جانب هذه القصور التى عرفت فى المصادر التاريخية باسم القصور الزاهرة، احتوت القاهرة على مجموعة أخرى من المبانى، نذكر منها: دار الضيافة، ودار الضرب، ونعنى بها دار سك النقود، والمنظرة بالجامع الأزهر، والمنظرة بجوار الجامع الأقمر، ودار الحكمة، والتربة المعزية التى عرفت بتربة الزعفران، وغيرها من المنشآت التى حفلت بها هذه المدينة، والتى لم تستطع فى الواقع أن تقاوم عوادى الزمن، فاندثرت وتلاشت، ولم تعد سوى مجرد ذكرى تفيض بأخبارها المصادر والمراجع(٣٧).

الجامع الازهر

إلى الجنوب الشرقى داخل مدينة القاهرة، وعلى مقربة من القصر الشرقى الكبير، فيما بين حى الديلم فى الشمال، وحى الترك فى الجنوب، أقام جوهر الصقلى الأزهر، رابع المساجد الجامعة فى مصر، ليكون المسجد الرسمى لمدينة القاهرة. وقد بدأ فى بنائه فى يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ/ ٤ أبريل ٩٧٠م. وانتهى العمل منه، وأقيمت أول جمعة فيه فى السابع من رمضان سنة ٣٦١هـ/ ٢٢ يونيو ٩٧٢م، وكتب بدائر القبة على يمين المحراب ما نصه:

٣٦- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٤٥٧ - ٤٥٨؛ عبد الرحمن زكى، موسوعة القاهرة، ص ٢٠٧.

٣٧- أحمد عبد الرازق، عمارة الأزهر الشريف وما حوله من الآثار، كتاب الأزهر الشريف فى عيده الألفى، القاهرة ١٩٨٣، ص ١٣٣.

«بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد، الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي وذلك في سنة ستين وثلثمائة»[٣٨]. ولكن هذه الكتابة لم تعمر طويلا، واندثرت مع القبة بسبب التغيرات التي طرأت على عمارة الجامع على مر العصور المختلفة. والجدير بالذكر هنا أن الجامع الأزهر، وقت إنشائه، كان يشغل مساحة مستطيلة، تبلغ مقاييسها الخارجية ٨٥ مترا طولا و ٧٠ مترا عرضا[٣٩]، ويتألف من صحن أوسط مكشوف ومستطيل الشكل، طوله ٥٩ مترا، وعرضه ٤٣ مترا[٤٠]، يحيط به ثلاثة أروقة: الشرقي منها يتألف من خمس بلاطات موازية لجدار القبلة، عرض كل منها حوالي أربعة أمتار وربع. وكان يعلو بلاطة المحراب ثلاث قباب: واحدة أمام المحراب، وواحدة في الطرف الشمالي الشرقي، وثالثة في الطرف الجنوبي الشرقي. وهذا ما يستشف من وقفية الخليفة الحاكم بأمر الله، التي وقفها على هذا الجامع، والتي جاء فيها أنه أوقف أربعة وعشرين دينارا «لمؤنة النحاس والسلاسل والتنانير والقباب التي فوق سطح الجامع الأزهر[٤١]».

ويقطع امتداد هذه البلاطات الخمس مجاز أو بلاطة تتجه عموديا على المحراب، ارتفعت عقودها على عمد مزدوجة، كما ارتفع سقفها عن مستوى بقية رواق القبلة. وقد زينت حافات عقودها بأشرطة كتابية بالخط الكوفي، تحتوي على آيات قرآنية، كما زينت واجهات عقودها بزخارف نباتية مورقة[٤٢]. ويلاحظ أن ظاهرة استخدام المجاز القاطع تظهر في الجامع الأزهر لأول مرة، ولعلها من بين التأثيرات المغربية التي وفدت على مصر مع الدولة الفاطمية[٤٣]. وكان هذا الرواق الشرقي يطل على الصحن بواسطة بائكة تتألف من ثلاثة عشر عقدا، عرض كل منها فيما بين الدعامات أربعة أمتار تقريبا، فيما عدا بلاطة المجاز العمودية، التي تبدو أكثر اتساعا، إذ يبلغ عرضها حوالي سبعة أمتار تقريبا.

أما بالنسبة للرواقين الشمالي والجنوبي، فهما أقل حجما من رواق القبلة، ويحتوي

٣٨- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٣.

٣٩- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.43.

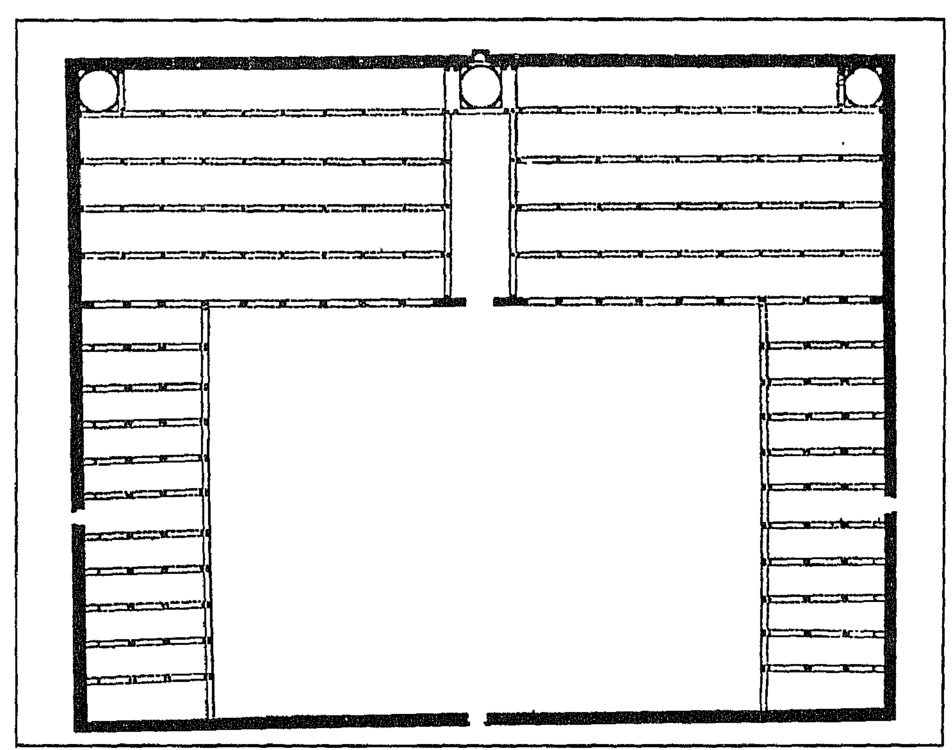
٤٠- أحمد فكري، مساجد القاهرة، جـ١، ص ٤٩.

٤١- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٤.

٤٢- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، جـ١، ص ٤٩.

٤٣- Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire, I, pp. 219-220, K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pp.60,62.

كل منهما على إحدى عشرة بلاطة موازية للمحراب، بكل منها ثلاثة عقود[٤٥]. أما الحد الغربى فكان يخلو من الأروقة[٤٦]، وكان يتوسطه المدخل الرئيسى للجامع، الذى رجح بعض المؤرخين أنه كان بارزا على مثال جامع الحاكم بأمر الله، وأنه كانت تعلوه منارة المسجد[٤٧]، التى قيل إنها كانت رشيقة قصيرة. وكان يزين أعلى الجدران شبابيك من الجص، فرغت بأشكال هندسية، تتخللها مضاهيات مزخرفة، يتوجها أشرطة كتابية، نقش بها آيات قرآنية بالخط الكوفى[٤٨]، الذى شاع فى إبان العصر الفاطمى. وما تزال آثار منها تزين جدران رواق القبلة الشرقية والشمالية والغربية[٤٩].



شكل (١٤) الجامع الأزهر فى العصر الفاطمى، مسقط أفقى، عن برندنبرج

٤٤- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص ٤٨.

٤٥- عبد الرحمن فهمى، الجامع الأزهر، القاهرة، ص ٤٥٤؛ أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص ٤٩؛ D.B. Abouseif, Islamic Architecture p.59.

٤٦- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.59.

٤٧- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٤٩.

٤٨- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص ٥٣؛ D.B. Abouseif, Islamic Architecture, P.59.

٤٩- عنها بالتفصيل انظر K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pp. 53-58.

بقى أن نشير إلى أن الجامع كان مزودا وقت تشييده بثلاثة مداخل فى جدارنه الشمالية والجنوبية والغربية(٥٠)، أما عن سبب تسميته بالأزهر فلعله مستمد من لفظ الزهراء، لقب السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ، على نحو ما رجح بعض الباحثين(٥١)، وبخاصة أنه سميت باسمها مقصورة أقيمت فى هذا الجامع(٥٢). وربما كانت هذه التسمية نسبة إلى القصور الزاهرة، التى بنيت حينما أنشئت القاهرة، فى حين يرى بعض آخر أنه سمى كذلك تفاؤلا بما سيكون له من الشأن والمكانة فى ازدهار العلوم، وبخاصة أن هذه التسمية تشبه بعض الأسماء التى أطلقت على بعض منشآت هذا العصر، مثل مدينة الزهراء فى الأندلس، التى شيدت سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٧م، بل ربما كانت هذه التسمية من باب المنافسة لها(٥٣).

خلاصة القول أن الهدف من إنشاء الأزهر كان واضحا منذ البداية؛ فقد رأى الفاطميون فى إقامته مجاراة للتقاليد الإسلامية التى شرعها المسلمون عند تأسيس المدن، من ضرورة إقامة جامع لأداء فريضة الصلاة، ومناقشة شئونهم السياسية والاجتماعية، ومن ناحية أخرى فإن جوهر الصقلى رأى من حسن السياسة وبعد النظر، إقامة جامع خاص بالفاطميين الشيعة، ليكون موطن تعاليمهم(٥٤)، حتى لا يفاجأ المسلمون من أهل السنة فى جامعى عمرو بن العاص بالفسطاط، وأحمد بن طولون بالقطائع، بخطب الشيعة الدينية، التى تنص على مذاهبهم، ودعوتهم لعلى، أفضل الوصيين، ووزير خير المرسلين.

لذلك كان طبعيا أن يحظى هذا الجامع بعناية الفواطم؛ فلم تكد تمضى مدة على إنشائه حتى عنى بإصلاحه الخليفة العزيز بالله. وقد استجاب الخليفة لطلب وزيره يعقوب ابن كلس بأن يصل رزق جماعة من الفقهاء، فقرر لهم مرتبات، وأعد دارا لسكناهم بجوار الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حضروا، حسب رواية المقريزى، إلى الجامع، وعقدوا حلقات دروسهم بعد الصلاة إلى صلاة العصر(٥٥).

٥٠- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٤٩.

٥١- Prisse D'Avennes, L'Art arabe, Texte, p. 95; Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 42; K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.36.

٥٢- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٥.

٥٣- عبد الرحمن فهمى، الجامع الأزهر، القاهرة، ص ٤٥٣.

٥٤- الموسوعة، تاريخ وآثار مصر الإسلامية، القاهرة (بدون تاريخ)، ص ٧٢٩.

٥٥- مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشية، Patrologia orientalis, Paris 1919, IV, p.500 ؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٣.

وكذلك عنى بأمره الخليفة الحاكم بأمر الله، الذى جدد مئذنته فى سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، وأوقف عليه، وعلى جامع المقس، والجامع الحاكمى، ودار العلم، أعيانا دونها فى وقفية كبيرة، نقلها إلينا المقريزى فى خططه، عن المؤرخ ابن عبد الظاهر، يفهم منها أنه خص الجامع الأزهر بحصة كبيرة، وزعت على جميع مرافقه وشئونه(٥٦).

وقد بقى من هذا العهد باب من الخشب التركى، محفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة، يتألف من مصراعين، فى كل مصراع سبع حشوات مستطيلة، العليا منها تتضمن كتابات كوفية مورقة، نقشت بالحفر البارز، نصها: «مولانا أمير المؤمنين، الإمام الحاكم بأمر الله، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه». أما بقية الحشوات فيعلوها زخارف نباتية محفورة حفرا عميقا. ويلاحظ على هذا الباب أن الحشوات المكتوبة عليه قد قلبت، ربما عند إصلاحها وإعادة تركيبها(٥٧).

كذلك جدد الخليفة المستنصر بالله المسجد فى أثناء خلافته الطويلة، التى امتدت من سنة ٤٢٧ - ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦ - ١٠٩٤م، فى وقت لم تحدده لنا المصادر التاريخية(٥٨).

وقد بقى من عصر الخليفة الآمر بأحكام الله محراب من الخشب المنقوش؛ وهو محفوظ كذلك فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، يعلوه لوح نقشت عليه كتابات تذكارية بالخط الكوفى المورق، يفهم منها أنه عمل برسم الجامع الأزهر فى زمن الخليفة الآمر فى شهور سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م(٥٩).

والجدير بالذكر والملاحظة هنا أن أغلب عمارة المسجد قد ظلت حتى هذا التاريخ محتفظة بحال إنشائها، لم يطرأ عليها أية تغييرات بالحذف أو الإضافة؛ وأن كل الأعمال التى أجريت بالجامع، طيلة المائتى السنة الأولى من حياته، اقتصرت على دعم مبانيه وترميمها، وتجديد زخارفها. ولذا فإن الخليفة الحافظ لدين الله يعد أول من أجرى فيه أعمالا مهمة، أضافت إليه عناصر جديدة فى التخطيط والعمارة والزخرفة، فى المدة بين سنة ٥٢٤ - ٥٤٤هـ/ ١١٢٩ - ١١٤٩م، إذ أضاف إلى الصحن رواقا يدور حوله من جهاته

٥٦- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٣ - ٢٧٥؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٠.

٥٧- زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين، ص ٢٠١ - ٢٠٢، لوحة رقم ٥٢؛ K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.47, pl. 118c.

٥٨- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٥؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٠.

٥٩- J.D. Weil, Les bois à épigraphes jusqu' à l'époque mamlouke, Le Caire, 1931, p.5, Pl. 12, K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.37, pl118 c. ؛ زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين، ص ٢١٩.

الأربع، وجعل فى منتصف الرواق الملاصق لرواق القبلة مدخلا إلى المجاز، تعلوه قبة، حفلت جوانبها وقطبها بالزخارف والكتابات الكوفية، التى تحتوى على آيات قرانية؛ وهى من أجمل نماذج الكتابات الكوفية التى وصلت إلينا من العصر الفاطمى(٦٠) وتعد القبه كذلك من أقدم النماذج التى وصلت إلينا من القباب المنقوشة من الداخل(٦١). هذا وقد جعل الحافظ هذا الرواق يطل على الصحن بعقود قائمة على أعمدة، بدلا من الدعامات المحيطة بالصحن من عهد جوهر.

ولا يزال الجامع الأزهر يحتفظ حتى الآن بأجزاء مهمة من عناصره المعمارية الأصلية، بالرغم من أعمال التجديد والإضافة التى أجريت فيه على مر العصور المختلفة، فقد بقى مثلا كثير من العقود والدعامات الفاطمية التى أمكن الاستدلال عليها من شكلها ونظام زخارفها، فضلا عن الأوتار والروابط الخشبية بين العقود. وإذا حاولنا أن نلخص البقايا الفاطمية فى الجامع الأزهر كانت على الوجه التالى:

١- عقود المجاز الأربعة الأولى من الجانبين، وما اشتملت عليه من زخارف وكتابات كوفية، وهى ترجع إلى عهد جوهر.

٢- الزخارف الكتابية حول الشبابيك الجصية الباقية فى الجانبين الشرقى والغربى، وفى أول الجانب الجنوبى من رواق القبلة، وكلها من عصر جوهر.

٣- المحراب الكبير الأصلى بكتاباته ونقوشه التى اكتشفها المرحوم حسن عبد الوهاب فى سنة ١٩٣٣م.

٤- زخارف وكتابات مؤخر الجامع من داخل رواق القبلة، وهى ترجع فيما يبدو إلى عصر الخليفة الحاكم بأمر الله، بسبب تشابهها مع زخارف جامع الحاكم.

٥- القبة التى تقع على رأس المجاز من جهة الصحن، وهى من عصر الإصلاحات أو الإضافات التى تمت بالجامع فى عصر الخليفة الحافظ لدين الله(٦٢).

وبسقوط الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، أفل نجم الجامع الأزهر، ومرت عليه حقبة انطوت فيها ذكراه، ذلك أن السلطان صلاح الدين الأيوبى أمر بأن تبطل فيه

٦٠- D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.59. ؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١؛ ص ٥١، سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص ١٩٨.

٦١- يسبقها قبة مشهد الجيوشى بالمقطم الذى يرجع إلى سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م.

٦٢- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، جـ١، ص ٥١ - ٥٢؛ عبد الرحمن فهمى، الجامع الأزهر، القاهرة، ص ٤٥٥.

صلاة الجمعة، اكتفاء بإقامتها فى الجامع الحاكمى، عملا بمذهب الشافعى، وهو امتناع إقامة خطبتين للجمعة فى بلد واحد[٦٣]، كما نقل من محرابه المنطقة الفضية، وكان وزنها خمسة آلاف درهم[٦٤]. واستمر الأزهر فى ظل النسيان حتى عصر السلطان الظاهر بيبرس، الذى أذن للأمير أيدمر الحلى فى سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م بإعمار الجامع، فشرع فى استعادة الأراضى التى اغتصبت من ساحة الأزهر كما جمع له كثيراً من التبرعات والأموال. وكذلك أطلق له السلطان الظاهر بيبرس مبلغا كبيرا من المال. ثم شرع الأمير عز الدين بإعمار الواهى من أركانه وجدرانه، وأصلح سقوفه وبلاطه، وعمل له منبرا، ثم فرشه وكساه، حتى عاد للجامع بعض رونقه، ودبت فيه الحياة من جديد، بعد أن احتفل بإقامة صلاة الجمعة فيه يوم ١٨ ربيع الأول ٦٦٥هـ/ نوفمبر ١٢٢٦م[٦٥]. وقد بقى من هذه العمارة الكسوة الخشبية، التى كانت تغطى طاقية المحراب الفاطمى، والشرافات المسننة التى تحيط بصحن الجامع. وبقى من منبره اللوحة التذكارية، التى توجد حاليا فى متحف الجزائر، وتتضمن كتابة تذكارية بخط النسخ المملوكى نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، مما أمر بعمل هذا المنبر المبارك لجامع الأزهر مولانا السلطان الملك الظاهر المجاهد المرابط المؤيد المنصور ركن الدنيا والدين أبو الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين بالديار المصرية أعز الله أنصاره بتاريخ الثالث عشر من ربيع الأول سنة خمس وستين وستمائة من الهجرة النبوية»[٦٦].

ومنذ ذلك التاريخ أخذ الجامع «يتزايد أمره حتى صار أرفع الجوامع بالقاهرة قدرا»، فقد استحدث فيه الأمير «بيلبك الخازندار» مقصورة كبيرة، عين فيها بعض الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الإمام الشافعى، ومحدثا للحديث النبوى[٦٧]. وبذا بدأ الأزهر يشارك بقية مدارس مصر والقاهرة فى أداء رسالته العلمية.

ونظرا لما أصاب الجامع من تصدع من جراء زلزال سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م، أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، نائب السلطنة الأمير سلار بعمارته، وتجديد مبانيه،

٦٣- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٢٧٥ - ٢٧٦.

٦٤- المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٤٥؛ مفضل ابن أبى الفضائل، النهج السديد، ص ١٠٤؛ السيوطى، حسن المحاضرة، طبعة بولاق، جـ٢، ص ١٨٣.

٦٥- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٥، السلوك، جـ١، ص ٥٥٦.

٦٦- M.Van Berchem, Corpus, Egypte, I, pp. 189-190, Pl. XXXII; K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.38 ؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٣ - ٥٤.

٦٧- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٥.

وما تهدم منها[٦٨]. ثم توالت عليه الإضافات والإصلاحات طوال زمن المماليك، إذ أنشأ الأمير علاء الدين طيبرس، نقيب الجيوش فى زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، مدرسة على يمين الداخل إلى الجامع، وجعلها مسجدا، وقرر بها دروسا للفقهاء الشافعية، كما ألحق بها ميضأة وحوضا لسقى الدواب، وتأنق فى رخامها وتذهيب سقوفها، حتى جاءت فى أبدع زى، وأبهج ترتيب. وانتهى من عمارتها فى سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م[٦٩]. وقد بقى منها محرابها الذى يتألف الجزء الأسفل منه من طاقات مقرنصة، محمولة على عمد رخامية صغيرة، مزودة بتيجان من الرخام؛ على حين زينت تواشيح عقودها بزخارف نباتية، استخدمت فيها قطع صغيرة من الرخام الملون. أما باقى المحراب فهو من الرخام الأبيض الملبس بألوان أخرى فى أشكال زخرفية بديعة، وحليت تواشيحه وأعلاه بفسيفساء مذهبة. وبقى أيضا من عمارة هذه المدرسة الشبابيك النحاسية المفرغة فى أشكال هندسية، التى تعد فى الواقع ثانى مثل من الشبابيك النحاسية، بعد شبابيك قبة الصالح نجم الدين أيوب بشارع المعز لدين الله[٧٠].

ويؤثر عن الأمير طيبرس أنه عند الفراغ من بناء هذه المدرسة، أحضر المشرفين على عمارتها حساب مصروفها؛ فلما قدم إليه، طلب طستا به ماء، وغسل أوراق الحساب كلها من غير أن يقف على شئ منها، وقال: «شئ خرجنا منه لله تعالى لا نحاسب عليه»[٧١].

وفى سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م أصلح الجامع القاضى نجم الدين محمد بن حسين الأسعردى، محتسب القاهرة[٧٢]؛ وكان من أثر عمارته الزخارف الجصية ذات التأثيرات الأندلسية الجميلة، التى تعلو عقد المحراب الفاطمى[٧٣].

٦٨- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٦؛ السلوك، جـ١، ص ٩٤٢؛ K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.38; D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.60; Brandenburg, Islamische Baukunst, p.117.

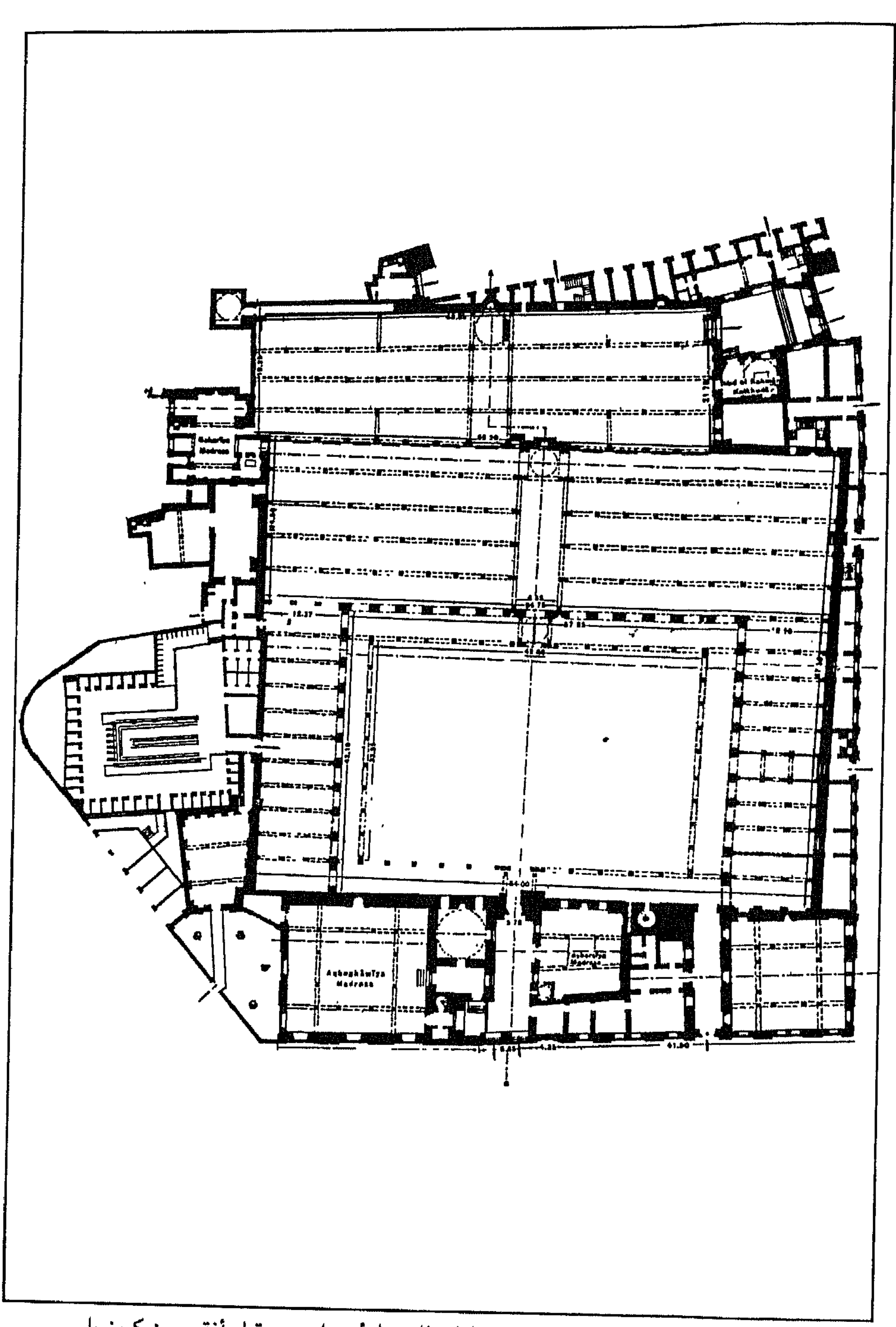
٦٩- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٨٣؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٤.

٧٠- حسين مصطفى حسين، المحاريب الرخامية فى قاهرة المماليك البحرية، رسالة ماجستير، كلية الآثار- جامعة القاهرة، ١٩٨١، ص ١٦٢ - ١٦٧.

٧١- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٨٣؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص ٢٠١.

٧٢- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٦ وعن شغله لوظيفة الحسبة انظر Ahmad Abd ar- Raziq, La hisba et le muhtasib en Egypte au temps des mamluks, Annales Islamologiques, XIII, 1977, p.139.

٧٣- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pp.38,55.



شكل (١٥) الجامع الأزهر بعد الإضافات التى طرأت عليه، مسقط أفقى، عن كريزويل

كذلك أضيف إلى الجامع مدرسة أخرى فى سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م على يسار الداخل إلى الجامع، هى المدرسة الأقبغاوية[٧٤]، التى أنشاها الأمير علاء الدين أقبغا من عبد الواحد، استادار السلطان الناصر محمد بن قلاوون، مكان دار الأمير أيدمر الحلى، وعهد ببنائها إلى ابن السيوفى، كبير مهندسى عصر الناصر محمد. ويصف المقريزى هذه المدرسة بأنها: «مظلمة ليس عليها من بهجة المساجد، ولا أنس بيوت العبادة، شئ ألبتة». ويفسر لنا المقريزى ذلك «بأن أقبغا أقرض ورثة أيدمر الحلى مالا، وأمهل حتى تصرفوا فيه، ثم أعسفهم فى الطلب، وألجأهم إلى أن أعطوه دارهم، فهدمها وبنى موضعها هذه المدرسة... بأنواع الغصب، وأخذ قطعة من سور الجامع حتى ساوى بها المدرسة الطيبرسية، وحشر لها الصناع من البنائين والنجارين والحجارين والمرخمين والفعلة... وحمل إليها سائر ما تحتاج إليه من خشب وحجر ورخام ودهان، من غير أن يدفع ثمنا ألبتة، وإنما كان يأخذ ذلك إما بطريق الغصب من الناس، أو على سبيل الخيانة من عمائر السلطان، فإنه كان من جملة ما بيده شد العمائر السلطانية»[٧٥]. وأتم أقبغا بناء هذه المدرسة فى سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م[٧٦]، وجعل بجوارها قبة ومنارة من حجارة منحوتة، بقى منها الآن مدخلها، وواجهة القبة ومحرابها، وكذا محراب المدرسة[٧٧]، والمنارة التى أكملت قمتها مصلحة الآثار فى سنة ١٩٤٥م. وتشير بقايا هذه المدرسة إلى أنها كانت حافلة بشتى النقوش والزخارف البديعة الدقيقة الصنع، فقد حفلت محاريبها بالرخام الملون الدقيق الصنع، والفسيفساء المذهبة المتعددة الألوان[٧٨].

وجددت أيضا عمارة الجامع الأزهر سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م على يد الطواشى سعد الدين بشير، الجمدار الناصرى، الذى أزال المقاصير الكثيرة التى استجدت بالجامع، كما أخرج الخزائن والصناديق التى ضاق المكان بها، وتتبع جدران المسجد وسقوفه بالإصلاح، حتى عاد إليها رونقها، وبدت كأنها جديدة، كما طلى الجامع بالدهان، وبلطه، ومنع الناس من المرور فيه، ورتب فيه مصحفا، وجعل له قارئا، وأنشأ على باب الجامع القبلى سبيلا

٧٤- M.Van Berchem, Corpus, Egypte, I, pp. 183-189.

٧٥- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٨٣- ٣٨٤.

٧٦- M.Van Berchem, Corpus, Egypte, I, p. 187; K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.38.

٧٧- حسين مصطفى حسين، المحاريب الرخامية، ص ٢٠٣ - ٢٠٩.

٧٨- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٨.

وكتابا لا أثر لهما اليوم، كما رتب لفقراء المجاورين طعاما يطبخ كل يوم، وقرر فيه درسا لفقهاء الحنفية، ووقف على ذلك أوقافا جليلة(٧٩).

كذلك أبدى سلاطين المماليك الجراكسة عناية كبيرة بالجامع الأزهر، تجلت بشائرها في ذلك المرسوم الذي استصدره الطواشي بهادر، مقدم المماليك من السلطان الظاهر برقوق في سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م، في أثناء نظارته للجامع. وينص هذا المرسوم على أن من مات من مجاوري الأزهر من غير وارث شرعي، وترك ثروة، فإنها تئول إلى مجاوري الجامع. ونقش ذلك على حجر كان مثبتا، حسب رواية المقريزي، عند الباب الكبير(٨٠)، ومازلنا نراه منقوشا إلى اليوم أمام المكتبة.

ونفهم من المصادر المملوكية أن مئذنة الجامع هدمت في سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م، وأنها كانت قصيرة رشيقة، فشيد مكانها أخرى أطول منها، ولكنها هدمت بدورها في شوال سنة ٨١٧هـ/ ديسمبر ١٤١٤م، لظهور خلل بها، فأعيد بناؤها من الحجر فوق الباب الغربي للجامع؛ وقد استلزم هذا هدم الباب وإعادة بنائه بالحجر، حيث ركبت المنارة فوق عقده في سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، ولكنها ما لبثت أن تهدمت كذلك، فأعيد بناؤها في سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م. وفي شهر شوال من السنة المذكورة شرع السلطان الأشرف برسباي في عمل صهريج بالصحن، تم تشييده في صفر سنة ٨٢٨هـ/ ديسمبر ١٤٢٤م، حيث عثر في أثناء حفر الأساس على آثار فسقية قديمة، وعمل بأعلى الصهريج قبة على رقبة مرتفعة، وكان الماء يسيل من تلك القبة أشبه ما يكون بالنافورات التي نراها حديثا، كما غرس بصحن الجامع أربع شجرات، ولكنها لم تفلح وماتت(٨١).

كذلك أضيفت إلى الجامع الأزهر في إبان عصر المماليك الجراكسة مدرسة ثالثة في الطرف الشمالي الشرقي عند باب السر، هي المدرسة الجوهرية، وقد أنشأها الأمير جوهر القنقبائي، خازندار السلطان الأشرف برسباي، ودفن بها عند وفاته في شعبان سنة ٨٤٤هـ/ ديمسبر ١٤٤٠م(٨٢). وهي مدرسة صغيرة، تتألف من أربعة إيوانات، يتوسطها صحن، أرضيته من الرخام الملون، وكذا أرضية الإيوانات. وتمتاز بتماثل أجزائها بعامة، وبأن نوافذها العليا مغطاة بجص مفرغ مملوء بزجاج ملون. وقد ألحق بها في الطرف

٧٩- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٦.

٨٠- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٦؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٨.

٨١- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص ٢٧٦؛ K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.38

٨٢- M.Van Berchem, Corpus, Jérusalem, I, p.330؛ السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٣٦، جـ٣، ص ٨٣.

الجنوبى الغربى غرفة صغيرة مربعة الشكل، يعلوها قبة حجرية تعد أصغر قباب مصر الإسلامية بعد قبة المدرسة القاصدية. وقد حلى سطح هذه القبة الخارجى بزخارف نباتية مورقة[٨٣].

على أن أهم الإصلاحات التى تمت بالجامع الأزهر، هو ما قام به السلطان الأشرف قايتباى فى سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٩م؛ فقد هدم الباب الغربى للجامع، وهو الباب القديم الذى أقيمت فوقه المنارة، وأقام مكانه بابا آخر هو القائم حاليا، وشيد على يمينه منارة رشيقة[٨٤]، حفلت بنقوش وكتابات بالخط الكوفى والنسخ. وتتألف هذه المنارة من ثلاثة طوابق، وتمتاز بدقة الصناعة وجمال التناسب. ويعد الباب من طرف العمارة الإسلامية فى مصر، فقد زين بنقوش وكتابات كوفية تحتوى على آيات قرآنية[٨٥]، كما كتب على جانبيه اسم السلطان قايتباى وتاريخ الفراغ من عمارته[٨٦]. ويبدو أن اهتمام السلطان قايتباى بالأزهر كان متصلا، فقد ذكر المؤرخون أنه زار الجامع فى سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٧م، وأمر بتجديد الأجزاء والحوائط المتداعية فيه، وترميمه وإصلاحه، كما أمر بهدم الخلاوى، التى كانت بالسطح، وتجديد دورة المياه[٨٧]، ومازال اسمه مسجلا على بابها داخل رنك كتابى[٨٨].

وفى سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م أذن قايتباى للخواجا مصطفى بن محمود بن رستم الرومى بإجراء بعض إصلاحات فى الجامع، بقى منها مقصورة خشبية تحيط بالأروقة الشمالية والجنوبية والشرقية من جهة الصحن، مدون عليها بالخط النسخ المملوكى العبارة التالية: «أمر بتجديد هذا الجامع سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى، على يد الخواجا مصطفى بن الخواجا محمود بن الخواجا رستم، غفر الله لهم، بتاريخ شهر رجب عام إحدى وتسعمائة»، وقد بلغ مجموع ما أنفقه الخواجا مصطفى على هذه العمارة نحو خمسة عشر ألف دينار، دفعها من ماله الخاص[٨٩].

وحظى المسجد كذلك بعناية السلطان قانصوه الغورى، الذى قام فى سنة ٩١٥هـ/

٨٣- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، جـ١، ص ٥٨.

٨٤- السخاوى، الضوء اللامع، جـ٦، ص ٢٠٩؛ M.Van Berchem, Corpus, Egypte, I, pp. 47-48

٨٥- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٥.

٨٦- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.39.

٨٧- ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة بولاق، جـ٢، ص ١٦٩.

٨٨- M. Van Berchem, Corpus, Egypte, I, pp. 45-46

٨٩- ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٨٥؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٥.

١٥١٠م ببناء منارة ضخمة(٩٠)، ذات رأس مزدوج، ما تزال باقية إلى يومنا هذا إلى جوار منارة السلطان قايتباى. وهى تمتاز بتلبيس القاشانى ببدن طابقها الثانى، كما تحتوى على سلمين فيما بين طابقيها الأول والثانى، لا يرى الصاعد فى أحدهما الآخر، كما هو الحال فى منارتى «قوصون» و«أزبك اليوسفى»(٩١).

وينسب كريزويل إلى السلطان الغورى أيضا تجديد القبة التى تعلو المحراب الفاطمى، نظرا للتشابه الشديد بين مقرنصات هذه القبة ومقرنصات قبة الإمام الليث، التى ترجع إلى شهر رجب سنة ٩١١هـ/ نوفمبر ١٥٠٥م(٩٢).

وتمتع الجامع الأزهر بنصيب كبير من اهتمام ولاة مصر وأعيانها فى العصر العثمانى؛ فقد أجروا به كثيرا من أعمال الترميم والتجديد، كما وقفوا عليه أوقافا كثيرة، أهمها ما قام به والى مصر السيد محمد باشا فى سنة ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٥م إذ قام بتجديد ما تخرب منه(٩٣)؛ كما أجرى به الوزير حسن باشا، والى مصر، بعض الإصلاحات، وعمر رواق الحنفية فى سنة ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م، وفرش أرضيته بالبلاط(٩٤). وأصلح سقفه الأمير «إسماعيل بك إيواظ»، الذى تولى الإمارة والسنجقية فى سنة ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م(٩٥).

وروى الجبرتى كذلك فى تاريخه أن الأمير عثمان كتخدا أنشأ سنة ١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م زاوية للعميان خارج الأزهر أمام المدرسة الجوهرية؛ وأن هذه الزاوية كانت تشتمل على أربعة أعمدة من الرخام؛ ولها محراب وميضأة ومغطس؛ وبها ثلاث حجرات. واشترط هذا الأمير ألا يلى مشيختها إلا كفيف. على أن هذه الزاوية قد اندثرت. وكذلك أنشأ رواق الأتراك، ورواق السليمانية، ورتب لذلك مرتبات من وقفه الخاص(٩٦).

وفى سنة ١١٦٣هـ/ ١٧٤٩م أهدى الوزير أحمد باشا كور، والى مصر، إلى الجامع مزولتين، مازالت إحداهما مثبتة فى أعلى الواجهة الغربية المطلة على الصحن، ومدوناً عليها:

٩٠- ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص ٦٢.

٩١- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٦.

٩٢- K.A.C. Creswell, Brief Chronology, p.154; Muslim Architecture, pp. 39-40.

٩٣- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٨؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص ٢٠٨؛ K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.40

٩٤- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٥٩؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، ص ٢٠٨.

٩٥- على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص ١٢؛ الجبرتى، عجائب الآثار، جـ١، ص ١١٤.

٩٦- عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الاثار، جـ١، ص ١٦٨ - ١٦٩، وثيقة وقف الأمير عثمان كتخدا، الأرشيف التاريخى بوزارة الأوقاف، تحت رقم ٢٢١٥.

مزولـــة متقـــنة	نظـيرها لا يوجـد
راسمها حاسبها	هذا الوزير الأمجد
تاريخـها أتقنها	وزير مصــر أحمد

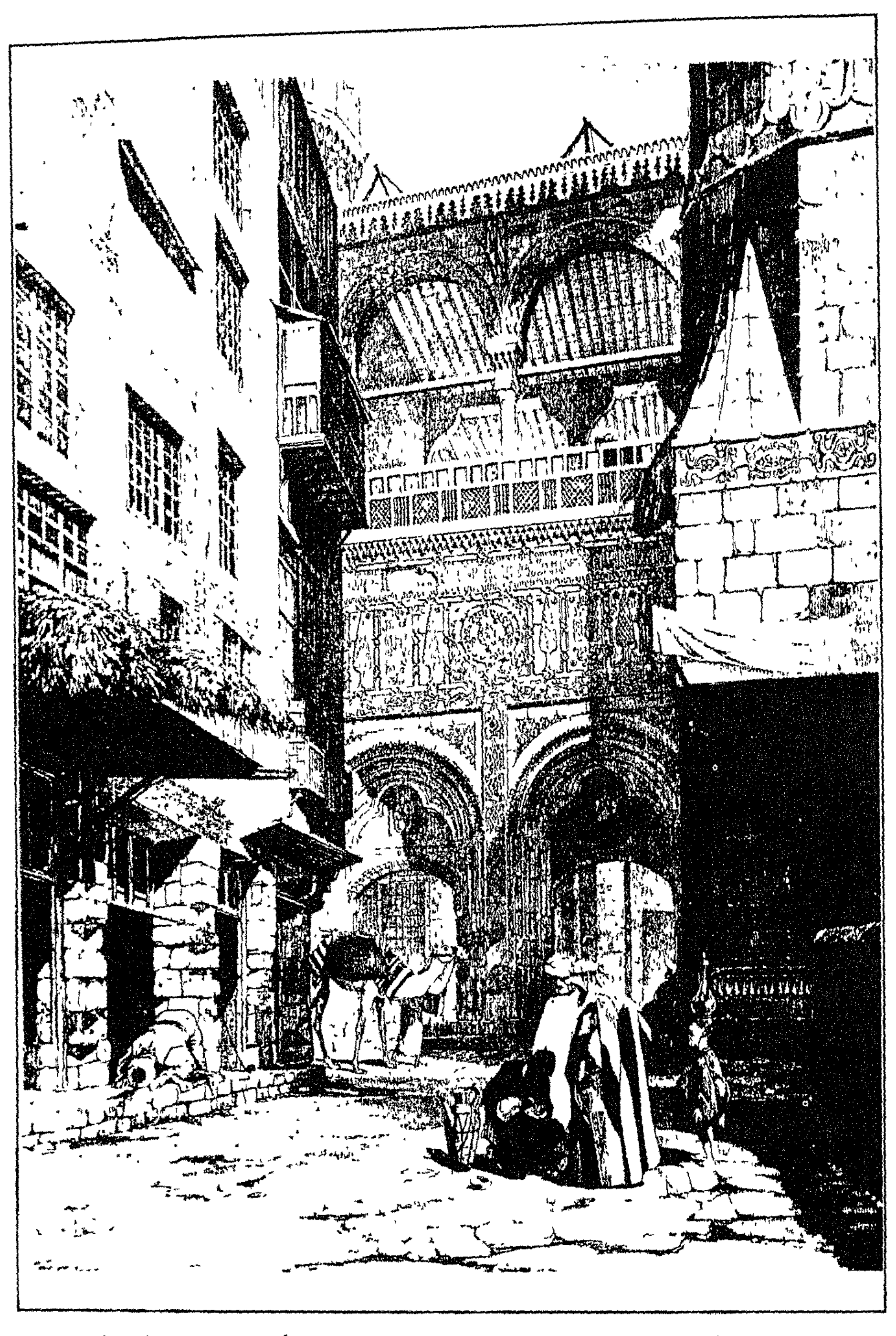
أمـا المزولة الثانيـة فـقـد كـانت ملقـاة على سطح الجـامع الأزهر، ثم نقلت إلى داخل المكتبـة، ومـازالت مـحـفوظة بهـا. وقد روى عبـد الرحمن الجبرتي بصـدد هـذه الهـدية أن هذا الوالى قـد احـتـرف صـنـاعـة المزاول على يدى والده الشـيـخ حـسن الجـبـرتى، حـتى أتقنهـا، «ورسم على اسمـه عدة منحرفات على ألواح كبيرة من الرخام، صـنـاعـة، وحـفرا بالأزميل، كتابة ورسما»[٩٧].

ولعل أهم عمـارة أجريت بالجامع الأزهر منذ إنشائه مـا أجراه الأمير عـبـد الرحمن كتـخدا فى سنة ١١٦٧هـ / ١٧٥٣م، فقد أمر بـهدم جدار القبلة، عـدا المحراب، وجزءا من الجدار على يساره، وأضاف إلى رواق القبلة الشرقى من تلك الجهـة رواقـا آخر متصـلا به، يشتمل على أربع بلاطات موازية للمحراب وبنى جدرا آخر للقبلة يتوسطه مـحراب، تعلوه قبة. وتبلغ مساحة هذا الرواق الجديد نصف مساحة الرواق القديم، وهو يشتمل على خمسين عمودا من الرخام، تحمل مثلها من البوائك المرتفعة المشيدة بالحجر المنحوت، وسقف أعلاها بالخشب النقى أى المدهون .. وأنشـأ لتلك الزيادة بابا عظيمـا من جـهـة حـارة كتـامـة، وهو المعروف بباب الصـعـايدة، وبنى بأعلاه مكتبا بقناطر مـعـقودة على أعمدة من رخـام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن، وبداخله رحبة متسعة وصـهـريج عظيم، وسقاية لشرب المارين، وأنشأ لنفسه مدفنا بتلك الرحبة، عليه قبة معقودة، وتركيبة من رخام بديع الصنعة، وجعل بها أيضا رواقا خصص لمجاورى الصعيد المنقطعين لطلب العلم .. وبنى بجانب هذا البـاب منارة .. كمـا أنشـأ بابا آخر جـهـة مطبخ الجـامـع، وبجـواره منارة أيضـا"، هو باب الشوربة.

ولم تقتصر أعمال عبد الرحمن كتخدا على هذه الإضافات الكثيرة، التى جعلت من القبلة أكبر أروقة المساجد الجامعة فى مصر، بل أنشأ أيضا بابا كبيرا فى الجهة الغربية من الجـامع، مـقـابلا للبـاب العـتـيق. وهذا البـاب ينقـسم إلى بابين عظيـمين، لكل منهـمـا مصـراعـان. وعلى يمين هذا الباب منارة، وفوقه مكتب[٩٨] وقد أدرك هيز هذا الباب المسمى

٩٧- عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار، جـ١، ص ١٨٧ - ١٨٨.

٩٨- عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار، جـ٢، ص٦٢٥.



شكل (١٦) رسم تاريخى للمصور هيز يوضح الباب الغربى فى أيام عبد الرحمن كتخدا، يعلوه الكتاب، وتجاوره المنارة.

بباب المزينين؛ وترك لنا صورة فريدة له، يظهر فيها الكتاب الذى كان يعلوه، والمنارة التى كانت تجاوره جنوبا.

على أن كل هذه المعالم قد اختفت عند فك مبانى هذا الباب والرجوع بها إلى خط التنظيم فى سنة ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م[٩٩] ومع هذا فقد تمت المحافظة على طراز الباب المعمارى والفنى عند إعادة تركيبه، إذ أعيدت إليه الزخارف والكتابات الرخامية وبلاطات القاشانى على وضعها القديم، الذى يتجلى فيه براعة الخطاط فى كتابة "عجلوا بالصلاة قبل الفوات – الصلاة عماد الدين" بشكل زخرفى نادر. وقد سجل فى أعلى الباب أبيات من الشعر، تضمنت اسم عبد الرحمن كتخدا وتاريخ تلك العمارة، بحساب الجُمل، نصها:

إن للعلم أزهرا يتسامى	كسماء ماطاولتها سماء
حين وافاه ذو البناء ولولا	منة الله ما أقيم البناء
رب إن الهدى هداك وآيا	تك نور تهدى به من تشاء
مذ تناهى أرّخت باب علوم	وفخار به يجاب الدعاء[١٠٠]

ويفهم أيضا مما جاء فى تاريخ الجبرتى أن عبد الرحمن كتخدا قد جدد بناء المدرستين الطيبرسية والأقبغاوية، لأنه يقول إن الباب الكبير "جاء وما بداخله من الطيبرسية والأقبغاوية والأروقة من أحسن المبانى فى العظم والوجاهة والفخامة"[١٠١] وما تزال آثار هذه الأعمال تبدو واضحة على الواجهة الغربية للمدرسة الطيبرسية بأحجارها الملونة، التى بقى اسمه منقوشا عليها، فى الوقت الذى احتفظت فيه هذه الواجهة بشبابيكها النحاسية ذات الطراز المملوكى.

والواقع أنه نتج عن إضافات عبد الرحمن كتخدا بالجامع الأزهر أن صار له ست مآذن، وكانت به ثلاث مآذن من قبل، واحدة أقامها الأمير علاء الدين أقبغا فى زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والثانية أقيمت فى أيام السلطان الأشرف قايتباى، والثالثة ترجع إلى عهد قانصوه الغورى، غير أن مصلحة الآثار قد عمدت إلى هدم المنارة التى كانت تقع إلى يمين باب المزينين، استجابة لرغبة الخديو عباس، عند بناء الرواق العباسى[١٠٢] وقد بقى

٩٩- K.A.C.Creswell, Muslim Architecture, pp.42-43.

١٠٠- سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٢٢٥.

١٠١- عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار، جـ٢، ص٦.

١٠٢- Comité de conservation des monuments de l'art arabe, Le Caire,1899, Exércice1896,pp24-29.

من هذه المآذن خمس، هى منارات أقبغا، وقايتباى، والغورى، ومنارتا كتخدا على بابى الشوربةوالصعايدة[١٠٣].

وبقى أيضا بالرواق الشرقى الذى أضافه عبد الرحمن كتخدا محراب من الرخام الدقيق، على يساره قطعة مثمنة الشكل من الرخام، مدون عليها بالخط الكوفى المربع: الله، محمد، وأسماء العشرة المبشرين بالجنة، وقد كانت هذه اللوحة موجودة فى الأصل فى مدفن عبد الرحمن كتخدا بالجامع، ثم نقلت إلى جوار المحراب، ويجاور هذا المحراب منبر خشبى، يقع إلى الجنوب منه محراب آخر صغير، يعرف بمحراب الدردير، وبالقرب منه محراب ثالث، أنشأته لجنة حفظ الآثار العربية، لتركيب الكسوة الخشبية المملوكية التى كانت تغطى المحراب الفاطمى القديم.

وقد توالت على الجامع الأزهر بعد ذلك أعمال التجديد والترميم، كما أضيف إليه بعض المنشآت التى تمثلت فى مجموعة من الأروقة، مثل رواق الشرقاوية، الذى أقيم شمالى المدرسة الجوهرية وملاصقا لها، على عهد الأمير إبراهيم بك فيما بين سنتى ١١٩٢ - ١٢١٣هـ / ١٧٧٨ - ١٧٩٨م، تحقيقا لرغبة الشيخ الشرقاوى[١٠٤].

وهناك أيضا رواق السنارية، الذى أضيف إلى الغرب من رواق المغاربة مما يلى جنوب الصحن فى سنة ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م بناء على طلب الشيخ محمد وداعة السنارى[١٠٥] ثم أصاب الأزهر زلزال خفيف فى سنة ١٢٢٩هـ / ١٨١٤م، سقطت على أثره شرفة منه[١٠٦].

كذلك أقبل ولاة مصر من أسرة محمد على، على تجديد مبانى الجامع الأزهر، مثل باب الصعايدة الذى جدد فى سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٠م فى زمن الخديو إسماعيل على يد أدهم باشا ناظر الأوقاف، الذى نقش عليه أربعة أبيات من الشعر، نصها:

باليمين أقبل باب سعد الأزهر ... وسمت محاسنه بأعجب منظر

وغدا مجازا للحقيقة بالهدى ... موصول مورده جميل المصدر

١٠٣- سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٢٢٤.

١٠٤- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.40.

١٠٥- محب الدين الخطيب، الأزهر، القاهرة ١٣٤٥هـ، ص٢٣.

١٠٦- الجبرتى، عجائب الآثار، جـ٤، ص٢١١.

باب شـريف للنجـاح مجـرب   إنشـاؤه نادى بخـير الأعـصر

فى دولة إسماعيل داور عصرنا   يمن يسر كمال بـاب الأزهر(١٠٧)

وفى عهد الخديو توفيق جددت أجزاء مهمة من رواق القبلة العتيق فى سنة ١٣٠٦هـ / ١٨٨٨م. كما جدد رواق القبلة الذى أضافه عبد الرحمن كتخدا، وكذلك المدرسة الأقبغاوية، ورواق السنارية، وأضيفت عمد إلى الرواقين الشمالى والجنوبى، فأصبحت العمد مزدوجة، بعد أن كانت مفردة عند إنشاء المسجد على يد جوهر الصقلى(١٠٨).

أما الأعمـال التى أجرتها لجنة حفظ الآثار العربية منذ سنة ١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م لإصلاح الجامع ودعم عقود الصحن المختلة(١٠٩)، واستجابة لرغبة الخديو عباس حلمى فى بناء رواق باسمه(١١٠) فقد بدأت بتجديد العقود المحيطة بالصحن جميعا، وهى التى كانت من إنشاء الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى، ومن حسن الحظ أن هذه الاعمال قد أبقت على القبة التى تعلو مقدم المجاز من جهة الصحن، ولم تغير معالمها الزخرفية. وشملت هذه الأعمال أيضا هدم المبانى التى تعلو الواجهة الغربية للجامع، ونعنى بها الكتاب والمنارة عند باب المزينين كما سبق أن نوهنا. وقد أصدر الخديو عباس أمره بانشاء مكتبة الأزهر فى سنة ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م فاختيرت لها المدرسة الأقبغاوية، كما اتخذت بقايا المدرسة الطيبرسية التى تواجهها ملحقا لها(١١١).

وهكذا توالت أعمال التجديد والإصلاح والترميم والإضافة فى الجامع الأزهر منذ إتمام بنائه فى العصر الفاطمى حتى يومنا هذا لدرجة أنه كادت تتوارى الآن مظاهر عمارته الأولى وصار الجامع فى شكله الحالى بناء فسيحا يقوم على أرض مساحتها ١٢ . ٠٠٠ متر مربع، ويحيط به سور مربع الشكل تقريبا به ثمانية أبواب: فى الجانب الغربى المطل على ميدان الأزهر باب المزينين، والباب العباسى، فى الجانب الجنوبى باب المغاربة تجاه درب الأتراك ، وباب الشوام وباب الصعايدة، وفى الجانب الشمالى باب الجوهرية ، وهو باب

١٠٧- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الآثرية، جـ١، ص ٦٠ – ٦١.

١٠٨- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.41

١٠٩- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٦١.

١١٠- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.61

١١١- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٦١.

صغيره كان فى الأصل من إنشاء جوهر، وفى الجانب الشرقى باب الحرمين وباب الشوربة، وهما من إنشاء عبد الرحمن كتخدا.

وينقسم حرم الأزهر الشرقى حاليا إلى رواقين، الرواق الكبير وهو العتيق، ويلى الصحن ويمتد من باب الشوام إلى رواق الشراقوة؛ الرواق الجديد الذى أضافه عبد الرحمن كتخدا، وهو يلى الرواق العتيق ويرتفع عنه بعدة درجات وسقف الرواقين من الخشب المتقن الصنع وترتكز عقود المسجد على عمد من الرخام الأبيض يزيد عددها على ٣٨٠ عمودا(١١٢) جلبت تيجانها من المعابد والكنائس القديمة، ويحتوى الجامع حاليا على تسعة وعشرين رواقا، وأربع عشرة حارة، وثلاثة عشر محرابا(١١٣) بالإضافة إلى المحاريب الموجودة بالمدارس التى الحقت به، هذا فضلا عن خمس مآذن تسمو فوق جدران المسجد.

جامع الحاكم

ينسب هذا الجامع إلى الخليفة الحاكم بأمر الله مع أن الذى أمر بإنشائه هو أبوه الخليفة العزيز بالله فى شهر رمضان سنة ٣٨٠هـ / نوفمبر - ديسمبر ٩٠٠م(١١٤). كما يفهم من المقريزى الذى ذكر أنه صلى وخطب فيه الجمعة مرتين الأولى فى الرابع من شهر رمضان سنة ٣٨١هـ / ١٤ نوفمبر ٩٩١م، والثانية أيضا فى شهر رمضان سنة ٣٨٣هـ / أكتوبر - نوفمبر ٩٩٣م(١١٥).

كما يفهم من المقريزى أيضا أن أعمال البناء لم تكن قد انتهت فى أيام العزيز بدليل أنه ذكر فى حوادث سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م(١١٦) ان ابنه الخليفة الحاكم بأمر الله أمر أن يتم بناء الجامع، فقدر للنفقة عليه أربعون ألف دينار، وإبتدئ العمل فيه. وأشار كذلك إلى أن الخليفة الحاكم أمر فى سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٣م بعمل تقدير مايحتاج إليه الجامع من الحصر والقناديل والسلاسل، فكان تكسير ماذرع للحصر ستة وثلاثين ألف ذراع، بلغت النفقة عليها

١١٢- عبد الرحمن زكى، موسوعة القاهرة، ص١١.

١١٣- سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٢١٤، ٢٢٢.

١١٤- ذكر القلقشندى أن أساسه اختط فى العاشر من رمضان سنة ٣٧٩هـ، انظر صبح الأعشى، جـ٣، ص٣٦٠.

١١٥- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٧٧؛ انظر مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد، ص٥٠١.

١١٦- يعلو المدخل الغربى للجامع نقش بالخط الكوفى نصه" ... مما أمر بعمله عبد الله ووليه أبو على المنصور الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى أبنائه الطاهرين فى شهر رجب سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة" انظر M. Van Berchexm, Corpus, Egypte, I, p.50; Répertoirc, VI, p.44.

خمسة آلاف دينار وذكر أيضا أنه بعد الفراغ من البناء علق على سائر أبواب الجامع ستور دبيقة عملت له خصيصا، كما علق فيه تنانير فضة عدتها أربع، بالإضافة إلى كثير من قناديل الفضة، وفرش جميعه بالحصر التى عملت له، ونصب فيه المنبر. ثم أذن فى ليلة الجمعة سادس شهر رمضان سنة ٤٠٣هـ / ٢١ مارس ١٠١٣م لمن بات فى الجامع الأزهر أن يمضوا إليه فمضوا، وصار الناس طول ليلتهم يمشون فى كل واحد، ولا اعتراض عليهم من عسس القصر ولا من أصحاب الطوف إلى الصبح، وذكر كذلك أن الخليفة الحاكم صلى فيه بالناس صلاة الجمعة بعد الفراغ منه فى السنة المذكورة. كما روى أن الحاكم وقف على هذا الجامع عدة قياصر وأملاك فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٤هـ / مايو١٠١٤م[١١٧] وأنه كان يعرف أولا بجامع الخطبة ثم صار يعرف بجامع الحاكم وبالجامع الأنور، وقيل له أيضا جامع باب الفتوح[١١٨].

وتخطيط هذا الجامع يذكرنا بتخطيط الجامع الطولونى فهو عبارة عن مستطيل طوله ١٢٠,٧٨ م وعرضه ١١٣م[١١٩]، ويتألف من صحن أوسط مكشوف مستطيل الشكل ٧٨ × ٦٧,٥٥م[١٢٠] أكبرها رواق القبلة الذى يشتمل على خمسة صفوف من العقود المدببة المحمولة على دعائم مستطيلة أركانها مستديرة على هيئة أعمدة ملتصقة[١٢١] تشبه دعامات الجامع الطولونى[١٢٢]، وتسير موازية لجدار القبلة. ويقطع هذا الرواق فى الوسط مجاز مرتفع يمتد من الصحن إلى المحراب حيث ينتهى أمامه بقبة، كما نجد فى طرفى بلاطة المحراب، الشمالى الشرقى، والجنوبى الشرقى، قبتين[١٢٤] كما هو الحال فى الجامع الأزهر، تقوم كل منها على أربع حنيات ركنية تشكل منطقة الانتقال من المربع إلى المثمن تحصر بينها أربع نوافذ معقودة أما رقبة القبة فقد زينت بثمانية شبابيك معقودة على حين زين مربع القبة بشريط من الكتابات الكوفية المورقة[١٢٥].

١١٧- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٧٧؛ مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد، ص ٥٠١ - ٥٠٢.

١١٨- المقريزى، الخطط، جـ١، ص٤٦، جـ٢، ص٢٧٧.

١١٩- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.64, D. Brandenburg Islamische Baukunst, p.123.

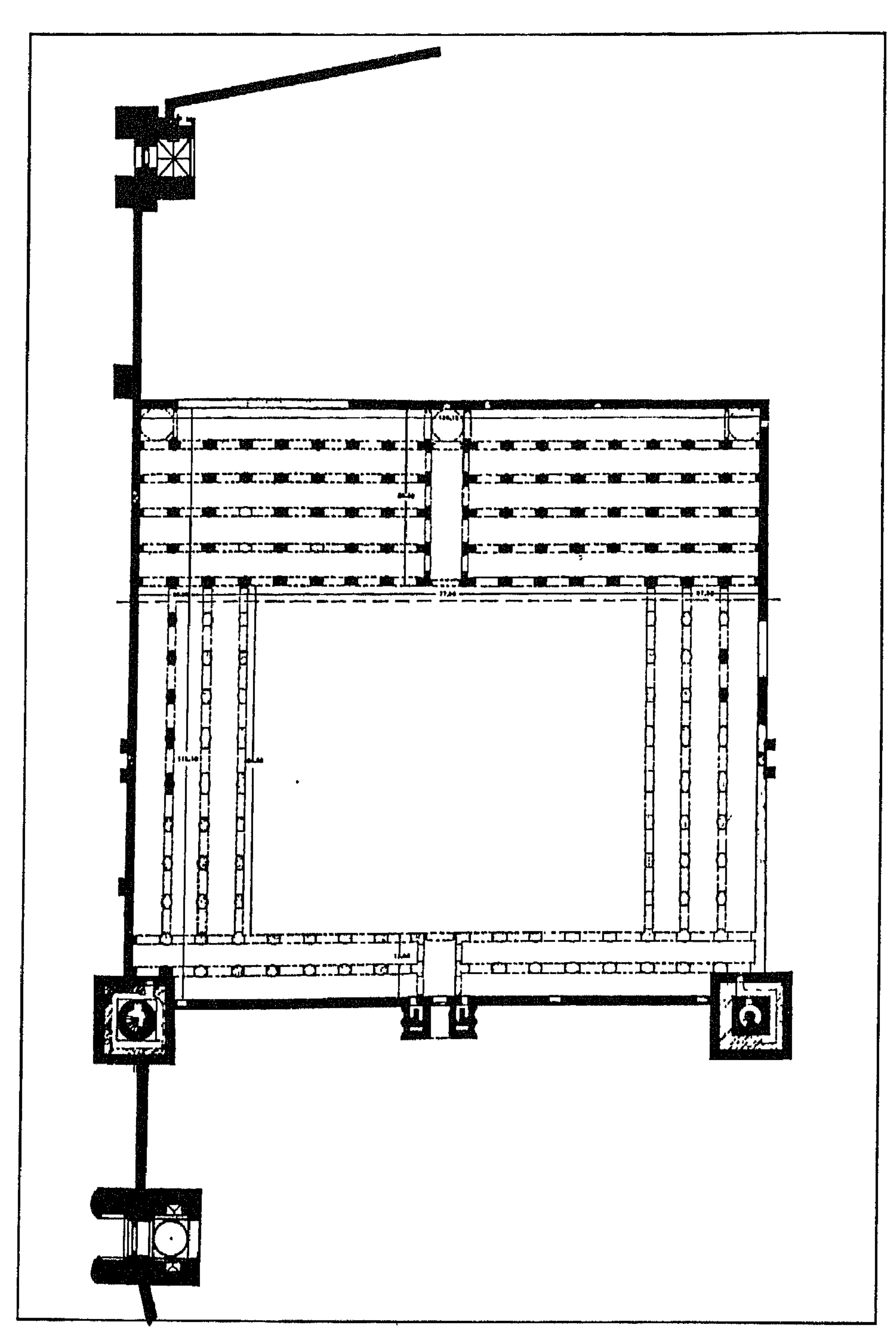
١٢٠- K.A.C Creswell, Muslim Architecture, p.64; D. Brandenburg, Islamische Baukunst, P.123.

١٢١- سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٢٣٨.

١٢٢- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.76

١٢٤- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٦٧.

١٢٥- Hautecoeur et Wiet, Les Mosquées du Caire, I, p.222.



شكل (١٧) جامع الحاكم بأمر الله، مسقط أفقى عن برندنبرج.

ويطل رواق القبلة على الصحن بواسطة بائكة تتألف من أحد عشر عقدا مدببا شبيهة بواجهة الرواق الغربى المقابل له الذى يشتمل على بلاطتين فقط، موازية لجدار القبلة. أما الرواقان الشمالى والجنوبى فيشتمل كل منهما على ثلاث بلاطات عمودية على جدار القبلة، ويطل كل منهما على الصحن بواسطة بائكة تتألف من تسعة عقود مدببة(١٢٦)، ويربط عقود الجامع بين الدعامات روابط خشبية ضخمة محلاة بنقوش نباتية(١٢٧) كما فتحت فى جدران الجامع نوافذ معقودة، كانت جميعا مكسوة بستائر جصية يزينها زخارف هندسية ونباتية مفرغة، وكان يحيط بكل نافذة إطار من كتابة كوفية بها آيات قرآنية(١٢٨).

ويتميز هذا الجامع بجدرانه السميكة المشيدة بخليط من الحجارة والآجر فيما عدا الأجزاء الظاهرة من البوابة الغربية، فهى من الحجارة المصقولة، وكان يعلو واجهات الصحن صف من الشرافات الهرمية المدرجة، بكل واحدة منها خمس درجات يتوسطها فتحة صغيرة مدببة، تقوم فوق شريط ضيق به عناصر زخرفية مفرغة تتألف من وريدات وأشكال مضلعة(١٢٩).

ويمتاز جامع الحاكم باحتوائه أيضا على ثلاثة عشر مدخلا، خمسة بالواجهة الغربية وثلاثة بالواجهة الشمالية ومثلها بالواجهة الجنوبية، ومدخلين بجدار القبلة(١٣٠) نجد بينها ثلاثة مداخل بارزة تتوسط الواجهات الشمالية والجنوبية والغربية يعنينا منها المدخل الرئيسى الذى يتوسط الواجهة الغربية لأنه يعد أقدم مدخل بارز فى عمارة مصر الإسلامية. فهو يتألف من برجين ضخمين من الحجارة المصقولة يبلغ طول كل منهما ثمانية أمتار،وعرضه ستة، ويبرز عن سمت جدران الواجهة المذكورة بحوالى ستة أمتار، ويتوسطه ممر طويل يعلوه قبو نصف أسطوانى، ويفضى إلى داخل الجامع عن طريق الرواق الغربى(١٣١).

١٢٦- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٦٧، K.A.C. Creswell Muslim Architecture, p.67.

١٢٧- Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du caire, I,p 222.
أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٧٠.

١٢٨- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٧٣؛ K.A.C. Creswell Muslim Architcture, pp.82-83.

١٢٩- Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire, I, pp.221,223; K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pp.84-85 ؛ أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٧٣.

١٣٠- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.76; D.Brandenburg, Islamische Baukunst, p.125.

١٣١- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٧٣.

ومن المعروف أن هذا النوع من المداخل البارزة منقول عن مسجد المهدية بتونس الذى يرجع إلى أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى وسوف يعاود الظهور فى عمارة القاهرة فى مسجد السلطان بيبرس البندقدارى الذى ينسب إلى الفترة الممتدة من ٦٦٥ - ٦٦٧هـ / ١٢٦٦ - ١٢٦٩م(١٣٢).

ويكتنف هذا المدخل البارز فى الزاويتين الشمالية والجنوبية منارتين ضخمتين تم بناؤهما فى شهر رجب سنة ٣٩٣ هـ / مايو ١٠٠٣م كما يفهم من الكتابات الأثرية المنقوشة على كل منهما(١٣٣)، فى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله الذى عاد فى شهر صفر سنة ٤٠١هـ/ سبتمبر أكتوبر ١٠١٠م(١٣٤) وأمر بإحاطة كل منهما بكسوة خارجية من الحجارة بغرض تدعيمهما تكون فى كل منارة شكل مكعبين مدرجين، الأسفل منهما بارز عن المكعب العلوى. وترتفع الكسوة فى المئذنة الجنوبية أربعة وعشرين مترا فوق أرضية الشارع، أما فى المئذنة الشمالية فيصل ارتفاعها إلى ستة وعشرين مترا أى بزيادة مترين فقط.

أما فيما يتعلق بالمنارتين الأصليتين فقد شيدتا بدورهما من حجارة مصقولة باستثناء الأجزاء العليا التى شيدت من الآجر بعد زلزال سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٣هـ الذى خرب أعالى المئذنتين(١٣٥). هذا وتتكون المنارة الجنوبية من ثمانية طوابق مثمنة تتدرج فى ارتفاعها تدرجا ملحوظا حتى تنكمش فى الطابق الخامس الذى يعلوه طابقان مثمنان من الآجر، يلتف حول الثانى منهما صفان من المقرنصات، ويعلو هذا القسم، الذى أضيف أثناء الإصلاحات التى قام بها بيبرس الجاشنكير، قبة مضلعة، كما تتميز هذه المنارة بكثرة زخارفها النباتية والهندسية والكتابية وبصف من الشرافات التى تذكرنا بشراريف الجامع الطولونى(١٣٦).

وتتكون المئذنة الشمالية أيضا من قاعدة مربعة يعلوها ثلاثة طوابق أسطوانية مستديرة يقوم فوقها أربعة طوابق مثمنة من الآجر من بناء بيبرس الجاشنكير، يحيط بثلاثة منها صفوف من المقرنصات، ويتوج قمتها أيضا قبة مضلعة. وهذه المنارة تفوق المنارة

١٣٢- Hautecoeur et Wiet, des mosquées du Caire, I, p.221; K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pp.9,101 ؛ أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص١٤٣.

١٣٣- Répertoire Chronologique , VI, pp.45-46.

١٣٤- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص١٧٧ حيث يقول"زيد فى منارة جامع باب الفتوح وعمل لها أركان طول كل ركن مائة ذراع".

١٣٥- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٧٧.

١٣٦- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pl.240.

الجنوبية طولا، إذ يصل ارتفاعها إلى حوالى ستة وأربعين مترا فوق سطح الأرض، أى بزيادة خمسة أمتار(١٣٧).

هذا وقد شهد جامع الحاكم بأمر الله العديد من الإصلاحات والإضافات لعل أولها ماقام به بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر عند تجديده لأسوار القاهرة الشمالية فى عام ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م فقد أصبح جامع الحاكم داخل تلك الأسوار بعد أن كان خارج مدينة القاهرة، والتصق الجدار الشمالى منه بها فيما بين بابى الفتوح والنصر(١٣٨).

ويفهم من المقريزى أيضا أن الصاحب عبد الله بن على بن شكر أضاف إلى صحن الجامع فسقية وأجرى الماء إليها بيد أن قاضى القضاة تاج الدين بن شكر سرعان ما أمر بإزالتها فى سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م(١٣٩) ويستشف منه كذلك أن الفرنج عملوا بالجامع كنائس قام بهدمها الملك الناصر صلاح الدين وجعل مكانها اصطبلات(١٤٠).

وفى ذى الحجة سنة ٧٠٢هـ / أغسطس ١٣٠٣م تزلزلت أرض مصر والقاهرة فتهدم الجامع الحاكمى وسقط كثير من الدعامات التى فيه وخرب أعالى المئذنتين، وتشعثت سقوفه وجدرانه، فأنتدب السلطان الناصر محمد الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الذى نزل إليه بنفسه ومعه القضاة والأمراء وأمر برم ما تهدم منه وإعادة ما سقط من الدعامات، فأعيدت وأقام سقف الجامع وبيضه حتى عاد جديدا وأوقف عليه عدة أوقاف بناحية الجيزة وفى الصعيد وفى الإسكندرية، كما رتب فيه دروسا أربعة لإقراء الفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوى، وجعل لكل درس مدرسا وعدة كثيرة من الطلبة. وعمل فيه خزانة كتب جليلة، وحفر فيه صهريجا بصحن الجامع ليملأ فى كل سنة من ماء النيل، ويسبل فيه الماء

١٣١- عن منارتى هذا الجامع أنظر Hautecoeur et Wiet, Les mosquees I, pp.223 224; K.A.C.Creswell, Muslim Architecture, pp.85-101, figs33-43, pls.23-32; D. Brandenburg, Islamische Baukunst, pp.125-126; D.B.Abouief, Islamic Architecture, pp.63-65 ؛ أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٧٤-٧٩.

١٣٨- انظر المقريزى الذى أخطأ فى ذكر التاريخ "إن ذلك بنى سنة ٤٣٠هـ فى زمن المستنصر بالله ووزارة أمير الجيوش فيكون بينهما سبع وثمانون سنة"الخطط، جـ٢، ص٢٧٨. ولاسيما أن الفرق الذى أشار إليه ٨٧ سنة هو الفرق الفعلى بين تاريخ بناء بدر الجمالى للأسوار الشمالية سنة ٤٨٠هـ وتاريخ بداية الأعمال بالجامع فى زمن الحاكم سنة ٣٩٣هـ.

١٣٩- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٧٨.

١٤٠- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.66.

فى كل يوم ويستقى منه الناس يوم الجمعة، حتى بلغ جملة ما أنفقه على الجامع زيادة على أربعين ألف دينار[١٤١]. ويفهم من النقوش الأثرية التى تعلو عقد المدخل الرئيسى للجامع أن الفراغ من تلك الأعمال تم فى شهر ذى الحجة سنة ٧٠٣هـ / يوليو - أغسطس ١٣٠٤م[١٤٢].

وجدد الجامع مرة أخرى وبلط جميعه فى أيام السلطان الناصر حسن فى سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٩م[١٤٣]، كما بيض مئذنته شخص من الباعة يدعى ابن كرسون المراحلى فى حوالى سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٩م[١٤٤].

وفى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر للميلاد، أضاف أحد الباعة مئذنة ثالثة إلى الجامع أعلى الباب المجاور للمنبر، اكتملت فى شهر جمادى الآخرة سنة ٨٢٧هـ / مايو ١٤٢٤م[١٤٥] بيد أنها اندثرت ولم يعد لها وجود[١٤٦]، إذ تعرض الجامع للخراب إبان هذا القرن كما يفهم من رواية المقريزى الذى كتب يقول" والجامع الآن متهدم وسقوفه كلها مامن زمن إلا ويسقط منها الشئ بعد الشئ فلا يعاد[١٤٧]". ويبدو أنه ظل كذلك حتى أدركته الحملة الفرنسية فاتخذت منه حامية ومن منارتيه برجين للمراقبة[١٤٨]. وفى سنة ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م جدد به السيد عمر مكرم نقيب الاشراف أربع بوائك جعلها مسجدا[١٤٩] وكسى المحراب بالرخام وجعل بجواره منبرا[١٥٠]. ومع ذلك فقد صار الجامع فى أوائل القرن الثالث عشر للهجرة/ التاسع عشر للميلاد مقرا لقوم من أهل الشام، أقاموا فيه منازل ومعامل لصناعة الزجاج ونسج الحرير[١٥١].

١٤١- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٧٨.

١٤٢- M. Van Berchem, Corpus, Egypte, I,p.52-53; Répertoire, XIII,p.242.

١٤٣- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٧٨؛ D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.65

١٤٤- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٨٠؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص٨٠؛ أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٦٤.

١٤٥- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٨٠؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص٨١.

١٤٦- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.64, note(1), D.B.Abouseif, Islamic Architecutre, p.65.

١٤٧- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٨٠؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص٨١.

١٤٨- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.64.

١٤٩- على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص٨١.

١٥٠- محمود أحمد، دليل موجز لأشهر الآثار العربية، القاهرة ١٩٣٨، ص٦٢

D.B. Abouseif, Islamic Architecture p.64;

١٥١- على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص٨١.

وفى سنة ١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م استخدم بقايا رواق القبلة كأول متحف للفن الإسلامى أطلق عليه اسم دار الآثار العربية جمعت فيه التحف الفنية التى كانت توجد فى المساجد والمبانى الأثرية وبقيت هناك حتى نقلت إلى المبنى الحالى بباب الخلق الذى افتتح رسميا فى التاسع من شوال سنة ١٣٢١هـ / ٢٨ ديسمبر ١٩٠٣م وتغير اسمه من دار الآثار العربية إلى متحف الفن الإسلامى فى سنة ١٩٥٢م(١٥٢). وحل محله فى الجامع مدرسة السلحدار الابتدائية(١٥٣).

وظل الجامع خربا حتى قامت لجنة حفظ الآثار العربية بإصلاح دعامات وعقود النصف الجنوبى من الرواق الشرقى، كما أعادت بناء المجاز ونزعت الكسوة الرخامية التى وضعها السيد عمر مكرم على المحراب العتيق وأقامت لها محرابا حديثا على يمين المحراب الفاطمى(١٥٤).

بقى أن نشير فى النهاية إلى أن هذا الجامع قد شهد فى العصر الحديث أكبر عملية ترميم وصيانة مرت به منذ إنشائه على أيدى طائفة البهرة التى رصدت له مبلغا كبيرا من المال لإعادته إلى حالته الأولى التى كان عليها وقت تشييده فى العصر الفاطمى وقد انتهت بالفعل من اصلاحه وافتتاحه للصلاة وإن كانت قد وقعت فى بعض الأخطاء الفنية أثناء الترميم لانعدام الرقابة على تقوم به من أعمال.

مشهد الجيوشى

أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى(١٥٥) فى المحرم سنة ٤٧٨هـ / مايو ١٠٨٥م(١٥٦)، أعلى قمة جبل المقطم، فوق مشهد إخوة يوسف(١٥٧) مباشرة، لذا كان يشرف على منطقة القرافة الصغرى بالإمام الشافعى وعلى الجزء المطل على النيل من جهة مصر القديمة وعلى المراعى الخضراء المعروفة ببساتين الوزير(١٥٨). ويرجع بعض الباحثين سبب اختياره لهذه

١٥٢- محمد مصطفى، متحف الفن الإسلامى، دليل موجز، القاهرة ١٩٥٨، ص٩.

١٥٣- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٦٥.

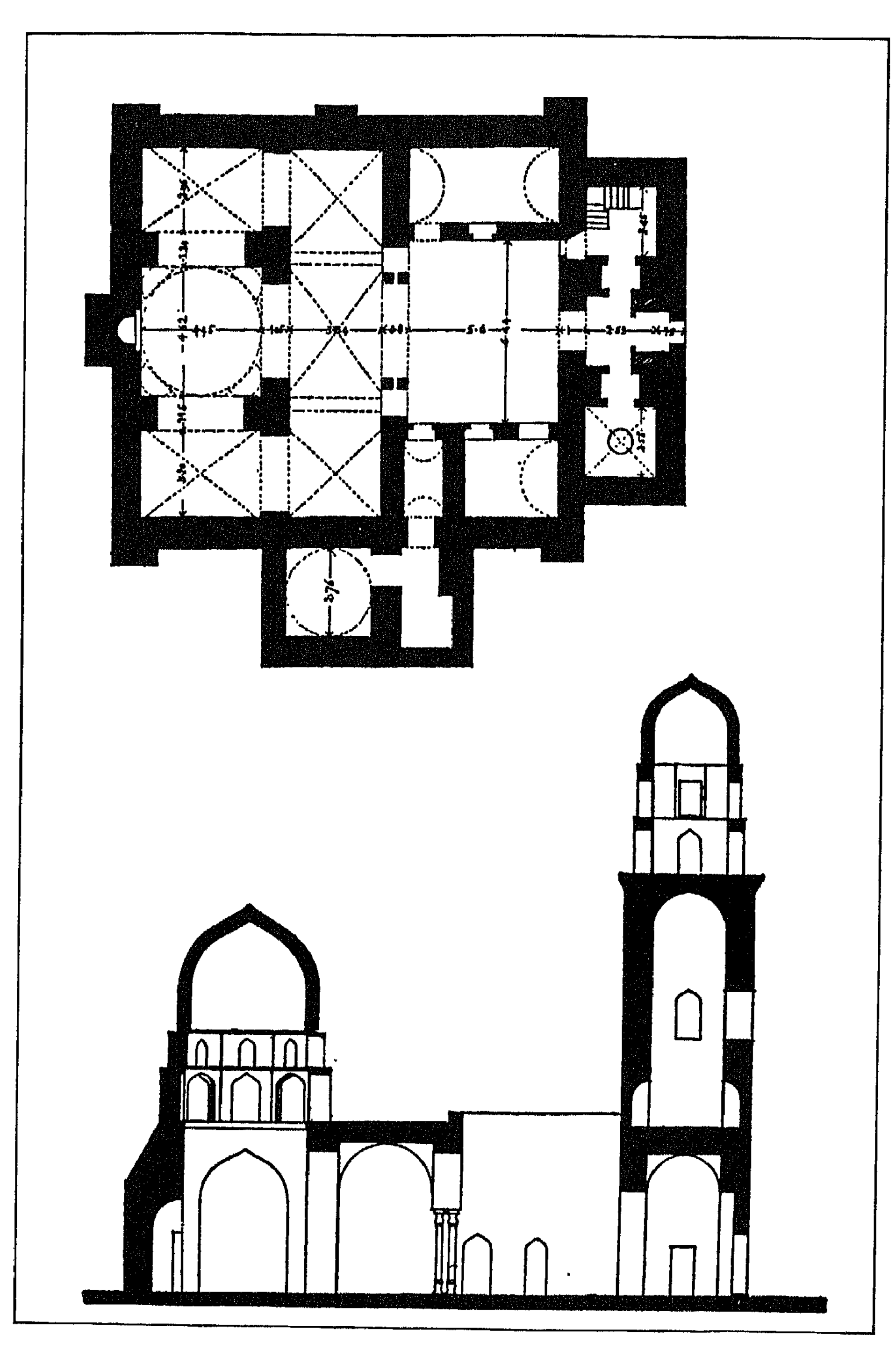
١٥٤- محمود أحمد، دليل موجز، ص٦٥.

١٥٥- نسبه المؤرخ ابن ميسر إلى ابنه الأفضل شاهنشاه انظر أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد، ص٨٥.

١٥٦- أخطأ ڤان برشم فى قراءة التاريخ فذكر أنه فى المحرم من سنة ٤٩٨هـ أنظر M.Van Berchem, Une mosquée du temps des fatimides, Mémoires de l'Institut d'Egypte, II, 1889,p.606.

١٥٧- عن هذا المشهد انظر، عبد الرحمن زكى، موسوعة القاهرة، ص٢٤١ - ٢٤٢.

١٥٨- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.154; D. Brandenburg, Islamische Baukunst, p.124.



شكل (١٨) مشهد الجيوشى، مسقط أفقى وقطاع، عن برندنبرج.

البقعة هو رغبته فى أن يدفن فى موقع مرتفع حتى يشرف منه على قباب السبع بنات[١٥٩] الأثيرة لديه[١٦٠].

ويعرف هذا المشهد اليوم لدى العديد من الباحثين باسم مسجد الجيوشى[١٦١] مع أنه لا علاقة له بطراز المساجد[١٦٢] الفاطمية المألوفة فهو عبارة عن بناء مستطيل الشكل طوله ثمانية عشر مترا وعرضه خمسة عشر مترا[١٦٣] يشتمل على ثلاثة أقسام رئيسية: كتلة المدخل، الصحن، وبيت الصلاة[١٦٤]، وأضيف إليه فى وقت لاحق بناء مستطيل الشكل يتوسط ضلعه الشمالى[١٦٥].

يشكل المدخل كتلة معمارية بارزة بامتداد الجدار الغربى ويشتمل بدوره على ثلاثة أقسام، تشغل فتحة المدخل القسم الأوسط منها، وهو يقع أسفل المئذنة مباشرة ويتألف من باب صغير معقود بعقد مدبب يعلوه لوحة رخامية تتضمن خمسة أسطر بالخط الكوفى المزهر جاء فيها .... مما أمر بعمارة هذا المشهد[١٦٦] المبارك فتى مولانا وسيدنا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الأئمة الطاهرين وأبنائه الاكرمين وسلم إلى يوم الدين / السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين،عضد الله به الدين، وأمتع بطول / بقائه أمير المؤمنين، وأدام

١٥٩- عنها أنظر المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٥٩، ابن الزيات، الكواكب السيارة، ص١٧٨؛ K.A.C. Creswell, Brief Chronology, p.52.

١٦٠- Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire, I, p..229.

١٦١- انظر على سبيل المثال، M. Van Berchem, Une mosquec, p.606, Corpus, Egypte I, p.54; K.A.C. Creswell, Brief Chronology, p.53; Muslim Architecture, p.155; D.Brandenburg, Islamische Baukunst, p.124; Y. Rāgib Un Oratoire Fatimde au sommet du Muqattam, Studia, Islamica, LXV,1984, p.51.

١٦٢- Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire, I, p.229.

١٦٣- ذكر أحمد فكرى أن طوله ٢٢,٥ م وعرضه ١٧م أنظر مساجد القاهرة، جـ١، ص٩٠، وهو يخالف بذلك أغلب الباحثين انظر، K.A.C. Creswell Muslim Architecture, p.154; D.Brandenburg, Islamische Baukunst, p.127 ؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص ٢٨٢.

١٦٤- Hautecoeur et Wiet, Les mosquées, I,p.229

١٦٥- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.154.

١٦٦- قرأها كريزويل زاوية انظر K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.155 وقد سار على دربه كل من كمال الدين سامح، العمارة الإسلامية فى مصر، ص٢٨، الذى أطلق عليه جامع وزاوية فى آن واحد، وسعاد ماهر، مساجد مصر جـ١، ص٢٨٢، التى أطلقت عليه أيضا زاوية ومسجد.

قدرته وأعْلى كلمتـه وكيد عدوه وحسدته، ابتغاء مرضـاة الله فى المحرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة[١٦٧]».

وهو يفضى إلى ممر مغطى بقبو يعلوه ممر آخر مسقوف بقبة صغيرة ترتكز على الجدران مباشرة بدون مثلثات كروية أو أية مناطق انتقال. يوجد على جانبيه غرفتان صغيرتان اليمنى التى تشغل الزاوية الجنوبية الغربية مكشوفة وتشتمل على درج سلم يفضى إلى سطح المشهد وإلى المئذنة، أما اليسرى التى تشغل الزاوية الشمالية الغربية فهى مغطاة بقبو متقاطع ويعلو جدارها الشمالى نافذة وكانت تشتمل على صهريج للمياه[١٦٨].

ويفضى هذا المدخل إلى القسم الثانى وهو عبارة عن صحن مكشوف مستطيل الشكل (٦,٤٥ × ٦٠ , ٥م)[١٦٩] يكتنفه قاعتان مستطيلتان يعلو كلا منهما قبو نصف أسطوانى، وينفذ إلى داخلهما بواسطة فتحتين معقودتين جهة الصحن اقتطع فى وقت لاحق جزء من القاعة اليسرى أى الشمالية وغطى بقبو مستعرض، وفتح به باب فى منتصف جداره الشمالى لينفذ منه إلى المبنى المستطيل الذى أضيف لصق الجدار الشمالى خارج المشهد[١٧٠].

وهو يشتمل بدوره على قسمين: قسم غربى مستطيل يعلوه بقايا قبو وقسم شرقى مربع يعلوه قبة تقوم على حنيات ركنية يعتقد كريزويل أنه خاص بأحد الأولياء الصالحين[١٧١].

ويطل على الصحن من الجهة الشرقية بائكة ثلاثية العقود، العقد الأوسط منها أكثر ارتفاعا وإتساعا من العقدين الجانبيين، والعقود من النوع المدبب وترتكز على عمودين مزدوجين[١٧٢] صنعا من الرخام، لكل منها تاج ناقوسى على هيئة مشكاة وقاعدة ذات شكل

١٦٧- M. Van Berchem, Corpus, Egypte, I,p.54; Répertoire, VII, pp.229-230.

١٦٨- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture,p.154.

١٦٩- أشار أحمد فكرى أن طوله ستة أمتار ونصف وعرضه أقل من ذلك مترا انظر مساجد القاهرة، جـ١، ص٩٢، وقد سارت على دربه سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٢٨٢.

١٧٠- يعتقد فريد شافعى أن هذا القسم يمثل أحد عناصر البناء الأساسية أنظر F.Shafi'i, The Mashhad al- Juyushı, Archéalogical Notes and Studies, Studıes in Islamic Art and Architecture in Honor of professor K.A.C. Creswell. Cairo,1965, pp.237ff.

١٧١- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.154.

١٧٢- D.B.Abouseif, Ialamic Architecture, p.67;

مماثل لكنه مقلوب[١٧٣] وتفتح هذه البائكة على بيت الصلاة الذى يحتل أكثر من نصف مساحة المشهد، وهو يتألف من ثلاثة عقود تسير فى موازاة المحراب، تقوم على دعامتين، غطيت البلاطة الغربية منها بثلاثة أقبية متقاطعة، على حين يعلو بلاطة المحراب الشرقية قبوان من نفس النوع يتوسطهما قبة أمام المحراب[١٧٤]، ترتفع قمتها اثنى عشر مترا فوق الأرضية، وترتكز على عقود من ثلاث جهات وعلى جدار القبلة من الجهة الرابعة، يحيط بمربعها شريط عريض من الكتابات الكوفية المزهرة ويتوج أركانها أربعة حنيات ركنية معقودة، فتح بينها أربعة نوافذ مسدودة فى الوقت الحالى، يعلوها رقبة مثمنة بكل ضلع من أضلاعها نافذة معقودة، ويعلو الرقبة قبة ملساء على شكل نصف كرة، يتوسط قمتها من الداخل كتابات قرآنية من سورة يس" والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم"، وفى الوسط نقش اسما محمد وعلى ثلاث مرات على شكل نجمة ذات ستة رؤوس[١٧٥].

وينتصف المحراب جدار القبلة الشرقى ويشكل بروزا خارجه، وهو من أجمل المحاريب الفاطمية ذات الزخارف الجصية، ويعلو تجويفه عقد مدبب يرتكز على عمودين لم يعد لهما وجود فى الوقت الحالى، ويزينه شريطان من الكتابات الكوفية المزهرة بالإضافة إلى نقوش نباتية بديعة[١٧٦] وقد كسيت جدران القبلة وحنية المحراب فى القرن الثانى عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد بزخارف جصية تتضمن نقوشا نباتية رسمت باللون الأخضر تشبه زخارف البلاطات الخزفية العثمانية الطراز نجد بينها تاريخ سنة ١١٤٤هـ / ١٧٣٢م[١٧٧].

وللمشهد مئذنة رشيقة تعلو مدخله الغربى شيدت من الآجر تسمو عشرين مترا فوق سطح الأرض، وتضم ثلاثة طوابق، الأول مربع الشكل، فتحت فى واجهتيه الشمالية والغربية نافذة، وزينت قمته باطار يضم صفين من المقرنصات، شيدت من الآجر وكسيت بالجص، تعد

١٧٣- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٩٢.

١٧٤- Hautecoeur et Wiet, Les mosqueés, I, p.230.

١٧٥- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٩٣؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٢٨٤، D.B.Abouscif, Islamic Architecture, p.640

١٧٦- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pp.157,158; D.Brandenburg, Islamische Baukunst, p.129.

١٧٧- M. Van Berchem, Une mosquée, p.618; K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, pp.158-159; D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.67.

أقدم مثال معروف فى العمارة الإسلامية بمصر[١٧٨]، يعلوه طابق ثان مربع أقل حجما، فتحت فى كل واجهة من واجهاته الأربع نافذة معقودة، يعلوه طابق ثالث عبارة عن رقبة مثمنة بكل ضلع من أضلاعها نافذة ذات عقد مدبب، يتوجه قبة ملساء نصف كروية[١٧٩].

ومن خصائص هذا المشهد أن واجهته الشمالية والجنوبية زودتا بدعامات تعلوها فوق السطح خلاوى صغيرة يغطيها قباب ملساء، بقى اثنان منها فى الجهة الجنوبية وهى مزودة من الداخل بمحاريب لتحديد اتجاه القبلة، استند البعض إليها فى محاولة تحديد طبيعة هذا المبنى الذى أقامه بدر الجمالى فى هذه البقعة المنعزلة من جبل المقطم[١٨٠].

بقى أن نشير إلى أن تصميم هذا المشهد المعمارى قد استوحى فى العصر الحديث لتصميم ضريح أغا خان الثالث الذى أقامه المرحوم فريد شافعى فى مدينة أسوان عام ١٩٥٩[١٨١].

الجامع الأقمر

أنشأه الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله فى سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م، وهو يقع على يمين السالك إلى شارع المعز لدين الله بقرب حارة برجوان وجامع السلحدار[١٨٢]. وكان مكانه علافون فتحدث الخليفة الآمر مع الوزير المأمون أبى عبد الله محمد بن مختار بن فاتك البطائحى[١٨٣] فى إنشائه جامعا، فلم يترك قدام القصر دكانا[١٨٤]. ويفهم من ابن ظهيرة أيضا أن هذا الموقع كان مكانه برية أى صحراء تعرف ببئر العظمة والعظام[١٨٥] وهى بئر قديمة قبل الملة الإسلامية كانت فى دير من ديارات النصارى، فلما قدم جوهر بجيوش المعز

١٧٨- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٩٣، Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire, I, p.232;

١٧٩- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.159; D.Brandenburg, Islamische Baukunst, p.129.

١٨٠- عن هذا الموضوع انظر فريد شافعى، العمارة العربية الإسلامية ص١٦٤، D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.64;

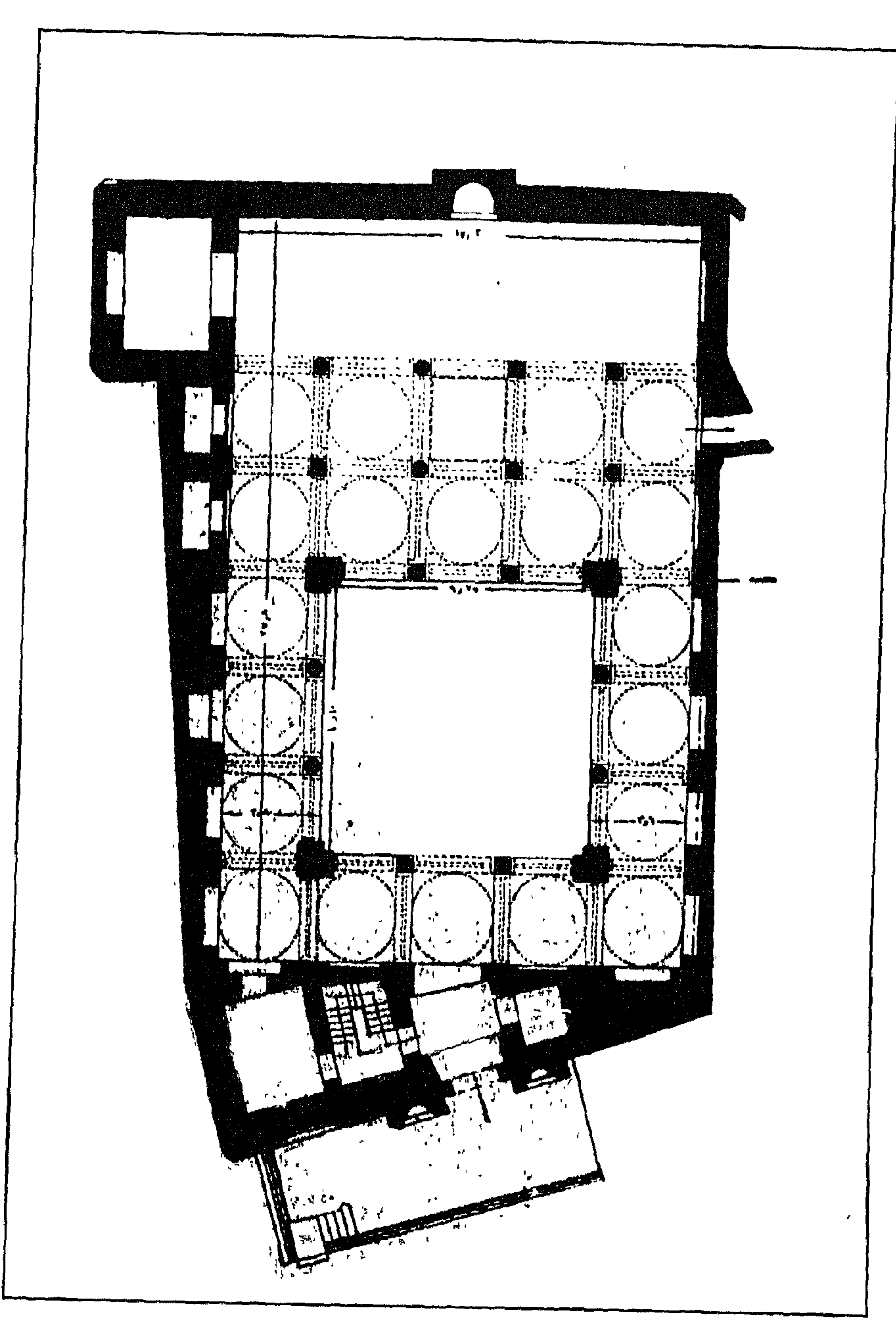
١٨١- D. Brandenburg, Islamische Baukunst, p.129.

١٨٢- على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص٦٠.

١٨٣- محمد حمدى المناوى، الوزارة والوزراء، ص٢٧٢-٢٧٥.

١٨٤- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٩٠.

١٨٥- ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا، وكامل المهندس، القاهرة ١٩٦٩، ص١٨٠.



شكل (١٩) جامع الأقمر، مسقط أفقي عن أحمد فكري.

لدين الله فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، أدخل هذا الدير فى القصر، وهو موضع الركن المخلق، وجعل البئر مما ينتفع به فى القصر. وقد عرفت بهذا الاسم لأن جوهرا نقل من الدير المذكور عظاما كانت فيه من رمم قوم يقال إنهم من الحواريين، فسميت بئر العظام، والعامة تقول بئر العظمة[١٨٦].

ويذكر ابن عبد الظاهر أنه لما كمل بناء الجامع فى سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م ذكر اسم الآمر والمأمون عليه، وهذه الرواية أكدتها النقوش الأثرية التى بقيت على الواجهة الغربية للمسجد[١٨٧] كما يذكر المقريزى أن الخليفة الآمر اشترى له حمام شمول ودار النحاس بمصر وحبسهما على سدنته ووقود مصابيحه، ومن يتولى أمره ويؤذن فيه، وبنى تحته دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح[١٨٨] أى فى الجهة الشمالية، مما جعل المرحوم حسن عبد الوهاب يعتقد أنه من المساجد المعلقة[١٨٩] رغم أنه منخفض عن مستوى أرضية الشارع[١٩٠] ويفضى إليه مجموعة من الدرج ويتقدمة سور من الحديد.

وهو جامع صغير صمم بحيث تتفق واجهته وتخطيط الشارع الذى يطل عليه، إذ نجد أطرافه الخارجية غير منتظمة، وواجهته الغربية ليست فى موازاة جدار القبلة الشرقى، بسبب التقاء الشارعين اللذين أقيم الجامع على حافتيهما فى زاوية حادة، لذا عمد المعمار إلى ملء الفراغ الناتج بين الجدار الشمالى والواجهة الغربية بثلاث غرف واحدة على يمين المدخل واثنتان على يساره[١٩١].

وتمتد واجهة المسجد الغربية التى حفلت بالعديد من أنواع الزخارف النباتية والهندسية والكتابية، بطول عشرين مترا، وارتفاع اثنى عشر مترا، وهى من الحجارة المصقولة وتنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية، الجنوبى منها كان متواريا خلف منزل حديث البناء، قامت إدارة حفظ الآثار العربية بنزع ملكيته[١٩٢] منذ زمن بعيد، لكن لم يهدم إلا مؤخرا، وتم إعادة بنائه على نمط القسم الشمالى الذى يمتد أيضا بطول ٦،٤٢م ويزينه

١٨٦- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٩٠.

١٨٧- M. Van Berchem, Corpus, Egypte, I, pp.64-69;Répertoir, VIII, pp.146-148.

١٨٨- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٩٠.

١٨٩- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٧٠.

١٩٠- زكى مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص ١٢٤.

١٩١- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٩٨؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص ٢٣٣.

١٩٢- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٧٠.

دخلة صماء مستطيلة الشكل يعلوها عقد مفصص يزينه صفان من المقرنصات ويملأ حشواته أضلاع مشعة أشبه بشمس مشرقة حول جامة مستديرة[١٩٣] نقش بدائرها اسم محمد عدة مرات بالإضافة إلى اسم على الذى يحتل مركز الجامة. ويعلو هذا العقد طاقة مستديرة اندثرت زخارفها الجصية، يكتنفها من يمين ويسار نافذتان مستطيلتان تنوعت زخارفهما، صيغت النافذة اليسرى منهما على هيئة محراب يرتكز على عمودين ويتدلى من قمته مشكاة، كأنها ترتل قوله تعالى: «مثل نوره كمشكاة فيها مصباح[١٩٤]»، تعد أول مثال من نوعه فى عمارة مصر الإسلامية[١٩٥]. ويوجد أسفل النافذتين فى تواشيح العقد نقش لمعينين بهما زخارف نباتية. وينتهى هذا القسم الأيسر من الواجهة الغربية عند التقائه بالواجهة الشمالية للمسجد بشطف يتوجه مقرنص من صفين كتب على جانبيه محمد وعلى، وفى طاقاته «إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»[١٩٦]، نجد نظيرا له فى الركن الجنوبى الغربى الذى سبق للمقريزى أن عبر عنه بالركن المخلق[١٩٧]، وهو يعد أيضا الأول من نوعه فى العمارة الإسلامية فى مصر[١٩٨] وسوف نصادفه بعد ذلك بكثرة فى العديد من العمائر الدينية[١٩٩].

أما القسم الأوسط من الواجهة فهو بارز عن سمت الجدران بحوالى ثلاثة أرباع المتر ويمتد ما يقرب من سبعة أمتار، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام رأسية، يقع المدخل فى القسم الأوسط منها وهو عبارة عن فتحة مستطيلة الشكل يعلوها عقد مستقيم يتألف من صنجات معشقة نجد نظيرا لها فى بوابتى الفتوح والنصر، ويتوج قمته حنية صماء معقودة بعقد مدبب تملأ حشواته أضلاع مشعة كأنها شمس ينبثق النور من حولها يتوسطها جامة نقش بمركزها اسما محمد وعلى يحيط بهما شريط ضيق من زخارف نباتيه، يليه شريط آخر من كتابات قرآنية بالخط الكوفى نصها «بسم الله الرحمن الرحيم إنما يريد الله

١٩٣- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص ١٠٠.

١٩٤- قران كريم، سورة النور، آية رقم ٣٥.

١٩٥- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p. 243; D.Brandenburg, Islamische Baukunst, p. 130; D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.73.

١٩٦- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص ٧٠.

١٩٧- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٢٩٠؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص ١٢٤؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص ٣٢٤.

١٩٨- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص ١٠٠.

١٩٩- Ahmad Abd ar- Rãziq, Trois fondations, REI, XLI/I, p.105.

ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا[٢٠٠]». يحيط بها حلقة ثالثة تضم بدورها زخارف نباتية مفرغة[٢٠١]، على حين يزين كوشتى العقد زهرة متعددة البتلات[٢٠٢].

يكتنف هذا القسم الأوسط قسمان متماثلان نجد فى القسم الأسفل منهما حنية أشبه بمحراب يعلوها عقد على هيئة محارة أو شمس مشعة، يعلوها إطار مستطيل الشكل به أربعة صفوف من المقرنصات الحجرية، تعد الأولى من نوعها بعد مقرنصات مئذنة الجيوشى المشيدة من الآجر والجص، يعلوه حنية أخرى يكتنفها عمودان رشيقان، ويتوجها عقد مدبب به محارة أو شمس صغيرة. ولعل الهدف من وراء نقش هذه الشموس أن تعبر عن قوله تعالى: «جعل الشمس ضياء والقمر نورا»[٢٠٣] إذ تضم هذه الواجهة سبعة أشكال مختلفة الأحجام منها[٢٠٤].

وتضم هذه الواجهة أيضا ثلاثة أشرطة من الكتابات الكوفية المزهرة تمتد عليها أفقيا من أولها إلى آخرها، الأول أسفل العقد المستقيم الذى يعلو المدخل، والثانى فوق العقد المستقيم والثالث فوق قمة الواجهة ويستمر فى امتداده حول الواجهة الشمالية إلى مسافة تبلغ أحد عشر مترا ونصه «بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمله... فتى مولانا وسيدنا الإمام الآمر بأحكام الله بن الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليهما وعلى آبائهما الطاهرين وأبنائهما الأكرمين تقربا إلى الله الملك الجواد... أمين... السيد الأجل المأمون أمير الجيوش سيف الإسلام وناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين وهادى دعات (كذا) المؤمنين أبو عبد الله محمد الآمرى، عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته فى سنة تسع عشرة وخمسمائه[٢٠٥]».

ويشكل تخطيط الجامع من الداخل مستطيلا منتظم الأضلاع، طوله ٢٨ مترا وعرضه ١٧,٣٤ مترا، يضم صحنا أوسط مكشوفا تبلغ مساحته ١٧,١٠ × ٩,٧٧م[٢٠٦].

٢٠٠- قرآن كريم، سورة الأحزاب، الآية رقم ٣٣.

٢٠١- D.B.Abouseif, Islamic Architecture, p.74. K.A.C.Creswell, Muslim Architecture, p.242.

٢٠٢- سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٣٢٤.

٢٠٣- قرآن كريم، سورة يونس، آية رقم ٥.

٢٠٤- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص١٠٢.

٢٠٥- راجع الهامش رقم ١٨٧.

٢٠٦- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.242; D. Brandenburg, Islamische Baukunst, p.129.

يحيط به أربعة أروقة يطل كل منها على الصحن بواسطة بائكة ثلاثية العقود من النوع المنفرج، تقوم على عمودين فى الوسط ودعامتين فى الأركان، كان يزين حافتها شريط من الكتابات القرآنية، نقشت بالخط الكوفى المزهر، فى الوقت الذى زينت فيه تواشيح العقود بجامات تضم وريدات متعددة الفصوص.

ويعد رواق القبلة أكبر أروقة الجامع إذ يتألف من ثلاث بلاطات تفصلها بائكتان تشتمل كل منها على خمسة عقود موازية لجدار القبلة، تقوم على أربعة أعمدة قديمة ذات تيجان كورنثية الشكل(٢٠٧)، أكثرها اتساعا بلاطة المحراب التى يغطيها سقف خشبى مسطح، وتنتهى فى الركن الشمالى الشرقى بقاعة مستطيلة (٥ × ٣م)، ويرجح أنه كان يفصلها عن بقية الرواق مقصورة خشبية ماتزال آثار قوائمها باقية فى قواعد الأعمدة(٢٠٨). أما البلاطتان الثانية والثالثة فقد قسمت كل منها إلى خمسة مربعات، يعلو كل مربع قبة ضحلة تقوم على مثلثات كروية باستثناء المربع الأوسط فى البلاطة الثانية الذى يشغله فتحة مربعة للإضاءة أمام المحراب الذى يتوسط جدار القبلة وهو مكسو برخام دقيق ملون ويعلوه لوحة رخامية تسجل الأعمال التى قام بها الأمير يلبغا السالمى فى الجامع عام ٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيى الأرض، أمر بعمل المنبر والمنارة وغيره بعد اندراسه فى أيام مولانا السلطان الملك الظاهر أبى سعيد برقوق حرس الله نعمته، العبد الفقير إلى الله تعالى أبو المعالى عبد الله يلبغا السالمى الحنفى الصوفى. الظاهرى لطف الله به فى الدارين وجعله... فى شهر رمضان المعظم سنة تسع وتسعين. وكان بنى هذا الجامع على أيام الخليفة الآمر بأحكام الله بن المستعلى فى سنة تسع عشرة وخمسمائة من الهجرة النبوية(٢٠٩)».

وإلى يمين المحراب يوجد منبر من الخشب يرجح أنه من بقايا المنبر الفاطمى، وإن كان يعلوه لوحة خشبية جاء فيها ما يلى: «وقالوا الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا. أمر بعمل هذا المنبر فى أيام مولانا السلطان الملك الظاهر برقوق نصره الله غرس نعمته العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الله يلبغا السالمى الحنفى الصوفى الظاهرى لطف الله به فى الدارين أمين فى شهر رمضان المعظم سنة تسع وتسعين وسبعمائة(٢١٠)».

٢٠٧- K.A.C Creswell, Muslim Architecture, p.243.

٢٠٨- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١،ص٧٢.

٢٠٩- M. Van Berchem, Corpus, Egypte, I, pp.69-70.

٢١٠- M. Van Berchem, Corpus, Egypte, I, p.70; حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٧٢؛ سعاد ماهر مساجد مصر، جـ١، ص٣٢٥.

وهذا يعنى أن منبر يلبغا قد فقد ولم يبق منه سوى اللوحة التأسيسية التى تعلو منبر الآمر، وهذا يعنى بدوره أن جامع الأقمر كان معدا لصلاة الجمعة، على عكس زعم المقريزى الذى ذكر أنه «لم تكن فيه خطبة، لكن يعرف بالجامع الأقمر»، وأن أول جمعة جمعت فيه كانت فى الرابع من شهر رمضان سنة ٧٩٩هـ/ أول يونيو ١٣٩٧م(٢١١).

أما فيما يتعلق بأروقة الجامع: الشمالى والجنوبى والغربى، فيتألف كل منها من بلاطة واحدة نجدها عمودية على جدار القبلة فى الرواقين الشمالى والجنوبى ويسقفها ثلاث قباب ضحلة، وموازية فى الرواق الغربى ويعلوها خمس قباب من نفس النوع. وظاهرة تغطية الأروقة هنا بقباب ضحلة تقوم على مثلثات كروية سبق أن شوهدت للمرة الأولى فى مشهد طباطبا وفى بابى الفتوح والنصر وفى مشهد إخوة يوسف(٢١٢)، مما يؤكد أنها فاطمية الطراز(٢١٣) وليست من أعمال يلبغا السالمى فى زمن السلطان برقوق كما يعتقد كريزويل استنادا إلى ظهورها فى خانقاه فرج بن برقوق(٢١٤).

ويستلفت النظر أيضا فى الرواق الشمالى أنه جعل على امتداد جدرانه الداخلية، دخلات أو تجاويف تزداد فسحة واتساعا كلما اقتربنا من جدار القبلة الذى ينتهى عند بلاطة المحراب بغرفة مستطيلة الشكل كما سبق أن أوضحنا من قبل، وذلك تجنبا للانحراف فى الجدار الشمالى للمسجد، نجد نظيرا لها على طول امتداد الجدار الجنوبى ولكن أصغر حجما(٢١٥).

وقد شهد هذا الجامع العديد من أعمال التجديد والإضافة فقد روى المقريزى أنه فى شهر رجب سنة ٧٩٩هـ/ أبريل ١٣٩٧م قام الأمير الوزير المشير الأستادار يلبغا بن عبد الله السالمى، أحد المماليك الظاهرية بتجديده، وأنشأ بظاهر بابه البحرى أى الشمالى حوانيت يعلوها طباق، وجدد فى صحن الجامع بركة لطيفة يصل إليها الماء من ساقية، وجعلها مرتفعة ينزل منها الماء إلى من يتوضأ من بزابيز نحاس، ونصب فيه منبرا. وجعل فوق المحراب لوحا مكتوبا فيه ما كان فيه أولا، وذكر فيه تجديده لهذا الجامع، ورسم فيه

٢١١- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٩٠.

٢١٢- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٧٢؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٢٢٥.

٢١٣- J. Franz, Kairo, 1903, p.30

٢١٤- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.244; D.B. Abouseif, Islaimc Architecture, p.74.

٢١٥- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص٩٨-٩٩.

نعوته وألقابه. كما روى أيضاً أنه بنى على يمنة المحراب البحرى، بالواجهة الغربية، مئذنة، وبيض الجامع كله ودهن صدره بلازورد وذهب وجدد حوض الجامع الذى تشرب منه الدواب وهو فى ظهر الجامع تجاه الركن المخلق(٢١٦).

والحق أن رواية المقريزى هذه تتفق مع نقوش اللوحة الرخامية السابق الإشارة إليها بأعلى المحراب(٢١٧).

ويبدو أن المقريزى لم يستحسن بعض هذه الأعمال وذهب إلى الأمير يلبغا السالمى ليعاتبه عليها وسجل لنا ما دار من حديث بينهما قائلا:

«فقلت له: قد أعجبنى ما صنعت بهذا الجامع، ما خلا تجديد الخطبة فيه وعمل بركة الماء فإن الخطبة غير محتاج إليها ها هنا لقرب الخطب من هذا الجامع، وبركة الماء تضيق الصحن، وقد أنشأت ميضأة بجوار بابه الذى من جهة الركن المخلق» فاحتج عليه الأمير يلبغا قائلا: أما الخطبة والمنبر فما أنا بالذى أحدثته، فقد قال: ابن الطوير فى كتاب «نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين» عند ذكر جلوس الخليفة فى المواليد الستة: ويقدم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك، ثم يحضر خطيب الجامع الأقمر ويخطب كذلك. فهذا أمر قد كان فى الدولة الفاطمية. وأما البركة ففيها عون على الصلاة لقربها من المصلين(٢١٨)."

وفى سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م ولى نظر الجامع بعض الفقهاء، فرأى هدم المئذنة من أجل ميل حدث بها فهدمها، كما أبطل الماء من البركة لإفساد الماء بمروره بجدار الجامع القبلى(٢١٩). ومع ذلك فإن من يتأمل المئذنة التى توجد على يسار المدخل الغربى سوف يلاحظ أن الذى هدم منها هو علوها فقط، لأن قاعدتها المستديرة ما تزال قائمة حتى بداية الطابق الأول وهى تحتفظ بنقوشها الغريبة وبصفوف من المقرنصات التى تلتف حولها(٢٢٠) أما الطابق الأول فمن الواضح أنه بناء حديث أضيف فى تاريخ نجهله(٢٢١).

٢١٦- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٩٠؛ على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص٦٠.

٢١٧- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.245.

٢١٨- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٩٠؛ على مبارك، الخطط التوفيقية جـ٤، ص٦٠، سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٣٢٢.

٢١٩- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٩٠.

٢٢٠- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٧٠؛ انظر أيضا أحمد فكرى مساجد القاهرة جـ١، ص١٠٠، الذى يذكر أنها هدمت وبنيت عوضا عنها مئذنة فى عصر غير معروف، هدمت هى الأخرى، وبنيت فى موضعها مئذنة حديثة، دون أن يشيرا إلى المصدر الذى اعتمد عليه.

٢٢١- D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.43.

وجدد الجامع الأقمر أيضا فى أيام محمد على على يد سليمان أغا السلحدار فى شهر شعبان سنة ١٢٣٦هـ/ مايو ١٨٢١م[٢٢٢] وقد لاحظ ڤان برشم آثار هذه الأعمال على نفيس بعض العقود المطلة على الصحن[٢٢٣]. كما عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بإصلاحه فى سنى ١٣٢٠ - ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٠ - ١٩٢٨م[٢٢٤].

هذا ويشهد الجامع الأقمر حاليا أكبر عملية ترميم تقوم بها طائفة البهرة التى يرجع إليها الفضل فى إعادة بناء القسم الجنوبى من الواجهة الغربية.

الجامع الأفخر

يقع هذا الجامع على رأس حارة خوش قدم بشارع المعز لدين الله بحى الغورية، التى كانت تعرف قديما بسوق السراجين ثم بسوق الشوايين، وكان يعرف قديما بالجامع الأفخر ثم قيل له بعد ذلك جامع الفاكهيين. وهو من المساجد الفاطمية المعلقة. عمره الخليفة الظافر بنصر الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله، ووقف حوانيته على سدنته ومن يقرأ فيه وذلك فى سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، وقدر به دروسا وفقهاء ومعلمين للقرآن الكريم[٢٢٥].

أما عن سبب تشييده فيذكر المؤرخ ابن عبد الظاهر أن مكانه كان زريبة تعرف بدار الكباش، وأن خادما رأى من مشرف عال ذباحا وقد أخذ رأسين من الغنم فذبح أحدهما ورمى سكينته ومضى ليقضى حاجته، فأتى رأس الغنم الآخر وأخذ السكين بفمه ورماها فى البالوعة، فجاء الجزار يطوف على السكين فلم يجدها. وأما الخادم فإنه استصرخ وخلصه منه. وطولع بهذه القضية أهل القصر فأمروا بعمله جامعا، ويسمى الجامع الأفخر تعقد به حلقة تدريس وفقهاء ومتصدرون للقرآن[٢٢٦].

وفى سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م كانت الزلزلة العظيمة فسقطت مئذنة جامع الفاكهيين[٢٢٧] فقام السلطان الظاهر جقمق بتجديده فى سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م[٢٢٨] بعد أن

٢٢٢- الجبرتى، عجائب الآثار، طبعة بولاق، جـ٤، ص٣١٨.

٢٢٣- M. Van Berchem, Notes d'archéologie arabe, JA,8me sér., XVIII,1891,p.50.

٢٢٤- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٧٣.

٢٢٥- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٩٣.

٢٢٦- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٩٣؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٣٤٦.

٢٢٧- المقريزى، السلوك، جـ١، ص٩٤٤.

٢٢٨- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٥، ص٣٤٨.

تهدم الكثير من أروقته وجدرانه[٢٢٩] وألحقت به ميضأة أمر بعملها محمد بن أحمد بن محمد الجلالي المحلي المتوفى سنة ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م[٢٣٠]. كما جدد ثانية فى نهاية هذا القرن على الأمير يشبك بن مهدى الذى عنى بزخرفته وتجميله وإزالة المبانى التى كانت تحجبه[٢٣١].

وفى العصر العثمانى تم هدم الجامع وأعيد بناؤه بعناية أحمد كتخدا الخربطلى الذى عهد بالإشراف على تجديده إلى عثمان شلبى الرومى شيخ طائفة العقادين، الذى انتهى من عمارته فى شوال سنة ١١٤٨هـ/ ١٧٣٦م[٢٣٢] وجعله معلقا كما كان من قبل، وأقام تحته حوانيت، وألحق به سبيلا، فى طرف الواجهة الغربية،يعلوه كتاب، كما أنشأ بجواره وكالة[٢٣٣] لتجارة الفاكهة[٢٣٤]. وقد بلغت جملة النفقات عليه مائة كيس[٢٣٥]. وتاريخ هذه العمارة مدون على لوحة تذكارية فوق الباب الشمالى نصها «بسم الله الرحمن الرحيم جدد هذا المكان المبارك وقصد الثواب من الملك التواب الفقير إلى الله تعالى الحاج أحمد كتخدا مستحفظان سابقا فى شهر رمضان سنة ١١٤٨هـ[٢٣٦]».

وهكذا لم يبق من الجامع الفاطمى سوى المصاريع الخشبية للبابين الشمالى والغربى[٢٣٧] وهى منقوشة بزخارف نباتية، كذلك بعض المداميك الحجرية التى تعلو المدخل الغربى كتب عليها بالخط الكوفى عبارة الشهادة بقسميها «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

والجامع الحالى يتألف من صحن صغير مربع الشكل يغطيه سقف منقوش فى وسطه فتحة مثمنة الشكل للإضاءة، يحيط به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الذى

٢٢٩- سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ، ص٣٤٧.

٢٣٠- السخاوى، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة ١٣٥٤هـ، جـ٧، ص٤١.

٢٣١- السخاوى، الضوء، اللامع، جـ١، ص٢٧٤.

١٣٢- عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار، جـ١، ص١٦٨.

٢٣٣- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٧٤، ٧٥.

٢٣٤- سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٣٤٧.

٢٣٥- الكيس وحدة من النقد العثمانى، استخدمت فى القرن ١١هـ / ١٧م وهى تعادل ٢٥٠٠٠ بارة انظر
S.J. Shaw, The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt,1517-1798, p.XXII.

٢٣٦- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٧٥؛ سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٣٤٧.

٢٣٧- عبد الرحمن زكى، موسوعة القاهرة، ص٣٢٥.

يتصدره محراب مغشى برخام متعدد الألوان، على حين كسيت طاقيته وعقده وكوشتيه ببلاطات من القاشانى ذات الطراز العثمانى، يتوسطها واحدة مربعة كتب عليها عبارة «ما شاء الله» وتاريخ سنة ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م. ويعلو المحراب شباك مستدير مكسو أيضا بالقاشانى[٢٣٨].

وللجامع منارة رشيقة، تقع إلى يسار المدخل الغربى، ذات شكل أسطوانى ينتهى بقمة مخروطية مدببه تشبه القلم الرصاص شأن باقى المنارات العثمانية[٢٣٩].

وفى سنة ١٩٠٨ قامت لجنة حفظ الآثار العربية بتنظيف المصاريع الخشبية، الفاطمية الطراز، وأزالت ما كان يعلوها من دهانات، وأكملت الناقص من كسوتها البرونزية، كما أزالت الدكك التى كانت تتقدم مكسلتى الجامع وأصلحت أرضيته الداخلية[٢٤٠].

جامع الصالح طلائع

يقع بشارع الدرب الأحمر فى أحد المواضع التى عمرت فى زمن الخلفاء الفاطميين خارج باب زويلة[٢٤١]، أنشأه الملك الصالح طلائع بن رزيك أبو الغارات[٢٤٢] وزير الخليفة الفاطمى الفائز بنصر الله فى سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م[٢٤٣] ليدفن فيه رأس الحسين رضى الله عنه، بعد أن خيف على مشهده الذى بعسقلان من استيلاء الفرنج عليها[٢٤٤]، إلا أن

٢٣٨- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ٧٥.

٢٣٩- سعاد ماهر، مساجد مصر، جـ١، ص٣٤٧.

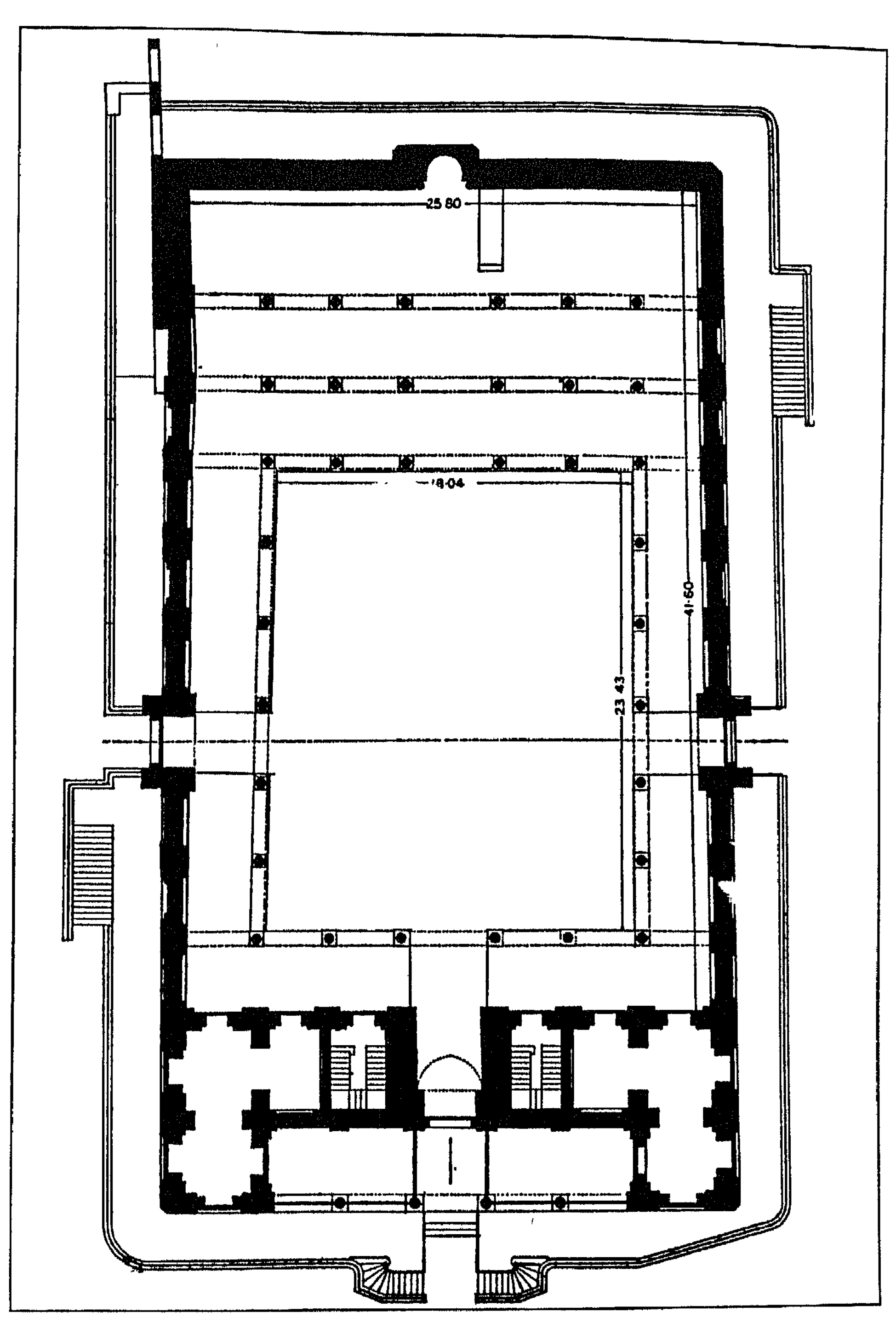
٢٤٠- Comite de conservation des monuments de l'art arabe, Le Caire, Exercice1909, p.14.

٢٤١- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٩٣.

٢٤٢- عنه انظر ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ١، ص٢٣٧؛ محمد حمدى المناوى الوزارة والوزراء، ص٢٨٥-٢٨٧.

٢٤٣- Repertoire, IX, pp.20-21; K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.284; D.Brandenburg, Islamische Baukunst, p.133.

٢٤٤- ابن ميسر، اخبار مصر، ص ٣٨؛ العمرى، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، القاهرة ١٩٢٤، جـ١، ص٢٢٠، ابن الجوزى، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، شيكاغو ١٩٠٧، جـ٨، ص١٣١، القلقشندى، صبح الاعشى جـ٣، ص٣٥١؛ المقريزى، الخطط، جـ١، ص٤٢٧.



شكل (٢٠) جامع الصالح طلائع، مسقط أفقى، عن برندنبرج.

الخليفة لم يمكنه من ذلك وقال لا يكون إلا داخل القصور الزاهرة وبنى له خصيصا المشهد الموجود الآن(٢٤٥).

ولما تم بناء الجامع جعل فيه صهريجا عظيما خصص له ساقية على الخليج بالقرب من باب الخرق تملؤه بالماء أيام فيضان النيل. ومع ذلك فإن الجامع لم يستخدم لصلاة الجمعة إلا فى أيام السلطان المملوكى عز الدين أيبك فى سنة بضع وخمسين وستمائة/ ١٢٥٤م بحضور رسول بغداد الشيخ نجم الدين عبد الله البادرانى(٢٤٦).

ويعد هذا الجامع آخر الجوامع التى شيدت زمن الخلافة الفاطمية، كما يعد أول جامع معلق فى مصر الإسلامية(٢٤٧) له أربع واجهات حجرية، شيد أسفل ثلاث منها: الشمالية والجنوبية والغربية، مجموعة من الحواينت يبلغ ارتفاعها ٣,٨٠ متر، يتوجها شريط زخرفى يضم عناصر شتى، نجد نظيرا لها فى المنارة الجنوبية لجامع الحاكم بأمر الله(٢٤٨)، ويسقفها أقبية متقاطعة.

أما أرضية الجامع فترتفع فوق هذه الحوانيت بمقدار نصف متر عن مستوى الشارع فى الوقت الذى تسمو فيه جدران المسجد إلى ارتفاع ١٤,٧٥ متر، فيما خلا الشرافات(٢٤٩) التى كانت تتوج أعلاها وهى تتألف من طابقين الأول مسطح ارتفاعه متر والثانى مدرج ارتفاعه متر وبضعة سنتيمترات(٢٥٠).

وتعد الواجهة الغربية أهم واجهات المسجد إذ يتوسطها المدخل الرئيسى الذى أقيم أمامه سقفية تنتهى فى طرفيها الشمالى والجنوبى بغرفتين. وهى تطل على الطريق بواسطة بائكة تتألف من أربعة أعمدة رخامية ذات قواعد مرتفعة، يعلوها خمسة عقود منفرجة،

٢٤٥- المقريزى، الخطط، جـ١، ص٤٢٧، جـ٢، ص٢٩٣.

٢٤٦- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٩٣؛ أنظر أيضا القلقشندى، صبح الأعشى جـ٣، ص٣٦٦، الذى يحدد التاريخ بسنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م.

٢٤٧- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص١١٢.

٢٤٨- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٩٩؛ D.B. Abouseif Islamic Architecture, p.76.

٢٤٩- K.A.C Creswell, Muslim Architecture, p.276; D. Brandenburg, Islamische-Baukunst, p.134.

٢٥٠- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص١٢٠؛ K.A.C Creswell, Muslim Architecture, p.280, pl.100c,d.

نقشت إطاراتها بزخارف هندسية وزينت تواشيحها بصرر دائرية، ويسقفها سقف خشبي منقوش بزخارف فاطمية الطراز عثر على بقايا منها أثناء عمارة الجامع في العصر الحديث فأكمل الباقي على نمطه(٢٥١) ويزين صدر هذه السقفية وجانبيها زخارف على هيئة أشكال محارية تشع ضلوعها حول جامة مركزية، وتنتهي الأضلاع بفصوص يلتف حولها عقد منفرج يزينه إطار من زخارف هندسية، على حين تحتل تواشيحه جامات دائرية(٢٥٢) .

وكان هذا المدخل يغلق بواسطة باب من الخشب، محفوظ حاليا في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة يتألف من مصراعين غشي وجههما بالنحاس المنقوش بأطباق نجمية مفرغة على حين نقش خلفهما بحشوات مستطيلة قائمة وعمودية زينت بزخارف نباتية محفورة حفرا عميقا، وهو من أقدم الأبواب المصفحة بالنحاس في مصر الإسلامية وقد عمل الباب الحالي على نمطه(٢٥٣).

ويعلو نهاية هذه الواجهة وبداية الواجهة الشمالية شريط من الكتابات الكوفية المزهرة نصها:"بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المسجد[بالقا]هرة المعزية المحروسة فتى مولانا وسيدنا الامام عيسى أبي القاسم الفائز بنصر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين [وأبنائه الاكرمين السـ]يد [الأجل] الملك الصالح ناصر الأئمة وكاشف الغمة أمير الجيوش سيف الإسلام غياث الأنام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين [أبوا] لغا[رات] طلائع الفائزي عضد الله به الدين وأمتع بطوله بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته ونصر ألويته وفتح له وعلى يديه مشارق الأرض ومغاربها في شهور سنة خمس وخمسين وخمس مائة والحمد لله(٢٥٤) وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى أمير المؤمنين على بن أبي طالب أفضل الوصيين ... (٢٥٥)

٢٥١- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٩٨؛ E. Pauty, Un dispositif du plafond, fatimite Bulletin de l' Institut d' Egypte, XV, p.106. pl.7.

٢٥٢- K.A.C. Creswell, Mulim Architecture, p.244.

٢٥٣- زكي محمد حسن، كنوز الفاطمين، ص٢٢٢ – ٢٢٣؛ حسن عبد الوهاب تاريخ المساجد، جـ١، ص٩٩؛ E. Pauty, Les bois sculptés jusqu'à, l' époque ayyaubide, Le Caire.1931, p.69,pl.89

٢٥٤- انظر Répertoire,IX, pp.20-21.، حيث يتوقف النص عند كلمة الحمد.

٢٥٥- راجع بقية النص في حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص٩٩؛ سعاد ماهر، مساجد، جـ١، ص٤٠٧.

وكان يعلو المدخل الغربى مئذنة سقطت فى سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣ م[٢٥٦] وشيدت أخرى عوضا عنها، لكنها سقطت بدورها فى أكتوبر ١٩٢٣[٢٥٧].

ولجامع الصالح مدخلان آخران، يتصف أحدهما الواجهة الشمالية، على حين يتصف الآخر الواجهة الجنوبية فى مقابله تماما، وكلاهما يبرز عن سمت الجدران بحوالى ٩٠ سم ويتوجه من أعلى عقد منفرج فتحت فى داخله نافذة معقودة[٢٥٨]، ويربطه بالمسجد معبرة فوق الحوانيت السفلية كما هو الحال بالنسبة للمدخل الرئيسى الغربى[٢٥٩] الذى يفضى إلى داخل الجامع عن طريق ممر مسقوف بقبو أسطوانى مشيد من الحجارة. والجامع من الداخل عبارة عن مستطيل طوله ٤١,٦٠ متر وعرضه ٢٥,٨ متر، يتوسطه صحن مكشوف ٢٣,٤٣ × ١٨,٧٠م، يوجد أسفله صهريج كبير، لعله الصهريج الذى ذكر المقريزى أنه كان يملأ من ماء الخليج وقت الفيضان[٢٦٠]، يحيط به أربعة أروقة يتألف كل منها من بلاطة واحدة فيما عدا رواق القبلة الشرقى الذى يشتمل على ثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة، وهى تطل على الصحن من الشمال والجنوب بواسطة بائكة ذات ستة عقود، ومن الشرق والغرب ببائكة ذات خمسة عقود يحتل تواشيحها حنية محارية على هيئة محراب، فى حين يعلو قمة كل عقد جامة بها وريدات متعددة البتلات[٢٦١] على عكس العقود الداخلية التى نقشت أطرها من الداخل والخارج بأشرطة من الكتابات القرآنية بالخط الكوفى المزهر، وفتحت فى تواشيحها صور زخرفية فرغ وسطها بأشكال هندسية ونباتية متنوعة[٢٦٢] كما يعلو قمة كل عقد نافذة مربعة يغطيها ستائر جصية مفرغة بأشكال نباتية من وجهيها، وتقوم هذه العقود فوق طبالى خشبية يزين الأجزاء الظاهرة منها زخارف نباتية مورقة نجد نظيرا لها على الأوتار أو الروابط الخشبية[٢٦٣] التى تربط العقود ببعضها البعض التى تذكرنا زخارفها بأسلوب الحفر على الخشب إبان العصر الفاطمى.

٢٥٦- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص١١٩.

٢٥٧- Comité de conservation, Exércices1920-1924, pp285-286، فى الوقت الذى أشار فيه حسن عبد الوهاب إلى أنها أزيلت فى سنة ١٩٢٦ لحدوث خلل بها انظر تاريخ المساجد، جـ١، ص٩٩.

٢٥٨- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.279.

٢٥٩- محمود أحمد، دليل موجز لأشهر الآثار العربية، ص٧٢.

٢٦٠- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٢٩٣.

٢٦١- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.281.

٢٦٢- أحمد فكرى، مساجد القاهرة، جـ١، ص١١٥؛ K.A.C. Creswell, Muslim Architecture pls.106,107.

٢٦٣- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص١٠٠.

وينتصف جدار القبلة محراب مجوف تسوده البساطة يتصدره عمودان من الرخام الأحمر ويعلوه عقد منفرج بداخله طاقية من الخشب المنقوش بزخارف ملونة من المرجح أنها حلت محل الكسوة الرخامية المتعددة الألوان التى شاهد بريس دافن أجزاء منها فى عام ١٨٧٧م فى الزاوية اليسرى من المحراب[٢٦٤] ووصلنا بالفعل قطعة منها[٢٦٥].

وعلى يمين المحراب يقوم منبر من الخشب، صنعت ريشتاه، أى جانباه، من حشوات مجمعة على شكل أطباق نجمية مطعمة بالصدف والعاج والأبنوس ، بها زخارف نباتية محفورة غاية فى الدقة والإبداع، يعلو بابه لوحة خشبية بها نص تذكارى يتألف من سطرين نقشا بخط النسخ المملوكى «أمر بعمارة هذا المنبر المبارك ابتغاء لوجه الله الكريم المقر العالى الأمير الكبيرى السيفى سيف الدين مقدم الجيوش بكتمر الجوكندار المنصورى السيفى أمير جندار الناصرى وذلك بتاريخ شهر جمادى الآخر سنة تسع وتسعين وستمائة رحم الله من كان السبب[٢٦٦]".

كما نقش على جلسة الخطيب النص التالى:"إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبتعدون[٢٦٧] أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك الجناب العالى الأميرى الكبيرى سيف الدين بكتمر الجوكندار أمير جندار وذلك بتاريخ سنة تسع وتسعين وستمئة[٢٦٨]".

ولقد حل هذا المنبر محل المنبر الفاطمى الذى يرجح البعض أنه كان طرفة نادرة كما يستشف من زخرفة الأخشاب الفاطمية الباقية بالجامع[٢٦٩]، وكما يستشف من منبر الصالح طلائع بالمسجد العمرى بقوص[٢٧٠]، ومن المقصورة الخشبية التى كانت تغطى واجهة رواق

٢٦٤- Prisse d'Avennes, L' Art arabe, texte, pp.100-101.

٢٦٥- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture,p.284; حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص١٠١.

٢٦٦- M Van Berchem, Corpus, Egypte, I, p.45; Répertoire, XIII, pp.190-191.

٢٦٧- قرآن كريم، سورة الأنبياء، الآية رقم ٢١.

٢٦٨- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص١٠١؛ Répertoire, XIII, p.191

٢٦٩- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص١٠١.

٢٧٠- عنه أنظر: C. J.Lamm, Fatimid Woodwork, BIE,1936, XVIII, pp.84-85,88,pl.XI; E.Pauty, Le minbar de Qous, Mélange Maspero, III, pp.41-48, pls.I-III; J.C. Garcin, Un Centre musulman de la haute- Egypte médievale, Qūs, Le Caire,1976, pl. IX.

القبلة وذكر بريس داڤن أنها كانت مصنوعة من خشب الخرط المنقوش بزخارف نباتية محفورة(٢٧١).

ورواق القبلة مزود أيضا بملقف عبارة عن فتحة مستطيلة الشكل يزينها إطار من الزخارف الجصية المحفورة بعناصر نباتية دقيقة، نفذ فيما بين رأس المحراب والنافذة المجاورة له، فوق الموضع المخصص لظهر المنبر، لعله كان يستخدم لترطيب الهواء على الخطيب أو يجلب له مزيدا من الضوء أثناء النهار، وهو يعد الأول من نوعه في عمارة القاهرة، وقد وجد نظير له في عمارة العصرين الأيوبي والمملوكي في كل من المدرسة الكاملية ومدرسة الناصر محمد وخانقاه بيبرس الجاشنكير(٢٧٢).

ويحيط بجدران الجامع الداخلية مجموعة من النوافذ العلوية نجد سبعا منها في جدار القبلة، وتسعا في كل من الجدارين الشمالي والجنوبي يستدل من بقايا بعضها في رواق القبلة أنها كانت جميعا معقودة بعقود مدببة يحيط بكل منها شريط من الكتابات الكوفية المزهرة، ويغطيها ستائر جصية مزدوجة مفرغة بأشكال زخرفية متنوعة، يحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة بأحد أمثلتها(٢٧٣)، على عكس النافذة التي تعلو المحراب والتي يحيط بها إطار مستطيل الشكل، والنافذة التي توجد في أقصى الجنوب إلى يسار المحراب التي استبدلت ستارتها الجصية بسبعة سطور من الكتابات النسخية(٢٧٤).

ويستشف من النصوص التذكارية المنقوشة فوق المنبر ومن الكتابات النسخية على النافذة الأخيرة أن الأمير بكتمر الجوكندار قام بعمارة الجامع في شهر جمادى الآخر سنة ٦٩٩هـ / فبراير- مارس ١٣٠٠م أي قبل زلزال سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٣م بما يقرب من أربع سنوات، على عكس مارواه المقريزي الذي ذكر أنه :"لما حدثت الزلزلة سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٣م تهدم الجامع فعمر على يد الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار(٢٧٥)".

٢٧١- Prisse d'Avennes, L'Art arabe, texte, p.100; K.A.C Creswell, Muslim Architecture, p.287.

٢٧٢- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture, p.285.

٢٧٣- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص١٠٠؛ أحمد فكري، مساجد القاهرة، جـ١، ص١١٦.

٢٧٤- K.A.C Creswell, Muslim Architecture, p.285; D.B. Abouseif, Islamic Architecture, p.77.

٢٧٥- المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٢٩٣.

ولعله عمر مرة ثانية بعد الزلزلة الأخيرة على يد الأمير المذكور وإن كان ينقصنا الدليل المادى على ذلك. كما جدد مرة أخرى فى سنة ٨٤٤هـ / ١٤٤٠م على يد رجل من الباعة يقال له عبد الوهاب العينى[٢٧٦] وإن كنا نجهل طبيعة الأعمال التى قام بها، وجدد كذلك فى أيام السلطان الأشرف قايتباى سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م، وكانت الأرض قد ارتفعت عن منسوب باب زويلة وعن هذا الجامع فقام الأمير يشبك من مهدى دوادار السلطان بالكشف عن عتبة باب زويلة وعن سلم الجامع فانكشفت الدرجات التى كانت مردومة وعدتها عشر كما كشف عن أبوابه وظهر منه عواميد رخام فجلاهم ونعمهم، وأزال ما كان بواجهته من ربوع وحوانيت من بينها ربع لخوند شقراء ابنة الناصر فرج بن برقوق، وأجرى به إصلاحات عديدة[٢٧٧].

ومع هذا فقد أدركت لجنة حفظ الآثار العربية هذا الجامع فى حالة سيئة للغاية، فالدكاكين أسفله إحتجبت تحت الأرض وأقيمت المنازل والدكاكين بداخله ولصق واجهاته فأخفتها، كما تهدمت الأروقه حول الصحن ولم يبق منها سوى رواق القبلة[٢٧٨]. فوضعت برنامجا شاملا لتخليته منذ سنة ١٩١١، واستطاعت فى سنة ١٩١٥ أن تسير فى نزع ملكية هذه المنشآت، وأعيدت الأرض إلى مستواها، وظهرت الدكاكين أسفل الجامع وعمل أمامها خندق، كما هدمت المنازل فانكشفت الواجهتان ففكتا وأعيد تركيبهما واستكمل الناقص منهما على قدر الإمكان، كما تم كشف سلم الجامع القديم بوسط الواجهة الغربية وتم إعادة بناء السقفية التى تتقدم الواجهة المذكورة[٢٧٩].

بقى أن نشير فى النهاية إلى أنه ظهر فى عام ١٩٤٥ أثناء هدم أحد المنازل الملاصقة للجامع عن بقايا أبنية متصلة بالنهاية الشرقية للواجهة الشمالية كانت مختفية خلف المنزل المذكور، وهى من نفس طراز الواجهة وتمتد فى اتجاه الشمال وتضم بابا كبيرا يناظر فى التفاصيل أبواب الجامع كما عثر على بقايا نقش كتابى مدون بالخط الكوفى أعلى هذا الجدار نصه" بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال* رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وإقام الصلاة

٢٧٦- ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٥، ص٣٤٧-٣٤٨.

٢٧٧- السخاوى، الضوء اللامع، جـ١، ص٢٧٤؛ ابن إياس، بدائع الزهور، طبعة محمد مصطفى، جـ٣، ص١٢٧، ١٣٨؛ حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص١٠٢-١٠٣.

٢٧٨- K.A.C Creswell, Muslim Architecture, p.276.

٢٧٩- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص١٠٣.

وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار(٢٨٠)، أمر بإنشاء هذا المسجد المبارك فتى مولانا وسيدنا عبد الله أبو محمد . . ." ويتوقف النص عند نهاية فتحة الباب الذى نقش حول عقده المستقيم النص التالى" بسم الله الرحمن الرحيم ادخلوها بسلام أمنين * ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين"(٢٨١).

وفى محاولة لتفسير وجود تلك المبانى ذكر المرحوم حسن عبد الوهاب أنها تمثل بقايا المشهد الذى أقامه الصالح طلائع لاستقبال رأس الحسين استنادا إلى أن الآية الشريفة المنقوشة على الباب المذكور" ادخلوها بسلام أمنين" كثيرا ماتدون على مداخل المدافن، واستنادا إلى ماذكره المؤرخ ابن دقماق من أن الصالح طلائع" هو الذى بنى جامع الصالح بظاهر باب زويلة، وبنى مشهد الحسين عليه السلام فى سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م كما دلل على وجهة نظره هذه بأن المسقط الأفقى الذى رسمه بريس داڤن للجامع يشتمل على بابين فى طرفى جدار القبلة، كانا يوصلان على حد زعمه إلى المشهد المذكور(٢٨٢).

الحمام الفاطمى

وآخر مانذكره من آثار العصر الفاطمى، الحمام الفاطمى الذى كشفت عنه حفائر متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، أو دار الآثار العربية كما كانت تسمى فى ذلك الوقت فى صيف عام ١٩٣٢(٢٨٣) بمنطقة كوم الجارح، إلى الشمال الشرقى من ضريح أبو السعود الجارحى، وهو يقع على حافة تل كوم الجارح ومبنى على الصخر مباشرة للاستفادة من الانحدار الطبيعى للتل فى الإمداد بالماء والصرف(٢٨٤).

ويستشف من تخطيطه وبقايا جدرانه أنه مازال متأثرا بتخطيط الحمامات الرومانية، إذ نجد حجرة فسيحة تمثل القاعة الباردة أى ذات الجو العادى– Frigidarium أو Apoditarium(٢٨٥) وكانت مخصصة لخلع الملابس والاسترخاء وعرفت بالمسلخ أو المخلع

٢٨٠– قرآن كريم سورة النور، الآيات ٣٦ – ٣٧.

٢٨١– حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، جـ١، ص١٠٥.

٢٨٣– محاضر اللجنة الدائمة للآثار الإسلامية والقبطية، ١٩٥٤ – ١٩٦١، الكراسة الحادية والأربعون، القاهرة ١٩٦٣، ص٦٦.

٢٨٤– L.A Ibrahim - Adil Yasin, A Tulunid Hammam in Old Cairo, Kunst der Orients,1979, p.35.

٢٨٥– فريد شافعى، العمارة العربية، جـ١، ص١٠٧.

فى حمامات القاهرة[٢٨٦] ، يوجد إلى اليسار منها حجرة تالية تمثل القاعة الدافئة Tepidarium التى تؤهل المستحم للدخول إلى الغرفة الساخنة، وهى ترتفع فوق غرفة التسخين المعروفة فى الحمامات الرومانية باسم Hypocaust ، ويوجد بها حوض صغير لصق الجدران مشيد من الطوب ومكسو بطبقة من الملاط، ربما كان الغرض منه تعويض بخار الماء المتناقص فى الحجرة نتيجة للهواء الساخن المتصاعد من غرفة التسخين أسفلها، وتفضى هذه الأخيرة إلى الوحدة الثالثة وهى القاعة الساخنة أو قاعة الاستحمام التى كان يطلق عليها Calidarium [٢٨٧] وهى مشيدة أيضا فوق غرفة التسخين وتضم فى صدرها حوض الاستحمام الذى يبلغ عمقه ١٠ ,١م ويعلوه مايشبه السلسبيل، على شكل دخلة فى الجدار تضم ثلاث حنيات معقودة، الوسطى منها أكثر اتساعا من الجانبيتين، وبها أنبوبة أسفل منها اثنتان من الفخار تخترق الجدران لتوصيل المياه من القدور التى تعلو المستوقد بغرفة التسخين[٢٨٨].

ويستشف من بقايا جدران هذا الحمام أنه كان مزودا بفرن آخر يقع خلف الجدار الشمالى لحجرة الاستحمام، لم يتبق منه سوى أطلال جدران أربعة، لعله كان مخصصا لتسخين قدور المياه، لأنه غير متصل بممرات غرفة التسخين السابق الإشارة إليها[٢٨٩].

وقد عثر فى أنقاض هذا الحمام على بقايا تصاوير جصية نفذت بطريقة الفريسكو كانت تزين حنايا بعض جدرانه، تطرق التلف إلى بعضها[٢٩٠]، أهمها صورة تمثل شابا جالسا يمسك بيده كأسا، ويرتدى ثوبا تزينه حليات من زخرفة نباتية حمراء اللون، وحول كل من العضدين شريط، وعلى رأسه عمامة ذات طيات وحول رأسه هالة كاملة الاستدارة[٢٩١]. ويضع الشاب حول ظهره وشاحا يخرج طرفاه من تحت الإبطين، وينثنيان إلى أسفل مع

٢٨٦– محمد سيف النصر أبو الفتوح، منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك، رسالة دكتوراه، كلية آداب سوهاج– جامعة أسيوط، ١٩٨٠، ص٢٢١.

٢٨٧– فريد شافعى، العمارة العربية، جـ١، ص١٠٧.

٢٨٨– L.A. Ibrahim, A Tulunid Hammam, p.37.

٢٨٩– L.A. Ibrahim, A Tulunid Hammam, p.40.

٢٩٠– أحمد تيمور، التصوير عند العرب، القاهرة ١٩٤٢، ص١٥٢ – ١٥٣، ٢١٦ – ٢١٧.

٢٩١– أخذ المسلمون عن المسيحيين هالة النور التى فقدت لديهم دلالة التقديس وأصبحت تعنى لفت النظر إلى أهمية الشخص الذى ترسم حول رأسه، انظر E. Kühnel, Isamische Kleinkunst, Berlin,1925,p.4.

التعلق فى الهواء، ويتدلى من رأسه خصلتان من الشعر إحداهما فى الخلف والأخرى فى الأمام، وهو منقوش فى وضعة أمامية، ولكن وجهه فى وضعة ثلاثية الأرباع، ويحف بالحنية شريط من حبات اللؤلؤ(٢٩٢).

ومن الصور التى عثر عليها فى أنقاض هذا الحمام جزء من رسم يمثل رأس شاب يلتفت إلى اليسار، وصورة سيدة تتدلى عصابة رأسها جهة اليمين، ورسم يمثل طائرتين متقابلين يفصلهما رسوم نباتية ويحف بالحنية أيضا شريط من حبات اللؤلؤ(٢٩٣).

ومع أن أغلب علماء الآثار والفنون الإسلامية قد أجمعوا على نسبة هذه الصور الجصية الملونة إلى القرنين الرابع والخامس للهجرة / الحادى عشر والثانى عشر للميلاد(٢٩٤)، ومن ثم فقد تمت نسبة هذا الحمام وتسجيله ضمن آثار العصر الفاطمى(٢٩٥)، إلا أن إحدى الباحثات ناقضت الجميع وأرجعته إلى العصر الطولونى تحت زعم أن هذه الرسوم لم يعثر عليها على الجدران القائمة، بل وجدت بين الأنقاض، كما أن الحنيتين لايصلح أى منهما، بناء على الحسابات الهندسية، لأن تكون منطقة انتقال لأى قاعة من قاعات الحمام(٢٩٦). وقد سار على دربها أحد الباحثين الجدد بحجة أنه عثر على بعد خطوات من هذا الحمام على بقايا منزل من العصر الطولونى لايختلف من حيث طريقة البناء ونوعية وحجم الطوب والملاط عن المواد المستخدمة فى بناء هذا الحمام(٢٩٧)، وهى أدلة واهية ليست جديرة بالمناقشة لأنه فاتهما طرح سؤال هام هو من أين جاءت تلك الرسوم الجصية الملونة التى عثر عليها فى أنقاض الحمام والتى أجمع جمهرة العلماء المتخصصين على نسبتها إلى العصر الفاطمى؟

٢٩٢- زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين، لوحة رقم ٥ أ ؛ حسن الباشا، التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩، ص٧٨؛ فن التصوير فى مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٦٦، ص٦٤.

٢٩٣- زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين، لوحة ٣، ٤.

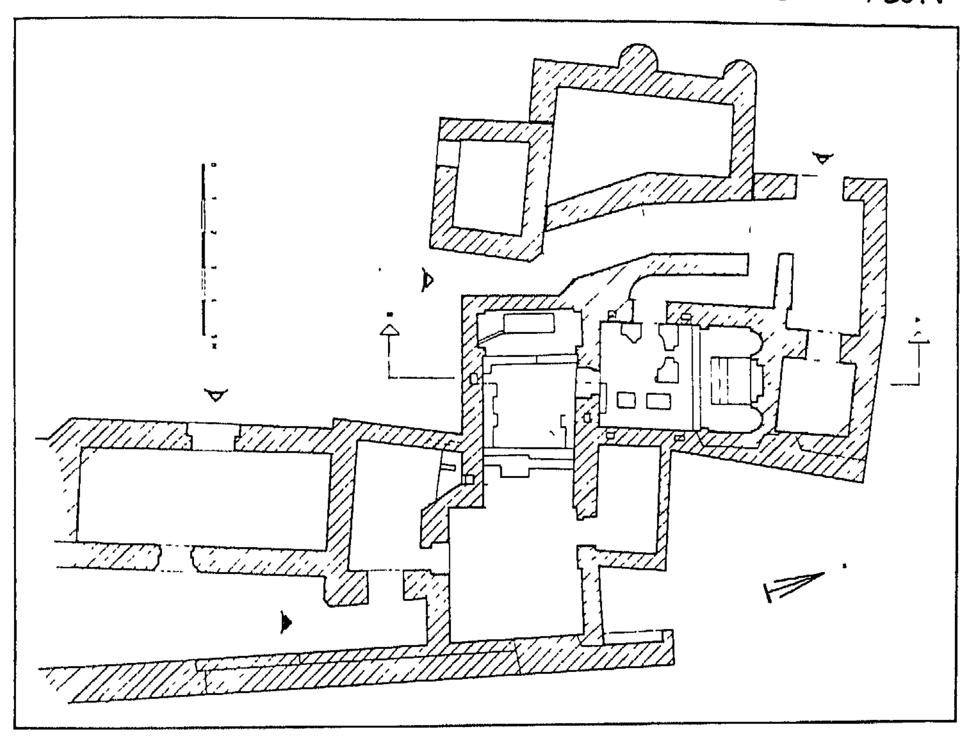
٢٩٤-انظر على سبيل المثال G.Wiet, Exposition d' art persan, Le Caire,1935, pp.75,76 حسن الباشا، التصوير الإسلامى، ص٧٨؛ فن التصوير، ص٦٤؛ وسعاد ماهر محمد، كتاب الفنون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٦، ص٢٢٥، أبو الحمد محمود فرغلى، التصوير الإسلامى نشأته وموقف الإسلام منه وأصوله ومدارسه، القاهرة ١٩٩١، ص١١٥.

٢٩٥- تم تسجيل هذا الحمام يوم الاثنين ٢٧ يناير سنة ١٩٥٨. انظر محاضر اللجنة الدائمة للآثار الإسلامية،ص٦٢. ٦٦.

٢٩٦- L.A. Ibrahim, A Tulunid Hammam, p.43.

٢٩٧- راجع الفصل السابع من هذا الكتاب، ص ١٣١ - ١٣٧.

خلاصة القول أنه رغم أهمية هذا الحمام الذى يعد مثالا فريدا لأقدم الحمامات الفاطمية التى أطنب المقريزى فى ذكرها والحديث عنها[٢٩٩] والتى اندرس أغلبها[٣٠٠]، إلا أنه فى طريقه أيضا إلى الزوال بسبب ما يتعرض له من اعتداء مستمر من قبل أصحاب المدابغ الذين اتخذوا منه مركزا لإلقاء نفاياتهم دون أن تتصدى لهم هيئة الآثار ناسية أو متناسية أن هذا المثال الباقى يعتبر أحد النماذج الذى سارت على نمطه الحمامات المصرية فى العصور التالية، فقد ذكر المقريزى أن الحمامات فى أيامه أى فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر للميلاد كانت تنشأ على غرار الحمامات الفاطمية القديمة[٣٠١].



شكل (٢١) الحمام الفاطمى، مسقط أفقى عن ليلى على إبراهيم

٢٩٨- محمد سيف النصر أبو الفتوح، منشآت الرعاية الاجتماعية، ص٢٢٣.

٢٩٩- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٧٨ – ٨١.

٣٠٠- لم يبق من هذه الحمامات سوى حمام الفاضل الذى عرف فيما بعد بحمام السكرية وهو يقع فى مقابل جامع المؤيد شيخ بالقرب من باب زويلة. وقد طرأ عليه العديد من الإضافات فى عصر المماليك الجراكسة. انظر على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٤، ص٦٩؛ محمد سيف النصر، منشآت الرعاية الاجتماعية، ص٢٤٢.

٣٠١- المقريزى، الخطط، جـ٢، ص٨٣.

ثبت المصادر والمراجع

أولا: المصادر والمراجع العربية

ثانيا: المراجع الأجنبية

أولا: المصادر والمراجع العربية:

- إبراهيم أحمد العدوى، الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم، القاهرة ١٩٥٨.
- إبراهيم أحمد العدوى، مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام، القاهرة ١٩٩٢.
- إبراهيم على طرخان، النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨.
- إبراهيم نصحى، مصر فى عصر الرومان، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثانى، القاهرة (بدون تاريخ).
- ابن أبى اصيبعة، كتاب عيون الانباء فى طبقات الأطباء، القاهرة ١٨٨٢ ، ١٨٨٣.
- ابن الاثير، الكامل فى التاريخ، ليدن ١٨٦٦ - ١٨٧٤؛ بولاق ١٢٩٠هـ.
- ابن الاخوة، معالم القربة فى أحكام الحسبة، نشررو بن ليفى، كمبردج ١٩٣٧.
- ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، طبعة بولاق ١٨٩٣ - ١٨٩٥، وطبعة بول كالة ومحمد مصطفى، القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦٣.
- ابن إياس، نشق الازهار فى عجائب الامصار، باريس ١٨٠٧.
- ابن أيبك، درر التيجان وغرر تواريخ الزمان، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٠٥ تاريخ.
- ابن أيبك الدوادار، كنز الدرر وجامع الغرر، الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح المنجد، القاهرة ١٩٦١.
- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٣٠ - ١٩٧٢.
- ابن الجوزى، مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان، شيكاغو ١٩٠٧.
- ابن حماد أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، تحقيق Vonderheyden، الجزائر، باريس ١٩٢٧.
- ابن حجر، الاصابة فى أخبار الصحابة، القاهرة ١٣٢٨هـ.
- ابن حزم، الفصل فى الملل والأهواء والنحل، القاهرة ١٩١٠.
- ابن الحسين، كتاب البيزرة، تحقيق محمد كرد على، دمشق ١٩٥٢.
- ابن الخطيب، أعمال الاعلام، تحقيق العبادى والكتانى، الدار البيضاء ١٩٦٤.
- ابن خلدون، المقدمة، بيروت (بدون تاريخ).

- ابن خلكان، وفيات الاعيان، بولاق ١٢٩٩هـ.
- ابن الداية، المكافأة، القاهرة ١٩١٤، بولاق ١٩٤١.
- ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القاهرة ١٩٨٣.
- ابن الراهب، تاريخ ابن الراهب، نشر لويس شيخو، بيروت ١٩٠٣.
- ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ليدن ١٨٩١.
- ابن زولاق، أخبار سيبويه المصرى، نشره محمد إبراهيم سعد وحسين الدين، القاهرة ١٩٣٣.
- ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت ١٩٥٧.
- ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، نشر زكى محمد حسن وآخرين، القاهرة ١٩٥٣.
- ابن شداد، الاعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق دومنيك سورديل، دمشق ١٩٥٣.
- ابن الصيرفى، الاشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة ١٩٢٤؛ تحقيق ايمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٩٠.
- ابن طباطبا، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت ١٩٦٠.
- ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا، وكامل المهندس، القاهرة ١٩٦٩.
- ابن عبد الحكم، كتاب فتوح مصر وأخبارها، عنى بنشره وتصحيحه هنرى ماسيه، القاهرة ١٩١٤؛ وطبعة تورى، نيوهافن ١٩٢٢؛ ليدن ١٩٢٠.
- ابن العديم، زبدة الحلب فى تاريخ حلب، نشر كانار، الجزائر ١٩٣٤.
- ابن عذارى، البيان المغرب فى أخبار المغرب، تحقيق ليڤى بروفنسال وكولان، ليدن ١٩٤٨ - ١٩٥١، وطبعة بيروت ١٩٥٠.
- ابن العميد، تاريخ المسلمين، ليدن ١٨٢٥.
- ابن قتيبة، الامامة والسياسة، القاهرة ١٩٣٧.
- ابن القطان، جزء من كتاب نظم الجمان فى أخبار الزمان، تحقيق محمود مكى، الرباط، ١٩٦٤.
- ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨.

- ابن كثير، البداية والنهاية فى التاريخ، القاهرة ١٩٣٩.
- ابن مماتى، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣.
- ابن ميسر، تاريخ مصر، تحقيق هنرى ماسيه، القاهرة ١٩١٩؛ تحقيق ايمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨١.
- ابن النديم الفهرست، تحقيق فلوجل، ليبزج ١٨٧١ - ١٨٧٢.
- ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٨.
- أبو الحمد محمود فرغلى، التصوير الإسلامى نشأته وموقف الإسلام منه ومدارسه، القاهرة ١٩٩١.
- أبو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، نشر عبد الله بن السعود، القاهرة ١٢٨٧ -١٢٨٨هـ.
- أبو يوسف، كتاب الخراج، بولاق ١٣٠٢هـ.
- أحمد تيمور، التصوير عند العرب، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات زكى محمد حسن، القاهرة ١٩٤٢.
- أحمد عبد الرازق أحمد، بيوت الفسطاط الاثرية، المتحف العربى، السنة الرابعة، العدد الأول، يوليو - سبتمبر ١٩٨٨.
- أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٩٠.
- أحمد عبد الرازق أحمد، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى، العلوم العقلية، القاهرة ١٩٩١.
- أحمد عبد الرازق، دراسات تاريخية، القاهرة ١٩٨٤.
- أحمد عبد الرازق أحمد، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٨٢.
- أحمد عبد الرازق، عمارة الازهر الشريف وما حوله من الآثار، كتاب الأزهر الشريف فى عيده الألفى، القاهرة ١٩٨٣.
- أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات فى الإسلام، دمشق ١٩٣٩.
- أحمد فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، القاهرة ١٩٦١.
- أحمد فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة ١٩٦٥.

- ادم متز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة ١٩٤٠.
- أسامة طلعت عبد النعيم خليل، أسوار صلاح الدين وأثرها فى إمتداد القاهرة حتى عصر المماليك، رسالة ماجستير، كلية الاثار- جامعة القاهرة ١٩٩٢.
- اسحق عبيد، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، مع دراسة فى مدينة الله، القاهرة ١٩٧٢.
- اسد رستم، الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، بيروت ١٩٥٥.
- الاصطخرى، مسالك الممالك، ليدن ١٩٢٧.
- الاصفهانى، كتاب الاغانى، طبعة بولاق.
- الاصفهانى، مقاتل الطالبين، النجف ١٣٥٣هـ.
- الفرد بتلر، فتح العرب لمصر، تعريب محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٤٦.
- آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، القاهرة ١٩٥٨.
- أمين سامى، تقويم النيل، القاهرة ١٩١٦.
- الأنبا ميخائيل، ذيل سير الآباء البطاركة، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٤٣٤ح.
- أنور الرفاعى، النظم الإسلامية، دمشق ١٩٧٣.
- أومان، الامبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى بدر، القاهرة ١٩٥٣.
- هـ. ايدرس بل، مصر من الأسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، ترجمة عبد اللطيف أحمد على، محمد عواد حسين، القاهرة ١٩٤٥.
- الباز العرينى، الحسبة والمحتسب، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد الثالث، العدد الثانى ١٩٥٠.
- الباز العرينى، الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٦٠.
- البكرى، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، الجزائر ١٩٩١.
- البلاذرى، كتاب فتوح البلدان، ليدن ١٨٦٦.
- البلوى، سيرة أحمد بن طولون، حققها وعلق عليها محمد كرد على، دمشق ١٣٥٨هـ.

- الجاحظ، البيان والتبين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٣٨١هـ.
- جاستون فيت، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادى، بيروت ١٩٦٨.
- الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والاخبار، بولاق ١٢٩٧هـ.
- جروهمان، أوراق البردى العربية، ترجمة حسن إبراهيم حسن، مراجعة عبد الحميد حسن، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٧٤.
- جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٦٧.
- جمال الدين الشيال، الفسطاط، مجلة كلية الآداب- جامعة الاسكندرية، المجلد الثانى عشر، ١٩٥٨.
-جمال الدين الشيال، مصر فى العصر لفاطمى، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثانى (بدون تاريخ).
- الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق السقا والابيارى، القاهرة ١٩٣٨.
- جيلان محمد عباس، آثار مصر الإسلامية فى كتابات الرحالة العرب والأجانب، رسالة ماجستير، كلية السياحة والفنادق- جامعة حلوان، ١٩٨٨.
- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسى، القاهرة ١٩٤٦.
- حسن إبراهيم، الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، القاهرة ١٩٣٢.
- حسن أحمد محمود، حضارة مصر الإسلامية فى العصر الطولونى، القاهرة. (بدون تاريخ).
- حسن الباشا، الالقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والاثار، القاهرة ١٩٥٧.
- حسن الباشا، التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩.
- حسن الباشا، دراسات فى الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٧٥.
- حسن الباشا، فن التصوير فى مصر الإسلامى، القاهرة ١٩٦٦.
- حسن الباشا، الفنون والوظائف على الآثار العربية، القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٦٧.
- حسن الباشا، القاهرة تاريخها، فنونها، اثارها، القاهرة ١٩٧٠.
- حسن حبشى، نور الدين والصليبيون، القاهرة ١٩٤٨.

- حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الاثرية التى صلى فيها فريضة الجمعة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول، القاهرة ١٩٤٦.
- حسنى نويصر، مجموعة سبل السلطان قايتباى بالقاهرة، رسالة ماجستير، كلية الاداب - جامعة القاهرة، ١٩٧٠.
- حسنين محمد ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٨٣.
- حسين مصطفى حسين، المحاريب الرخامية فى قاهرة المماليك البحرية، رسالة ماجستير، كلية الآثار - جامعة القاهرة، ١٩٨١.
- حسين مؤنس، تاريخ مصر من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون، تاريخ الحضارة المصرية، المجلد الثانى، القاهرة (بدون تاريخ).
- حسين الهمدانى، بحث تاريخى فى رسائل اخوان الصفا وعقائد الاسماعيلية، بومباى ١٩٣٥.
- الدينورى، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١.
- رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، ثيود وسيوس وأمبروز، القاهرة ١٩٨٣.
- رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، قسطنطين، القاهرة ١٩٨٢.
- زكى محمد حسن، الفن الإسلامى فى مصر، القاهرة ١٩٣٥.
- زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين، القاهرة ١٩٣٧.
- ساويرس بن المقفع، سير الآباء البطاركة، باريس ١٩٠٧ ، ١٩١٠.
- السجلات المستنصرية، تقديم وتحقيق عبد المنعم ماجد، القاهرة ١٩٥٤.
- سعاد ماهر، كتاب الفنون الإسلامية، القاهرة ١٩٨٦.
- سعاد ماهر محمد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، القاهرة ١٩٧١.
- سعيد بن بطريق المعروف باوتيخا، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق تحقيق لويس شيخو، بيروت ١٩٠٥ ، ١٩٠٩.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٢.
- سهيلة الجبورى، أصل الخط العربى وتطوره حتى نهاية العصر الأموى، بغداد ١٩٧٧.
- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الاسكندرية ١٩٨٢.
- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، الاسكندرية (بدون تاريخ).

- السيد عبد العزيز سالم، دراسات فى تاريخ العرب، تاريخ الدولة العربية، الاسكندرية (بدون تاريخ).
- سيدة إسماعيل كاشف، أحمد بن طولون، القاهرة ١٩٦٥.
- سيده إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الاخشيديين، القاهرة ١٩٧٠.
- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الولاة من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية، القاهرة (بدون تاريخ).
- سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام، القاهرة ١٩٧٠.
- السيوطى، تاريخ الخلفاء، بيروت ١٩٦٩، القاهرة ١٩٠٣.
- السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، القاهرة ١٣٢٧هـ.
- شحاته عيسى، القاهرة تاريخها ونشأتها وامتدادها وتطورها، القاهرة (بدون تاريخ).
- صفوان التل، تطور الحروف العربية على آثار القرن الهجرى الأول، الاردن ١٩٨٠.
- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة ١٩٢٩.
- طة باقر، فاضل عبد الواحد، عامر سليمان، تاريخ العراق القديم، بغداد ١٩٨٠.
- طه ندا، الأعياد الفارسية فى العالم الإسلامى، مجلة كلية الاداب - جامعة الاسكندرية، المجلد السابع عشر، ١٩٦٣.
- عباس حلمى عمار، تطور المسكن المصرى الإسلامى من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى، رسالة دكتوراه، كلية الأداب - جامعة القاهرة ١٩٦٨.
- عبد الرحمن زكى، أسوار القاهرة وأبوابها من جوهر القائد إلى الناصر صلاح الدين، مجلة المجلة، العدد (٥١)، ١٩٦١.
- عبد الرحمن زكى، القاهرة، تاريخها وأثارها، القاهرة ١٩٦٦.
- عبد الرحمن زكى، الفسطاط وضاحيتاها العسكر والقطائع، القاشرة ١٩٦٦.
- عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، القاهرة ١٩٦٩.
- عبد الرحمن فهمى، صنج السكة فى فجر الإسلام، القاهرة ١٩٥٧.
- عبد العزيز الدورى، النظم الإسلامية، بغداد ١٩٥٠.
- عبد المنعم سلطان، المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٨٥.
- عبد المنعم ماجد، الامام المستنصر بالله الفاطمى، القاهرة ١٩٦٠.

- عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، القاهرة ١٩٧٥.
- عبد المنعم ماجد، الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، القاهرة ١٩٥٩.
- عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، التاريخ السياسى، الاسكندرية ١٩٦٨.
- عبد المنعم ماجد، العصر العباسى الأول، القاهرة ١٩٧٣.
- عبد المنعم ماجد، الناصر صلاح الدين يوسف الايوبى، بيروت ١٩٦٧.
- عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين فى مصر، القاهرة ١٩٧٣.
- على بهجت والبيرجبرييل، كتاب حفريات الفسطاط، نقله إلى العربية على بهجت ومحمود عكوش، القاهرة ١٩٢٧.
- على مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، بولاق ١٨٨٧ - ١٨٨٨م.
- عمر طوسون، مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن، الاسكندرية ١٩٣١.
- العمرى، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، القاهرة ١٩٢٤.
- العينى، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٧٨ تاريخ.
- فتحى أبو سيف، المشرق الإسلامى بين التبعية والاستقلال، الطاهريون، القاهرة ١٩٧٨.
- فريد شافعى، العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، الرياض ١٩٨٢.
- فريد شافعى، العمارة العربية فى مصر الإسلامية، عصر الولاة، القاهرة ١٩٧٠.
- فريد شافعى، مئذنة مسجد ابن طولون، رأى فى تكوينها المعمارى، مجلة كلية الاداب - جامعة فؤاد الأول، المجلد الرابع عشر، جـ١، مايو ١٩٥١.
- فؤاد فرج، المدن المصرية وتطورها مع العصور، القاهرة ١٩٤٣ - ١٩٤٦.
- قاسم عبده قاسم، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى، القاهرة ١٩٧٧.
- قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٨.
- القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الانشا، القاهرة ١٩١٤ - ١٩٢٨.
- كامل حسين، طائفة الاسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، القاهرة ١٩٥٩.
- الكرمانى، الرسالة الواعظة، تحقيق كامل حسين، مجلة كلية الاداب- جامعة القاهرة، المجلد الرابع عشر، الجزء الأول، مايو ١٩٥٢.

- كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمد مسعد، القاهرة (بدون تاريخ).
- كمال سامح، العمارة الإسلامية فى مصر، القاهرة ١٩٧٠.
- الكندى، كتاب الولاة والقضاة، بيروت ١٩٠٨.
- لينبول، سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن، على إبراهيم حسن، ادوارد حليم، القاهرة ١٩٥٠.
- الماوردى، الأحكام السلطانية، القاهرة ١٢٩٨هـ.
- مايسة محمود داود، المسكوكات الفاطمية فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة، القاهرة ١٩٩١.
- المتنبى، ديوان المتنبى، بيروت ١٩٠٠.
- مجهول، العيون والحدائق فى أخبار الحقائق، بريل ١٨٦٩.
- محاضرة اللجنة الدائمة للآثار الإسلامية والقبطية، ١٩٥٤ - ١٩٦١، الكراسة الحادية والاربعون، القاهرة ١٩٦٣.
- محب الدين الخطيب، الازهر، القاهرة ١٣٤٥هـ.
- محمد جمال الدين سرور، الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية، القاهرة ١٩٦٦.
- محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية فى مصر، القاهرة ١٩٧٩.
- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٧٠.
- محمد حمدى المناوى، نهر النيل فى المكتبة العربية، القاهرة ١٩٦٦.
- محمد حمدى المناوى، الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٧٠.
- محمد سيف النصر أبو الفتوح، منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك، رسالة دكتوراه، كلية آداب- سوهاج - جامعة أسيوط، ١٩٨٠.
- محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر، القاهرة ١٩٨٠.
- محمد مصطفى، متحف الفن الإسلامى، دليل موجز، القاهرة ١٩٥٨.
- محمود رزق محمود، المجتمع المصرى فى العصر الطولونى، رسالة دكتوراة، كلية الآداب - جامعة عين شمس، ١٩٨٥.
- محمود عكوش، تاريخ ووصف الجامع الطولونى، القاهرة ١٩٢٧.

- المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٨.
- مصطفى محمد مسعد، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠.
- مفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق بلوشيه، Patrologia orientalis, Paris,1919.
- المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم، ليدن ١٩٠٦.
- المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٨.
- المقريزى، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، القاهرة ١٣٥٦هـ.
- المقريزى، السلوك فى معرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٧٢.
- المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ.
- المقريزى، النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم، القاهرة ١٩٣٧.
- المؤيد فى الدين، سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة، ترجمة حياته بقلمه، تقديم وتحقيق كامل حسين، القاهرة ١٩٤٩.
- ناصر خسرو، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٥.
- نظير سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، القاهرة ١٩٥٧.
- النعمان، دعائم الإسلام، تحقيق آصف بن على فيظى، القاهرة ١٩٥١ - ١٩٦٠.
- النعمان، شرح الأخبار، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٠٦٢ح.
- النوبختى، فرق الشيعة، صححه وعلق عليه محمد صادق ، النجف ١٩٣٦.
- وهيب عطا الله جرجس، تعليم كنيسة الأسكندرية فيما يختص بطبيعة السيد المسيح، القاهرة ١٩٦١.
- ياقوت، معجم البلدان، القاهرة ١٩٠٦.
- اليعقوبى، كتاب البلدان، ليدن ١٨٩١.
- يوسف العش، الدولة الاموية، دمشق ١٩٨٥.

ثانيا : المراجع الأجنبية:

- A. Abd ar - Rāziq, Deux jeux sportifs en Egypte au temps des mamlūks, Annales Islamologiques, XII,1974.
- A.Abd ar- Rāziq, La hisba et le muhtasib en Egypte au temps des mamlūks, Annales Islamologiques, XIII,1977.
- A. Abd ar- Rāziq, Trois fondations féminines dans l'Egypte mamlouke, REI, XLI/1 Paris,1973.
- D.B. Abouseif, Islamic Architecture in Cairo, An Introduction, Cairo,1989.
- M. Ahmad, Guide des principaux monuments arabes du Caire, Le Caire,1939.
- M. Ahmad La mosquée de ʿAmr Ibn al- 'As, Le Caire,1939.
- E. Ashtor, Histoire des prix et des saleires dans l'orient médiéval, Paris,1969.
- C.H. Becker, Briträge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam, Strasbourg,1902-1903.
- C.H. Becker, Islamstudien, Leipzig,1924.
- G. Bell, Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford,1914.
- D. Brandenburg, Islamische Baukunst in Agypten, Berlin,1966.
- M. S. Briggs, Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine, Oxford,1924.
- L. Caetani, Annali dell 'Islam, Milano,1911,1912.
- H. De Castries, L' Islam, Paris,1896
- C.N. Cochrance, Christianity and Classical Culture, Oxford,1940.
- Comité de conservation des monuments de l'art arabe, t.I-XLI, Le Caire1892-1961.
- Corbett, The Life and Works of Ahmad Ibn Tulun, JRAS,1891.
- Chronique de Jean évêque de Nikiou, Paris,1883.

- K.A.C. Creswell, A Short Account of Early Muslim Architecture, Revised and Supplemented by James W. Allan, Cairo,1977.
- K.A.C. Creswell, Brief Chronology of the Muhammadan Monuments of Egypt to A.D.1517, BIFAO, XVI, le Caire,1919.
- K.A.C. Creswell, Early Muslim Architectuse, Oxford,1932-1940.
- K.A.C. Creswell, Muslim Architecture in Egypt, I, Oxford,1952.
- R.L. Devonshire, L'Egypte musulmane et les fondateurs de ses monuments, Le Caire,1982.
- Encyclopédie de l' Islam,1re et 2e éd.
- A. Fattal, La mosquée d'Ibn Toulun, Beyrouth,1960.
- S. Flury, Samarra und die Ornamenik der Moschee des Ibn Tulun, Der Islam IV,1913.
- J.C. Garcin, Un centre musulman de la haute- Egypte médiévale, Qūs, Le Caire,1976.
- K.O. Ghaleb Le miqyās ou nilomètre de l'ile de Rodah, Le Caire,1951.
- H.Glück Und Diez, Die Kunst des Islam, Berlin,1929.
- A. Grohmann, Arabic Papyri in Egyptian Library, Cairo,1934,1937.
- Z.M. Hassan, Les Tulunides, Paris,1933.
- L.Hautecoeur et G. Wiet, Les mosquées du Caire, Le Caire,1932.
- H. al Hawary, Une maison de l'époque toulounide, BIE,XV,1933.
- M Herz, Index général des Bulletins du Comité des années1882 à 1910, Le Caire,1914.
- L.A. Ibrahim, Adil Yasin, A Tulunid Hammam in Old Cairo, Kunst der Orients,1979.
- Ibn Said, La biographie d'Ibn Tulun d'après Ibn al - Dāya, éditée Par Vollers, Weimar,1895.
- E. Kühnel, Die Islamische Kunst, Springer Handbuch der Kunstgeschichte, IV, Leipzig,1929.

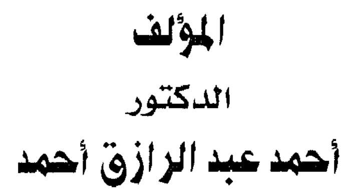
- E. Kühnel, Islamische Kleinkunst, Berlin,1925.
- C.J. Lamm, Fatimid Woodwork, BIE, XVIII,1936.
- Lane- Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925,1936.
- J. Mann, The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs, Oxford,1920.
- Massignon, Fatima bint al- Husayn et l'origine du nom dynastique Fatimides. Akten des XXIV, Intern. Orientalisten Kongresses, Munich,1957.
- H. Munier, L'Egypte byzantine, le Caire,1932.
- E.Pauty, Les bois sculptés jusqu' à l,ĕpoque ayyoubide, Le Caire, 1931.
- E. Pauty, Le minbar de Qous, Mélange Maspero. III.
- E.Pauty, Un dispositif du plafond fatimite, BIE, XV,1933.
- W. Popper, The Cairo Nilometer, Studies in Ibn Taghribirdi 's Chronicles of Egypt, Part I, Berkeley,1951.
- Quatremère, Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte, Paris,1811.
- Quatremère, Recherches citiques et historiques sur la langue et la littérature de l' Egypte, Paris,1808.
- Y. Rāgib, Un Oratoire fatimide au sommet du Muqattam, Studia Islamica, LXV,1987.
- Recueil des historiens des croisades, Hist. Occ., Paris,1844.
- Répertoire Chronolgoque d'épigraphie arabe, Le Caire, 1931-1982.
- E.T. Richmond, Moslem Architecture, London,1926.
- S.De Sacy, Recherches sur l'initiation a la secte ismaelienne, JA,1824.
- Sarre und Herzfeld, Archaologische Reise in Euphart und Tigris, Berlin,1911.

- J. Sauvaget, Le poste aux chevaux dans l' empire des Mamlouks, Paris,1951.
- Schlumberger, Campagnes du roi Amaury Ier, de Jérusalem en Egypte au XIIe siècle, Paris,1906.
- F. Shafii, An Early Fatimid Mihrab in The Mosque of Ibn Tulun, Bulletin of Faculty of Arts Univ. Of Cairo,XV/1,1953.
- F. Shafii, The Mashhad al- Juyushi, Archeological Notes and Studies, Studies in Islamic Art and Architecture in Honor of professor K.A.C. Creswell. Cairo,1965.
- S.J. Shaw, The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798, Princeton,1962.
- Tayan, Histoire de l'organisation judiciaire en pays de l' Islam, Paris,1943.
- M. Van Berchem, Materiaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum, MIFAO,19, Le Caire,1894-1903.
- M. Van Berchem, Notes d'archéologie arabe, JA, XVII, XIX,1891.
- A.A Vasiliev, History of Byzantine Empire, Madison,1961.
- J.D. Weil, Les bois à ēpigraphes jusqu' à l'époque mamlouke, Le Caire,1931.
- G. Wiet, Corpus inscriptionum arabicarum, Egypte, Le Caire,1930.
- G. Wiet, Exposition d'art persan, Le Caire,1935.
- G. Wiet, L' Egypte arabe, dans Histoire de la nation égyptienne, IV,Le Caire,1938.
- G.Wiet, L' Egypte musulmane, dans Prècis de l'histoire d'Egypte, Le Caire,1932.
- F. Wüstenfeld, Die Statthalter von Agypten zu Zeit der Chalifen,- Gottingen,1875.
- Zananiri, L'Egypte et l'équililbre du Levant au Moyen Age, Marseille,1933.



اللوحات





- ليسانس آداب من قسم الآثار الإسلامية ـ جامعة القاهرة ١٩٦٣ .
- ماجستير فى الآثار الإسلامية ـ جامعة القاهرة ١٩٦٨ .
- دكتوراه المرحلة الثالثة فى الآثار الإسلامية ـ جامعة باريس (السربون) ١٩٧٠ .
- دكتوراه الدولة فى الآداب ـ جامعة باريس (السربون) ١٩٧٢ .
- يعمل أستاذا ورئيس قسم الإرشاد السياحى ووكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس.
- عمل أستاذا للحضارة الإسلامية بكل من جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة، وجامعة الكويت، وجامعة الإمارات العربية المتحدة.
- عمل أستاذا زائرا بجامعة هولواى بإنجلترا.
- عمل خبيرا للآثار الإسلامية بدار الآثار الإسلامية ـ متحف الكويت الوطنى.
- حاصل على جائزة الدولة التشجيعية فى التاريخ عام ١٩٨١ عن كتاب «البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك».
- له أكثر من ستين بحثا ومؤلفا فى التاريخ المملوكى والآثار الإسلامية باللغتين العربية والفرنسية.